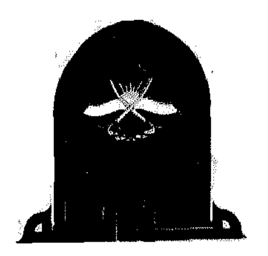


منشورات

جامعـــة مؤتـــة

عمـادة البحـث العلمـي والدراسـات العليـا

زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام

تاليف

صالح محمد الرواضية

جامعـــة مؤتـــة

١٤١٤هـ — ١٩٩٤م

زيـــاد بـــن أبيـــه ودوره
في الحيـــاة العامـــة
في صدر الإسلام

تأليــف
صالح محمد الرواضية

الطبعة الأولى
١٩٩٤

الاهـــداء

إلى والـــديّ . . ..

إلى أخوتـــي . . ..

إلى زوجتـــي . . ..

مع محبتي وتقديري

الفهـــرس

الموضـــــوع | الصفحة

شكـــر وتقديـــر

لا يسعني وقد أعانني الله عز وجل على إخراج هـذا البحث الى حيّز الوجود، الاّ أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنـان الى أستاذي الفاضل الدكتور محمد خـريسات، الذي كان لرعـايته وتوجيهـاته وارشاداتـه أكبر الأثر في كشف معـالم الطريق أمامي، إذْ تعهـد هذا البحث بالعناية والاشراف والمتابعة، فكان له الفضل في اظهار هذه الرسالة في ثوبها الحالي.
كما وأتقدم بخـالص شكري الى الأستاذ عبد العـزيز الدوري على الملاحظـات القيّمة التي قدمها لي.

المختصرات والرموز :

١ - لقد أشير للمصادر والمراجع في الهامش على النحو الآتي :

* عندما يرد المصدر أو المرجع لأول مرة أذكر المعلومات كاملة عن المؤلف وعن الكتاب ثم يحال بعد ذلك :

مثال : الطبري، محمد جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط٢، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م، جـ٣، ص ٤٨٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الطبري، تاريخ.

٢ - استعملت الرموز والمصطلحات التالية :

ص : صفحة

جـ : جزء

م : مجلد

ق : قسم

ع : عدد

ط : طبعة

ت : توفي

خط : مخطوط

(د.ت) : دون تاريخ (أي أن تاريخ النشر غير مذكور).

مقدمـــة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونسأله التوفيق والسداد في صغير الأمور وكبيرها وبعد :

مما لا شك فيه أن دراسة الشخصيات على قدر كبير من الأهمية، فالأحداث في أي عصر غالباً ما يصنعها رجال قلائل، يكونون أقرب من غيرهم الى الحدث ودوافعه وخفاياه، لأنهم يعيشون معه منذ أن كان جنينا في بطن التاريخ، وبذلك تمتزج أسراره وخفاياه بسيرتهم وحياتهم.

وإذا استثنينا بناة الدولة الاسلامية الأولى الى نهاية العصر الراشدي، فاننا نجد زياد بن أبيه واحدا من الأعلام البارزة في التاريخ الاسلامي. لقد عاصر زياد عهدين مختلفين مرت بهما الأمة الاسلامية، وهما الانتقال من عهد الراشدين الى عهد الأمويين، وقد كان تفاعله مع أحداث كلا العهدين في أقصى درجاته، فكانت شخصيته ترجمة للواقع بكل ملامحه وأبعاده، فمن خلال دراستها نلمس صعوبة المرحلة التي مرت بها الأمة الاسلامية، وهي مرحلة حافلة بالمشاكل العسيرة والأحداث الجسيمة والتطورات البعيدة المدى، وحافلة كذلك بعظماء الرجال الذين أسهموا بالنصيب الأوفر في بناء صرح دولة الاسلام، فقد عاصر زياد عدداً من الشخصيات الاسلامية المتميزة بفكرها وشجاعتها ومكانتها الاجتماعية، فشق طريقه بين هذه الشخصيات الضخمة، وشف على كثير منهم في ميادين السياسة والادارة، وهذا وحده يعطينا فكرة عن وفور عقله وملكاته.

يضاف الى ذلك أن أهمية الرجل وتأثيره المباشر في أحداث عصره المختلفة جعلا معظم مصادر التراث العربي التاريخية والأدبية والدينية بل والجغرافية، تتناول الرجل وتتحدث عنه، حتى لا يكاد يخلو مصدر منها من إشارة إليه أو خبر عنه، ولعل ذلك هو الذي يجعل محاولة الكتابة عن زياد أمرا عسيراً وسبيلاً محفوفا بالمزالق لأعتبارات عديدة أهمها :

أولا : إن الباحث مهما قرأ عن زياد وعصره، فإنه يشعر بأن هناك الكثير من المصادر العربية المتوفرة التي لم يطالعها بعد.

ثانياً : ان المصادر المتوفرة أوردت كل غث وسمين ومغرض من أخبار زياد بشكل غدت معه هذه الشخصية وكأنها رمز للقسوة والشر.

ثالثاً : صعوبة الأحاطة بالظروف والأوضاع والعوامل المختلفة، والتيارات التي كانت تسيّر الأحداث في مطلع العصر الأموي، وأهمية ذلك كله في دراسة زياد.

وهذا الوضع الخاص لزياد يجعل غربلة الأخبار والروايات من الأمور التي تحتاج الى صبر طويل ونظرة متأنية، حتى تأتي صورة زياد أقرب ما تكون الى الحقيقة والواقع.

وأود أن أشير الى أنني قد حرصت في تحليل سياسة زياد ومواقفه المختلفة على الالتزام بالموضوعية قدر جهدي وطاقتي، اعتقاداً مني أن دور الباحث ليس الدفاع عنه أو اتهامه بمقدار ما هو ابراز للحقيقة كما هي وتعريف الناس بها. على أن زياداً كرجل سياسة وادارة وحرب تولى الحكم لدولة كان معظم الناس في ذلك الوقت ينكرون شرعيتها، فكان لابد أن يتعرض للكثير من النقد خاصة وقد أخلص لتلك الدولة اخلاصاً يثير الدهشة والعجب، وضرب بذلك مثلا لرجل الدولة وخادمها

الذي لا ينظر الاّ لصالحها دون أن يحفل كثيراً برأي الناس فيه .

ومهما يكن من أمر، فزياد شخصية تاريخية تـدرس كما هي بخيرها وشرها ، وتعرض جوانب هذه الشخصية كما تصورها المصادر الموثوق بها دون تأثر بما يقوله المؤيدون أو الخصوم .

أما الدوافع التي حملتني على اختيار موضوع هذا البحث ، فهي الأدوار المهمة التي لعبها زياد في الحياة السيـاسية والاقتصادية والاجتماعيـة في الدولة الاسـلامية ، اضافة الى أن أحـداً من الباحثين لم ينتبه الى دراسة تلك الشخصيـة دراسة شاملة ، لهذا أقـدمت على اختيار هذا الموضوع ليكـون رسالة أتقدم بها لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي .

هذا وقد قسمت البحث الى خمسـة فصول رئيسة مع مقدمة وتحليل للمصـادر وخلاصة للبحث اضـافة الى ملحقين أحـدهما يتضمن خطبـة زيـاد البتراء في البصرة ، والآخـر يبين عماله وولاتـه على الأقاليم والمقاطعات التابعة لمصرى العراق .

الفصل الأول "زيـاد حيـاته ونشـأته في العصر الـراشـدي" . ويبحث في ولادتـه ونسبه ووفـاته وشخصيته ومساهمته في الفتوحات الاسلامية ، حيث خرج الى العراق بصحبة عتبة بن غزوان ، وتولى مهمـة الحساب وقسمـة الغنائم للمقـاتلة في منطقـة البصرة ، ثم عمل كاتباً في خدمـة ولاة البصرة الأولين أمثال المغيرة بن شعبة ، وأبي موسى الاشعري ، وعبـد الله بن عامر. وبعد وقعة الجمل اتصل به الخليفـة علي بن أبي طالـب ، وقرر الانتفاع بمـواهبه ، فـولاه ديوان الخراج وبيت المال ، ثـم جعله عاملا له على فارس وكرمان .

الفصل الثـاني "تحوّل زياد الى الصف الأمـوي" . وتناول أحـداث الخلاف بين معاويـة وزياد ، والمحاولات المتكررة التي قام بها معاوية لكسب زياد الى جانبه ، خاصة بعد أن استتب له الأمر بوفاة علي بن أبي طـالـب ، وانتهـاء ذلك بـالصلح بين الطـرفين ، وتناول هـذا الفصل أيضـاً قضيـة الحاق معاوية نسب زياد بأبيه أبي سفيان ، وموقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه القضية ثم تعيين زياد على البصرة سنـة (٤٥ هـ/ ٦٦٥م) ، واضافـة الكوفة الى عملـه بعد وفاة المغيرة بن شعبـة سنة (٥٠ هـ/ ٦٧٠م) .

الفصل الثـالث "أعمال زياد الاداريـة والاجتماعية" . وتناول اجـراءاته الأوليـة في كل من البصرة والكوفة ، وخطبته الأولى في البصرة ، والتي كانت بمثابة دستور عمل لادارته ، ومنهج مرحلي لحكومة منظمـة وطيدة الأركـان . وأوضح الفصل سيـاسته تجاه الـرعية وتنظيمـه للقبـائل العربيـة في مصرى العـراق ، وسيـاسته تجاه هـذه القبـائل ، واعتماده لأول مـرة سيـاسة التهجير، بهدف تـوسيع نطـاق الفتوحـات الاسلاميـة في الأقاليم الشرقية ، والحد من التكتـلات القبلية في البصرة والكـوفة وتخفيف حدة التوتر السياسي في هذين المصرين . وتناول هذا الفصل أيضاً سياسته تجاه عماله وكبار موظفيه ، والأساليب الجديـدة التي أدخلها الى المقـاتلة والشرطـة والحرس والدواوين ، والتي كـونت بمجملها خطوات تطورية على طريق التقدم الحضاري .

الفصل الرابع "التنظيمات الماليـة والاقتصادية والعمـرانية" . وتنـاول دور زيـاد في إعـادة تنظيم

العطاء والرزق وموارد بيت المال المختلفة كالخراج والغنائم، ثم سياسته تجاه الأراضي وطريقته في منح القطائع وحفر الأنهار، والتي كان لها التأثير العميق في حياة البصرة وتطويرها من الناحيتين العمرانية والاقتصادية . كما تنـاول هذا الفصل دور زياد في تنشيط الحركة التجارية وتتبع أعمالـه العمرانية من بناء المساجد ودور الامارة والقصور والأسواق والحمامات .

الفصل الخامس "سياسة زياد تجاه قـوى المعارضة في العراق" . ويتناول موقف زيـاد من نشاط وتحركات الخوارج والشيعة ، وقد اتسم هـذا الموقف بالشدة والحزم في معظم الأحيان ، يتبين ذلك من خلال عدد من الاجراءات التي اتخذها زياد ضد هـذه القوى المعارضة للحد من نشاطها وتحركاتها . وفي هذا الفصل تفصيـلات واسعة عن حركة حجـر بن عدي الكندي في الكوفـة ، والأسلوب الذي اتبعه زياد في حصرها وبالتالي القضاء عليها .

هذه هي الجوانب التي انصبت دراستي عليها . ولست أزعم أنني أحطت في هذه الرسالة بجميع المصادر والمراجع التي تتحـدث عن حياة زياد ودوره في التـاريخ ، ولا أدعي أنني تجاوزت كل مزالق الخطر في طريقة تصويره ، ولكني سعيت الى ذلك ما وسعني الجهد ، وحرصت ما استطعت على أن يأتي هـذا البحث محاولة جـادة في ذلك الاتجاه ، فـان وفقت أو ا قتربت من التـوفيق فذلك القصـد والهدف ، وان جانبني التوفيق فحسبي من صدق المحاولة حسن النية والأعمال بالنيات .

المؤلف

تحليل المصادر :

إستندت الدراسة الى مصادر ومراجع متعددة الأنواع والأساليب، كان أكثرها إفادة لموضوع البحث المؤلفات التاريخية (كتب التاريخ والأنساب والطبقات والتراجم)، ثم المؤلفات الأدبية والجغرافية، وكتب الفقه، وخاصة كتب الخراج، وقد ساهمت هذه المصادر في رسم صورة واضحة لشخصية زياد ودورها في صدر الاسلام. وتفاوتت هذه المصادر في معلوماتها، فكانت كل فئة منها تتناول بالتركيز جانباً أو أكثر من جوانب البحث في المعلومات، لذا فقد أفاد البحث من مختلف المصادر وان اختلف مقدار الافادة بين مصدر وآخر.

وفيما يلي عرض لأهم المصادر التي أفادت منها الدراسة :

يأتي في مقدمة المصادر التاريخية التي أفادت البحث، كتاب "**الطبقات الكبرى**" **لمحمد بن سعد** (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م). يزودنا هذا المصدر بمعلومات مهمة عن زياد، خاصة فيما يتعلق بحياته ونسبه، ويبدو ابن سعد معتدلا في كلامه عن زياد، حيث يذكر : زياد بن أبي سفيان بن حرب وأمه سميّة جارية للحارث بن كلدة، ويذكر أن بعضهم يسميه زياد بن سمية، وبعضهم يقول زياد الأمير، دون أي تحيّز أو طعن في شخص زياد(١). ويقدم ابن سعد معلومات هامة عن بعض الرجال الذين اشتركوا الى جانب زياد في ادارة العراق(٢)، ومن رواته في هذا الموضوع محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣م)، والفضل بن دكين (ت ٢١٩هـ/ ٨٣٤م). وأورد ابن سعد رواية مختصرة وغير مسندة عن حركة حجر بن عدي(٣)، ولكنه اهتم في جُلّ المعلومات التي أفادت البحث بالأسناد، مما ساعد في التثبت من دقة المعلومات وصحتها.

ويعتبر كتاب "التاريخ" لخليفة بن خياط العصفري البصري (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) من أقدم الحوليات في التاريخ الاسلامي، ومما يميز هذا الكتاب أن الروايات التي ترد فيه تمتاز بالإنتفاء والاختصار، وقد اهتم خليفة بالأسناد بشكل كبير، ولعل ذلك يعود الى كونه من رجال الحديث(٤)، ولكنه أورد بعض الروايات غير المسندة.

أورد خليفة عددا من الروايات المختصرة وغير المسندة عن نشأة زياد في العهد الراشدي(٥)، أفادت في معرفة دوره في هذه الفترة. واهتم خليفة بذكر ولاة الخلفاء والقضاة في الأمصار المختلفة مما

---

(١) ابن سعد، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ جـ، بيروت، دار صادر، (د. ت)، جـ٤، ص ٢٩١ (الواقدي وغيره)، جـ٧، ص ٩٩، ١٠٠. وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن سعد، الطبقات.

(٢) انظر المصدر نفسه، جـ٦، ص ٢٣، ٣٤، ٩٧، ١٣٨، جـ٧، ص ٢٨-٢٩، ٥٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٢١٨-٢٢٠.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨م)، تذكرة الحفاظ، ٥ جـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، جـ٢، ص ٤٣٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الذهبي، تذكرة.

(٥) خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٢ جـ، ط ١، مطبعة النجف الأشرف، ١٩٦٧م، جـ١، ص ١٢٨، ١٤٢، ١٥٦، ١٧٤، ١٨٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: خليفة بن خياط، تاريخ.

أفـاد في معرفـة أسماء وأخبار بعض الـرجال الـذين ساهموا في الادارة زمن زيـاد[1]، ورواته في هـذا الموضوع أبو اليقظان سحيم بن حفص (ت ١٩٠هـ/ ٨٠٥م)، والوليد بن هشام القحذمي، وهما من أبرز الرواة الذين اعتمـد عليهم خليفة عند تناوله للمعلومـات التي تتصل بالأدارة، كذكر أسماء من كان على الشرطة بالبصرة والكوفة، وكذلك من كان على الخراج أو الرسائل أو الجباية[2]. وانفرد خليفة بـرواية نقلها عن القحـذمي قال: "جهـد زياد في سلطانـه أن يخلص الصلح من العنوة فما قدر"[3].

وأفاد خليفة في معـرفة أخبار الخوارج أيام زيـاد، وخاصة فيما يتعلق بخروج قـريب وزحاف[4]، ورواته في هذا الموضوع وهب بن جرير بن حازم البصري (ت ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م)، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، وهما ممن أولى أخبار الخوارج عنايـة كبيرة، ذكر ابن النديم أن أبا عبيدة ألف كتابا عنهم، فاتهمه ثعلب بأنه يرى رأى الخوارج[5]، وقد نقل عنهما خليفة معظم رواياته عن حـركـات الخوارج في البصرة، وتتضمن معلـومـات هـامـة عن بعض خطط البصرة حيث دار القتال.

وأورد خليفـة بعض الأخبار التي أفـادت في معرفـة تـاريخ وقادة الفتـوحات التي كـانت تتصل بمهمات زياد[6]، وأشار الى مقـدرته الادارية والسيـاسية، حيث ذكـر أن عليا ولىّ سهل بن حنيف فارس، فأخرجه أهلها، فوجه اليهم زياداً فأرضوه وصالحوه وأدوا الخراج[7].

أما كتاب "المعارف" لأبن قتيبـة (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، فيعتبر من أقدم الموسوعـات العربية التي تناولت تـراجم الاعلام، وقد تطـرق فيه ابن قتيبة الى نسب زيـاد، فذكر روايـة عن أبي اليقظان تبين أن أم زياد هي أسماء بنت الأعور من بنـي عبد شمس بن سعد[8]، وأورد رواية تفيد أن أم زياد هي سمية من أهل "زنـدورد" كان كسرى قـد وهبها لأحد ملـوك اليمن فوهبهـا هذا الى الحارث بن كلدة الثقفي[9]، وابن قتيبة بعد ذلك يعد زيادا واحداً من أولاد أبي سفيان[10].

وأورد ابن قتيبة أخبار زياد في العهـد الراشدي مختصرة، فذكر تدرجـه في الكتابة لولاة البصرة ثم

---

(١) انظر المصدر السابق، جـ١، ص١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٦، ٢١٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص١٩٧.
(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص١٠٧.
(٤) المصدر نفسه، جـ١، ص٢٠٧-٢١٠.
(٥) ابن النـديم، محمد بن أبي يعقـوب (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، الفهـرست، تحقيق رضا - تجدد، مطبعـة دانشكاه، طهـران، ١٩٧١م، ص ٥٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن النديم، الفهرست.
(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٥، ١٩٧.
(٧) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٧٤.
(٨) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، المعـارف، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠م، ص ٣٤٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، المعارف.
(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

تولية علي بن أبي طالب له على فارس[١]، وأشار باختصار الى أحداث الخلاف بين زياد ومعاوية وانفرد بذكر الرسالة التي بعثها زياد الى معاوية[٢]. وأفاد ابن قتيبة في معرفة بعض الأعمال العمرانية التي قام بها زياد مثل بناء مسجد البصرة، وحفر الأنهار ومنها نهر معقل[٣]، والجدير ذكره أن ابن قتيبة لم يهتم كثيراً بالاسناد فيما أورده من معلومات عن زياد.

أما كتاب "أنساب الأشراف" لأحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فهو من المصادر الأساسية التي لا يستغني عنها الباحث في دراسة تاريخ الدولة الأموية، ويتضمن معلومات واسعة وهامة عن حياة زياد وأعماله في نواحي الحياة المختلفة، أفيد منها في جميع فصول الرسالة، وقد أفرد البلاذري للحديث عن زياد جزء كبير من القسم الرابع، الجزء الأول حيث بلغ عدد الصفحات المطبوعة (٩٦) صفحة. ومن المهم أن نذكر أن البلاذري ترجم لزياد ضمن أولاد أبي سفيان، مما يشعر أنه اعترف بنسب زياد الى أبي سفيان، ويقدم لنا البلاذري معلومات قيمة عن مولد زياد ونسبه وموته، معتمداً فيما أورده على رواة عراقيين أمثال: عوانة بن الحكم الكلبي الكوفي (ت ١٤٧هـ/ ٧٦٤م)، وعلي بن محمد المدائني البصري (ت ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م)، كما أورد أحياناً بعض الروايات غير المسندة، واستخدم أيضا صيغة الإسناد الجمعي (قالوا)[٤]، وهذا يعني أنه جمع روايات عدد من الرواة مع بعضها البعض.

وأفاد البلاذرى في معرفة نشأة زياد في العهد الراشدي، حيث ذكر مجيئه الى البصرة مع عتبة بن غزوان وتوليته قسمة الغنائم وهو حدث، ثم استخلاف أبو موسى له على البصرة، وملاحظة عمر ابن الخطاب ذلك، واستدعائه لزياد واختباره لبلاغته. ثم ذكر قلق معاوية عندما استتب له الأمر في الشام، وزياد لم يزل أميراً على فارس وكرمان، ويلاحظ أن البلاذرى أكثر من استخدام صيغة الاسناد الجمعي (قالوا)[٥]في هذا الموضوع، كما نقل عددا من رواياته عن عوانة والمدائني.

وأورد البلاذرى معلومات وافية عن مسألة استلحاق زياد كما قدّم من الروايات التي توضح موقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه المسألة، وأبدى عناية خاصة بأخذ المعلومات المتعلقة بسياسة زياد تجاه الرعية، معتمداً في ذلك على المدائني[٦]، الذي لا تخلو أخباره أحياناً من النبرة العلوية.

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٧، ٥٦٣.
(٤) البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، ق ٤، جـ١، تحقيق احسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨٧، ٢٠٨، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١.
(٥) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٨، ٤٩٠، ٤٩٠، جـ١ (محمد حميد الله)، ص ٤٩٢، جـ٢ (محمد باقر المحمود)، ص ٢٧١.
(٦) المصدر نفسه، (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٣، ٢١٧، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٧٥.

وتحدث البلاذري عن تعيين زياد على البصرة، وخطبته الأولى التي بيّن فيها مسؤولياته تجاه الرعية، وحقوق الرعية التي يضمنها لها، وواجباتها تجاه هذه الحقوق. ثم يقدم لنا البلاذري روايات كثيرة عن تنظيمات زياد الادارية والاجتماعية، وإصلاحاته المالية والاقتصادية والعمرانية، معتمدا في جُلّ ما أورده على رواة كوفيين أو بصريين عرفوا بسعة اطلاعهم في هذه المواضيع أمثال: عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي (ت ١٠٣هـ/ ٧٢١م)، وعوانة بن الحكم الكلبي الكوفي، وأبي مخنف لوط ابن يحيى الأزدي الكوفي (ت ١٥٧ هـ/ ٧٧٤م)، ووهب بن جرير بن حازم البصري (ت ٢٠٦هـ/ ٨٢١م)، والهيثم بن عدي الطائي الكوفي (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، وأبي عبيدة معمر بن مثنى (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، وأبي الحسن المدائني البصري، وعمر بن شبة النمري البصري (ت ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م).

وأورد البلاذرى أخبار الخوارج والشيعة في ولاية زياد، فعرض لحركة حجر بن عدي عرضا مفصلا ودقيقا، معتمداً في ذلك على عدد من ا لرواة أبرزهم: أبو مخنف، وعوانة، والهيثم بن عدي، ومحمد بن سيرين البصري (ت ١١٠هـ/ ٧٢٩م).

ويمتاز البلاذرى بالتدقيق بحيث يتضح جهده في جمع مادته، وقد تدّخل في اختيار الروايات فاستبعد مثلا رواية أبي اليقظان التي زعم فيها أن أم زياد هي أسماء بنت الأعور من بني تميم، فقال: " وذلك باطل "(١)، واعتمد رواية عوانة ووثقها(٢). ولم يقتصر البلاذرى على نقل الروايات فقط، بل تدخل في أحيان كثيرة في تدقيق وتصحيح أسماء الأشخاص أو الأمكنة المغلوطة عند الرواة(٣).

وانفرد البلاذرى بمعلومات كثيرة وهامة لم ترد في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال لا الحصر أن زيادا أسلم بالطائف وهو ابن خمس سنين(٤)، وفيما يتعلق بالعطاء ذكر أن زيادا كان يخرج أعطية المقاتلة في شعبان، ويخرج أعطية الذرية في ذي الحجة(٥).

وأورد لنا احصائية عن واردات البصرة والكوفة أيام زياد(٦)، أفادت في معرفة حجم النفقات ووجوه صرفها.

وللبلاذري كتاب آخر هو "**فتوح البلدان**"، وفيه معلومات مهمة عن نشأة زياد في العهد الراشدي، حيث يذكر مجيئه الى البصرة مع عتبة وتوليته قسمة الغنائم بعد فتح المسلمين لمدينة الفرات، ثم قيامه على كتابة البصرة أيام ولاية المغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن عامر،

---

(١) المصدر السابق (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣.
(٢) المصدر نفسه (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٨٩.
(٣) انظر مثلا البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٦ (ابن الكلبي).
(٤) المصدر نفسه، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣ (المدائني).
(٥) المصدر نفسه، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٩ (الحسن البصري).
(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٨-٢١٩ (المدائني).

ورواة البلاذري في هذا الموضوع عوانة وأبو مخنف والواقدي[1].

ويزودنا البلاذري بمعلومات قيمة عن ولاة زياد على الأقاليم والمقاطعات التابعة للعراق[2]، وأورد رواية بصيغة الاسناد الجماعي (قالوا) تفيد أن زياداً ولىّ الربيع بن زياد الحارثي سنة (٥١هـ/ ٦٧١م) خراسان وحوّل معه من أهل الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم[3]، ولكنه لم يعين نسبة ما جاء من كل مصر.

ويزودنا البلاذري أيضاً بعدة روايات عن سياسة زياد تجاه الأراضي، فيورد قائمة طويلة بالأنهار التي تم حفرها في ولاية زياد[4]، كما يورد قائمة بالقطائع التي منحها زياد[5]، وقد تعددت مصادر معلوماته في هذا الموضوع، فأخذ عن المدائني، والوليد بن هشام القحذمي، وعباس بن هشام الكلبي، كما استخدم في عدد من رواياته صيغة الاسناد الجماعي (قالوا)[6].

ويورد البلاذري معلومات مهمة عن اصلاحات زياد العمرانية في البصرة والكوفة عند عرضه للتطورات العمرانية التي لحقت بالمساجد ودور الامارة والأسواق والحمامات، ورواته في هذا الموضوع أبو عبيدة والمدائني والوليد بن هشام القحذمي. ويزودنا البلاذري بمعلومات مهمة عن الناحية الادارية في ولاية زياد، وينفرد بمعلومات كثيرة في هذا الصدد، من ذلك ما نقله عن المدائني من أن زيادا كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله[7]. وروى عن القحذمي أن مقاتلة العراق أيام زياد بلغوا ثمانين ألفا في البصرة، وستين ألفا في الكوفة[8].

ويقول الدوري عن أسلوب البلاذري في كتابه فتوح البلدان، أنه ينتقي المادة بعد الغربلة والنقد، ويحاول "أن يعطي صورة متزنة للحوادث، مع تجنب ايراد روايات متعددة حول الحادث، وهو يعتمد كثيراً على روايات المدينة التي تتصف بالحياد والدقة أكثر من غيرها"[9].

وفي كتاب **"الأخبار الطوال" لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)** معلومات مختصرة وهامة عن نسب زياد واستلحاقه وأخباره في العهد الراشدي، وقد ركز الدينوري على أحداث الخلاف بين زياد ومعاوية، وما أعقب ذلك من مباحثات بين الطرفين[10]، واهتم برواية أخبار

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٤٧٩، ٥٣١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البلاذري، فتوح.

(٢) انظر المصدر نفسه، ص ٥٣٤، ٥٥٨-٥٥٩، ٥٧٦-٥٧٧ (قالوا)، ص ٦٠٩ (الواقدي).

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٩٨-٥٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٤-٥١٣.

(٦) انظر المصدر نفسه، ص ٥٠٠-٥٠٤، ٥٠٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٤٩-٦٥٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٨٨.

(٩) عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٤٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الدوري، بحث.

(١٠) الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٢١٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الدينوري، الأخبار.

حركة حجر بن عدي، وانفرد ببعض المعلومات في هذا الصدد، فذكر على سبيل المثال أن المغيرة حاول استرضاء حجر، فمنحه خمسة آلاف درهم[1].

ومما يلاحظ أن الدينوري إعتنى بالناحية السياسية، ولم يهتم كثيراً بالنواحي الأخرى، وهو يبدي شيئاً من الميل للعباسيين في أخباره، ولا يبدى اهتماماً بالاسناد[2]، وعلى الرغم من ذلك فهو يقدم فائدة كبيرة في البحث، وان كان اهتمامه بأخبار الأمويين محدودا.

وتضمن كتاب "التاريخ" لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، معلومات هامة عن دور زياد في نواحي الحياة المختلفة. وعلى الرغم من ميل اليعقوبي الواضح للعلويين وعدائه للأمويين، فاننا نلمس في كثير من رواياته عن زياد تقييما قريبا من الواقع والموضوعية، مما يشعر بأهمية أعمال زياد لدى المؤلف، حتى أنه لم يخفِ تلك الروايات التي تذكر أعمال زياد القيمة، واليعقوبي لا يعترف بصحة نسب زياد الى أبي سفيان بل ينسبه الى عبيد[3]، وينفرد دون غيره حين يذكر أن زيادا توفي سنة (٥٤هـ/ ٦٧٤م)[4].

ويزودنا اليعقوبي بمعلومات وافية عن الخلاف بين زياد ومعاوية والرسائل المتبادلة بينهما، كما أشار الى نشاط الخوارج والشيعة في ولاية زياد مركزاً على حركة حجر بن عدي.

ويقدم اليعقوبي معلومات مهمة عن سياسة زياد الادارية، وينفرد بمعلومات كثيرة في هذا الصدد، فيذكر على سبيل المثال: أن زيادا كان أول من بسط الأرزاق على عماله ألف درهم ألف درهم، وأنه "أول من دوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب وأفرد كتّاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين"[5].

ويظهر أن اليعقوبي قد اتبع أسلوب الانتقاء من الروايات بعد تدقيقها، مهتما بالتسلسل الزمني للأحداث دون العناية بالأسناد.

وفي كتاب "تاريخ الرسل والملوك" لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، معلومات واسعة عن حياة زياد ودوره في صدر الاسلام، أفيد منها في جميع فصول الرسالة، فقد تناول مولد زياد ونشأته في العهد الراشدي، وذكر معلومات فريدة ومهمة عن دوره في معركة القادسية ووقعه جلولاء، حيث تولى الكتابة والحساب لسعد بن أبي وقاص[6]، ورواة الطبري في هذا الموضوع سيف

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٣ (قالوا).

(٢) الدوري، بحث، ص ٥٥.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، تاريخ، ٢م، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م، م ٢، ص ٢١٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: اليعقوبي، تاريخ.

(٤) المصدر نفسه، م ٢، ص ٢٣٥.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، م ٢، ص ٢٣٤.

(٦) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٢، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م، جـ٣، ص ٤٨٩ (سيف)، جـ٤، ص ٤٩ (سيف)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الطبري، تاريخ.

ابن عمر التميمي الكوفي (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، والمدائني، وعمر بن شبه. ويلاحظ اعتماد الطبري بشكل واسع على عمر بن شبه في المعلومات التي أوردها عن زياد زمن الراشدين[١]، ويبدو أن عمر أورد أخبار زياد في كتابه الذي سماه "كتاب أخبار أهل البصرة" ومنه أخذ الطبري معلوماته[٢]، وقد نقل عمر جُلّ رواياته عن المدائني.

لم يهتم الطبرى كثيراً بقضية استلحاق معاوية نسب زياد، واكتفى بالقول: "وفي هذه السنة (٤٤هـ/ ٦٦٤م) استلحق معاوية نسب زياد بن سميّة بأبيه أبي سفيان فيما قيل"[٣]، ثم يورد عدة روايات توضح موقف الأمويين خاصة والناس عامة من هذه القضية، وحين يتحدث عن أحداث سنة (١٦٠هـ — ٧٧٦م) يورد بالتفصيل ما قام به الخليفة العباسي المهدي من رد آل زياد الى نسبهم في ثقيف[٤]، وعندما يذكر خبر وفاة زياد يضعه تحت عنوان "سبب مهلك زياد بن سميّة"[٥]، مما يعطي انطباعاً بأن الطبرى لا يعترف بنسب زياد الى أبي سفيان.

ويهتم الطبرى بصورة خاصة بالحوادث التي وقعت في العراق والأقاليم الشرقية، حيث كانت مركز المعارضة للحكم الأموي، ويقع تاريخ زياد ضمن أحداث هذه الدائرة زمانا ومكانا، فقد ذكر تعيينه على البصرة، وخطبته الأولى فيها، واجراءاته الأولية التي اتخذها، ثم روى روايات عديدة ومتفرقة عن خلافة معاوية أفاد بعضها في معرفة الاصلاحات الادارية والاقتصادية والعمرانية التي قام بها زياد من توطيد الأمن وتأمين الرزق وتحسين أحوال المعيشة الى تنظيم القبائل في المصر واعطاء مكانة خاصة لرؤساء العشائر وجعلهم مسؤولين عن الأمن والنظام في إطار عشائرهم. كما روى لنا الطبري خبر اعتماد زياد على الصحابة وذوي الكفاءة، وتعيينهم في مراكز الدولة المهمة كقيادة الجيوش والقضاء، واعتمد الطبري في هذا كله على عدد من الرواة والاخباريين البصريين أو الكوفيين أمثال: المدائني[٦]، وعمر بن شبه[٧]، وأبي مخنف[٨].

وتناول الطبرى موقف زياد من نشاط الخوارج والشيعة، وأورد تفاصيل دقيقة عن حركة حجر ابن عدى، ويلاحظ اعتماده على المدائني وعمر بن شبه في ا لمعلومات التي أوردها عن ثورات الخوارج زمن زياد[٩]، في حين اعتمد بشكل واضح على أبي مخنف وعوانه بن الحكم في معلوماته عن حركة حجر[١٠].

---

(١) انظر المصدر السابق، جـ٥، ص ١١٠، ١٢٢، ١٣٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٧.

(٢) انظر الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه، جـ٨، ص ١٢٩-١٣٢ (علي بن سليمان).

(٥) المصدر نفسه، جـ٥. ص ٢٨٨.

(٦) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٨٥، ٢٩١.

(٧) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢١٤، ٢٢١، ٢٥٠.

(٨) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢٥٧، ٢٦٨.

(٩) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢٢٨، ٢٣٧.

(١٠) انظر المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢٥٤ وما بعدها.

وتميز الطبرى في تاريخه بعدة أمور تعطي معلوماته أهمية خاصة، فقد أورد معلومات واسعة وقيّمة عن القبائل والخلافات القبلية منذ بداية العصر الأموي، وأستغلال الأمويين لهذه الخلافات في تحقيق أهدافهم السياسية، فأشار الى ارسال معاوية ابن الحضرمي الى البصرة، واستجارة زياد - خليفة ابن عباس فيها - بالأزد وما ترتب على ذلك من خلاف بين قبائل البصرة، ومصدره عمر بن شبه، الذي روى عن المدائني[١]. كما أشار الطبري الى معاملة زياد للقبائل الكوفية أثناء حركة حجر، حيث ندب القبائل اليمانية لتأتيه بحجر، ومصدره في ذلك أبو مخنف[٢].

وقد اهتم الطبري بشكل واضح بتسلسل الإسناد، ولعل ذلك يعود الى كونه فقيها، الاّ أنه لم يعتمد على الفقهاء فيما ذكره عن زياد، بل اعتمد على عدد من الإخباريين المعروفين بسعة اطلاعهم قال ابن النديم : قرأت بخط أحمد بن الحارث الخراز "العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة"[٣].

ومن مصادر هذه الدراسة كتاب "الفتوح" **لابن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م)**. وهو مصدر مبكر لمؤلف شيعي، ويعتبر ابن أعثم من أصحاب الحديث، لكنه ضعيف ليس بثقة[٤]. لقد أورد ابن أعثم معلومات هامة عن دور زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب، كما أشار الى أحداث الخلاف بين معاوية وزياد مركزاً على دور علي في هذا الخلاف[٥]، وقدّم ملاحظة مهمة حين ذكر أن زياداً كان يجبى من البصرة وكورتها ستون ألف ألف درهم، ثم بينّ توزيع زياد لمقادير الصرف والانفاق والادخار[٦].

اهتم ابن أعثم بالتسلسل الزمني للأحداث لكنه لم يعن بالإسناد، وهو يقدم عادة رواية أبي مخنف في أخبار الشيعة، وهذا لا يقلل من قيمة ما يورده، على أن يقارن برواية أبي مخنف، وعلى أن يؤخذ حدة الاتجاه الشيعي بعين الاعتبار.

وتناول الجهشياري (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) في كتابه "الوزراء والكتاب" تاريخ وأدب جمهرة كبيرة من الكتّاب والوزراء في العهد الاسلامي منذ البعثة حتى أوائل خلافة المأمون، وصنّف الجهشياري كتابه حسب عهود الخلفاء، فذكر من كتب لهم، وقد تطرق الى زياد حيث كان كاتباً لأبي موسى الأشعري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وذكر استخلاف أبو موسى له على البصرة، ثم

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٦.

(٤) ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم الأدباء، ٢٠ جـ، الطبعة الأخيرة، دار احياء التراث العربي، بيروت (د. ت) جـ٢، ص ٢٣٠-٢٣١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ياقوت، معجم الأدباء.

(٥) ابن أعثم، أحمد بن محمد (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، الفتوح، ٤ م، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، م ٢، ص ٣٠٠-٣٠١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن أعثم، الفتوح.

(٦) المصدر نفسه، م ٢، ص ٣٠٨.

استحضار الخليفة عمر لـه واختبار أسلوبه وسلوكه، وإعجاب عمـر بذكائه وردوده المنطقية(١)، ثم ينتقل الجهشياري الى أيام علي بن أبي طـالب، فيذكر استعمال الخليفة زيـادا على الخراج والديوان في البصرة(٢).

وأورد الجهشياري معلومات هامة وفريدة لم ترد في المصادر الأخرى، فذكر على سبيل المثال كتّاب زياد على الخراج والرسائل(٣)، وأشار الى أن زيادا كان مقدراً لمسؤولياته فكان يمارس عمله يومياً الاّ يوم الجمعة(٤).

وأورد علي بن الحسين المسعـودي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧م) في كتابـه "مـروج الـذهب ومعـادن الجوهر" معلومـات هامة عن استلحـاق زياد والشهود الـذين أدلوا بشهاداتهم في هـذه القضية(٥)، وذكر أن معاوية استلحقه بسبب توليـه فارس من قبل علي بن أبي طالب، فعندما قتل علي واستتب الأمر لمعاوية في الشام والعراق أقلقه أمر زيـاد، فعرض عليه معاوية أن يستلحقه بنسبه، فقبل زياد العرض، ومصدر المسعودي في هذا الموضوع أبو عبيدة معمر بن المثنى(٦).

وأورد المسعودي معلومات مختصرة عن أخبار الشيعة أيام زياد، فذكر قضية مقتل حجر بن عدي مبينا أنه كان من المجاهدين المؤمنين الصادقين(٧). وقدّم المسعودي معلومة فريدة عندما ذكر اعتقال زياد لعبد الله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقـاص، وحمله من البصرة مقيداً الى دمشق بأمر معاوية(٨)، وتبدو الميول العلـوية واضحة لدى المسعودي في أخبـاره عن زياد، مما يستوجب مقارنـة ما يورده مع المصادر المحايدة والمعتدلة.

أمـا كتاب "تـاريخ مـدينـة دمشق" لابن عسـاكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، فيعتبر من أبـرز المصادر التي أفيد منهـا في جميع فصول الرسالـة، فقد أورد عدة روايات عن حياة زيـاد، وقدّم رواية فريدة تفيد أن سميّة أم زياد كانت لأحد دهـاقي الفرس، فمرض هذا الدهقان، فعالجه الحارث بن كلدة الثقفي حتى بريء، فـوهب له سميّة(٩). وقدّم ابن عسـاكر معلومات هامـة عن دور زياد في

---

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، الوزراء والكتّـاب، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط ١، مطبعة مصطفى البـابي الحلبي، القاهـرة، ١٩٣٨، ص ١٧ ١٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا الجهشياري، الوزراء.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.
(٥) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مـروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ٤م، ط ٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، م٣، ص ١٤-١٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المسعودي، مروج.
(٦) المصدر نفسه، م٣، ص ١٥-١٦.
(٧) المصدر نفسه، م٣، ص ١٢-١٣.
(٨) الممصدر نفسه م٣، ص ١٧.
(٩) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق مخطوط مصور عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وكمّل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش وأستانبول، ١٩م، دار البشير، عمان (د. ت)، م٦، ص ٤٨٨ (عوانه)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عساكر، تاريخ / خط.

العهد الراشدي، فذكر كتابته للمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عامر، وعبد الله ابن عباس، وأشار الى دوره في فتنة ابن الحضرمي في البصرة، كما أشار الى تعيينه على فارس من قبل علي بن أبي طالب، ثم تتبع أحداث الخلاف بينه وبين معاوية حتى انتهى الى الصلح بينهما(١).

وقدّم ابن عساكر معلومات مختصرة عن استلحاق نسب زياد، أما معلوماته عن موقف الناس من هذه القضية فهي واسعة وقيّمة، وتزداد أهميتها لكون بعضها معلومات فريدة لم ترد في مصادر أخرى، منها على سبيل المثال أن عمر بن عبد العزيز كان لا ينسب زياد الى أحد، واذا ذكره قال: "زياد صاحب البصرة"(٢).

وأورد ابن عساكر معلومات واسعة ومهمة عن اجراءات زياد الأولية في مصرى العراق، وعن سياسته في تعيين القضاة والعمال على المقاطعات والأقاليم(٣)، كما أورد معلومات واسعة وهامة توضح سياسة زياد تجاه الرعية(٤). وتناول ابن عساكر موقف زياد من نشاط الشيعة، فعرض لحركة حجر بن عدي عرضا دقيقا، معتمدا في ذلك على أبي مخنف(٥). كما قدّم تراجم وافية لأصحاب حجر(٦)، لا نجد بعضها عند من سبقه.

واعتمد ابن عساكر فيما ذكره عن زياد على مصادر كوفية أو بصرية كالشعبي وسيف بن عمر وأبي مخنف، وعوانه بن الحكم، والهيثم بن عدي، والمدائني، وعمر بن شبه، وقد نقل ابن عساكر الكثير من رواياته عن محمد بن سعد(٧)، وخليفة بن خياط(٨)، وقد أفدت من ذلك في ضبط بعض النصوص التي وردت غير واضحة في كتابي الطبقات لابن سعد، وتاريخ خليفة بن خياط، اذ وردت هذه النصوص بشكل واضح في تاريخ دمشق.

وهناك مجموعة كبيرة من المصادر التاريخية أفاد منها البحث بشكل ثانوي حيث وردت بها معلومات قليلة نسبياً، ومن هذه المصادر: كتاب ابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) "الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية"، الذي أفاد الفصل الثاني من البحث بمعلومات قيمة عن مسألة الاستلحاق، وهو يسرد نسب زياد سرداً موضوعياً، فيذكر أن سمية أم زياد كانت بغيا ولها زوج اسمه عبيد، وأن أبا سفيان اتصل بها، ويذكر أن بعضهم أجاز لمعاوية استلحاق زياد بنسبة بناءا على العرف الذي كان سائداً في الجاهلية(٩). وتظهر موضوعية ابن الطقطقي من خلال

---

(١) المصدر السابق، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه).

(٢) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩١ (علي بن حرب).

(٣) انظر المصدر نفسه، م ٦، ص ٤٩٥-٤٩٦ (أبو عبيدة)، م ١٧، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي).

(٤) انظر المصدر نفسه، م ٦، ص ٤٩٤-٤٩٧.

(٥) المصدر نفسه، م ٢، ص ٦٦٨.

(٦) انظر المصدر نفسه، م ٧، ص ٣٥٩، م ٨، ص ٣٩٧، م ٩، ص ٩١٦، م ١٤، ص ٣٩٨.

(٧) المصدر نفسه، م ٦، ص ٤٨٦، م ٧، ص ٣٦٠، م ١٤، ص ٣٩٨.

(٨) المصدر نفسه، م ٦، ص ٤٨٦، ٤٩٤، ٥٠٧، م ٨، ص ٤٥، م ٩، ص ٤٦٦.

(٩) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٠٩-١١٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الطقطقي، الفخري.

سرده للحوادث دون تحيّز، فيذكر معاوية وبعده كلمة "رضي الله عنه" ويلقب عليا بأمير المؤمنين.

واستفاد البحث من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، والذي تضمن معلومات قيمة ومختصرة أفادت معظم الفصول، حيث تناول حياة زياد ودوره في العهد الراشدي، وأشار الى صلحه مع معاوية ثم استلحاقه، وقدّم بعد ذلك معلومات هامة عن عمال وولاة زياد على الأقاليم المختلفة، كما اهتم بذكر أخبار الشيعة زمن زياد، فأورد بالتفصيل حركة حجر بن عدي(١).

واستفاد البحث بمعلومات لا بأس بها من كتاب "تاريخ الخلفاء" لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر، حيث وردت فيه إشارات متفرقة عن زياد شملت: مولده ونسبه ودوره أيام الخلفاء الراشدين، ثم استلحاقه وتعيينه على البصرة والاجراءات الأولية التي اتخذها لإعادة الأمن والاستقرار الى ولايته، هذا فضلا عما أورده المؤلف من اشارات هامة ومتفرقة عن الحرس والأسواق زمن زياد(٢). وهذا الكتاب نقل حرفي لروايات أبي مخنف في أخبار زياد، ويذكر مؤلفه أنه رجع الى الطبري وأبي الفرج الأصفهاني وأبي عبيدة معمر بن المثنى(٣)، وهو لا يجيء بجديد، لكن العودة اليه ضرورية للمقارنة والتدقيق.

أما المصادر الأدبية فكثيرة ومتنوعة، وقد استفدت منها كثيراً وكان أهمها: كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م). وهو كتاب أدبي في المختارات من نتاج العرب، حيث يبحث في البيان والبلاغة والشعر والخطابة وجاء بنوادر وأخبار كثيرة لمختلف الجماعات والفئات الاجتماعية في ذلك العصر، وخلال بحثه في القضايا الأدبية تناول خطبة زياد الأولى في البصرة(٤)، ويعتبر هذا الكتاب أقدم المصادر الأدبية والتاريخية المتوفرة التي أوردت نص الخطبة كاملا.

وأشار الجاحظ الى بعض أعمال زياد الادارية، فذكر طائفة من عماله وشرطته(٥)، وقدّم ملاحظة فريدة ومهمة عن عدد المقاتلة والذرية في البصرة أيام زياد(٦)، كما أورد روايات كثيرة تحدثت عن أخلاق زياد وحصافته أفادت في معرفة جوانب شخصيته.

وفي كتاب "عيون الاخبار" لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩م) معلومات قيمة عن شخصية

---

(١) إبن كثير، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وأخرون، ١٤ جـ، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، جـ٨، ص ٥١ وما بعدها، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن كثير، البداية.

(٢) مؤلف مجهول (من القرن الحادي عشر)، تاريخ الخلفاء، نشره بطرس غريازنيويج، دار النشر "العلم"، موسكو، ١٩٦٧م، ص ١٤٧-١٤٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: مجهول، تاريخ الخلفاء.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ٤ جـ، ط ٥، الناشر مكتبه الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥م، جـ٢، ص ٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الجاحظ، البيان.

(٥) انظر المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٥٦، ٢٦٠ (قالوا)، ص ٢٩٦ (الحسن البصري).

(٦) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ١٣٠.

زياد، أفيد منها في جوانب متعددة من البحث وخاصة في معرفة سياسته تجاه الرعية. وأورد ابن قتيبة رواية لم ترد عند من سبقه عن توجيه زياد لعماله والزامهم بالأمانة والمقدرة والاخلاص[1]. ثم ذكر ظروف مرضه ووفاته. وقد اعتنى ابن قتيبة بذكر مصادره، فكان جُلّ اعتماده فيما أورده من معلومات عن زياد على رواة عراقيين بالدرجة الأولى أمثال: الشعبي والهيثم بن عدي والمدائني[2].

ومن المصادر الأدبية التي تعتبر ذات دلالة تاريخية كتاب "**الكامل في اللغة والأدب**" **لمحمد بن يزيد المبرد** (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، وهو من أهم المصادر التي بحثت في أخبار الخوارج منذ ظهورهم، وفيه معلومات واسعة ومفصلة عن مقاومة زياد لهم، وبعض هذه المعلومات انفرد بها المبرد ولم يذكرها غيره، فذكر على سبيل المثال أن زياداً ولىّ أبا الخير - أحد الخوارج - جندي سابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر[3]، وذكر أن زيادا كان يحاول تأليف الخوارج والتقرب اليهم، فكان يقول للجماعة منهم: "ما أحسب الذي يمنعكم من اتياني الاّ الرجّلة"، فيقولون: "أجل"[4].

والمبرد لا يهتم بالاسناد كثيراً، كما أنه لا يعنى بتدوين السنوات التي وقعت فيها الأحداث التي يتحدث عنها، ولا يتقيد بالتسلسل التاريخي للأحداث، مما يجعل معلوماته التاريخية بحاجة الى مزيد من التدقيق والمقارنة.

ولكتاب "**العقد الفريد**" **لابن عبد ربه الأندلسي** (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) أهمية واضحة، حيث قدّم معلومات واسعة عن حياة زياد، فأفرد بابا خاصا به، تناول فيه نسب أمه وظروفها في الجاهلية، والسبب الذي دعا معاوية الى الحاق زياد بنسبه[5].

أورد ابن عبد ربه معلومات قيمة عن أخلاق زياد وسياسته تجاه رعيته، كما أشار الى سياسته في اختيار عماله وكبار موظفيه[6]. وقدّم رواية بينّ فيها عدد المقاتلة في كل من البصرة والكوفة أيام زياد[7]، وهو يشير أحياناً الى بداية اجراءات ادارية لم يسبقه إليها مصدر آخر مثل قوله: "ان أول من وضع شرف العطاء ألفين معاوية"[8]. واعتمد ابن عبد ربه فيما أورده عن العطاء وعدد المقاتلة

---

(١) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، عيون الأخبار، ٤ م، ط ١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨-١٩٣٠، م ١، ص ٥٥ (عبد الله بن عبيد)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، عيون.

(٢) المصدر نفسه، م١، ص٨. م٢، ص ١١٤.

(٣) المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، ٤ جـ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ٣، ص ٢٦١-٢٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المبرد، الكامل.

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٢٦١.

(٥) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الرين وابراهيم الأبياري، ٦ جـ، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠-١٩٤٩م، جـ ٥، ص ٤-٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عبد ربه، العقد.

(٦) ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص٨.

(٧) المصدر نفسه، جـ٥، ص ٨ (العتبي).

(٨) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٣٦٤ (ميمون بن مهران).

في العراق زمن زياد على العتبي، وهو من آل أبي سفيان (ت ٢٢٨ هـ/ ٨٤٢م)[١]، هذا بالاضافة الى أفادته من رواة وإخباريين عرفوا بسعة اطلاعهم على أخبار المناطق التي ينتمون إليها مثل الشعبي[٢]، الذي عرف بسعة معرفته بأخبار الكوفة، والمدائني[٣] المعروف باحاطته بأخبار العراق وخراسان.

ومن المصادر الهامة الموسعة التي أفادت معظم فصول الرسالة كتاب "الأغاني" لأبي فرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، وفيه تناول مؤلفه نسب زياد وذكر الروايات التي طعنت في نسبه[٤]، وقدم عرضا مفصلا لحركة حجر بن عدي، معتمداً في ذلك على رواية أبي مخنف[٥]. كما أورد تراجم عامة لبعض الشعراء الذين اتصلوا بزياد مثل حارثة بن بدر الغداني[٦]، ومسكين الدارمي[٧]، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ[٨]. وينفرد الأصفهاني بمعلومات عديدة لا ترد في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال أن القبائل البصرية احتجت حين حاول زياد ارسال الأموال الى بيت المال المركزي بدمشق قبل دفع العطاء وسد نفقات المصر[٩].

ويزيد من أهمية المعلومات التي يقدمها الأصفهاني عنايته بالاسناد، ومن المصادر التي أخذ عنها معلوماته القحذمي[١٠]، وأبو عبيدة[١١]، والمدائني[١٢]، والعتبي[١٣]، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)[١٤]، ويبدو أنه استفاد بشكل واضح من كتب من سبقه من المؤرخين والنسابين والأدباء، يظهر ذلك من خلال تصريحه بأخذه عن البلاذري[١٥] والزبير بن بكار[١٦].

أما كتب الجغرافية، ككتاب "البلدان" لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) و "مختصر كتاب البلدان" لابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، و "صورة الأرض" لابن حوقل (توفي حوالي ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، و "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" للبكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)،

---

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٧-٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٤٢، ٥٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١١٠، ٣٦٨.
(٤) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، الأغاني، تحقيق عبدالله العلايلي وأخرون، ٢٣م، ط ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥-١٩٦١م، م ١٨، ص ٢٠٨، ٢٠٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الأصفهاني: الأغاني.
(٥) المصدر نفسه، م ١٧، ص ٧٩.
(٦) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٤٤.
(٧) المصدر نفسه، م ٢٠، ص ١٦٧.
(٨) المصدر نفسه، م ١٨، ص ١٨١.
(٩) المصدر نفسه، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي).
(١٠) المصدر نفسه، م ١٢، ص ٣٣٧، م ٢١، ص ٣٦١، م ٢٣، ص ٤٨٢.
(١١) المصدر نفسه، م ١٨، ص ٢٠٨، م ٢٠، ص ١٦٨، ١٧٠.
(١٢) المصدر نفسه، م ١٨، ص ١٩٧، م ٢٣، ص ٤٤٦، ٤٦٨.
(١٣) المصدر نفسه، م ٥، ص ٧، م ٢٢، ص ٣٧٢.
(١٤) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٨٩.
(١٥) المصدر نفسه، م ٢٣، ص ٤٤٧.
(١٦) المصدر نفسه، م ٥، ص ٧٢.

و "معجم البلـدان" ليـاقـوت الحمـوي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، و "الـروض المعطـار في خبر الأقطار" للحميري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، فتعطي معلومـات أساسيـة عن النواحي الجغـرافية كـالأنهار وطبيعة الأرض والمنـاخ، هذا اضـافـة الى الزراعـة، وتقدم معلـومـات واسعة عن القبـائل ومواطنها وعن التمصير، كما أنها تتضمن معلومات هامـة عن بعض الاصلاحات العمرانية التي قام بها زياد.

وتميز كتاب "مختصر كتاب البلدان" لابن الفقيه (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) باحتوائه على معلومات واسعة عن تمصير البصرة وأعمال زياد العمرانية فيها، كحفر الأنهار وبناء المساجد والدور والقصور، وقد انفرد المؤلـف بمعلومات عديدة في هـذا الصدد، فذكر على سبيل المثـال أن زياداً بنى في البصرة سبعة مساجـد فلم يضف اليه شيء منها" وكل مسجد بـالبصرة كانت رحبته مستديرة فـانه من بناء زياد، وكلما بنى فيها أو صنع، فانه نُسب الى غيره"[١].

ومن المصـادر الجغرافيـة ذات الأهمية الخاصـة كتاب "معجم البلـدان" ليـاقوت الحمـوي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، حيث ينفرد بتناوله الواسع لمختلف النـواحي السياسية والاقتصادية والادارية والاجتماعية اضافة الى النواحي الجغرافية. وفيما يتعلق بزياد فان ياقوت يذكر أعماله عند الحديث عن مواضع هذه الاعمال، فيـذكر حين يتحدث عن نهر الأجانة - على سبيل المثـال - أن زياداً حفر نهر الأبلة حتى أوصله بالأجانة عند البصرة[٢]، وعندما يذكر نهر مُرة يشير الى أن زيادا حفر النهر وأقطعه الى مرة بن أبي عثمان بعد أن كتبت اليه أم المؤمنين عائشة (رض) توصيه به[٣].

وقد أورد ياقوت معلومات هامـة عن أعمال زياد العمرانية في مصرى العراق "البصرة والكوفة"، فبينّ دوره في بناء المسـاجد ودور الامـارة والحمامات، وفي حفـر الأنهار واقطاع القطـائع. ويبدو أن يـاقوت قـد استفـاد بشكل واسع من المصـادر التـاريخية المتقـدمـة، مثل كتـاب "فتوح البلـدان" للبلاذري، وجاءت بعض معلـوماته نقلا عن مصادر لم تصل الينـا، يظهر ذلك من خلال تصريحه أنه أخذ عن كتاب البصرة لأبي يحيى الساجي (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)[٤]. ويزودنا ياقوت بمعلومات فريـدة لا ترد في المصادر الأخرى، من ذلك أن زيـاداً زاد في مسجد الكوفـة حتى صار يتسع لستين ألف انسان بعد أن كان يتسع لأربعين ألف انسان[٥].

أما المصادر الفقهية وأخص بالذكر كتب الخراج، ككتاب "الخراج" لأبي يوسف (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، و "الخراج" ليحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م)، و "الأموال" لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ

---

(١) ابن الفقيه، أحمد بن محمـد (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، مختصر كتـاب البلدان، تحقيـق دي غويـه، مطبعـة بـريل، ليـدن، ١٣٠٢هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٩١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان.

(٢) ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ جـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م، جـ ٥، ص ٣١٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ياقوت، معجم البلدان.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣٢٣.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٣١٧.

(٥) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٩١.

/ ٨٣٨م)، و "الخراج وصناعة الكتابة" لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، فقد تناولت الادارة العربية للبلاد المفتوحة (أرضا وسكانا)، وركزت على تدابير الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، كما تناولت فترة عمر بن عبد العزيز، ونادراً ما ذكرت هذه الكتب زيادا، على الرغم من المعلومات التاريخية الغنية التي تتضمنها، فأبو يوسف مثلا لم يذكر زيادا في كتابه "الخراج" الآ مرة واحدة، حيث أشار إلى أن مسجد البصرة وقصرها من بناء زياد(١).

وينفرد كتاب "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، من بين كتب الخراج بتقديم معلومات هامة عن زياد لا نجد بعضها في المصادر الأخرى، فيذكر على سبيل المثال أن الذراع الهاشمية الكبرى سميت زيادية "لأن زيادا مسح بها أرض السواد"(٢).

واذا كانت كتب الخراج قد أفادت البحث بمعلومات قليلة نسبياً عن اجراءات زياد في العراق فقد أوردت معلومات هامة وغزيرة عما استقر عليه الأمر أيام الراشدين من تنظيم في البلاد المفتوحة كما أوردت معلومات قيّمة عن النظام المالي كإنشاء الديوان، وفرض العطاء ومقاديره، وتناولت أيضا وجوه تكوين الملكيات سواء بالإقطاع من الصوافي أو الموات أو الإحياء، وتبدو أهمية هذه المصادر في الفصلين الثالث والرابع.

هذا وقد تعرضت بعض المراجع والدراسات الحديثة لجوانب من موضوع دراستنا، ويأتي في مقدمة المؤلفات العربية الحديثة التي تناولت دور زياد في صدر الاسلام، مؤلفات الدكتور صالح أحمد العلي في كتبه "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" و "خطط البصرة ومنطقتها"، ومن المؤلفات العربية الأخرى كتاب "الفتنة الكبرى" لطه حسين، و "الدولة الأموية" ليوسف العش، و "خلافة بني أمية" لنبيه عاقل، و "ادارة العراق في صدر الاسلام" لرمزية عبد الوهاب خيرو، و "تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي" لعلي حسني الخربوطلي.

واهتم بعض المستشرقين بدراسة دور زياد في صدر الاسلام أمثال يوليوس فلهاوزن في كتابه "تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية"، وشارل بلا في كتابه "الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء".

وفضلا عن ذلك، فقد رجعت الى عدد من البحوث والمقالات التي لها علاقة بموضوع البحث وكان أكثرها افادة للبحث مقالة المستشرق الفرنسي لامنس (H. Lammens) "Ziad Ibn Abihi". ويعتبر هذا المقال من أفضل ما كتب عن زياد على الرغم من أن دراسته جاءت مختصرة، واقتصرت على إظهار الخطوط الرئيسية لشخصية زياد.

وقد أفدت من هذه الدراسات بما فيها من آراء ومصادر في التعرف على بعض جوانب الموضوع، هذا وقد استندت الدراسة في الأساس إلى المصادر الأولية.

---

(١) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٢هـ، ص ٦٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: أبو يوسف، الخراج.

(٢) الماوردي، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٠م، ص ١٥٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الماوردي، الأحكام.

الفصـل الأول
زيـــاد
حياته ونشأته في العصر الراشدي

* ولادتـــــه .
* نسبـــــه .
* وفاتـــــه .
* نشأته وأهم أعماله في العصر الراشدي .
  - زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب .
  - ولايته على فارس .

ولادتـــه

لم تتفق المصادر المتوفرة في تحديد تاريخ ولادة زيادة، فقد ذكر ابن سعد، أنه ولد عام الفتح(١)، أي سنة ثمان للهجـرة. وذكر خليفـة بن خياط أن زيـاداً توفي سنـة (٥٣هـ/ ٦٧٢م)، "وهـو ابن ثلاث وخمسين سنة"(٢)، وهذا دليل على أنـه ولد عام الهجرة. وعنـد البلاذرى نجد إشارة تفيـد أنه ولد قبل الهجـرة بنحو اثنتي عشرة سنة، حيث ذكـر "وكان موت زيـاد في شهر رمضان سنـة ثلاث وخمسين، وهو ابن خمس وستين"(٣). أما الطبري، فيؤكد أن مولده كـان في عام الهجرة، فهو يقول "وقيل أن المختار بن عبيد الثقفي، وزياد بن سمية فيها ولدا"(٤)، أي في السنة الأولى للهجرة.

وذكر ابن عبد البر اختلاف القول في تـاريخ ولادة زياد فقال: "واختلف في وقت مولده، فقيل ولد عـام الهجرة، وقيل: قبل الهجـرة "ثم أضاف: "وقيل: بل يـوم بدر"(٥) أي في السنة الثـانية للهجرة.

وإذا أمعنا النظـر في اختلاف الـروايات التي تنـاولت مولـد زياد، نجـد أن ما ذكـره كل من ابن سعد، والبلاذري، وابن عبد البر في إشارته الى أن زيادا ولد يوم بدر، أمور يتعذر قبولها، وذلك لعدم إتفاقهـا مع ما ورد في المصادر المتوفـرة من معلومات عن حيـاة زياد. والأرجح أنه ولد عـام الهجرة، يؤيد ذلك ما ذكره كل من عوانه والمدائني. أما عوانه فقد ذكر أن المسلمين حينما فتحوا مدينة الفرات سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م) أصابوا غنائم كثيرة، ولم يكن بينهم من يجيد الكتابة والحساب إلاّ زياد" فوُلي قسم ذلك المغنم، وجعل له كل يوم درهمان، وهـو غلام في رأسه ذوابة"(٦)، هذا النص الواضح،

---

(١) ابن سعد، الطبقـات، جـ٧، ص ١٠٠. ابن قتيبة، المعـارف، ص ٣٤٦. ابن عساكـر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٣. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧.

(٢) خليفة بن خياط، تـاريخ، جـ١، ص ١٩٧. البخاري، محمد بن اسماعيـل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، التاريخ الصغير، ٢ جـ، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦م، م ١، ص ١٤١، وسيشار إليه عند وروده هكذا: البخارى، التاريخ الصغير.

(٣) البلاذرى، أنسـاب (إحساس عبّاس)، ق ٤، جــ١، ص ٢٧٨ (قالوا). وقريب ممـا ذكره البلاذرى قـول زياد بن عثمان: "أنه كان له (أي لزياد) في الهجرة عشر سنين". (ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الإصابة في تمييز الصحابة، ٤ جـ، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٣٢٨هـ، مكتبـة المثنى، بغداد، جـ١، ص ٥٨٠، وسيشار إليه عند وروده هكذا: ابن حجر العسقلاني، الأصابة).

(٤) الطبرى، تـاريخ، جـ٢، ص ٤٠٢ (قيل). ابن الأثير، علي بن أبي الكـرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) الكامل في التـاريخ، ١٣م، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، م ٢، ص ١١١، وسيشـار إليه عنـد وروده هكذا: ابن الأثير، الكـامل. الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، ٤ م، دار المعرفة، بيروت، م ٢، ص ٨٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الذهبي، ميزان.

(٥) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد البجاوي، ٤ ق، مكتبة نهضة مصر، القـاهرة، ق ٢، ص ٥٢٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عبـد البر، الاستيعاب. ابن الأثير، عز الـدين أبي الحسن علي بن أبي الكـرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، أسـد الغـابة في معـرفـة الصحـابة، ٥م، دار احيـاء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٧هـ، م ٢، ص ٢١٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الأثير، أسد الغابة. النووى، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، تهذيب الأسماء واللغات، ٢ جـ، ادارة الطباعة المنيريـة، القاهرة، جـ ١، ص ١٩٩، وسيشار اليه عنـد وروده هكذا: النووى، تهذيب الأسماء واللغات. النويري، شهـاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وآخـرون، ٢٧ جـ، نسخة مصورة عن دار الكتب، القاهرة، جـ ٢٠، ص ٣٤٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: النويري، نهاية الأرب.

(٦) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٩.

يُشعر أن زيادا لم يكن في سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م) طفلا في السادسة من عمره وفقا لما ذكره ابن سعد كما أنه لم يكن رجلا جاوز الخامسة والعشرين من عمره تبعا لما ورد في رواية البلاذرى، وإنما كان غلاما، والغلام اسم يطلق على الولد حينما ينبت شعر شاربه[1]، ويكون في العادة بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة من عمره، ولعل زيادا كان في مثل هذا العمر. يؤيد ذلك ما أورده المدائني من أن زياداً كان بين الذين شخصوا سنه (١٤هـ/ ٦٣٥م) مع عتبة بن غزوان الى العراق، وأن المسلمين عندما فتحوا الأبلة لم يجدوا "قاسما يقسم بينهم، فكان زياد قاسمهم وهو ابن أربع عشرة سنة"[2]. ويعزز هذا الرأي أيضا تقديرات بعض المؤرخين لعمر زياد عند وفاته، حيث ذكروا أنه توفي سنة (٥٣هـ/ ٦٧٢م)، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة[3]، أي أنه كان من مواليد عام الهجرة.

كما أن ما ذكر عن خروج زياد الى العراق بمعية صهره عتبة بن غزوان، وزوجته أزده بنت الحارث ابن كلدة، بحكم صلة القرابة التي تربط بينه وبين نفيع ونافع - أخوته لأمه واللذين رافقا عتبة أيضا - وليس بصفته مقاتلا في جيش عتبة، أمر يشعرنا أن زياداً لم يبلغ السن التي كانت تؤهل صاحبها للانضمام الى صفوف المقاتلة وهي الخامسة عشرة[4]، بل كان صبياً دون مرحلة البلوغ، والصبيان لا يجوز إثباتهم في الديوان بل يعتبرون "من جملة الذرارى والأتباع"[5]. أما عن المبلغ الذي كان يتقاضاه زياد حينما تولى قسمة الغنائم في جيش عتبة[6]، فقد كان أجرة له لقاء عمله، ولم يكن يتقاضاه كعطاء باعتباره أحد المقاتلة، يوضح ذلك المدائني في قوله "فأجروا عليه كل يوم درهمين"[7].

ولعل تحزب بعض المؤرخين الذين كانوا يضمرون الكره لزياد، قد دفعهم الى تعيين تاريخ ولادته الى ما بعد الهجرة بسنوات عديدة، وذلك لينكروا إدعاء من يحاول جعله في عداد الصحابة[8].

---

(١) انظر : ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥م، دار صادر، بيروت، م ١٢، ص ٤٤٠ (ابن سيده)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن منظور، لسان العرب. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)، القاموس المحيط، ٤ جـ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٢م، جـ ٤، ص ١٥٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الفيروز أبادي، القاموس المحيط.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٧.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٤.

(٤) ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٣٥١.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠٣.

(٦) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). الطبرى، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٧ (المدائني). مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧.

(٧) الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٧.

(٨) لامنس، دائرة المعارف الاسلامية، مادة "زياد بن أبيه" تأليف منسك وآخرون، اعداد وتحرير ابراهيم زكي خورشيد وآخرون، ط ٢، ١٦ مجلد، دار الشعب، ١٩٦٩م، ١٠، ص ٤٦٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : لامنس، زياد بن أبيه (دائرة المعارف الاسلامية).

أما المكـان الذي ولد فيـه زياد، فتتفق المصـادر المتوفرة على أنـه ولد في مدينـة الطائف[1]. تلك المدينـة الصغيرة المتحضرة الواقعـة على جبل غـزوان، والتي كـانت تتألف من محلتين كبيرتين يفصل بينهما واد، تسكن إحداهما ثقيف والأخرى هوازن[2].

نسبـــه

يعتبر نسب زياد، المكنى بأبي المغيرة[3]، من أكثر القضايا غموضاً في حياته، فقد كانت أمه أمة إسمها سميّة[4]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبـوه، وبالتالي فهم مختلفون في ذكر نسبه فقـد ذُكر اسمه في المصادر، تارة زياد بن سمية[5]، وتارة زياد بن عبيد[6]، ومرة زياد الأمير[7]، وأخرى زياد بن أبي

---

(١) ابن سعـد، الطبقات، جـ٧، ص ١٠٠ . ابن قتيبة، المعـارف، ص ٣٤٦ . ابن الوردي، زين الـدين أبو حفص عمـر بن مظفـر (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، تـاريخ ابن الوردي، ٢ جـ، جمعيـة المعارف، القـاهرة، ١٨٦٨، جـ١، ص ١٦٨، وسيشار اليه عنـد وروده هكذا : ابن الوردي، تاريخ. والطـائف تبعد عن مكة أحد عشر ميـلا. (انظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلـدان، ص ٢٢). وقدّر جواد علي المسافـة بين المدينتين بنحو خمسة وسبعين ميلا، حيث تقع الطـائف الى الجنوب الشرقي من مكـة. (جـواد علي، المفصل في تـاريخ العرب قبـل الاسلام، ١٠ جـ، ط ٢، دار العلم للمـلايين، بيروت، ١٩٧٦م، جـ٤، ص ١٤٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : جواد علي، المفصل في تاريخ العرب).

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، ص ٩.

(٣) ابن معين، يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م)، التـاريخ، تحقيق أحمد محمـد نـور سيف، ٤ جـ، ط ١، مطـابع الهيئـة العامة للكتاب، ١٩٧٩م، جـ٢، ص ١٧٩، وسيشـار اليه عند وروده هكذا : ابن معين، التاريخ. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، الطبقات، تحقيق أكـرم ضياء العمري، ط ١، مطبعة العـاني، بغداد، ١٩٦٧م، ص ١٩١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : خليفة بن خياط، الطبقات. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. الدولابي، محمد بن أحمد (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، الكنى والأسماء، ٢ جـ، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، جـ٢، ص ١٢٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الدولابي، الكنى والأسماء.

(٤) زعـم أبو اليقظان أن أسماء بنت الأعـور من بني عبد شمس بن سعد، هي أم زياد. (انظـر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦). وردّ البلاذرى على قول أبي اليقظان بأنه زعـم باطل. (انظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣).

(٥) انظر ابن معين، التاريخ، جـ٢، ص ١٧٩. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٤ الدولابي، الكنى والأسماء، جـ٢، ص ١٢٦. ابن عساكر، تـاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٨٢. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٥. ابن حجر، الأصـابة، جـ١، ص ٥٨٠. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)، خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٣ جـ، ط ٢، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨١م، جـ٤، ص ٣٢٣، أيضا جـ٦، ص ٤٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البغـدادي، خزانة الأدب. وانظر يـوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبـد الهادي أبو ريده، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١١٣.

(٦) انظر الدينـورى، الأخبار، ص ١١٨، ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد، جـ٦، ص ١٣٢. ابن العـربي، محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، العـواصم من القواصم، تحقيق محب الـدين الخطيب، المطبعة السلفيـة، القاهـرة، ١٣٧٥هـ، ص ٢٣٥، وسيشـار اليه عند وروده هكذا : ابن العربي، العواصم. ابن أبي الحديد، هبة الله بن محمد (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، شرح نهج البلاغـة، تحقيق محمد أبـو الفضل ابراهيم، ١٧ جـ، ط ١، دار احيـاء الكتب العربيـة، ١٩٥٩-١٩٦٣م، جـ١٦، ص ٤٨٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن أبي الحديد، نهج البلاغة.

(٧) انظر ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٩٩. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٣.

سفيان[1]، وفي أغلب الأحيان عُرف بابن أبيه[2]، "وذلك لما وقع في أبيه من الشك"[3].

إنّ اختلاف المصادر في ذكرها لنسب زياد، مسألة أوجدها - قبل كل شيء - الغموض الذي يكتنف نسبه من جهة، ثم خلط أعداء بني أمية وأنصارهم لنسب هذا الرجل، وذلك لأسباب مختلفة تبعا لموقف كل منهم من زياد الذي عاش حياة سياسية مزدوجة، حيث كان ابتداء من أنصار الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، واستمر في ذلك الى أن توفي، وتنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة، فتحوّل زياد بعد ذلك الى الصف الأموي، وقد اتبع أثناء ولايته على العراق سياسة حازمة مع أهلها عامة ومع الشيعة والخوارج خاصة، فأدى ذلك الى خلق الكره والحقد في نفوس بعض العناصر تجاه شخص زياد، مما حدا بتلك العناصر الى التلاعب والخلط في نسب هذا الرجل ما شاء لهم الخلط.

ولا شك أن إستلحاق زياد الذي تم زمن معاوية بن أبي سفيان كان له أثر كبير في تشويش نسبه، حيث اختلف الناس في حكم الاستلحاق اختلافاً كبيراً، وبالتالي فقد اختلف قولهم في نسب زياد كل حسب ميوله واعتقاداته وقد تُرجم هذا التباين في المصادر ولدى المؤرخين.

ويزداد نسب زياد غموضاً عند دراسة الروايات المتباينة، التي ذكرت أصل سميّة "أم زياد" وتفاصيل حياتها، وزواجها من عبيد، ثم نسب أبنائها. فابن قتيبة[4] يذكر أن سميّة جارية من أهل

---

(١) انظر خليفة بن خياط، الطبقات، ص ١٩١. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) التاريخ الكبير، ٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، م٣، ص ٣٥٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البخاري، التاريخ الكبير. وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٤، ٣٤٦. البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٢، تحقيق محمد باقر المحمودي، ط ١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٤٣٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البلاذري، أنساب (محمد باقر المحمودي)، جـ٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب من واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، البلدان، ط ٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م، ص ٥٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: اليعقوبي، البلدان. ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٩. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٣.

(٢) انظر المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ق ٤هـ/ ق ١٠م)، البدء والتاريخ، ٦ جـ، مؤسسة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٨٩٩-١٩١٦م، جـ٦، ص ٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المقدسي، البدء والتاريخ. ابن أبي الدم، شهاب الدين ابراهيم (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، التاريخ الاسلامي المعروف باسم التاريخ المظفري، تحقيق حامد زياد غانم، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، ١٩٨٥م، جـ١، ص ١٩٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، ط ٢، باعتناء نخبة من المستشرقين والمؤرخين العرب، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٩٦٢-١٩٧٩م، جـ١٥، ص ١٢. وانظر خير الدين الزركلي، الأعلام، ٨ جـ، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، جـ٣، ص ٥٣. H. Lammens. Ziad ibn Abihi, Vice-roi de l Iraq Lieutenant de Moawia, Rivista deglistudi Orientali, Roma, Presso La Regia University, 1912, P1. وسيشار اليه هكذا Lammens, Ziad Ibn Abihi.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٥، ص ١٢. الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، ٥ جـ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م، جـ٢، ص ٣٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الكتبي، فوات الوفيات.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٠٦. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٤. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١/ ١٢٨٢)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ٧ م، دار صادر ودار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨، م ٦، ص ٣٥٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن خلكان، وفيات الأعيان. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

" زندورد "(١)، وهبها كسرى الى ملك من ملوك اليمن، يقال له "أبي الخير"(٢)، كان قد وفد عليه، فلما عاد الى اليمن وأثناء سيره في الطريق مرض بالطائف، فداواه الحارث بن كلدة الثقفي(٣) حتى برىء فوهب أبو الخير سميّة له.

أما البلاذري، فذكر أن سميّة امرأة من أهل زندورد، كانت أمة لرجل من بني يشكر نزل بناحية كسكر(٤)، وأن اليشكري مرض مرضا أعيا من حوله من الأطباء، فبلغه خبر الحارث بن كلدة وطبه بالطائف، فوفد عليه، فعالجه الحارث حتى برىء، فوهب له سميّة. ثم أن الحارث وقع عليها، فولدت له نافعاً ونفيعاً - ونفيع هو أبو بكرة - وكان أسود اللون، فأنكره الحارث، ونسبه الى غلامه مسروح، وكان أشبه الناس به(٥).

وذكر ابن عساكر أن سميّة كانت لدهقان من دهاقي الفرس، فاشتكى هذا الدهقان ذات مرة من وجع البطن، وخشي أن يكون قد أصيب بداء الاستسقاء، فدعا الحارث الذي كان وافداً على

---

(١) زندورد : مدينة بالقرب من واسط، مما يلي البصرة، خربت بعد تمصير الحجاج لواسط. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٣، ص ١٥٤).

(٢) "أبو الخير" : وقيل هو أبو الجبر، يزيد بن شرحبيل الكندى أحد ملوك اليمن، تغلّب عليه قومه فخرج الى فارس يطلب العون عليهم من كسرى، فبعث معه كسرى جيشاً من الأساورة، ويُذكر أن وحشة بلاد العرب جعلتهم يملون صحبة أبي الخير فسمّوه في بعض طعامه، واستأذنوه - وهو في أشد وجعه - بالعودة الى بلادهم فأذن لهم، ثم أن أبا الجبر خفّ ما به فلجأ الى طبيب العرب الحارث بن كلدة في الطائف فداواه وأبرأه، فأعطاه سميّة، وكان كسرى قد أعطاها أبا الجبر في جملة ما أعطاه، ثم رحل الى اليمن فمات في الطريق. (أنظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي : من أهل الطائف، ذُكر أنه رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل يسابور وغيرها، في الجاهلية وقبل الاسلام، وطب بأرض فارس وعالج وتمرن هناك حتى جاد في هذه الصناعة وعرف الداء والدواء، وحصل له بذلك مال كثير، وكان الحارث صاحب حس مرهف يضرب بالعود، تعلّم ذلك بفارس واليمن. وذكر البعض أنه عاش الى أيام معاوية بن أبي سفيان. (انظر : ابن جلجل، أبي داود سليمان بن حسان (ألّف كتابه هذا سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٥٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء. صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م)، طبقات الأمم، نشره وذيله الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، ص ٤٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن صاعد، طبقات الأمم. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ١٦١، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء. وانظر أيضاً صالح مهدي الغزاوي "الحارث بن كلدة الثقفي" مجلة المورد، العدد (٤)، م ٦، ص ٢١٧ - ٢٢١).

(٤) كسكر : كورة واسعة بين الكوفة والبصرة، قصبتها واسط، وكانت قصبتها قبل تمصير واسط خسر وسابور. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٦١).

(٥) البلاذري، أنساب الاشراف، جـ ١، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ودار المعارف بمصر، ١٩٥٩، ص ٤٨٩ (قالوا)، وسيشار إليه عند وروده هكذا : البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ ١، وانظر أيضا أنساب الاشراف، (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٧.

كسرى، فعالجه حتى برىء، فوهب له سميّة[1]. ويكاد يتفق ما ذكره ابن عساكر مع ما ورد عند ابن الأثير، الذي ذكر أن سميّة كانت لدهقان زندورد بكسكر، فمرض الدهقان، وعالجه الحارث الثقفي ولما شفي على يده وهب له سميّة، فولدت له نفيع ونافع، فأنكرهما ولم يقر بهما[2].

أما القفطي، فذكر أن الحارث رحل الى بلاد فارس وأخذ الطب عن بعض أهلها، حتى برع فيه، وأثناء إقامته في فارس عالج أحد أجلائها، فبرأ على يده، فأعطاه الفارسي مالاً وجارية سماها سميّة، رافقته عندما عاد إلى بلده الطائف[3].

ومن خلال إستعراض هذه الروايات يتضح لنا أن سميّة كانت جارية، وأنها وهبت للحارث بن كلدة - طبيب العرب المشهور في وقته - من قبل شخص كان الحارث قد داواه، فبرىء من مرضه. على أن تلك الروايات لم تتفق في ذكر الشخص الذي داواه الحارث، كما أنها اختلفت في بيان أصل سميّة، وفي تفاصيل حياتها في الطائف. فابن قتيبة يذكر أن سمية ولدت على فراش الحارث ولدين هما: نافع ونفيع، ولكنه لم يعترف بهما[4]، الى أن كان حصار الطائف سنة (٨هـ/ ٦٢٩م)، حيث قال الرسول ﷺ: "أيّما عبد نزل إلينا فهو حرّ"، فنزل نفيع فيمن نزل من عبيد أهل الطائف وأسلم، فأعتقه الرسول ﷺ، فصار من مواليه[5]. وسُمي بأبي بكرة، لأنه تدلى الى رسول الله ﷺ وأصحابه في بكرة، فكنوه أبا بكرة[6] وهو مشهور بكنيته هذه.

وذُكر أن الحارث قال لنافع عندما أراد اللحاق بأبي بكرة: "أنت ابني فأقم"، فأقام معه، ونسبه اليه[7]، فعرف منذئذ بنافع بن الحارث بن كلدة. ويبدو أن الحارث لم يعترف بأولاده من سميّة، لأنه رأى أن لون أبا بكرة أسود، ولم يكن بين آبائه من هو أسود اللون، فنفى أبا بكرة ونفى نافعا بسببه، ويُذكر أنه نسب أبا بكرة الى غلامه مسروح، حيث كان أشبه الناس به[8]، وهذا يفسرّ

(١) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه).

(٢) إبن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٠٢.

(٣) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١١-١١٢.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. وانظر البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضا ق ٤، جـ ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٤. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٣.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ١٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله)، جـ ١، ص ٤٨٩ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٣، ص ١٧٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٤. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٣. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٥، ص ٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ١٥. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٥٣٠، ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٥٩.

(٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله) جـ ١، ص ٤٩٠ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٤. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٣.

(٨) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضاً، ق ٤، جـ ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا) مؤلف مجهول. تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

لنا سرّ إعتراف الحارث بنسب نافع فيما بعد، حينما أسلم أبو بكرة وأعتقه الرسول ﷺ(١).

ويظهر أن الحارث قد تناهى الى مسمعه أن جاريته سميّة "ذات ريبة، لا تدفع كُف لامس"(٢)، الأمر الذي جعله ينتفي من أولادها، ويزوجها من غلام رومي له يُدعى عُبيدا، وكان عبدا لزوجته صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج الثقفي، فولدت له زياداً على فراشه(٣).

وزواج سميّة (الأمة) من عبيد (العبد)، أمر يدعو الى الافتراض بعبودية أولادهم وهذا ما ذهب إليه طه حسين، حيث يقول: "فقد ولد زياد عبداً للحارث بن كلدة الذي كان يملك أمه سميّة، وكان أبوه عبدا لصفية زوج الحارث، ونحن لا نرى زياداً في التاريخ الذي حُفظ لنا إلاّ حرا، فمتى عُتق؟ أو من أعتقه"(٤)، وللإجابة على مثل هذه التساؤلات، نقول إنه من المستبعد أن يكون ربيب زياد أو أباه "عُبيد" قد أعتق قبل إسلام زياد، ويستدل على ذلك من قول زياد حين أعطاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألف درهم، ثم سأله عمّ صنع بها، فقال له: "ابتعت بها عبيداً أبي من صفية بنت عبيد بن أسيد بن علاج"(٥)، هذا ما جاء في رواية البلاذرى. أما سيف فيذكر أن عطاء زياد كان ألفين، فسأله عمر عن عطائه الأول فقال: "اشتريت والدتي فأعتقتها، واشتريت في الثاني (أي الألف الثاني) ربيبي عبيداً فأعتقته"(٦). ويفيد ما ذكره كل من سيف والبلاذرى، أن زياداً كان في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرا، وأن عبيداً - ربيبه أو والده - لم ينل الحرية إلاّ بآخره، ويشعر ما ذكره سيف أن سميّة صارت حرة مع زوجها عبيد، وعلى يد ابنها زياد. إلاّ أن الدينورى يورد خلافا لهذا، فهو يذكر أن عبيداً تزوج من سميّة "وكانت أمة للحارث بن كلدة، فأعتقها، فولدت له زياد، فصار حراً"(٧).

وذكر البلاذري في رواية أخرى، أن الحارث بن كلدة لما تزوج من صفية، قدّم لها في مهرها

---

(١) إبن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذرى، أنساب الأشراف، (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٠ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٤. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٨.

(٢) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٨٩ (قالوا). أيضا ق ٤، جـ١ (إحسان عباس) ص ١٨٧ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٦.

(٣) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٨٩ (قالوا)، أيضا ق ٤، جـ١ (إحسان عباس)، ص ١٨٧ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٤. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٨. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م٦، ص ٣٥٦.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٢٢٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا: طه حسين، الفتنة الكبرى.

(٥) البلاذرى، أنساب (احسان عباس) ق ٤، جـ١، ص ١٨٨ (قالوا). وانظر الجهشياري، الوزراء، ص ١٩. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، الأوائل، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزوني، المدينة المنورة، ١٩٦٦م، ص ١٩٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: العسكري، الأوائل. ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٥ (قالوا). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م٦، ص ٣٥٧

(٦) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ١٨٥. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٥.

(٧) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢١٩.

سميّة، فزوجتها صفية من عبد رومي لها "يقال له عبيد، فولدت منه زياداً، فأعتقته صفيّة"[1].

إن ما ذكره الـدينوري يفيد أن زياداً صار حـراً نتيجة لحرية أمه من قبلـه، وفي هذا الاعتبار خطأ بينّ، فكيف يولـد زياد حراً وهـو ابن عبد لم تثبت حريته؟! إذ يفترض أن يكـون هو ا لآخر مملـوكا، ويبدو أن صفية - زوج الحارث - أعتقته بعد مولده، كما هو واضح في رواية البلاذرى، ويؤيد هذا الرأي ما ذُكر عن موقف أسرة سعيد بن عبيد - أخو صفية بنت عبيد - من قضية استلحاق زياد، إذ أن ما فعلـه معاوية من استلحـاق نسب زياد بأبي سفيان أثـار حفيظة يونس بن سعيـد بن عبيد ولم يرضه، فقـال عن زياد في حضرة معاوية "إنه لعبـدي ومولاي، أعتقته عمتي"[2]، وفي هذا النص إشارة واضحة الى أن زيـادا وُلد عبدا، ولكنه أعتق بعد مـولده، ومن قِبل صفية زوج الحارث، حتى أنه استطاع بحريته وماله - زمن عمر بن الخطاب - أن يشترى والديه المملوكين[3]، من صفيّة التي أعتقته من قبل.

ولاستكمال الحديث عن نسب زياد، لابـد من دراسة مـا ورد عن حياة أمه سميّـة عندمـا كانت زوجة لعبيد الـرومي، حيث وُصفت بأنها كانت امرأة بغي يتـداولها الرجال[4]، ويُذكر أن أبا سفيان خرج يوماً الى الطائف، فأصابها بنوع من أنكحه الجاهلية، فولدت له زيادا على فراش عبيد[5].

ولمحاولـة فهم هذه المسألة جيدا، لابـد من إلقاء الضوء على عادات وتقـاليد المجتمع الجاهلي، وخاصـة تلك التي تتعلق بالـزواج والنكاح، وكذلـك معاملة السـادة لعبيدهـم، لعل هـذا يفيد في تفسير العادات والظروف التي جمعت بين أبي سفيان وسميّة قبل الاسلام.

ذكر البخاري، أن من أشكال النكاح السائدة في الجاهلية نكاح الاستبضاع، وهو أن يأمر الزوج

---

(١) البـلاذرى، أنساب (محمـد حميد الله)، جــ ١، ص ٤٨٩ (قالـوا). وذكر صـاحب كتاب "تـاريخ الخلفاء" نحـوما ذكـره البلاذرى، غير أنه يسمي زوجـة الحارث "أزده". (انظر مؤلف مجهول، تـاريخ الخلفاء، ص ١٣٦). ولعله خلط بين اسم زوجته "صفية" واسم ابنته "أزده" التي كانت زوجة لعتبة بن غزوان. (انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذرى، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٢) البلاذرى، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٣ (قالوا).

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ١٨٥ (سيف).

(٤) الجاحظ، عمرو بن بحـر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، المحاسـن والأضداد، قدّم لـه وراجعه عاصم عيتـاني، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٩٥، وسيشار اليـه عند وروده هكذا: الجاحظ، المحاسن والأضـداد. البلاذرى، أنساب (احسان عباس) ص ٤، جـ ١، ص ١٩٢ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٥. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦. ابن عسـاكـر، تـاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عـوانـه). ابن الطقطقي، الفخـري، ص ١٠٩. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ ١، ص ٥٨٠.

(٥) البلاذرى: أنسـاب، (إحسان عبـاس) ق ٤، جـ ١، ص ١٩٢ (قـالوا). ابن عبـد ربه، العقـد الفريـد، جـ ٥، ص ٥، المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٦. ابن عساكر، تـاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن حجر العسقلاني، الأصابة، جـ ١، ص ٥٨٠.

زوجته – بعد أن تتطهر من حيضها – بأن تقدّم نفسها إلى أحد سادات القوم، لتستبضع منه ولدا، يحمل صفات جيدة موروثة عن والده الحقيقي[1].

ومن أنكحة الجاهلية أيضا نكاح المقسمة[2]، وفيه تجتمع الجماعة ما دون العشرة، ويدخلون على المرأة، فيصيبونها جميعا، فإذا حملت وولدت اجتمعت بهم وألحقت الولد بمن شاءت منهم، والقول في ذلك قولها[3].

ومن العادات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، أن البغايا كان لهن رايات على أبوابهن، وأطلق على بعضهن اسم "المظلمات" وذلك لتسلل الرجال إليهن في الظلام، وكان بعض الناس يضطرون جواريهم على البغاء، وهذا ما نهى الله تعالى بقوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرهن، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)[4] يريد في الاسلام[5].

إن سميّة لم تكن سوى عبدة كغيرها من العبيد الذين كانوا ملكا لساداتهم، ولهم الحق في التصرف بعبيدهم كيفما شاؤوا، وليس من المستبعد أن يكون الحارث بن كلدة قد أرغم أمته سميّة على البغاء لتحصيل ضريبة العبودية إلى سيدها، وأنها مارست عملها لدى (أبو مريم السلولي)، الذي قدمها الى أبي سفيان[6]، وقد شهد بذلك عندما استلحق معاوية نسب زياد.

ومن المستبعد أن يكون عُبيد قد طمح الى تبني ولد من صلب أبي سفيان سيّد قريش وقتذاك[7]، وذلك لأن قضية اتصال أبي سفيان بسميّة لم يكن يعلمها – كما توضح الروايات – إلاّ أبا سفيان والشهود الذين أدلوا بشهاداتهم عندما استلحق زياد، وهذا يشعرنا بأن اتصال أبي سفيان بسميّة كان

---

(١) البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، صحيح البخاري، تقديم أحمد محمد شاكر، ٩ جـ، دار الجيل، بيروت جـ٧، ص ٢٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البخاري، صحيح. الدارقطني، علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)، سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني، ٤ جـ، دار المحاسن للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م، جـ ٣، ص ٣١٦-٣١٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الدارقطني، سنن. الحلبي، نور الدين أبو الفرج علي بن برهان (ت ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م)، أنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، ٣ جـ، ط١، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٢-١٩٣٥، جـ١، ص ٥٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الحلبي، السيرة الحلبية.

(٢) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٦١، جـ ٢، ص ٢٤٦، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الشهرستاني، الملل والنحل.

(٣) البخاري، صحيح، جـ٧، ص ٢٠. الدارقطني، سنن، جـ٣، ص ٣١٧. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. الحلبي، السيرة الحلبية، جـ١، ص ٥٠.

(٤) سورة النور، آية ٣٣.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٤-٥. وانظر الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٤٦.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٢ (قالوا). المسعودي، مروج الذهب، م٣، ص ١٦. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٦، ص ٤٨٨ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٧ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩.

(٧) انظر رمزية عبد الوهاب الخيرو، إدارة العراق في صدر الاسلام، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٦٦.

على سبيل أنها كانت واحدة من البغايا في الطائف، ولم يكن ذلك لغرض الاستبضاع.

ولعدم وجود المعلومات أو الروايات التي تصرّح أو تلمح بامتلاك أبي سفيان لسميّة، أو زواجه منها قبل الاسلام، فإنه من المحتمل أن تكون سميّة قد حملت بزياد من أبي سفيان سفاحا، والله أعلم، وهي في ذلك خاضعة - كغيرها من نساء عصرها - لواقع مجتمعها وأعرافه ولم يكن ذلك المجتمع لينظر الى هذه الأمور نظرته إليها بعد الاسلام، وإنما كان يعتبرها كسائر العادات والتقاليد التي تؤلف في مجموعها العلاقات الاجتماعية لذلك المجتمع، ولا شك أننا بمقاييس العصر الحديث لا نرى أن يؤاخذ زياد بما اقترفته أمه التي لم تحترف البغاء إلاّ مكرهة بسبب العبودية، فجرى عليها ما كان يجري على كل الإماء المغلوبات على أمرهن اللواتي لا يملكن شيئاً من مصيرهن، و إنجاب هذه ومثيلاتها للنوابغ من البنين ليس مما يخالف المألوف من سنن النسب والوراثة.

مما تقدم، تتضح الأسباب التي لأجلها اختلفت المصادر والروايات في ذكرها لنسب زياد، فقد عُرف بابن سمية نسبة الى أمه سميّة جارية الحارث بن كلدة، وعُرِف بابن عبيد نسبة الى عبيد، زوج أمه عندما ولدته، ونسب الى أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، لأنه أصاب أمه بنوع من أنكحة الجاهلية. وسنلقي مزيداً من الضوء حول نسبه هذا في الفصل الثاني، وذلك عند الحديث عن مسألة استلحاق زياد أيام معاوية بن أبي سفيان.

وعن تسمية زياد بالأمير، فإننا لا نجد في المصادر ما يشير الى سبب هذه التسمية، ومن المحتمل أن يكون قد عُرف بها بعد توليه إمرة العراق زمن معاوية، وربما أطلقها عليه البعض مخافة الوقوع في الخطأ عند ذكر نسبه، أو خشية من سلطانه وسلطان أولاده من بعده، وذلك للحساسية التي كان يشعر بها آل زياد تجاه النسب، مما جعلهم يثورون لأقل تلميح، مهما كان تافها أو غير مقصود، اذا ما مس مسألة النسب أو أشار الى ماضي الأم والأب[1].

أما عن كنية زياد بإبن أبيه، فقد عُرف بها نتيجة للشكوك التي أحاطت بأبيه الحقيقي فهي حل لمشكلة نسبه الغامض، وعلى الرغم من انطواء هذا الحل على شيء من اليأس والقنوط، إلاّ أنه يعتبر أسلم الحلول، وأقربها من حيث الحقيقة التاريخية، وليس أدل على ذلك من قول الشعبي: "إن سرك أن لا تكذب، فقل زياد بن أبيه"[2]، ونحوه قول ابن الطقطقي: "ومن يتحرى الصدق يقول: زياد بن أبيه"[3]، ويبدو أن كنية زياد هذه عُرف بها بعد انقضاء الدولة الأموية[4]، وربما عقب

---

(١) انظر: ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٥٤ (الأصمعي). الأصفهاني، الأغاني، م٦، ص ٨٨.

(٢) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص ٢.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١١١.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٥٨٠.

إخراج الخليفة العباسي المهدي سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)، لآل زياد من قريش وديوانها[١].

وعلى الرغم من كل الغموض الذي نلمسه في نسب زياد، إلاّ أن تفاصيل حياته فيما بعد هجرته للعراق، تشعرنا بأنه ينتمي الى عائلة أبي بكرة، وهي من أوائل العائلات استقراراً في البصرة[٢]. هذه العائلة - كما يشهد بذلك تاريخ زياد - عاملت والي العراق لاحقاً كأخ أو على الأقل كقريب ذا صلة وثيقة بها، فقد كانت هذه العائلة تدير حسابات زياد وأملاكه، وهي التي حفظت له ثروته عندما كان والياً لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على فارس[٣]. وحينما قبض عامل معاوية - بسر ابن أرطأة - على أبناء زياد، كأداة للضغط على أبيهم المتحصن بقلاع فارس، فإن أبا بكرة هو الذي توسط عند الخليفة لإطلاق سراح أولاد أخيه[٤].

ولقد استمرت هذه الصلات الطيبة المتبادلة بين أسرة زياد وآل أبي بكرة، الى حين استلحاق معاوية لنسب زياد، على أن البرود بدأ بين الأسرتين منذ محاكمة المغيرة بن شعبة، وذلك عندما اتخذ زياد موقفا مغايراً لموقف أبي بكرة ومن معه في الشهادة على المغيرة بالزنا، مما أثار حفيظة أبي بكرة

---

(١) انظر : الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص ١٢٩-١٣٢. الأزدي، يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، لجنة إحياء التراث الاسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٢٤٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الأزدي، تاريخ الموصل. ابن الأثير، الكامل، م ٦، ص ٤٧-٤٨. أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، ٤ جـ، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، جـ٢، ص ٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ٣ جـ، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٤م، جـ١، ص ١٨٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة.

(٢) ذكرت بعض المصادر أن عبد الرحمن بن أبي بكرة كان أول من ولد بالبصرة، وهذا يشير الى الاقامة المبكرة لعائلة أبي بكره في البصرة، (انظر : خليفة بن خياط، الطبقات، ص ٩٨. البلاذرى، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ابن رسته، أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، الاعلاق النفيسة، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٩١م، أوفست مكتبة المثنى، بغداد ص ١٩٤، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن رسته، الاعلاق النفيسة. ابن حبان (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، مشاهير علماء الأمصار، صححه م. فلا يشهمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٩٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار. العسكري، الأوائل، ص ١٨١). ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلموها ١٤هـ - ٣٣٣هـ، دار منشورات البصرى، بغداد ١٩٦٢، ص ٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن الغملاس، ولاة البصرة.

(٣) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٦ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، جـ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥. ابن خلدون، محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦-١٩٦٧م، م ٣، ص ١٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن خلدون، العبر.

(٤) البلاذرى، أنساب : (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٥٠٥ (عوانه بن الحكم). أيضا، ق ٤، جـ١ (احسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٧ (مسلمة بن محارب). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه بن الحكم). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥.

وغضبه، فأقسم أن لا يكلم زياداً ما عاش[1].

وزادت القطيعة بين زياد وأبي بكرة عندما سمح الأول لمعاوية باستلحاقه بنسب أبي سفيان، ومع ذلك فإن أولاد أبي بكرة كانوا من المقربين لزياد، فإليهم أوكل أبرز الوظائف وأهم المناصب، حتى كانوا من أشراف البصرة بكثرة المال والعلم والولايات[2].

وفاتــــه

تكاد تتفق المصادر على أن وفاة زياد، كانت في سنة (٥٣هـ/ ٦٧٢م)[3]، ويذهب بعضها الى تحديد وفاته بشهر رمضان من تلك السنة[4]. إلاّ أن اليعقوبي ذكر أن زياداً توفي في سنة (٥٤هـ/ ٦٧٣م)[5]، ويتعذر قبول روايته، ليس لإجماع جُلّ المصادر في ذكرها لسنة وفاة زياد، ولكن لاختفاء أخبار زياد وغيابها عن صفحات المصادر فيما بعد سنة (٥٣هـ/ ٦٧٢م) مما يدعو إلى افتراض وفاته في تلك السنة، أي سنة (٥٣هـ/ ٦٧٢م)، ولعل وفاته كانت في يوم الثلاثاء رابع يوم من أيام شهر رمضان، وذلك وفقاً لما جاء في قصيدة رثاء له، قال فيها الشاعر :

---

(١) إبن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٦. البلاذري، أنساب، (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٢ (قالوا). البلاذري، فتوح، ص ٤٨٢ (قالوا). اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، ٢ م، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م، جـ٢، ص ٢٣٠ (روى بعضهم)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : اليعقوبي، تاريخ. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٥٨. الآبي، منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنه، ٥ جـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، جـ٤، ص ١٤٦-١٤٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الآبي، نثر الدر. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٦ (عمر بن شبه).

(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦١٥ (سعيد ابن المسيب)، ابن الأثير، أسد الغابة، م ٥، ص ١٥١. وانظر : الفصل الثالث من هذه الدراسة، ص ١٤٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات جـ٤، ص ٢٩١ (الواقدي). خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢٠٦، ٢١٨. البخاري، التاريخ الصغير، م ١، ص ١٤١. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٨ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٨ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ٣٦٨ (المدائني). الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٦. ابن حبان، محمد بن حبان (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، المجروحين، صححه عزيز بيك القادري والنقشبندي، جـ١، ط ١، المطبعة العزيزية، حيدر أباد، ١٩٧٠م، جـ١، ص ٣٠٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن حبان، المجروحين. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠ (المدائني).

(٤) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٨ (قالوا)، الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٨ (المدائني). الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٥. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ١، ص ١٩٨.

لأربع مضين من شهـر الصـوم يـوم الثـلاثـا الـذي كـان مضى
يـوم قضى فيـه المليك مـا قضى وفـاة بـرّجـد جلـد القـوى[1].

وكان سبب وفاتـه إصابته بحمى شديـدة، وظهرت في اصبعه عرفـة (أي قرحة)[2]، فلما إشتد عليه الألم، استـدعي شريح بن الحارث الكندي، واستشـاره في قطع إصبعه - وكان شريح قـاضياً وليس طبيباً - فأشار عليه أن يسأل أهل الطب في ذلك[3]، فأحضر زياد عدداً من الأطباء، وسألهم في قطع إصبعـه، فقال بعضهم لـه : "أتجد الوجع في الإصبع، أم تجده في قلبك والإصبع؟ قـال في قلبي وفي الإصبع، قـال : عش سليماً ومت سليما"[4]. وقيل أن شريحا هو الذي أشـار عليه بعدم قطع إصبعه، إذ قال له : "إن كان الأجل قد حضرك لقيت الله وقد قطعت يدك فراراً من لقائه، وإن كان الأجل متأخراً عشت أجذم، فعُيّر بذلك ولدك"[5].

ويبدو أن زياداً عمل بنصيحـة مستشارية من الأطباء وغيرهم ولم يقطع إصبعـه، فمكث أياماً، ثم مات بالكوفة[6]، وكان قد أوصى قبل موته أن يـدفن الى جوار أبي موسى الأشعري[7]، فدفن في الثويه، وهو الموضع نفسه الـذي دفن فيه أبو موسى[8] وصلى عليه خـالد بن عبد الله بن خـالد بن

---

(١) البياسي، يوسف بن محمد (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، الإعلام بـالحروب الواقعة في صدر الاسلام، تحقيق شفيق جاسر أحمد، ٢ جـ، ط ١، عمان، ١٩٨٧م، جـ١، ص ٣١٦ (المدائني)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البياسي، الإعلام بالحروب.

(٢) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٦ (قـالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٩ (عمر بن شبه). ابن عبـد ربه، العقـد الفريـد، جـ١، ص ٨٢. أيضـا جـ٥، ص ١٢. ابن عسـاكر، تـاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شوذب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣.

(٣) البلاذرى، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٦ (قالوا).

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١١٤ (المدائني). البـلاذرى، أنساب (إحسان عباس) ق ٤، حـ١، ص ٢٧٦-٢٧٧ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٦.

(٥) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٧ (قالوا). وانظر : الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٩ (عمر ابن شبه). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ٣٦. ابن الأثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٩٤. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٦٤.

(٦) ابن قتيبـة، عيـون الأخبـار، م ٢، ص ١١٤ (المدائني). البـلاذرى، أنسـاب (إحسـان عبـاس) ق ٤، جـ١، ص ٢٧٦ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شوذب).

(٧) البلاذرى، أنساب، (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٨٠.

(٨) الثويّة : موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة، وقيل موضع من وراء الحيرة، قريب من الكوفة، ويذكر البعض أنها كانت سجنا للنعمان بن المنذر، وفيها دفن المغيرة بن شعبة، وأبي موسى الأشعري، وزياد بن أبيه، قال حارثة بن بدر الغداني، يرثي زيادا :

صلى الأله على قبر وطهره عند الثوية يسفي فوقه المور.

انظر : البكـرى، عبد الله بن عبد العـزيز (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، معجم مـا استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق

أسيد(١)، وكان زياد قبيل وفاته قد أدلى بوصيته الى الناس، وأمرهم بحفظها، وتدبر معانيها، ومما جاء فيها : "ان الله عز وجل جعل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، فالناس بين محسن بنعمة الله عليه ومسيء بخذلان الله إياه، ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء..."(٢). كما كتب زياد الى معاوية - وهو في ساعات احتضاره - كتاباً ينم عن إخلاصه في عمله، وأمانته في تنفيذ واجباته الموكلة إليه، فقد كتب "أما بعد، فاني كتبت اليك، وأنا في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة، وقد وليت الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد، ووليت البصرة سمرة ابن جندب الفزاري، والسلام"(٣).

ولما بلغ معاوية موت زياد استرجع وقال - معبراً عن الوحدة التي ألمت به بوفاة زياد - :

وأفردْتُ سهما في الكنانة واحدا　　　سيرْمي به أو يَكْسر السهم كاسره(٤)

ولم يكن معاوية وحده الذي افتقد شخص زياد وادارته المتميزة، بل أن السواد الأعظم من الرعية أيضا أعظموا موته وحزنت صدورهم له، فكثر "بكاء الناس رجالهم ونسائهم عليه"(٥)، وفي ذلك

= مصطفى السقا، ٢ جـ، عالم الكتب، بيروت، جـ١، ص ٣٥٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البكري، معجم ما استعجم. وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٨٧. ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ٣ جـ، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤، جـ١، ص ٣٠٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا : ابن عبد الحق، مراصد الأطلاع).

(١) الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، كتاب نسب قريش، عني بنشره وتحقيقه إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ١٨٨، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الزبيري، نسب قريش. البلاذري، أنساب، (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٦. أيضا (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٦. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٦، ص ٥٠٨ (أبو عبيد).

(٢) الجاحظ، البيان، جـ١، ص ٣٨٧-٣٨٨ (عمر بن عبيد). البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٩ (العتبي). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٦، ص ٥٠٧ (الشافعي).

(٣) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٥ (قالوا). وانظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٦. الصابيء، أبي الحسن محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)، الهفوات النادرة، تحقيق صالح الاشتر، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧م، ص ٨٣-٨٤ (عوانه بن الحكم)، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الصابيء، الهفوات النادرة.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٤٧ (مسلمة بن محارب)، وأيضاً ص ٢٧٩. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، التعازي والمراثي، تحقيق محمد الديباجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م، ص ٥٢ (مسلمة بن محارب)، أيضا ص ١٤٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : المبرد، التعازي والمراثي.

(٥) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٨. وانظر القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م، ص ٢٥٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : القزويني، آثار البلاد.

يقول حارثة بن بدر الغداني[1]، راثيا زياد :

عمت فواضله فعمّ مُصابهُ　　　فالناس فيه كلهم مأجور
ردّت صنائعهُ إليه حياته　　　فكأنه من نشرها منشور[2].

ومن المراثي المستحسنة، قول حارثة بن بدر أيضا يرثي زياداً :

أبا المغيرة والدنيا مغيّرة　　　وإن من غرّت الدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة　　　وكان عندك للنكراء تنكير[3]
لو خلّد الخير والاسلام ذا قدم　　　إذا لخلدك الاسلام والخير[4].

وقال مسكين الدارمي[5] حين بلغه موت زياد :

رأيت زيادة الاسلام ولّت　　　جهارا حين ودعنا زياد[6].

وكان زياد في حياته ميسور الحال، لم يتكلّف كثيراً في عيشه، حتى قيل أنه أول من لبس الكتان

---

(١) حارثة بن بدر الغداني : من سادات بني تميم ووجوهها، ربما أدرك النبي ﷺ وهو في صباه وحداثته " وليس بمعدود في فحول الشعراء، ولكنه كان يعارض نظراءه الشعر" وكانت له مكانة خاصة عند زياد، فقد قربه اليه - رغم تناوله الشراب - لرأيه وعلمه، حتى أنه حوّل ديوانه في قريش، وعندما وُلي عبيد الله بن زياد، أخّر حارثة بعض التأخير لمعاقرته الشراب، (انظر : الأصفهاني، الأغاني، جـ٢٣، ص ٤٤٤-٤٤٧).

(٢) الشريف المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، غرر الفوائد ودرر القلائد (أو أمالي المرتضى)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢ ق، ط ١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٤م، ق ١، ص ٣٨٧، وسيشار إليه عند وروده هكذا : الشريف المرتضى، أمالي المرتضى.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٧ جـ، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، جـ٧، ص ١٥٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الجاحظ، الحيوان. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٨١ (المدائني). المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م، جـ١، ص ٣١٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : المبرد، الكامل. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص ٢٤١. (الهيثم بن عدي).

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٣، ص ٢٤١ (الهيثم بن عدي)، أيضاً جـ٣، ص ٢٩٧.

(٥) مسكين، لقب غلب على اسم الشاعر ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي "وهو شاعر شريف من سادات قومه، هاجى الفرزدق ثم كافه، فكان الفرزدق يعد ذلك في الشدائد التي أفلت منها"، (انظر : الأصفهاني، الأغاني، م ٢٠، ص ١٦٧-١٦٨).

(٦) أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م)، النقائض، باعتناء المستشرق الانكليزي بيفان، ٣ م، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥، جـ٢، ص ٦٢١، وسيشار اليه عند وروده هكذا : أبو عبيدة، النقائض. ابن سلام الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ٢ جـ، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، جـ١، ص ٣٠٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن سلام، طبقات فحول الشعراء. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، ص ٢٨٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٩٠ (عمر بن شبه). العسكري، أبو هلال حسن بن عبدالله (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، جمهرة الأمثال، بهامش كتاب مجمع الأمثال للميداني، ٢ جـ، المطبعة الخيرية، ١٣١٠هـ، جـ١، ص ١٤٩، وسيشار إليه عند وروده هكذا : العسكري، جمهرة الأمثال.

والخفاف الساذجة من أمراء البصرة(١). وذكر البلاذرى أن زياداً عندما مات كان لا يملك من الدنيا إلاّ أقلهـا، فلم يخلف مـن المال أكثـر مـن عشرة آلاف درهـم "ولم يترك من الكسـوة غير قميصين وإزارين وسروالين "(٢)، وكان - بحكم منصبه - قادراً على احتواء الكثير من الاموال والأملاك إلاّ أنه يلجأ الى ذلك، وإذا كـان قـد أقطع بعض الضيـاع والأنهار لعـدد من أبنـائه وبنـاتـه، كما أقطع غيرهـم(٣)، فهذا دليل على اهتمامـه بالأرض، وتشجيع الناس على زراعتها واستصـلاحها، ولا يدل هذا على سعي زياد لجمع الأموال واقتنـاء الأملاك كما يزعم اليعقوبي، الذي ذكر أنه كـان لزياد نحو ستة آلاف ألف دينار، سوى الضياع التي كان يمتلكها في سائر العراق(٤)، وكان زياد يقول "ما دام سلطاننا فالدنيا كلها لنا، فإذا زال عنا، فالذي يجزينا من الدنيا أقلّها "(٥).

نشأته وأهـم أعماله في العصر الراشدي

قبل الشروع في الحديث عن أهم الأعمال التي تـولاها زياد في العصر الـراشدي، لابـد من إعطاء صورة عن صفات زياد وأخلاقه، هذه الأخـلاق التي كان لها أكبر الأثر في بروز شخصيته وفي توليه لوظائف ومناصب هامة في العصر الراشدي.

كان زياد طويلا جميلا، فيه حُمْرة أبيض اللحية مخروطها(٦)، يكسر احدى عينيه، وفي ذلك يقول الفرزدق للحجاج :

وقبلك ما أعييت كاسر عينه   زيادا فلم تقدر عليّ حبائله(٧).

والى جانب هذه الملامح الجسـدية، نجد أن شخصية زياد تنطوي على العـديد من الخصال التي

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٤. ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٩٢. العسكري، الأوائل ص ٢٣٨.

(٢) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٨٢ (قالوا).

(٣) انظر البلاذرى، فتوح، ص ٥٠٥-٥٠٧.

(٤) انظر اليعقـوبي، احمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، مشاكلـة الناس لزمـانهم، تحقيق وليم ملورد، ط ٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٠م، ص ١٧، وسيشـار اليه عند وروده هكذا : اليعقـوبي، مشاكلة الناس لـزمانهم. ابن الزبير، أحمد بن الرشيد (ت ق ٥ هـ/ ق ١١م)، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميـد الله، مراجعة صلاح الدين المنجد، جـ١، مطبعة حكـومة الكويت، الكـويت، ١٩٥٩م، جـ١، ص ٢٠٧، وسيشار اليه عنـد وروده هكذا : ابن الزبير، الـذخائر والتحف.

(٥) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٨٢ (قالوا).

(٦) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٩٠ (عبد الله بن أحمد). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٤. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٤٤.

(٧) أبو عبيدة، النقائض، جـ٢، ص ٦٠٧. الجاحظ، البيـان، جـ١، ص ١٩٦، ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ١٧١ (قال بعضهم). البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٥ (أبو اليقظان). وكيع، محمد بن خلف (ت ٣٠٦هـ/ ٩١٨م)، أخبار القضاة، تحقيق عبـد العزيز المراغي، ٣ جـ، ط ١، مطبعة الاستقامـة، القاهرة، ١٩٤٧م، جـ٣، ص ٤ (محمد بن أبي علي)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : وكيع، أخبار القضاة.

امتازت بها قبيلة ثقيف في الاسلام، ومـن أبرز هذه الخصال : الدهاء . فقد كـان زياد ممن عُرف من العـرب بالـدهاء، وسعـة الحيلة وفي ذلك يقـول الشعبي : "دهـاة العرب أربعـة : معاويـة بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد" قال : "وأما زياد فللصغيرة والكبيرة" (١).

وكان زياد رجلا عاقلا في دنياه، يضرب به المثل في حسن السياسية، ووفور العقل وحسن الضبط لما يتولاه، حتى قيل "أسـوس من زياد" (٢)، وقال معـاوية يصف سياسـة زياد، وأسلوبـه في معالجة الأمور : "إن زيـاداً لا يدع الأمر يتفـرق عليه" (٣)، وهو يـرى أن الانسان العاقل هو الـذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها، وليس العاقل الذي يحتال للأمر اذا وقع فيه(٤).

ومن الصفـات التي تتميز بها شخصيـة زياد أيضـا البلاغـة والخطابـة، فهو يُعـد أحد الخطبـاء اللامعين المشهورين في العرب بالفصاحة والنجابة وبراعة المنطق ومتانة الشخصية، مما جعله موضع ثقة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وحسبُـه عظمة أن ينال ثقة هذين الرجلين الجليلين. سمعه بعض الصحابة خطيباً، فأدهشهم بفصـاحته وجرأته، حتى وصفه عمر رضي الله عنه بـ "الخطيب المصقع" (٥) - أي الفصيح -، وقال عنـه عمرو بن العـاص، "لله هذا الغـلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه" (٦). وأثنى الشعبي على فصاحة زياد بقوله : "ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن الاّ أحببت أن يسكت خـوفـاً أن يسيء الاّ زياداً، فـانه كـان كلما أكثر كان أجود كلاما" (٧).

---

(١) ابن عبـد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦. الطـرطوشي، محمـد بن محمد بن الـوليد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، سراج الملوك، ط ١، المكتبـة العربيـة ومطبعتها، القاهـرة، ١٩٣٥م، ص ١٢٧، وسيشار اليه عنـد وروده هكذا : الطـرطوشي، سراج المملوك. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٩٣. ابن تغـرى بردى، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـرة، ١٢ جـ، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩-١٩٥٦م، جـ ١، ص ٧٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٢٠٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(٢) الـراغب الأصبهـاني، حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)، محاضرات الأدبـاء ومحاورات الشعـراء والبلغاء، ٤ جـ، منشورات دار مكتبـة الحياة، بيروت، جـ ١، ص ١٦٨، وسيشار اليـه عند وروده هكذا : الـراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء. وانظر ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١١١.

(٣) الأبي، نثر الدر، جـ٣، ص ٢٣.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص ٢٤١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٨ (سفيان بن عيينه).

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٣٠ (سيف). ابن مسكويه، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، تجارب الأمم، لوزاك، لندن، ١٩٠٩م، جـ١، ص ٤٠٠، وسيشار اليه عند وروده هكـذا : ابن مسكويه، تجارب الأمم. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤ (سيف). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٧٢ (الشعبي).

(٦) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكـر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧. ابن الوردي، تاريخ، جـ١، ص ١٦٨.

(٧) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٥-٦٦. ابن بكار، الأخبـار الموفقيات، ص ٣١٠. إبن قتيبة، عيـون الأخبار، م ٢، ص ١٧١.

ولم يكن زياد فصيحا بليغا في خطبة فحسب، بل أن هذه الصفة لازمته في مجالسه، وأثناء حديثه مع الآخرين، وكان يسخر ممن لا يجيد اللغة، ولا يحبذ مجالسته[١]، ولعل زياداً أدرك في زمنه تغيّر لغة الناس، ودخول الألفاظ الغريبة في كلام بعضهم نتيجة مخالطة العرب للعجم، فأمر أبا الأسود الدؤلي – بعد أن كان قد منعه من قبل – أن يضع للناس شيئاً يهتدون به، الى معرفة كلام العرب، فوضع لهم النحو[٢].

ويُعد زياد من الأكفاء في دولة بني أمية، وذلك لأنه جمع بين البلاغة والسياسة وتدبير الحرب[٣]، الأمر الذي مكنه من تدبير أمور رعيته ومملكته بحكمة المدرب العالم.

وكان زياد منذ صباه وفتوته، ذكيا، فطنا، متوقد الذهن، حازم الرأي، صارم العزيمة، اذا اقتنع بالرأي فرضه، فهو القائل: "... ولا حدثت نفسي بأمر قط، فحدثت به غيري، حتى أصير اليه"[٤] وهو الى جانب هذا، سريع البديهة، حاضر الجواب، فما من كلام الاّ وله عنده جواب[٥].

واضافة الى كل مقومات رجل الدولة التي عُرف بها زياد، فإننا نجده رجلا نبيلا، وسطا في كرمه وجوده، يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما، ويمنع اليسير والقليل ما كان عطاؤه تضييعا. وقد قيل عنه أنه "يُعطي حتى يقال جواد، ويمنع حتى يقال بخيل"[٦]، وفي مدح جوده وسماحته قال أحدهم:

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣٠٣ (أحمد بن العباس العسكري). السيرافي، الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد ابراهيم البنا، ط ١، دار الاعتصام، ١٩٨٥م، ص ٣٥-٣٦ (يحيى بن آدم)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: السيرافي، أخبار النحويين البصريين. الزبيدي، محمد بن الحسن، (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ١، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤م، ص ١٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين. القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إنباه الرواه على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ٣ جـ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٥م، ص ١٥-١٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: القفطي، إنباه الرواه. وانظر الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ٢٣ جـ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، جـ ٤، ص ٨٤ (عمر بن شبه)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الذهبي، سير أعلام النبلاء.

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، كتاب تحفة الوزراء، المنسوب للثعالبي تحقيق حبيب على الرواي، وابتسام مرهون الصغار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م، ص ٢٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الثعالبي، تحفة الوزراء.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٤) ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٩٨ (شعبة بن الحجاج).

(٥) المصدر نفسه، م ٦، ص ٥٠٠ (العتبي).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٩٠ (المدائني). ابن الأزرق، محمد بن علي (ت ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، ٢ جـ، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م، جـ ١، ص ٢١٧. وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الأزرق، بدائع السلك.

اذا كنت مرتاد السماحة والندى فبادر زياداً أو أخا لزياد
يجبك امرؤ يعطي على الحمد ماله إذا ضنّ بالمعروف كل جواد(١)

ولقد كان زياد بهذه الخصال المحمودة امرءاً متواضعاً بسيطاً في أسلوبه، وفي تصريف أمور حياته، فهو أول من رقع ثيابه، ولبس الكتان والخفاف الساذجة - التي لا نقش عليها - بالبصرة من الأمراء(٢). وقد وصفه قبيصة بن جابر الأسدي أجمل وصف حين قال: "وصحبت زيادا، فما رأيت رجلا أخصب رفيقا، ولا أكرم جليسا، ولا أشبه سريرة بعلانية منه"(٣). هذه هي أبرز الصفات التي ميّزت شخصية زياد، وهي صفات اذا ما تمتع بها المرء، فانه يزهو ويظهر على أقرانه، واذا ما زجتها وقوّتها إرادة ومعرفة وعلم زادتها اشراقاً وروعة، وقد جسّد حارثة بن بدر الغداني - أحد أشراف بني تميم - هذه الخصال في قصيدة مدح فيها زياداً، ووصفه بأنه وزير نعم الوزير لأخيه الخليفة معاوية(٤). تلك كانت صورة زياد بين صور رجالات عصره، وإذا كان أعداؤه من أنصار بني أمية ومناهضيهم قد حاولوا وصفه بما ليس فيه، مدفوعين الى ذلك ببواعث مختلفة، فأن هذا لا ينال من قدره ومن صفاته التي تشهد عليها أعماله.

إن الذي بين أيدينا من أخبار التاريخ ليس كافياً لرسم سلسلة متصلة لحياة زياد، فالمصادر العربية لا تذكر عن صباه ونشأته الأولى في الطائف شيئاً، على أن توليه الحساب والكتابة لأمراء

---

(١) التنوخي، المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٠م، ص ٢٣٥ (الشيباني)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: التنوخي، المستجاد. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٣ (مسلمة بن محارب). أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد، (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)، الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، ٣ جـ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، جـ٣، ص ٨٢ (ابن الأعرابي) وسيشار اليه عند وروده هكذا: أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٤. ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١٩٢. المرزباني، محمد بن عمدان (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، نور القبس المختصر من المقتبس، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد اليغموري (ت ٧٦٣هـ/ ١٢٧٤م)، تحقيق رودلف زلهايم، دار النشر فرانس شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٤م، ص ١٨٤، ٢٦٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المرزباني، نور القبس. العسكري، الأوائل، ص ٢٣٨. القلقشندي، أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، جـ١، ص ٤٨٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

(٣) البسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٣ م، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، م ١، ص ٤٥٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البسوي، المعرفة والتاريخ. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١١٩، ٢٧٩. أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، جـ٣، ص ٤٥. الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣.

(٤) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٣-٢٢٤. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤١-٢٤٢.

البصرة - منذ تأسيسها - وإجادته لهما في هذه السن المبكرة، أمر يدعو الى الاعتقاد أن زياداً قد تعلم القراءة والحساب في كتّاب من كتاتيب الطائف في أيام صباه.

وأول ذكر لزياد في المصادر يرد في أمر إسلامه، حيث يذكر البلاذرى نقلا عن المدائني، أن زياداً أسلم في الطائف، وهو ابن خمس سنين[1]، ورواية المدائني هذه يتعذر قبولها، لأن اسلام أهل الطائف كان في سنة (٩ هـ/ ٦٣٠م)[2]، ثم ان أبا بكرة أخا زياد لأمه أسلم حينما حاصر المسلمون الطائف في شوال سنة (٨ هـ/ ٦٢٩م)، حيث نزل الى الرسول (ﷺ) فيمن نزل من عبيد أهل الطائف[3]، ولم يُذكر أن زياداً قد أسلم معه، وتشعر رواية المدائني أن زياد أسلم بمفرده ودون أهله، وهذا أمر لا يعقل، إذ لا يمكن أن يكون قد اعتنق الاسلام، وهو طفل في الخامسة من عمره، بينما لا يزال أهله على الشرك، والأرجح أنه أسلم مع أهله من ثقيف سنة (٩ هـ/ ٦٣٠م)، وذلك عندما أسلمت الطائف برمتها، وهو يُذكر بين الذين أدركوا النبوة وليست لهم صحبة أو رواية[4].

وإذا استثنينا ما ذكره المؤرخون عن مولد زياد وإسلامه، فإننا لا نجد له ذكر في الفترة التي سبقت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخباره ترد ويتوالى ذكرها بعد خروجه مع عتبة بن غزوان الى البصرة، فبعد أن فتح الله عز وجل على المسلمين مدينة الحيرة[5] وما حولها، وقتل عظيمها مهران، وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (١٤هـ/ ٦٣٥م)، عتبة بن غزوان المزني - من الصحابة الأولين - الى ناحية البصرة، ليقود الحركات الاسلامية في تلك المنطقة وليمنع امداد أهل فارس لقومهم في المدائن ونواحيها[6]، وقد قدم في صحبة عتبة - الذي كان متزوجاً من أزدة بنت الحارث ابن كلدة - عدد من أصهاره، وهم نافع ونفيع "أبو بكرة"، وأخيهما لامهما زياد، وكان عمره حينئذ نحو أربع عشرة سنة[7].

---

(١) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٧٥ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٩٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٨٩ (قالوا). البلاذري أيضا، فتوح، ص ٧٤-٧٥. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٧٢.

(٤) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤٩٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ١٢. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، لسان الميزان، ٧ جـ، ط ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١م، جـ٢، ص ٤٩٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان.

(٥) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع النجف، وهي مسكن ملوك العرب قبل الاسلام، من زمن نصرّ ثم من لخم النعمان وآبائه. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٢٨).

(٦) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٦. الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٠-٥٩١ (الشعبي). المسعودي، مروج الذهب، م ٢، ص ٣٢٨ (المدائني). محمد رزوق الشيخلي، تاريخ البصرة القديم وضواحيها، البصرة، ١٩٧٢م، ص ١٢، وسيشار إليه عند وروده هكذا: الشيخلي، تاريخ البصرة القديم.

(٧) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٨. البلاذرى، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٧ (قالوا). والبلاذرى أيضا، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٢. بينما ذكر المدائني أن أزدة بنت الحارث كانت زوجة لشبل بن معبد البجلي، وأن أختها صفية، هي زوجة عتبة بن غزوان. (انظر الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٧).

وتختلف المصادر في عدد أفراد القوة التي صحبت عتبة، فالشعبي يذكر أنها بلغت الثلاثمائة رجل(١)، ويؤكد ابن اسحاق والواقدي، أن عتبة خرج في ثمانمائة رجل(٢)، ويبدو أن قوات عتبة بدأت بثلاثمائة مقاتل، ثم تزايد عددها بما انضم إليها في الطريق(٣). حتى بلغت عند وصولها للبصرة ثمانمائة رجل، وهو عدد متواضع نسبياً.

ولما بلغ عتبة منطقة البصرة، أراد ابتداء أن يتخذ قاعدة لتحركاته، فنزل الخريبة(٤)، وأقام بها معسكراً لجنده، ثم قام بعدة غارات على البلاد المجاورة، استطاع من خلالها أن يفتتح العديد من المدن والبلدان، على الرغم من قلة المقاتلة معه، وكانت الأبلة أول المدن التي افتتحها عتبة، وهي يومئذ المرفأ الرئيس للتجارة مع الهند والصين، وكان عليها خمسمائة من الأساورة لحمايتها(٥)، فقاتلهم عتبة بمن معه حتى هزمهم، فدخل المدينة عنوة(٦). أعقب ذلك فتح مدينة الفرات الواقعة على شط العرب، وكان على مقدمة الجيش الذي افتتحها مجاشع بن مسعود السلمي، أحد قادة عتبة(٧).

استمر عتبة في غاراته فاحتل المذار(٨)، ودست ميسان(٩)، وأبرقباذ(١٠)، دون أن يلقى مقاومة

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩١. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٤٨٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ٦ (الواقدي). البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق) بينما يذكر ابن الفقيه أن عتبة فتح البصرة في أربعين رجلا. (انظر مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٧. وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣١).

(٣) ذكر الشعبي، أن عتبة خرج من المدينة في ثلاثمائة رجل، وانضم اليه قدر مائتين من الاعراب وأهل البوادي، أثناء توجهه الى منطقة البصرة. (انظر الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩١. العسكري، الأوائل، ص ٢٢٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧). وذكر ابن سعد، أن عمر كان يمد عتبة وهو في البصرة بالمائة والخمسين رجل ونحو ذلك. (انظر الطبقات، جـ ٧، ص ٧).

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٧ (أبو اليقظان). البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٧. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٤ (الشعبي). المسعودي، مروج، م ٢، ص ٣٢٩ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٦. والخريبة: موضع بالبصرة، سميت بذلك لأن المرزبان كان قد ابتنى فيها قصرا له، وخرب بعده، فلما نزل المسلمون البصرة سموها الخريبة. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٦٣).

(٥) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٨ (محمد بن اسحاق). الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الاثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٦ (المدائني). البلاذري، فتوح، ص ٤٧٧ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٦. البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٧. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٥ (علي بن زيد).

(٨) المذار: هي قصبة ميسان، تقع بين واسط والبصرة على ضفة دجلة، بينها وبين البصرة مسافة أربعة أيام (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٨٨. وانظر الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٥٣٠-٥٣١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الحميري، الروض المعطار).

(٩) دست ميسان: كورة تقع بين واسط والبصرة والأهواز، وهي الى الأهواز أقرب، وقيل دست ميسان كورة قصبتها الأبلة. (انظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٥٥. وانظر ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ٢، ص ٥٢٦).

(١٠) أبرقباذ: من طساسيج المذار بين البصرة وواسط. (انظر ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ١، ص ١٥).

شديدة[١]، ثم انصرف الى موضعه من البصرة، وكتب الى الخليفة عمر يعلمه بها فتح الله عليه من البلاد[٢]، وكان المسلمون قد أصابوا غنائم كثيرة في تلك الفتوحات[٣] التي تيسرت نتيجة لضعف وتخاذل الساسانيين في هذه الناحية.

وذكر كل من عوانة والمدائني أن المسلمين بعد أن فرغوا من فتح الأبله والفرات، وظفروا بغنائم كثيرة لم يجدوا بينهم من يجيد القراءة والحساب الاّ زياداً "فوُلّيّ قسم ذلك المغنم وجعل له كل يوم درهمان وهو غلام في رأسه ذؤابة"[٤]، ويضيف المدائني أن زياداً كان "ابن أربع عشرة سنة"[٥]، ويفيد ما ذكره عوانة والمدائني أن زياداً قد رافق جيش عتبة في كل تحركاته، وذلك ليتولى بنفسه قسمة أي مغنم قد يحرزه المسلمون، هذا في الوقت الذي لم يكن بينهم من يتقن هذه الصناعة سواه[٦]. والواقع أن مهمة زياد لم تكن سهلة كما تبدو، فالغنائم التي ظفر بها المسلمون بعد فتح هذه المقاطعات استخدمت لسد مصروفات الحملة التي أخذ عددها يتزايد تدريجياً بما ينضم الى لوائها من العرب[٧]، فلا بد والحال هذه أن يكون المشرف على قسمة تلك الغنائم عارفا بأمور الكتابة والحساب، وتنظيم السجلات تنظيماً جيداً، وقد كان هذا أول عمل قام به زياد، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على قابلياته المبكرة لتولي الأعمال الادارية وقدرته على تحمل مسؤولياتها، والقيام عليها قيام المتدرب الجاد على الرغم من حداثة سنه.

ويظهر أن زياداً قد أتقن مهمته التي افتتح بها حياته الادارية، وأبدع فيما تولاه من الكتابة، وقسمة الغنائم وأن عمر (رضي الله عنه) قد بلغه ما قام به زياد، وهو الذي كتب إليه كتابا بالفتح[٨]، فأعجب بقدرته وكفاءته.

---

(١) انظر البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٨ (ابن اسحاق). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٤٣. الطبرى، تاريح، جـ ٣، ص ٥٩٥ (علي بن زيد). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٨٨. بينما ذكر خليفة بن خياط، أن المغيرة بن شعبة هو الذي فتح ميسان ودست ميسان وأبرقباذ وشطي دجلة، وذلك في ولاية عتبة. (انظر تاريخ خليفة بن خياط، جـ ١، ص ٩٦). ومن المحتمل أن يكون عتبة قد قسم جيشه الى قسمين: أحدهما بقيادته وعلى مقدمته مجاشع السلمي، والآخر بقيادة المغيرة، والذي تمكن من فتح ميسان ودست ميسان وأبرقباذ.

(٢) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٨.

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٤ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٧.

(٤) البلاذرى، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانة). الطبرى، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٧ (المدائني). وذكر صاحب كتاب "تاريخ الخلفاء" أن زيادا تولى أيضا قسمة الغنائم بين المسلمين بعد فتحهم لدست ميسان، لقاء أجر مقداره درهمين في كل يوم. (مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٧).

(٥) الطبري، تاريخ، جـ ٣، ٥٩٧.

(٦) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٧ (قالوا).

(٧) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٩٥ (أبو المليح الهذلي). وانظر صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٣٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: صالح العلي، التنظيمات.

(٨) انظر البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٧ (قالوا).

وعندما كانت وقعة القادسية، بعث عمر الى سعد بن أبي وقاص مجموعة من خيرة الرجال، ليكونوا عوناً له في تسيير الأمور الادارية والمالية للمقاتلة، فجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، واليه جعل أيضاً قسمة الفيء وعينّ سلمان الفارسي رائداً ودليلاً للناس، وهلال الهجري ترجمانا، وزياد كاتبا[1]، هذا ما ذكره الطبري نقلا عن سيف، وهو يشعر أن عمر أرسل هؤلاء الرجال من طرفه - أي من المدينة - إلاّ أن زياداً في تلك الآونة - وكما تشير الأحداث - كان في صحبة عتبة بناحية البصرة، ويحتمل أن يكون قد وفد الى المدينة، وأن عمر عينه كاتباً لسعد وألحقه به، ولكن الأرجح أن زياداً وفد - بعد أن صدر أمر الخليفة بتعيينه كاتبا - مع المدد الذي بعث به عتبة الى سعد بقيادة المغيرة بن شعبة[2].

ومهما يكن من أمر، فان تعيينه كاتباً من قبل الخليفة الفاروق، أمر يشير الى حقائق هامة في حياة زياد، ليس أقلها أهمية من ثقة الخليفة به وبقدرته فيما ولاه إيّاه.

بعد أن استقرت أمور المسلمين بالبصرة، واستتب الأمن والنظام في المنطقة، استأذن عتبة بن غزوان الخليفة عمر في القدوم عليه والحج، فأذن له، فاستخلف عتبة مجاشع بن مسعود السلمي - وكان غائباً عن البصرة -، وأمر المغيرة بن شعبة بالصلاة في الناس الى حين قدوم مجاشع[3]، ويبدو أن أهل ميسان قد استغلوا فرصة غياب عتبة، فجمعوا جموعهم لمقاتلة المسلمين، ولكن المغيرة عاجلهم بالقتال، فهزمهم قبل قدوم مجاشع - وكان بالفرات -، وبعث بالفتح الى عمر[4].

أما عتبة، فقد توفي وهو عائد في طريقه الى البصرة، بعد أن أدى فريضة الحج[5]، فلما علم عمر بوفاته كتب الى المغيرة بن شعبة بعهده على البصرة[6]، وظلّ المغيرة أميراً على البصرة نحو عامين، كان

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٤٨٩. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٥٣. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٧.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٠٢ (ابن اسحق). البلاذري، فتوح، ص ٣٥٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. وذكر الدينوري أن عمر رضي الله عنه كتب الى أبي موسى الأشعري يأمره بامداد سعد، فوجه اليه أبو موسى المغيرة بن شعبة في ألف فارس. (انظر الأخبار الطوال، ص ١٢٠).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٨. البلاذري، فتوح، ص ٤٧٧ (المدائني)، أيضا ص ٤٧٨ (قالوا). أيضا ص ٤٧٩ (عوانه). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٦ (عبد الرحمن بن جوشن). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٤٨٨.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. الطبري، تاريخ جـ٣، ص ٥٩٦. (عبد الرحمن بن جوشن). وينفرد البلاذري بذكر رواية مفادها، أن دهقان ميسان كفر ورجع عن الاسلام، فلقيه المغيرة وقتله. انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٧٩ (عوانه). لكننا لم نجد إشارة في المصادر الأخرى الى اسلامه حين الفتح أو بعده ولعله كان ناكثاً للعهد، ولم يكن مرتدا.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٨. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٥. البلاذري، فتوح، ص ٤٧٨ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٥-٥٩٦ (علي بن زيد). العسكري، الأوائل، ص ٢٢٥ (قالوا). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ٩٤٣.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٥. البلاذري، انساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٧ (قالوا). البلاذري أيضا، فتوح، ص ٤٧٩-٤٨١ (عوانه). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٥٩٧. العسكري، الأوائل، ص ٢٢٥ (قالوا). المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص ١٧٥.

زياد خلالها يمارس مهمة الكتابة له[1]. وذكر سيف حوالي سنة (١٦هـ/ ٦٣٧م)، - قبل جلولاء أن زيادا هو "الذي كـان يكتب للناس، ويدونهم"[2]، وأورد ابن قتيبـة أن المغيرة "أول من وضع ديوان البصرة"[3]، هذا في الوقت الذي كان فيه زياد كاتباً له، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن زياداً هو الذي قـام بعمل سجل المقـاتلين في البصرة أثناء ولايـة المغيرة، لا سيّما وأنه صاحـب خبرة ودراية في مجال عمله، الذي تولاه منذ أيام عتبة بن غزوان.

والكتابة ليست بـالمهمة السهلة، فالكاتب هو العقل المعبر عن رأي الأمير وفكـره، وهو النائب عنه في أموره، واليـه تصل كتب ورسائل العمال والولاة، وعنه تصـدر الأجوبة[4]، والكتابة صناعة جليلة ذات منزلة رفيعـة، وقد قيل في علوّ مرتبتها أنها "أشرف مراتب الـدنيا بعد الخلافة"[5]، وإذا كانت الكتـابة من بين سائر الصنـاعات بهذه المرتبـة الشريفة، فان الكتـاب كانوا كـذلك بين سائر الناس، إذ ينبغي أن يكـون الكاتب: أديبا، فصيحـا، جريئـا، حاد الذهن قـوي النفس، حاضر الحسّ، كـريم الأخـلاق، حسن الخط، بهي الملبس، الى غير ذلك مـن الصفـات الحميـدة والكريمة[6].

لقد جسّد زيـاد في شخصه كل أنواع الذكـاء والمرونة والحزم المنسوبة للثقفيين، ومعرفتـه للكتابة والحساب تـوضح ذلك بجلاء، هـذه المعرفة جعلتـه في مصاف الموظفين الكبـار، كاتب وأمين على الأموال لـدى العديـد من الولاة كالمغيرة، وأبي مـوسى الأشعري، وعبـد الله بن عامـر، وعبد الله بن عباس[7].

---

(١) ابن حبيب، محمـد بـن حبيب (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، المحبر، "روايـة أبي سعيـد الحسـن بن الحسين السُكـرى)، إعتنى بتصحيحه إيلزه ليختن شتيتر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، ١٩٤٢م، ص ٣٧٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابـن حبيب، المحبر. ابن قتيبة، المعـارف، ص ٣٤٦. البلاذرى، أنسـاب (إحسان عبـاس)، ق ٤، جـ١. ص ١٨٧ (قالـوا). الدينورى، الأخبار الطـوال، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقـد الفريد، جـ٤، ص ١٦٧. الثعـالبي، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، لطائف المعـارف، تحقيق ابراهيم الأبيـاري، وحسن الصيرفي، دار احياء الكتب العربيـة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م، ص ٦٠، وسيشار اليه عنـد وروده هكذا: الثعـالبي، لطائف المعـارف، ابن عساكر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

(٢) الطبرى، تـاريخ، جـ٤، ص ٢٩. ابن مسكـويـه، تجارب الأمم، جـ١، ص ٣٩٩. ابـن عساكـر، علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تهذيب تـاريخ دمشق الكبير، هذبـة الشيخ عبد القادر بـدران، ٧ جـ، ط ٢، دار السيرة، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٥، ص ٤٠٩ (محمد بن عمرو)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

(٣) ابن قتيبـة، المعارف، ص ٢٩٥. الأصفهـاني، الأغـاني، م ١٦، ص ٤٣. ابن حجر العسقـلاني، الاصـابة، جـ٣، ص ٤٥٢-٤٥٣. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٠٩.

(٤) انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١٧٩ (المؤيد). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٧، ص ٧٩.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١٧٩ (المؤيد). القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٦٥ (المؤيد).

(٦) انظر ابن عبـد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١٧١-١٧٢ (ابراهيم بن محمد الشيباني) القلقشنـدي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٩٩-١٠١.

(٧) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساكر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

وفي سنة (١٧هـ / ٦٣٨م)عزل الخليفة عمر المغيرة بن شعبة عن البصرة[١]، وكان سبب عزله أنه اتهم بتردده على امرأة من بني هلال، ودخوله عليها زانيا، وقد كان زياد أحد الشهود الأربعة الذين استدعوا للشهادة على المغيرة وهم : أبو بكرة، ونافع بن الحارث، وشبل بن معبد البجلي، وقد شهد هؤلاء الثلاثة في مجلس القضاء وبين يدي الخليفة عمر، أنهم رأوا المغيرة يرتكب جريمته في وضح النهار، أما زياد فلم يشهد بمثل شهادتهم، وذكر أنه لم ير الفعل بوضوح كما وصفه الشهود الثلاثة من قبله، فكانت شهادته مغايرة لشهاداتهم، الأمر الذي أبرأ ساحة المغيرة، وحال دون إقامة الحد عليه، بينما جُلد الشهود الثلاثة حد القذف لعدم اكتمال الشهادة بوجود الشاهد الرابع[٢]، وذلك عملا بقوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة﴾[٣].

وقد جاء في بعض الروايات التي ذكرت هذه الحادثة، أنه عندما تقدم زياد للشهادة، قال له عمر : " والله أني لأرى وجها خليقا أن لا يخزى عليه اليوم رجل من أصحاب محمد "[٤] مما حدا ببعضهم الى القول : إن عمر عطّل حد الله في المغيرة لمّا شُهد عليه بالزنا[٥]، والواقع أن عمر كان متشدداً كثيراً في محاكمة المغيرة، حتى أنه عزله عن ولاية البصرة عزلا تاماً حين علم بخبره وعينّ مكانه أبا موسى الأشعري[٦]، ونلمس تشدد عمر وعدم تهاونه في هذه القضية أيضا من خلال استجوابه

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٠٦. الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٦٩ (الزهري). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٠ (الواقدي). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٨٣ (الواقدي).

(٢) البلاذرى، أنساب، (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٠-٤٩٢ (قالوا). البلاذرى أيضا، فتوح، ص ٤٨٠-٤٨٢ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٧٠-٧٢ (سيف). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٦. الأصفهاني، الأغاني جـ١٦، ص ٥٤-٥٧ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦١٤-١٦١٥. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٠-٥٤٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٢، ص ٢٣٢-٢٣٣ (سيف). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٤-٣٦٦ (قال الراوي). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٨٣-٨٤ (الواقدي وسيف).

(٣) سورة النور، آية ٤.

(٤) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩١ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٦، ص ٥٧ (عمر بن شبه). ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٢، ص ٢٣٦ (عمر بن شبه). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٦٥ (قال الراوي). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٦٢.

(٥) انظر ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٢، ص ٢٢٧.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٠٦. البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩١ (قالوا). البلاذرى، فتوح، ص ٤٨١ (قالوا). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٤٦. الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٦٩ (الزهري). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٠ (الواقدي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٢، ص ٢٣٢-٢٣٣ (سيف). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٨٣ (الواقدي).

للشهود حيث كان حريصاً على سماع شهاداتهم وأجوبتهم من غير تلميح أو اشارة(١)، والرواية التي ذكرت مقولة عمر آنفة الذكر، تصور لنا أن زياداً لم يكن بين الشهود ابتداء وأنه لحق بهم، وهذا ما لا يتفق وواقع القصة، فعمر لم يستحضر المغيرة والشهود الاّ بعد أن عـرف أن عدد الشهود أربعة، وهو العدد الذي تكتمل بـه الشهادة، لإقامة حد الزنـا، وبالتالي فلا بد أن يكون زيـاد قد قدم الى المدينة في صحبة المغيرة والشهود، ولم يلحق بهم، وهذا ما يفهم من رواية سيف، والتي تشير الى أن الشهود الأربعة كانوا معاً في حضرة عمر، ومن معه من صحابة رسول الله ﷺ، وأنهم أدلوا بشهاداتهم دون أن يلوّح عمر لأحدهم بمخـالفة غيره، لا بل أنه قال للمغيرة بعدما فرغ زياد من شهـادته " أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك"، ولهذا فأننا نستبعد مـا ذكرته بعض الروايات في حق الخليفة عمر رضي الله عنه الذي لم يعطل الحد الاّ من حيث لم تكتمل الشهادة، وبارادة الشاهد الرابع.

ويبدو أن شهادة زياد وموقفه من هذه القضية، كان أمراً مرضياً عنه لدى الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولو أنه رأى فيه فسقا لطعن في شهادته، ولما ولاّه بعد ذلك فارس، وائتمنه على أموال الناس ودمائهم(٣).

عينّ عمر على ولاية البصرة - بعـد عزله للمغيرة على أثر تلك الحادثة - أبـا موسى الأشعري(٤)، وفي امارته ظل زياد كاتباً له، (٥) فصار معروفاً في الناس، وقد أظهر تفوقاً في عمله، ومقدرة فائقة في تسيير الأمور، فنـال بذلك إعجاب الأمير وتقـديره، ممـا جعل أبا موسى يستخلفـه على البصرة أثناء غيابه عنها(٦)، وحين انشغاله بـالفتوحات، حيث تمكنت الجيوش الاسـلامية المعسكرة في البصرة -

---

(١) انظر البلاذري، أنسـاب (محمـد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩١-٤٩٢ (قالـوا). البـلاذري أيضا فتـوح، ص ٤٨١-٤٨٢ (قـالوا). الطبري، تـاريخ، جـ٤، ص ٧١-٧٢ (سيف). الأصفهـاني، الأغـاني، م١٦، ص ٥٦ (عمر بن شبـه). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م٦، ص ٣٦٥ (قال الراوي). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٨٤ (الواقدي وسيف).

(٢) انظر الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٠-٧٢. ابن الأثير، الكامل، م٢، ص ٥٤١-٥٤٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٢، ص ٢٣٣-٢٣٤ (سيف). ابن كثير، البداية والنهاية جـ٧، ص ٨٤ (الواقدي وسيف).

(٣) خليفة بن خيـاط، تاريخ، جـ١، ص ١٧٤. البلاذري، أنسـاب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٨ (قـالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. وكيع، أخبار القضاة، جـ١، ص ٢٨٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٢٢ (عمر بن شبه). الأصفهاني، الأغاني، م١٢، ص ٣١٦ (أبو بكـر الهذلي). ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٦ (قالوا). ابن الأثير، الكامل م٣، ص ٣٦٧.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، م٦، ص ١٠٦. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٦٩. ابن الأثير، الكامل م٢، ص ٥٤٠ (الواقدي). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٨٣ (الواقدي).

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن قتيبـة، المعـارف، ص ٣٤٦. البلاذري، فتـوح، ص ٥٣١ (أبـو مخنف والواقـدي). الدينـوري، الأخبار الطوال، ص ١١٨. ابن عبـد ربه، العقد الفـريد، جـ٤، ص ١٦٧، ١٦٩. ابن مسكـويه، تجارب الأمم، جـ١، ص ٤٥٥. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عسـاكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٥٨٠ (أبو عمر).

(٦) خليفة بن خيـاط، تاريخ، جـ١، ص ١٥٦. البلاذري، أنسـاب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٧ (قـالوا). الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٨٤ (سيف). الجهشياري، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكويـه، تجارب الأمم، جـ١، ص ٤٥٥. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٩٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٩.

إبان إمارته - من توطيد سيطرتها على كور دجلة سنة (١٧هـ/ ٦٣٨م)، وفتح تستر والسوس ورامهرمز[١]، كما اشترك مقاتلة البصرة مع أهل البحرين في فتوح بعض نواحي فارس[٢].

إنّ استمرار زياد في ممارسة مهمة الكتابة زمن المغيرة، ثم في أيام أبي موسى، واستخلاف كل منهما له على البصرة أثناء خروجهما منها، أمور أكسبت زياداً خبرات واسعة ليس في مجال عمله ككاتب فحسب، وإنما في كافة المهام الكبيرة التي من شأن الأمير القيام بها أو الاشراف عليها.

ويبدو أن النجاح الكبير الذي حققه زياد في أعمال الكتابة والحساب، جعل سعد بن أبي وقاص يطلبه سنة (١٦هـ/ ٦٣٧م)، ليقوم بقسمة الغنائم في وقعة جلولاء. ذكر سيف أن سعدا "بعث الأخماس مع قضاعي وأبي مفزّر، والحساب مع زياد... وكان الذي يكتب للناس ويدوّنهم"[٣]فلما قدم زياد الى عمر كلّمه فيما جاء فيه، ووصف له ما كان فيه المسلمون أحسن وصف، فأعجب عمر بوصفه وحفظه وأحب أن يسمع المسلمون ذلك منه فقال له: "هل تستطيع أن تقوم في الناس، بمثل الذي كلمتني به؟ فقال: والله ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك"[٤]، فقام زياد يخطب في الناس، ويعلمهم بما صنع المسلمون وأصابوا فأزداد إعجاب عمر ببلاغته وسلاسة تعبيره، ووصفه بقوله "هذا الخطيب المصقع"، فرد عليه زياد معللا له سبب فصاحة لسانه وحسن بيانه في هذه الخطبة: "إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا"[٥]، وكان من اعجاب عمر رضي الله عنه بزياد، أنه إذا وفد اليه رجل من البصرة" أحب أن يكون زياداً ليشفيه من الخبر"[٦]، وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على قدرات زياد الادارية والفكرية العظيمة، التي جعلته في مصاف الساسة الكبار.

---

(١) تستر والسوس ورامهرمز: مدن مشهورة بنواحي خوزستان. (انظر ياقوت، معجم البلدان حسب الترتيب، "جـ٢، ص ٢٩"، "جـ٣، ص ٢٨٠"، "جـ٣، ص ١٧". وانظر الحميري، والروض المعطار، ص ٢٢٥).

(٢) لمزيد من المعلومات عن فتوحات أبي موسى، انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١١١-١١٢، ١١٦-١١٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٣١-٥٣٨. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٣٠-١٣٣. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٧-٩٣. ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٠-٣١. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٢-٥٥٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٩. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ١، ص ٣٩٩. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ٢٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٧١ (الشعبي).

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٩ (سيف). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٦، ص ١٣٢. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ١، ص٣٩٩-٤٠٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. النويري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ٢٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٧٢ (الشعبي).

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٣٠ (سيف). ابن مسكوية، تجارب الأمم، جـ١، ص ٤٠٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٤ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٧٢ (الشعبي).

(٦) ابن خلكان، وفيّات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧. وذكر ابن حمدون أن عمر كتب إلى أبي موسى" إذا جاءك هذا - أي كتابي - فاعط الناس أعطياتهم، وأحمل إليّ ما بقي مع زياد، ففعل، فلما كان عثمان، كتب الى أبي موسى بمثل ذلك ففعل". (انظر ابن حمدون محمد بن الحسن (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق احسان عباس، م ١، ط ١ معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٤١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية).

والحقيقة أن زياداً واجه في مطلع شبابه عقبات عديدة : كحداثة سنه ، وعدم سبقه في الاسلام ، وحسد البعض له عند تـوليه للوظائف الهامة ، وربما غموض نسبه أيضـا ، كل هذه الأمور كادت أن تقضي على طمـوحه المتميـز وهو لم يبلغ بعـدُ العشرين من عمـره ، إلاّ أن إرادته ورغبتـه المتزايـدة في ممارسة العمل الأداري والسياسي ، جعلته أحد الموظفين الكبار في الـدولة ، وبعد خلافة معاوية غدا زياد من الساسة المشهورين .

لقد أدى إسنـاد بعض المهام لـزياد الى اثارة الشكـوى ضده من قبل البعض ، ذكـر سيف أن أبا موسى - بعـد أن فرغ من فتح إصبهـان ، وجمع السبي والأموال - بعث بـالفتح الى عمر ، وأوفـد اليه وفدا ، وقد أراد ضبة بن محصن العنزي أن يكون بين الـوفد ، ولكن أبا موسى سيرّ من هو أحق منه ، فانطلق العنزي الى عمر وأخبره أن أبا موسى "تنقّى ستين غلاما من أبناء الدهاقين لنفسه ... وفوّض أمره الى زياد ... - وكان زياد يلي أمور البصرة- "(١) ، فبعث عمر الى أبي موسى يستقدمه ، فقدم اليه وقد استخلف زياداً على البصرة ، فسأله عمر عن التهم التي وجهها اليه ضبة العنزي فأجابه عليها ، وعن تولي زيـاد لأمور النـاس ، قال عمـر لأبي موسى : "بلغني أنك استخلفت على البصرة غـلاما حديث السن ليس لـه قدم ولا هجـرة ولا تجربة "(٢) ، فرد عليه أبـو موسى بقوله "وجـدت له نبلا ورأيا ، فأسندت اليه عملي "(٣) .

ويبدو أن عمر رضي الله عنه رغم معرفته لزياد الذي مَثَلَ أمامه أثناء محاكمة المغيرة بن شعبة ، الاّ أنـه لم يقتنع بقدرة غـلام مثلـه على ادارة البصرة ، والتي تُعد من أهم الأمصـار الاسـلامية وقتـذاك ، فاستدعـاه الخليفة الى المدينة ، ولما قدم زياد كـان عليه ثياب كتان بيضـاء ، فسأله عمر عن أثمانها ، فأخبره ، ثم سأله عن عطـائه ، فأجاب زياد "ألفـان" ، فقال عمر "ما صنعت في أول عطـاء خرج لك؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت في الثاني (أي الألف الثاني) ربيبي عبيداً فأعتقته ، فقال : وفّقت "(٤) .

لقد تعـرّف الخليفة عمر من خـلال حديثه هـذا مع زياد ، على جوانب شخصيتـه المختلفة ، فما ذكره عن ملبسـه ، وسلوكه الشخصي في أهله ، وتصرفـه في أمور معاشـه إنما يعبرّ عن سلوك سليم ، وسيرة حسنة ، وعقلية ناضجة بعيدة عن الهوى .

وبعد ذلك أراد عمر أن يختبر مقدرة زياد الادارية الشابة ، والتي نالت إعجاب وتقدير أبي موسى ومن سبقه من أمراء البصرة ، فأمره عمر أن يكتب في بعض الأمور كتابا ، فكتبه ودفعه الى عمر ، فنظر فيه ، وقـال : "غيرّه" فكتب في ذات المعنى كتابـا آخر ، فقال : "غيرّه" ، فكتـب الثالث ، فعجب

---

(١) الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٨٤ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٤ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) البلاذري ، أنساب (إحسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٨٧-١٨٨ (قالوا) . الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . الجهشياري ، الوزراء ، ص ١٨ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٥ (سيف) .

(٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٧ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ (سيف) . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٥ (سيف) .

عمر من بلاغته، وسعة معرفته[1]، وقال : "لقد بلغ مـا أردت في الأول، ولكني ظننت أنه قد روّى فيه، ثم بلغ في الثـاني ما أردت، فكرهت أن أعلمـه ذاك، وأردت أن أضع منه لئلا يـدخله العجب فيهلك"[2]، ثم سأله عمر عن الفـرائض والسنن والقرآن، "فوجده فقيها، فـرده وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه"[3].

يتضح ممـا تقـدم، أن أبـا موسى كـان يعـرف زيـاد معـرفـة جيدة، وهـذه المعـرفـة لم تتأت إلاّ بالاختبارات المتكررة التي أثبت فيها زياد قوة الشخصية، ودقة الملاحظة، والقدرة على تسيير الأمور، فكان أبـو موسى يعتمـد عليه عنـد خروجـه من البصرة ويطمئن الى تصرفه في شـؤون المصر فهو كما وصفه للخليفة "ضابط لما وُلِّيَ خليق بكل خير"[4].

وعلى الرغم من قابلية زياد ومقدرته الادارية الكبيرة الاّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ارتأى عزله عن عمله في البصرة[5]، ويبدو أن الخليفة لم يعـزله الاّ لحداثة سنه، ولأنه ليست لـه سابقة في الاسلام، فهناك من أصحـاب السبق من هو أحق من زياد في تولي كتـابة البصرة، وربما خشي عمر تكرار الشكوى ضده من قِبل أهل البصرة، فأراد أن يختصر الأمر بعزله فعزله، وقد سأل زياد الخليفة عن سبب عزله قائلا "أعن عجز أم عن خيـانة"، فقال عمر "لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك"[6]، وأي عقل كان لزياد يزيـد به على صحابة رسول الله ﷺ، وعلى سائر النـاس أيام عمر؟، ثم أن من كَمُل عقله أكثـر فهو أولى بالاختلاط مع النـاس لا أن يعتزلهم، ولعل عبارة عمر رهذه كانت ترضية منه لزياد، الشاب الطموح وصاحب المواهب الفائقة.

بقي أبـو موسى الأشعـري والياً للبصرة الى مـا بعد وفـاة عمر بن الخطـاب رضي الله عنه - سنـة (٢٣هـ/ ٦٤٣م) - بنحو ست سنوات في خلافـة عثمان الذي عزله سنة (٢٩هـ/ ٦٤٩م)، وولى

---

(١) البلاذري، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٨ (قالـوا). الجهشياري، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكـويه، تجارب الأمم، جـ١، ص ٤٥٥.

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ١٨. ابن مسكويه، تجارب الأم، جـ١، ص ٤٥٤-٤٥٥.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٨٥ (سيف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٥ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٧. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ١٥، ص ١٢. الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢، ص ٣٢.

(٤) الجهشياري، الوزراء، ص ١٨.

(٥) الجاحظ، البيان، جـ١، ص ٢٦٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ١١. الجهشياري، الـوزراء، ص ١٩-٢٠. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٣. الطرطـوشي، سراج الملوك، ص ١٢٨. ابن الأثير، أسد الغابة م٢، ص ٢١٥.

(٦) الجاحظ، البيان، جـ١، ص ٢٦٠. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ١١. الجهشيـاري، الوزراء، ص ٢٠. الآبي، نثر الدر، جـ٢، ص ١٩١. ابن عبد البر، الاستيعـاب، ق ٢، ص ٥٢٣ (عن بعض أهل الأخبار). الطـرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٨. الزمخشري، ربيع الأبـرار، جـ٤، ص ٢٤٧. ابن الأثير، أسد الغابة، م٢، ص ٢١٥.

مكانه عبد الله بن عامر بن كريز، وكان شابا لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره(١).

وفي ولاية ابن عامر، عاد زياد مرة أخرى الى ممارسة مهمة الكتابة(٢)، التي عُزل عنها من قبلُ، وكان زياد الى جانب مهمته تلك ينوب عن الأمير عندما يترك البصرة، ففي سنة (٢٩-٣٠هـ/ ٦٤٩-٦٥٠م)، استخلف عبد الله بن عامر زيادا على البصرة وخرج غازيا، فافتتح أصبهان وحلوان وكرمان وعامة خراسان(٣). ولقد أدى اهتمام ابن عامر بالفتوح الى انشغاله بها طويلا، مما جعله يقضي جُلّ أوقاته بعيداً عن مركز ولايته، التي اعتمد في تصريف شؤونها على كاتبه زياد، ولم تكن مهمة الأخير سهلة وبسيطة، فقد كان يجمع بين الكتابة وبين المهام والواجب تنفيذها من قبل الأمير، هذا في الوقت الذي لم تعد فيه البصرة ذلك المعسكر الصغير للجيوش الاسلامية، ففي امارة ابن عامر (٢٩-٣٦هـ/ ٦٤٩-٦٥٦م)، اتسعت جبهة القتال التي تولى أمرها البصريون، حيث أصبحت قواتهم مسؤولة عن فتوح كافة المناطق الواقعة الى الشرق من الخليج العربي وحماية تلك المناطق، والتي كانت مسؤوليتها من قبل تقع على عاتق الجيوش الاسلامية التي اتخذت من البحرين قاعدة لها(٤)، ولا شك أن هذا التغير زاد من أهمية البصرة كمركز اداري حيث أصبحت مسؤولة عن ادارة البحرين، والمقاطعات التي قام بفتحها البصريون، كما كان ديوانها مسؤولا عن دفع العطاء للعرب في تلك المناطق وقد ساهم هذا في توثيق الصلة بين البصرة والبحرين، الأمر الذي شجع عشائر عبد القيس على النزوح والهجرة الى البصرة، ولعل قبيلة الأزد استوطنت البصرة وقتذاك(٥).

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٣٦ (أبو اليقظان). البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧ (يقال). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٣٩. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٦٦. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٦٤. ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٩٩. عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، ولد في عهد الرسول ﷺ، وذلك في السنة الرابعة للهجرة، لم يتول منصباً ادارياً أو عسكرياً، الى أن أصبح والياً على البصرة سنة (٢٩هـ/ ٦٤٩م). وهو ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان له أثر حميد في الفتوحات الاسلامية، ومات بمكة سنة تسع وخمسين، فدفن بعرفات. (انظر ابن سعد، الطبقات، جـ٥، ص ٤٤-٤٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢٠-٣٢١. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٥، ص ١٠٩-١١٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٧-٤٥٨. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ٦٠-٦١. الزركلي، الاعلام، م ٤، ص ٩٤).

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٨. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٢٠٣. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١٦٧، ١٦٩ المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص ٢. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٥ (أبو نعيم).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٥٨. البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧ (يقال). الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٠١ (المدائني). قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١م، ص ٤٠٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (الوليد بن هشام). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ١٢٤. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١٠١١.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٩-٨٠ (سيف). الدياربكري، حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ٢ جـ، مطبعة عثمان بن عبد الرزاق، القاهرة، ١٨٨٤م، جـ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الديار بكري، تاريخ الخميس.

(٥) صالح العلي، التنظيمات، ص ٤٢. احسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣، ص ٢٢٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: النص، العصبية القبلية. جمال محمد جوده، العرب والأرض في العراق في صدر الاسلام، طبع الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، ص ١٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: جمال جوده، العرب والأرض.

ولما كانت واردات كل مصر تعتمد على ما يرد من المناطق التي فتحها مقاتلو ذلك المصر، فلا بد أن الفتوحات الواسعة التي قام بها البصريون ابتداء من ولاية عتبة بن غزوان وحتى أيام عبدالله بن عامر، قد أدت الى زيادة كبيرة في دخل البصرة، هذا بالاضافة الى موقعها الهام على الطرف الشمالي من الخليج العربي، مما جعلها مركزاً لحركة اقتصادية نشطة، وممرا تجارياً هاما[1].

وهكذا تطورت البصرة في زمن عبد الله بن عامر، فبعد أن كانت معسكراً صغيراً لمقاتلة المسلمين، أصبحت مركزا ادارياً تتبعه مقاطعات كثيرة وغنية، تدرّ عليها الخيرات، مما أدى الى انتشار الرخاء الاقتصادي، فشجع ذلك التجار ورجال الأعمال على الوفود إليها فنمت الحياة المدنية فيها نمواً سريعاً.

ولقد تميزت أرض البصرة بخصوبتها وسهولة إروائها، حيث كانت تسقى بالمد والجزر[2] الاّ أن ماءها غلبت عليه الملوحة[3]، فاذا صلح لإرواء وسقي المزروعات فإنه غير صالح للاستهلاك البشري، وهكذا أدى تزويد المدينة بالماء العذب الى خلق مشكلة نجد صداها في المصادر التي ورد فيها ذكر البصرة، وهذه المشكلة تعود الى زمن تأسيس البصرة، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه نجد الأحنف بن قيس يشكو للخليفة قائلا : "إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة، والجنان الملتفّة، وإنا نزلنا أرضا نشاشة لا يجفّ نداها، ولا ينبت مرعاها"[4]، وقد تكون هذه المقولة موضوعة الاّ أنها تتفق مع الحقيقة، ولكي يُرضي عمر أهالي البصرة كتب الى أبي موسى الأشعري يأمره أن يحفر لهم نهرا[5]، وكان لدجلة العوراء - وهي دجلة البصرة - خور (أي طريق للماء) طوله فرسخاً[6]، وكان لحده مما يلي البصرة غورة واسعة تسمى قبل الاسلام "الأجانه"، فلما أمر الخليفة عمر أبا موسى أن يحتفر نهراً لأهل البصرة، ابتدأ الحفر من الأجانة وساقه ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة، فأصبح بذلك طول نهر ا لأبلة أربعة فراسخ[7]، مما

(١) لمزيد من المعلومات عن أهمية البصرة التجارية وأثرها في الحركة الاقتصادية، انظر صالح العلي، التنظيمات، ص ٢٥٤-٢٦٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٣. الادريسي، نزهة المشتاق، جـ ٤، ص ٣٨٤.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٣. الأدريسي، نزهة المشتاق، جـ ٤، ص ٣٨٤.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٦-٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٧٥ (قالوا). المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٤.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣١٦ (عوانه).

(٦) الفرسخ، يساوي ثلاثة أميال، ويعادل نحو (٦ كم). (انظر فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الاسلامية، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ٩٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا : هنتس، المكاييل والأوزان).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩-١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

زاد من أهمية مدينة البصرة التجارية، وسهّل في عملية الري وسقى المزروعات، وهذا أدى بالتالي الى دفع عجلة التقدم في مجال التجارة والزراعة على حد سواء، ويبدو أن هذا النهر بالرغم من أهميته بالنسبة لأهالي البصرة، الاّ أنه لم يجد العناية الكافية، من حيث تطهيره وتنظيفه من الترسبات المتراكمة مع الزمن، مما أدى الى إنطمام ما مقداره فرسخ من ناحية البصرة(١).

وعندما تولى عبد الله بن عامر ولاية البصرة وكان زياد كاتبه، أشار الأخير على أميره أن يقوم بحفر نهر الأبلة من حيث أنطم حتى يبلغ به البصرة، ويظهر أن ابن عامر قد آثر في بداية إمارته الفتوحات العسكرية على مثل هذه الاصلاحات، فكان يأمر زياداً بتأجيل ما أشار به(٢)، حتى شخص ابن عامر الى خراسان مستخلفا زياداً مكانه على البصرة، فاستغلّ زياد فرصة غياب الأمير وقام بحفر نهر الأبلة من حيث انطمّ حتى وصله بالأجانة عند البصرة، وقد ولىّ مسؤولية الاشراف على هذا العمل الى ابن أخيه عبد الرحمن ابن أبي بكرة(٣)، ولما عاد ابن عامر من خراسان، ورأى ما صنعه زياد غضب عليه، وقال: "إنما أردت أن تذهب بذكر النهر دوني"(٤)، وبعدما انتهى زياد من اصلاح نهر الأبلة، قام بحفر نهر الفيض(٥).

وتجاوز زياد لرأي أميره في هذا الموقف، لم يكن من قبيل التحدي أو العصيان، كما أنه لم ينشد بعمله هذا تخليد اسمه بخلود النهر، فالنهر كان وبقي يعرف باسم "نهر الابلة" وما قام به زياد إنما يدل على بُعد نظره وإدراكه لأهمية حفر ذلك النهر، الذي يساهم في تطوير الحياة الاقتصادية في المدينة، ويعود بالمنفعة العامة، وفي سبيل ذلك تحمّل زياد غضب الأمير عليه.

ويبدو أن اهتمام زياد بحفر الأنهار والاشراف على تنفيذها، دفع ابن عامر الى القيام بالعديد من الأعمال الاصلاحية في ميدان الري، حتى أصبح من المهتمين بهذه المسألة اهتماماً كبيراً في البصرة، فقد حفر نهر الأساورة(٦)، ونهر أم عبدالله المنسوب الى أمه دجاجة بنت أسماء بنت الصلت

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧-٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٤٢. البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم). وانظر شارل بلا، الجاحظ في البصرة وسامراء، ترجمة ابراهيم الكيلاني، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م، ص ٤٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: بلا، الجاحظ في البصرة.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (جماعة من أهل العلم).

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٤٣. البلاذري، فتوح، ص ٥٠٠ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٧.

السلمية[١] وقد تولى حفره غيلان بن خرشة الضبي، وهو النهـر الذي قال عنه حارثة بن بدر الغداني لعبـد الله بن عامـر وقد سـايره : "لم أرَ أعظم بـركة من هـذا النهر يستقي منـه الضعفاء من أبـواب دورهـم، ويأتيهم منافعهم فيـه الى منازلهم، وهـو مغيض لمياههم"، ثم أنه سـاير زياد أثنـاء ولايته للبصرة، فقـال : "ما رأيت نهراً شراً منـه، ينزّ منـه دورهم، ويبغضـون له في منـازلهم، ويغرق فيـه صبيانهم"[٢]، ومن النص يتبين لنا أن هذا النهر كـان يخترق مساكن أهل البصرة، وأن بيوتهم كانت قائمة على ضفافه، وذكر البلاذرى أن عبد الله بن عامر حفر نهراً تولى أمر حفره له مولاه نافذ، فغلب عليه اسمه فقيل " نهر نافذ "[٣].

يتضح مما تقدم، أن كثيراً من الاصلاحات الاقتصادية والعمرانية في امارة ابن عامر على البصرة، إنما هي ثمرة من ثمرات جهـود زياد، ومبادراته المنبثقة عـن رغبته في توسيع المدينة وتطويـرها، وقد أفلح زياد في تنفيذ المشـاريع الاقتصادية، وفي تسيير شؤون ولاية البصرة عامـة، أثناء إنشغال أميرها ابن عامر في اتمام فتوح فارس وخراسان[٤]، على أن عبد الله بن عامر وان كان مهتما بالفتوحات، إلاّ أنه لم يهمل الاصـلاحات الداخلية في إمارتـه ويمكن أن نلاحظ مدى رغبته في الاصـلاح من خلال قولـه : "لو تُـركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتهـا، ترد كل يـوم على ماء وسـوق حتى توافي مكة "[٥].

وعلى الرغم ممـا ذُكر عن غضب ابن عامر على زيـاد، إثر اصلاحـه لنهر الأبلة أثناء غيـابه الاّ أن زياد بقي من المقربين له، فكان يستشيره في أمور ولايته، واليه يبث شكواه، وكان لعمق الصلة بينهما أن شكا ابن عامر لزياد من عقبة الحصر التي تواتيـه على المنبر، فذكر له زياد أن ما يصيبه قد يصيب سادة القـوم وأثبت له ذلك، حيث استـدعى سيدا من تميم وشريفـا من ربيعة، ورئيسـا من رؤساء الأزد، وأمرهم أن يصعدوا الى المنبر ليخطبوا في الناس فأصابهم الحصر جميعا،[٦] وبذلك أثبت زياد

---

(١) خليفـة بن خياط، تـاريخ، جـ١، ص ١٤٣. ابـن قتيبة، المعـارف، ص ٣٢١. البلاذرى، فتـوح، ص ٥٠١ (قالـوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣١٧.

(٢) البلاذرى، فتوح، ص ٥٠١ (قالـوا). بينما ذكر الجاحظ أن القائل هو غيلان بن خرشه الضبي، وليس حـارثة بن بدر الذي يرجحه البلاذرى، (انظر البيان، جـ١، ص ٣٩٤-٣٩٥. وانظر أيضا الحيوان، جـ٥، ص ١٩٨).

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ٥٠١-٥٠٢ (روى قوم). ياقوت. معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٤.

(٤) خليفة بن خياط، تـاريخ، جـ١، ص ١٥٨. البلاذرى، فتوح، ص ٥٦٧ (يقـال). الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٣٠١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ١٢٤. ابن عسـاكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (الوليـد بن هشام). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١٠١١.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢١. والحِدْجُ : مركب من مراكب النساء، مثل الهودج. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٣٠).

(٦) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٥١. ابن بكـار، الأخبار الموفقيات، ص ٢٠٣-٢٠٤. ابن أبي الحديد، نهج البـلاغة، جـ ١٣، ص ١٤.

لأميره - بحكم تجربته وخبرته ودقّة ملاحظته - تأثير اللحظات الحرجة في نفسية الانسان، وانعكاس ذلك على بلاغته وتفكيره ومنطقه، فكان هذا الامتحان محاولة منه لاقناع ابن عامر أن ما يشكوه أمر قد يلقاه أشراف الناس ورؤساؤهم، فتبينّ بذلك لابن عامر فضله في الناس.

وأما عن علاقة زياد بالخلافة في زمن الخليفة عثمان رضي الله عنه، فلا نجد في المصادر ما يوضح تلك العلاقة على نحو ما رأينا من قبل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن يتبين لنا من خلال الاشارات اليسيرة التي وردت في المصادر أن الخليفة عثمان رضي الله عنه، كان أشبه بعمر في إعجابه بشخصية زياد ومقدرته الادارية المتميزة، فيذكر أن عمر كتب الى أبي موسى الأشعري يأمره بإعطاء الناس أعطياتهم وارسال ما تبقى مع زياد، ففعل ولما "كان عثمان كتب الى أبي موسى بمثل ذلك ففعل" (١)، وهذا يُشعر بالتقدير والمكانة المرموقة التي حظي بها زياد لدى الخليفة عثمان.

زياد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب

بعد أن فرغ علي رضي الله عنه من وقعة الجمل سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م) توجه الى البصرة ودخلها(٢)، فجاءه أهلها على راياتهم مبايعين له(٣)، ولم يكن زياد بين الذين وفدوا عليه كما كان ممن اعتزل يوم الجمل، ولم يقاتل مع واحد من الفريقين(٤)، وعندما جاء عبد الرحمن بن أبي بكرة في المستأمنين ليعلن بيعته، سأله علي عن عمه زياد، وقال له: "وعمك المتربص المقاعد بي"(٥)، فأجابه عبد الرحمن موضحاً له سبب اعتزال زياد للمعركة، واختفائه عند البيعة "والله يا أمير المؤمنين انه لك لوادّ، وانه على مسرتك لحريص، ولكنه بلغني أنه يشتكي"(٦)، ويذكر الطبرى أن عبد الرحمن كتم عليا مكان زياد حتى أتاه واستأمره، فأمر أن يخبره، فأخبره، وقاده بعد ذلك الى زياد،

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م ١، ص ١٤١. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ ١٢، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥١. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٨٢. الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٣٩ (سيف). المسعودي، مروج الذهب، م ٢، ص ٣٧٧.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤١ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٥٦.

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. الجهشيارى، الوزراء، ص ٢٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف). الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ١٣. الكتبي، فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٢. وذكر ابن الأثير، أن الذي اعتزل وقعة الجمل هو أبو بكرة، ولم يشر الى اعتزال زياد. (انظر الكامل في التاريخ، م ٣، ص ٢٥٦). والواقع أن أبا بكرة اعتزل يوم الجمل، شأنه في ذلك شأن العديد من الصحابة. (انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٥٣١).

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

(٦) الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

وكان في بيت نـافع بن الحارث[1]، فلما دخل علي عليـه، قال له : "تقـاعدت عني وتـربصت" ، فاعتذر اليه زياد بمرض كان قد ألمّ به، فقبل عذره[2].

والحقيقة أن عدم مشاركة زياد في وقعة الجمل، واختفـائه يوم بايع أهل البصرة علياً أمر يدعو الى التساؤل، فهل كـان زياد مريضـا حقا، أم أنه تعلل بـالمرض لأسباب أخرى في نفسـه؟ لا نعتقد أن السبب الذي حمله على الاختفاء هو الجبن والضعف، فسيرة حياته كلها ليس فيها ما يدل على وجود مثل هـذه الصفـات في شخصيتـه، لا بل أن هنـاك مواقـف كثيرة برهـن فيها زيـاد على شجـاعتـه واقدامه، وليس أدلّ على ذلك من موقفـه من معاوية، وتهديده له عندما حـاول استمالته، وقد كان عامـل علي بن أبي طالب على بـلاد فارس[3]. ويستبعد أن يكـون زياد قـد وضع نفسه في مـوضع الوسطية، وانـه لا يريد الخوض في معركـة لا يُعرف مصيرها، وذلك لاعتباره أحـد دهاة العرب[4]، وبإمكانـه استقراء الأحداث وافتراض النتائج مسبقـا قبل تحقيقها، ومن ثم باستطـاعته الانضمام الى الفريق الذي افترض فوزه، وقـد يكون له شأن في الأحداث مثلما كان لداهيـة العرب الآخر عمرو بن العاص في وقعة صفين[5]، الاّ أن ذلك لم يحدث قط، وانضمام زيـاد الى علي لم يتم على أثـر انتصـار الأخير في وقعة الجمـل، تلك الوقعة التـي لم تحسم الموقف نهائياً لصـالح أي من الأطراف المتنـازعة، وبالتـالي يمكننا القول أن انضمام زيـاد الى صف علي تأتي بقناعة تـامة منه، ولم تضطـره الظروف الى ذلك، ويبدو أن هواه كان منذ البداية مع علي، إلاّ أن ظروفه الصحية أقعدته عن المشاركة الى جانب علي في يوم الجمل، ودعته الى التقاعس أثناء البيعة، حتى أن الخليفة أتاه بنفسه الى حيث يقيم، وقد قبل عذره بعد أن رأى مرضه البيّـن[6]. وهناك سبب آخـر ربما كان له أثر في قعـود زياد، وهو أن البصرة كانت عثمانية ابتداء، الأمر الذي جعل زيـاد يتحرج في تمثيل الخليفة الجديد في مصر لا يؤيد

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. ابن عساكر، تـاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف). بينما ذكر الجهشياري أن زياداً كان في دار أمـه (انظر الوزراء والكتاب، ص ٢٣). وربما يفهم من قـول الجهشياري أن زياداً كان في بيت أمـه سمية، التي كانت تسكن عند ابنها نافع بن الحارث، وهو أخو زياد لأمه.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

(٣) المنقري، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م)، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العـربية الحديثة للنشر والتـوزيع، القاهـرة، ١٣٨٢هـ، ص ٣٦٦-٣٦٧، وسيشـار اليه عنـد وروده هكذا : المنقـري، وقعة صفين. ابن قتيبـة، المعارف، ص ٣٤٦. البـلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٩. الـدينوري، الاخبـار الطوال، ص ٢١٩.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦. الطـرطوشي، سراج الملوك، ص ١٢٧. ابن عساكـر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٧٢. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٥) المنقري، وقعة صفين، ص ٤٧٦-٤٧٧. الدينوري، الأخبـار الطوال، ص ١٨٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٨٨. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٤٨ (أبو مخنف).

(٦) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف).

الخليفة نفسه .

ومهما يكن من أمر، فان سؤال علي رضي الله عنه عن زياد بهذا القدر من الاهتمام وعيادته له وهو في مرضه، دليل على المكانة السياسية والادارية التي تمتع بها زياد، وفي قول علي له "تقاعدت عني وتربصت "[1]، اعتراف ضمني بدهائه ومقدرته السياسية، وبأنه لا يتصرف بعفوية، وانما لكل حركة من تحركاته مغزى وقصد، وبعد أن فهم علي من زياد السبب الذي أقعده، سأله عن بيت المال وعما فيه من الأموال، فأجابه "عندي على حاله" فسرُ علي بذلك، وهو الذي عهد الأمانة والصدق في زياد منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له "مثلك فليؤتمن "[2].

ولما استبان علي صدق نية زياد نحوه واستعداده للنصح له، أراد أن يوليه البصرة، ولكن زياد أشار عليه أن يجعل على هذا المصر رجلا من أهل بيته يهابه الناس ويطمئنون اليه حيث قال : "رجل من أهل بيتك يسكن اليه الناس فانه أجدر أن يطمئنوا أو ينقادوا وسأكفيكه وأشير عليه "[3]، وطلب الخليفة الذي تقدم به الى زياد يفسر لنا ثقته بشخص زياد وبقدرته الادارية، وهو صاحب الخبرة الواسعة في ادارة هذا المصر، فقد تولاه بالنيابة مرات عديدة، لكن زياد رأي بعد تحليله للظروف التي تعيشها الدولة الاسلامية عامة حينئذ وولاية البصرة خاصة، ان أمير البصرة يجب أن يكون رجلا من بيت الخليفة، فينقاد اليه الناس لكونه من بيت النبوة والخلافة، ومن قريش موضع السيادة، ثم لأنه يرتكز الى سلطة قائمة تتمثل في شخص الخليفة، وقد اتفق علي رضي الله عنه وزياد على تأمير عبد الله بن عباس، وما نرى أنهما كانا يستطيعا أن يؤمّرا غيره، فالكثرة العددية في البصرة مضرية[4]، وما ينبغي أن يؤمّر عليها بعد الفتنة التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان، الاّ رجل من مضر شديد القرابة من علي، أما زياد فقد ولاّه الخليفة الخراج وبيت المال في البصرة[5]، وأمر ابن عباس أن يسمع منه ويستشيره في أمور الولاية، ففعل، وكان عبدالله قد استشار زياد في قضية كانت مع بعض

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣ . ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣ . ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف) .

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ٢٣ .

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣ . ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣ . ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف) . ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١٠٨٧ .

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى، ص ٦٠ .

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص٣٧٨ . ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦ . البلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٢٧١ (قالوا) . الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٤٣ . الجهشياري، الوزراء، ص ٢٣ . ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١٦٧، ١٦٩ . الأصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣١٦ (أبو بكر الهذلي) . ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ ١، ص ٥٦٣ . الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٦٠ . ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٦ (سيف) . ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٢٥٦ . القفطي، إنباه الرواه على أنباه النحاة، جـ ١، ص ١٨ . وذكر المدائني، أن ابن عباس هو الذي ولى زيادا على الخراج . (انظر وكيع، أخبار القضاة، جـ ١، ص ٢٨٩) .

الناس، فأشار عليه أن "أضرب بمن أطاعك من عصاك"(١) وقول زياد هذا يشعر بميله الى الشدة، وخاصة في الظروف التي لا تحتمل المدارة أو التهاون في معالجة القضايا التي من شأنها المساس بأمن الولاية، أو الدولة على وجه العموم.

بعد أن تم الأمر لعلي بالبصرة انصرف الى الكوفة(٢)، بينما استمر زياد في عمله لعبد الله بن عباس، كما كان يعمل للولاة من قبله، وحينما سار ابن عباس الى صفين استخلف أبا الأسود الدؤلي على الصلاة، واستخلف زيادا على الخراج وبيت المال والديوان، فلم يزالا على البصرة حتى قدم من صفين(٣)، وعندما قتل محمد بن أبي بكر والى علي على مصر سنة (٣٨هـ/ ٦٥٨م)، خرج ابن عباس من البصرة مستخلفا عليها زياد(٤)، وفي هذه الأثناء كان معاوية ينظر الى انتشار أمر علي في العراق، وما أصاب أصحابه من وهن وتخاذل وفرقة إثر النتيجة التي آلت إليها وقعة صفين، وقد ذكر معاوية أن العثمانية فاشية في البصرة(٥)، ورأى أن ابن عباس قد انصرف عنها، هذا في الوقت الذي لم يستطع فيه معاوية مهاجمة البصرة مباشرة، فاكتفى بتفريق جيوشه على الأطراف التي في طاعته، واختار رجلا صليبا له رحم بعثمان وهو عبد الله بن عامر الحضرمي(٦)، فأرسله الى البصرة، وأوصاه أن ينزل في مضر ويتودد الى الأزد ويحذر ربيعة، فسار ابن الحضرمي فيمن معه حتى قدم البصرة، فنزل في بني تميم(٧) بقصد إثارتهم ضد علي، وعندما علم زياد بذلك بعث الى حضين بن المنذر

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٥٤٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٦-٤٨٧) (سيف). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٢٥٦.

(٢) المنقري، وقعة صفين، ص ٣. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٦١. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٢٧١ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٥٢. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٨٤. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٥٦٣ (أبو بكر الهذلي). المسعودي، مروج الذهب، جـ٢، ص ٣٨١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٦ (قالوا).

(٣) ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٦ (الشعبي وغيره). وفي كتاب الامامة والسياسية المنسوب الى ابن قتيبة، يُذكر أن عليا عندما همّ بالمسير الى الشام، ضم اليه ابن عباس، واستعمل على البصرة زياد. (انظر ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، الامامة والسياسة، تحقيق سعيد صالح موسى خليل، ٢ جـ، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨م، جـ١، ص ٩٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، الامامة والسياسية).

(٤) ذكر البلاذري أن ابن عباس شخص الى مكة مغاضبا لعلي. (انظر االبلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٦ (قالوا). وذكر آخرون أنه سار الى علي بالكوفة، وذلك بعد موت واليه على مصر محمد بن أبي بكر (انظر أبو عبيدة، النقائض، جـ١، ص ١٢٥. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه). المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، تحقيق عبد الله الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٣٨، ص ١٧٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المسعودي، التنبيه والاشراف. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٤١ (عن أبي زهير). النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ١٩٨).

(٥) البلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٣ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٣٥ (عمرو بن محصن). النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ١٩٨.

(٦) عبدالله بن عامر الحضرمي: وهو ابن خالة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، أمه أم طلحة بنت كريز. (البلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٣٤ (محمد بن الزبير الحنظلي)).

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٨٠. البلاذري، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٤ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه). المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٧٦. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق١، ص ٢٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٣٥، ٣٧ (عمرو بن محصن). النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ١٩٨.

ومالك بن مسمع – وهما من بكر بن وائل – وطلب منهما أن ينصراه حتى يأتيه رأى الخليفة في هذا الأمر، فأجابه حضين الى طلبه، أما مالك – وكان أموى الهوى – فقال : "هذا أمر لي فيه شركاء، أستشير وأنظر"(١)، فلما رأى زياد تردد القوم لم يطمئن اليهم فلجأ الى الأزد، وقد أشار عليه بذلك أخيه نافع(٢)، فأرسل الى رئيسهم صبرة بن شيمان الحداني يطلب منه أن يجيره وبيت مال المسلمين، فأجاره على أن يترك دار الامارة ويتحول الى داره، وينقل معه منبره وبيت المال، ففعل(٣)، وقد انقسم أهل البصرة بذلك الى عدة طوائف : طائفة قامت دون ابن الحضرمي رسول معاوية، وطائفة جعلت تنتظر الأحداث وتترقبها على شيء من الفرقة في صفوفها وهي ربيعة، وطائفة ثالثة حرصت على حماية جارها الذي لجأ الى دورها وهي الأزد، وهكذا ظهرت العصبية واضحة بين القبائل البصرية، فقد أخذ الناس يرعون قبائلهم واحسابهم أكثر مما يرعون السلطان والامام ويغضبون لهذه الأحساب أكثر مما يغضبون للدين.

وعلى الرغم من محاربة زياد للعصبية القبلية، ومحاولته للقضاء عليها باعتبارها معول هدم في الحياة الاجتماعية(٤)، الآ أنه اضطر – كما يبدو – لاستخدام هذا السلاح – العصبية القبلية – لتحقيق بعض المقاصد السياسية، حيث أخذ زياد يضرب على وتر العصبية الحساس محاولا اثارة الحمية والحماس في نفوس مجيريه لنصرته على بني تميم، الذين لجأ اليهم ابن الحضرمي رسول معاوية(٥).

وكتب زياد إلى علي يخبره بما وقع بالبصرة، واستجارته بالأزد على أثر قدوم ابن الحضرمي، ومبايعة تميم وجُلّ أهل البصرة له(٦)، ويبدو أن عليا لم يَمِلْ في البداية الى الحرب، فقد أرسل الى تميم رجلا منهم هو أعين بن ضبيعة المجاشعي، وأمره أن يفرّق قومه عن ابن الحضرمي، فان امتنعوا

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٤، ص ٤١ (أبو زهير). النويرى، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٢٠٠. وذكر البلاذرى، أن زيادا "بعث الى مالك بن مسمع وغيره من وجوه أهل البصرة، فدعاهم الى نصرته، فلم يبعدوا ولم يحققوا..." (انظر أنساب (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٢٦ (قالوا).

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه).

(٣) البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٢٦ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١٠-١١١ (عمر بن شبه). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٥١١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦ (عن خليفة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦١ ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٤، ص ٤٢ (أبو زهير). ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٢٩. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٠.

(٤) عن دور زياد في محاربة العصبية القبلية انظر، ص ١٣٨ وما بعدها من الفصل الثالث.

(٥) انظر البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٨٠. البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٢٨ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٢٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٣٦٢. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٠٠.

قاتل بمن أطاعه من عصاه، فسار أعين حتى أتى زيادا، ثم أتى قومه ليرد عليهم بعض أحلامهم، ولم يكد يناظرهم في أمرهم حتى اختلفوا عليه، فانصرف عنهم ثمّ بيّتوه ذات ليلة وقتلوه(١).

وأراد زياد أن يقاتل تميم لقتلهم أعين، إلاّ أن الأزد امتنعت عليه لأنها أجارته على أن تحميه وبيت المال، ولم تجيره على أن تكون حربا على من حارب وسلما لمن سالم(٢)، ثم كتب زياد الى علي ينبئه بمقتل أعين وما آلت إليه االأمور في البصرة، فدعا علي رجلاً آخر من تميم هو جارية بن قدامة السعدي، ووجهه في بعض رجال قومه، وكتب الى زياد بمساعدة جارية والاشارة عليه، فقدم جارية البصرة وأتى زياد فسمع منه، ثم سار جارية الى قومه فقرأ عليهم كتاب علي ووعدهم، فاستجاب له بعضهم وامتنع عليه البعض الآخر، فنهض بمن جاء معه من الكوفة ومن أنضم اليه من أهل البصرة لقتال ابن الحضرمي، وما زال به وبأصحابه حتى ألحق بهم الهزيمة، والجأ ابن الحضرمي ومعه بعض أتباعه الى دار سنُبيل، فأنذرهم جارية ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا، فأحرق عليهم الدار ولم ينجُ منهم أحد(٣)، وهكذا استتب الأمر لزياد، وخلا له الجو في البصرة فعاد الأمن الى نصابه، ورجع زياد الى دار الامارة، فكتب الى علي يخبره بما حدث لابن الحضرمي وأصحابه(٤).

وقد تغنت العصبية الأزدية بهذا الانتصار، بعد مقتل ابن الحضرمي وعودة زياد وبيت المال الى دار الامارة، فقال عمرو بن العرندس العودى الأزدي، يذكر تحريق ابن الحضرميّ، ويعيرّ تميما بذلك ويفخر بأحساب قومه حاله في ذلك حال شعراء الجاهلية :

رددنا زياداً الى داره ... وجار تميم دخانا ذهب
ونحن أناس لنا عادة ... نُحامي عن الجار أنْ يُغتصب

(١) أبو عبيدة، النقائض، جـ١، ص ١٢٥-١٢٦. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٨٠. البلاذرى، أنساب، (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٨ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٢٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الأثير، أسد الغابة، م ١، ص ٢٦٣. ابن الأثير أيضا، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢، ص ٢٠٠.

(٢) البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٩ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٤٧-٤٨ (ابراهيم بن هلال). النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٨٠. البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٢٩-٤٣١ (قالوا)، ص ٤٣٢-٤٣٣ (أبو عبيدة). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١١٢ (عمر بن شبه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٢٢٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٥٦. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢-٣٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٤٨-٥٢ (كعب بن قعين).

(٤) البلاذرى، أنساب (محمد باقر)، جـ٢، ص ٤٣٣ (أبو عبيدة). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١١٢ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٥٢ (ابراهيم بن هلال).

حميناه إذ حلّ أبياتنا ولا يمنع الجار إلاّ الحسب(١)

ان الروايات التي تناولت فتنة ابن الحضرمي، تشير الى أن أحداثها جرت بعد قدوم عبد الله بن عباس الى علي بالكوفة لمواساته لمقتل محمد بن أبي بكر،(٢) وهذا ما لا يستقيم مع ما جاء في الروايات ذاتها، فلو كان ابن عباس عند علي بالكوفة، لأسرع في العودة الى البصرة حين بلغته أنباء ابن الحضرمي، ولما أقام عند علي وترك زياد يواجه المحنة بمفرده، فلعل ابن عباس حينئذ كان بمكة ولم يكن بالكوفة، وهذا ما جاء في رواية البلاذرى، التي تذكر أن "عبد اللهبن عباس حين شخص الى مكة مغاضبا لعلي خلّفه (أي خلّف زياداً) على البصرة، فلم ينزعه علي، وكان يكاتبه عن ابن عباس على أنه خليفته"(٣)، والحقيقة أن ابن عباس كان قد ضعف في مؤازرة بن عمه بعد قضية الحكمين، حتى اننا نراه يخفق في النهوض معه الى الشام، حين همّ بمحاربة أهلها بعد صفين، كما أنه لم يشهد معه النهروان، واكتفى بارسال الجند من البصرة اليه(٤)، ثم لم يزد على ذلك. أما زياد فقد أحسن الحيلة والبلاء، ووفق في الاحتفاظ بهذا المصر لعلي على الرغم من محاولة معاوية لانتزاعه منه.

ومع أن عبد الله بن عامر الحضرمي لم ينجح في تحقيق رغبة معاوية، وقصده في الاستحواذ على البصرة، أو اثارة الفتنة فيها، الاّ أنه أفسد من أمرها الشيء الكثير، فليس قليلا أن يلجأ زياد - خليفة الامير - وبيت ماله الى حي من أحياء العرب ليجيروه، شأنهم في ذلك شأن العرب في الجاهلية. والنتيجة أن أصبح المصر مضطربا بفساد بعض أهله على بعض، أما الفائدة التي جناها معاوية فقد انتفع بالتجربة، وأدرك أن محاربة علي مجاهرة في العراق أمر لم يئن آوانه بعد.

ولايته على فارس

لقد ساء موقف علي بعد وقعة صفين سوءا شديداً، فكان الخوارج في العراق قد ناصبوه الحرب والقتال بعد قضية التحكيم، وقد أظهر أهل العراق تراخيهم وتثاقلهم عن نصرته(٥) فضعف موقفه في قلب الدولة، مما أثر في مكانته وهيبته في الاطراف.

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١٢-١١٣ (عمر بن شبه). وقال أبو الأسود الدؤلي في اجارة الأزد لزياد:

أبى الله الاّ أن للأزد فضلها وأنهم أوتاد كل بلاد
أجاروا زيادا حين أسلم نفسه اليهم وكان الرأي رأي زياد.

(البلاذرى، أنساب، (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٣٣).

(٢) انظر أبو عبيدة، النقائض، جـ ١، ص ١٢٥. الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١١٠ (عمر بن شبه). المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٧٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٤، ص ٤١ (عن أبي زهير). النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ١٩٨.

(٣) البلاذرى، أنساب، (محمد باقر)، جـ ٢، ص ٤٢٦ (قالوا).

(٤) انظر الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٧٨-٧٩ (أبو مخنف).

(٥) انظر مثلا: تثاقل أهل البصرة عن القيام مع علي عندما استنفرهم للخروج معه الى الشام. (الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٧٨-٧٩ (أبو مخنف). ويذكر أن عليا قال لأصحابه بعد يوم النهر "عباد الله، مالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم الى الارض..". (انظر الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٩٠ (أبو مخنف)).

كان مقتل ابن الحضرمي وأصحابه بالنار حين أحرقهم جارية بن قدامة صنيع اشتهر في البلاد، فتشوشت قلوب كثير من الناس على علي[1]، وسادت الفوضى واضطربت الأمور، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمالهم، وقد تمرد أهل فارس وأهل كرمان فامتنعوا من أداء الخراج، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف من بين أظهرهم[2].

كان تمرد أهل فارس عقبة جديدة واجهها الخليفة علي، في الوقت الذي كان فيه مشغولا بقضايا أخرى أكثر أهمية، ولكي يتفرغ الى معالجة تلك القضايا كان لابد له أن يختار لولاية فارس رجلا يكون في مستوى الأحداث، وما تتطلبه معالجتها من دراية في السياسة، وقوة في الارادة، ولكي يكون اختياره ناجحاً وموفقاً، فقد استشار الناس في ذلك، فقال له جارية بن قدامة السعدي: "ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صليب الرأي، عالم بالسياسة كافٍ لما وُلي؟" فقال علي: "من هو؟"، قال: "زياد"، قال: "هولها"[3].

وجارية هذا، كان خبيرا بشخص زياد ودهائه، فقد خاض معه تجربة مرة أثناء فتنة ابن الحضرمي بالبصرة، أدرك من خلالها كفاءته وقدرته على معالجة الأمور الطارئة، فكان رأيه في ولاية فارس المضطربة أن تُولى لزياد العالم بالسياسة، وقد أخذ علي برأي جارية فولى زيادا بلاد فارس وكرمان.

سار زياد الى فارس سنة (٣٩هـ/ ٦٥٩م) في جمع كثير، لكي يلزم أهل هذه الولاية حدود الطاعة والنظام، ولما وصل إليها وجدها تضرم نارا، فأخذ يعالج ظروفها بحكمة بالغة تُنبيء عن كفاءة عالية وخبرة واسعة في الادارة، فقد استخدم سياسة اللين والمداراة حينا، والدهاء والوعيد وضرب أعداءه بعضهم ببعض حيناً آخر، قاصداً تفريقهم وتشتيت شملهم، ليقاوم بعضهم بعضا. وقد نجح زياد في مسعاه حيث تفرق أهل فارس، وقتل بعضهم بعضا حتى فنيت منهم طائفة وهربت

---

(١) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٣٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٢-٣٣٣. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٣٠. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، دمشق، ١٩٧٢، ص ٧٢، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: نبيه عاقل، خلافة بني أمية.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٢٢ (الشعبي)، أيضا ص ١٣٧ (عمر بن شبه). المسعودي، مروج الذهب، م٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٣٨١. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ١٦٣-١٦٤ (الشعبي). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٣٨١-٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣. ابن خلدون، العبر، م ٢، ص ١١٣٠. محمد ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، ط ٤، دار الانصار، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٨٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الريس، الخراج والنظم المالية، وانظر: Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 24.

طائفة، وبقيت أخرى تنعم بالأمن والاستقرار وتؤدي فروض الطاعة والتسليم(١)، وقد نهج زياد السياسة ذاتها مع أهل كرمان(٢)، وبذلك استطاع أن يعيد الأمور في فارس الى نصابها، فأدى أهلها الخراج وما كان عليهم من الحقوق، ورجعوا الى السمع والطاعة، وسار فيهم سيرة حسنة، كانت موضع اعجاب بالنسبة لهم، فقالوا: "ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي"(٣)، وقولهم هذا يدل على تفهم زياد العميق لنفسيتهم، التي اعتادت الخضوع لسيطرة الملوك الساسانيين، وقد أفلح عندما سار فيهم سيرة مشابهة - من حيث الشكل - بسيرة كسرى أنو شروان.

وهكذا صفت لزياد فارس وكرمان واستقامت له تلك البلاد بعدله وعلمه وصرامته "فلم يلق فيها جمعا ولا حربا"(٤)، ثم أتى اصطخر فنزلها وبنى فيها قلعة حصينة، كانت تعرف باسم "قلعة زياد"(٥)، وفيها - على ما يبدو - وضع أموال فارس(٦).

وبقي زياد في فارس يديرها بكل حكمة ودهاء، حتى سكن الناس واستتب الأمن والنظام، ولم تذكر المصادر المتوفرة ما يشير الى حدوث اضطرابات أو قلاقل في فارس ابان ولاية زياد، غير أن اليعقوبي ينفرد بذكر رواية مفادها، أن عليا أرسل الى من يحمل اليه ما عنده من المال، فقال زياد للرسول فيما قال، ان الأكراد قد كسروا عليه كثيراً من الخراج، وطلب منه أن لا يعلم الخليفة بذلك فيتهمه بالتهاون في بعض الحق، ولكن الرسول أنبأ عليا بكل ما حدّث به زياد، فكتب اليه علي

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٧، ١٣٨ (عمر بن شبه). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن العربي، العواصم من القواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣. محمد كرد علي، الادارة الاسلامية في عز العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ٧٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: محمد كرد علي، الادارة الاسلامية.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٨ (قال). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣. وانظر فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٣. الريس، الخراج والنظم المالية، ص ١٨٠.
وذكر البلاذري، أن زياداً سأل أهل فارس عن أمثل سيرة لملوك الفرس، فقيل له سيرة كسرى أنو شروان، كان يضع عن أهل فارس من خراج كل عشر سنين خراج سنة، ففعل زياد مثل ذلك. أنظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٨ (قالوا).

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٨ (قال). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣. الريس، الخراج والنظم المالية، ص ١٨٠. محمد كرد علي، الادارة الاسلامية، ص ٧٦.

(٥) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٨ (قال). الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٧٣. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢٤١. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨٢.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣.

كتاباً ذكر فيه مقالته التي حكاها للرسول، ثم هدده وأوعده قائلا : "يا زيادا وأقسم بالله أنك لكاذب، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر، الاّ أن تكون لما كسرت من الخراج محتملا" [1]، ان ما ذكره اليعقوبي يتعذر قبوله لاعتبارات عديدة منها : ان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ولىّ زياداً على بلاد فارس التي تمردت وامتنعت عن دفع الخراج، لكي يُلزم أهلها حدود الطاعة فيؤدون الخراج وما عليهم من حقوق، وقد تمكن زياد بحنكته السياسية والادارية من تحقيق ذلك في كافة أرجاء فارس وكرمان، فكيف يعجز عن تحصيل الخراج من طائفة الأكراد؟! ولو افترضنا صحة ذلك فما مصلحة زياد في اخفاء هذا الأمر عن أمير المؤمنين؟، ثم انه لا يعقل أن يكون أمير المؤمنين علي قد كلم زيادا بهذا الأسلوب الذي يتهمه فيه بالكذب والخيانة، ويهدده بالأخذ واستصفاء المال، وهو الذي قال له من قبل "مثلك فليؤتمن" [2]، وكان قد ائتمنه على خراج البصرة وديوانها. والى جانب هذه الاعتبارات فان هذه الرواية وردت منفردة عند اليعقوبي، المعروف بعدم اعتداله تجاه الأمويين ومؤيديهم، فلا يستبعد أن يكون القصد منها الاساءة الى زياد، ومحاولة اظهار خيانته في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بقي زياد بفارس وقد ملكها وضبط قلاعها بكفاءة وحسن تدبير الى أن علم معاوية بأمره، فخاف جانبه، وساءه أن يكون رجل مثل زياد في خدمة علي، فرأى أن يضمه الى جانبه ويستفيد من خبراته الواسعة لدعم سلطان بني أمية، وقد حاول معاوية ادخاله في طاعته تارة بالتهديد وأخرى بالترغيب، حيث كتب اليه كتابا توعده فيه، وهدده بأنه لن يستطيع الافلات من سلطانه ثم نجده يُعرّض له بولادة أبي سفيان[3]، ولكن زيادا لم يلتفت الى عرض معاوية، وردّ عليه بخطبة حماسية عامرة بالذم والسب، قال فيها "أيها الناس، كتب إليّ ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، وبقية الأحزاب يتوعدني، وبيني وبينه ابن عم رسول الله في سبعين ألفا، قبائع سيوفهم عند أذقانهم، لا يلتفت أحد منهم حتى يموت، أما والله لئن وصل هذا الأمر اليه، ليجدني ضرّابا بالسيف" [4].

وعندما علم علي بمراسلة معاوية لزياد، كتب الى زياد "أما بعد : فاني قد وليتك ما أنت أهل

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، م ٢، ص ٢٠٤.

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ٢٣.

(٣) العسكري، الأوائل، ص ١٩٧-١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣-٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٨١. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٠٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠.

(٤) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٨٩ (قالوا). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ ١، ص ١٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٨، ص ٤٣ (الاعمش). وذكر ابن قتيبة : أن زيادا ردّ على معاوية بكتاب قال فيه : "أتوعدني وبيني وبينك علي بن أبي طالب، أما والله لئن وصلت اليّ لتجدني أحمر ضرّاباً بالسيف. (انظر المعارف، ص ٣٤٦).

له، وأنا أعلم أنك لم تضبطه الاّ بالتقوى والصبر، وقد قرأت كتاب معاوية، فاحذر فانه الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وكانت من أبي سفيان زمن عمر فلتة، فلا يثبت بها نسب ولا يُستحق بها ميراث "[1]، فلما قرأ زياد كتاب الخليفة قال : "شهد لي أبو الحسن ورب الكعبة "[2]، وقد كان ذلك من الأمور التي جرّأت كل من زياد ومعاوية على الحاق نسب زياد بأبي سفيان فيما بعد[3]، على أن زيادا ظلّ على اخلاصه لعلي، ورفض الاستجابة للخليفة الأموي، ولم تنفع معه سياسة التهديد والوعيد، وسد أذنيه عن سماع كل نداء وجهه اليه معاوية للقدوم اليه، وقد تغيّر موقف زياد عقب مقتل علي وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية، وهذا ما سنوضحه في الفصل الثاني ان شاء الله .

---

(١) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨ . ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٥-٥٢٦ (هشام بن محمد). الزمخشري، ربيع الأبرار، جـ٣، ص ٥٥٩ . ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤ . ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٨٢ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠ . ابن خلدون، العبر م ٣، ص ١٥ .

(٢) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨ . ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦ (هشام بن محمد). ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧ . ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٧٧ . ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٧-٣٥٨ .

(٣) انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦ . ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧ . ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٦، ص ١٧٧ . ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨ .

الفصل الثاني
تحوّل زياد الى الصف الأموي
وولايتــه للعـــراق

* الصلح مع معاوية .
* إلحاق نسب زياد بأبي سفيان .
* موقف الناس من الاستلحاق .
* تعيين زياد على العراق .

الصلح مع معاوية

ذكرنا في الفصل السابق المحاولات الأولى التي قام بها معـاوية لكسب زياد وضمه الى جانبه، إلاّ أن تلك المحاولات باءت بالفشل حيث أن سياسة الـوعيد والتخويف لم تجد نفعا مع زياد، فأعرض عن كل نـداء وجّهه إليه معـاوية، وظل مـوالياً لعلي مخلصـا له، بـالرغم من العـرض السخيّ الذي عرضه عليه معاوية[1].

ويُفهم من خطبة زياد التي ردّ فيها على كتاب معاوية، أنه كان يرى أن كفة معاوية لم ترجح بعد وأن عليا بالرغم من تخاذل بعض أصحابه، لا يزال صاحب الموقف الأقوى، وتبعا لرؤية زياد هذه، فقد قال مهـددا معاوية: "يتوعـدني وبيني وبينه إبن عم رسول الله في سبعين ألفا، قبـائع سيوفهم عند أذقانهم، لا يلتفت أحد منهم حتى يموت"[2].

وعندما قتل علي بن أبي طالب (رض)، وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر في مساعيه الهادفة الى استمالة زياد بأقل التكـاليف، والظاهر أن معاوية استمـر في سياسة التهديد والـوعيد مع زياد، وهي سياسة لم تأت أكلها من قبل، وقد ردّ زياد على تهديدات معاوية بخطبة قال فيها: "العجبُ من ابن آكلـة الأكبـاد، وكهف النفاق، ورئيس الأحـزاب، كتب إليّ يتهـددني وبيني وبينـه ابن عم رسول الله (ﷺ) - يعني ابن عباس والحسن بن علي - في تسعين ألفا واضعي سيوفهم على عواتقهم لا ينثنـون، لئن خلص إليّ الأمر ليجـدني أحمر ضرّاباً بـالسيف"[3]. وهذه الخطبـة تتضمن إعترافاً ضمنياً بولاء زياد للحسن بن علي، وإخلاصه لذكرى والده الذي مات، ولعلّ صيغة هذه الخطبة - والتي جاءت مشابهة لتلك الخطبة التي قالها زياد أيام علي عندما ردّ على كتاب معاوية الأول - تفيد التأكيـد على موقـف زياد الثـابت، الـذي لا يثنيه التهـديـد والـوعيد، ولا تميلـه العـروض المغريـة والسخية.

---

(١) انظـر: المنقـرى، وقعة صفين، ص ٣٦٦ (الأعمش). ابـن أعثم الكوفي، الفتـوح، م ٢، ص ٣٠٠-٣٠١. العسكـرى، الأوائل، ص ١٩٧-١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٩ (أبـو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٣. إبن أبي الـدم، التـاريخ الاسـلامي، جـ ١، ص ١٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البـلاغـة، جـ ١٦، ص ١٨١ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩.

(٢) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٨٩ (قالوا). الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠١. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة جـ ٨، ص ٤٣ (الأعمـش). بينما ذكر أبو هلال العسكري أن زيادا قال: "يتهددني - يعني معاوية - وبيني وبينه ابن عم النبي (ﷺ) في مـائة ألف، وأيم الله لئن أفضى إليّ ليجدن مني أحمر ضرابا بالسيف". (انظر الأوائل، ص ١٩٨).

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٠ (الشعبي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥-٤١٦. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٢٨. النـويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٤. بينما ذكـر اليعقوبي أن زياداً خطب قـائلا: "ان ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، وبقية الأحزاب، كتب إليّ يتوعدني ويتهددني، وبيني وبينه ابنا بنت رسول الله في تسعين ألفا ...". انظر تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص ٢١٨.

وهكذا بقي زياد بفارس مخلصاً لعلي ولابنه الحسن من بعده، وقد تحصّن بقلعة عُرفت باسمه (قلعة زياد)[1]، فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، وله معه تجربة سابقة، فقد حاول إفساده على علي حينما وجّه إليه عبدالله بن عامر الحضرمي، وكان خليفة ابن عباس على البصرة، ولكن زيادا ناهض ابن الحضرمي، ولم يستجب لمقاصد معاوية[2]، هذا فضلا عما كان يعلمه معاوية من اعجاب المسلمين بشخصية زياد منذ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان وقتذاك غلاما، فلم يأمن معاوية أن يكون موقف زياد هذا دافعا لالتفاف الناس من حوله ومبايعتهم لبعض أهل البيت[3]، الأمر الذي يضطر معاوية الى معاودة الحرب التي بدأها من قبل مع علي، وربما أدى ذلك الى تهديد الخلافة الأموية الفتية، وهي في أدق لحظاتها، مما جعل معاوية يلجأ في تعامله مع زياد الى أسلوب آخر، حيث بعث بسر بن أرطأة القرشي سنة (٤١هـ / ٦٦١م) والياً على البصرة وأمره بقتل من خالفه، ولعل معاوية حرّضه أيضا على التعرض لأولاد زياد المقيمين هناك[4]، كمحاولة للضغط على أبيهم المتحصن بقلاع فارس للتخلي عن عناده، وقد امتثل بسر لأمر معاوية، فقبض على بني زياد الأكابر ومنهم: عبد الرحمن، وعبيد الله، وعباد، فحبسهم[5]، وأراد أن يكره والدهم على الشخوص لمعاوية والدخول في طاعته، فأرسل اليه يتهدده ويتوعده بقتل أولاده ان لم ينزل مستسلما، لكن زيادا لم يستجب لتهديدات بسر، وكتب اليه: "لست بارحاً من مكاني الذي أنا به، حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك، فان قتلت من في يديك من ولدى، فالمصير الى الله سبحانه، ومن ورائنا وورائكم الحساب (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)"[6].

---

(١) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٢ (قالوا). أيضا ق ٤، جـ١ (احسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٠ (الشعبي). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٧ (عوانه). ابن الأثير، الكامل م٣، ص ٤١٦. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٢٥.

(٢) عن دور زياد في فتنة ابن الحضرمي، بالبصرة، انظر ص ٦٥-٦٨ من الفصل الأول.

(٣) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٧ (عمر ابن شبه). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢. ابن خلدون، العبر، م٣، ص ١٠.

(٤) انظر: الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٧ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤١٤. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٠. علي الخربوطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩، ص ٨٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الخربوطي، تاريخ العراق. Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 24.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٩ (قالوا). الطبري، تاريخ جـ٥، ص ١٦٨ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٧، (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٢٦. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩. وذكر المسعودي: أن بسرا لم يحبس من أولاد زياد الآ عبيد الله وسالم. (انظر مروج الذهب، م ٣، ص ١٥).

(٦) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٨ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٢٧. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩١. والآية التي ينضمنها النص من سورة الشعراء: (٢٢٧).

وقد همّ بسر بقتل أولاد زياد وتنفيذ وعيده، إلاّ أن أبا بكرة - أخا زياد لأمه - تدخل في الوقت المناسب، حيث أتى بسرا واعترض على ظلمه لأولاد زياد الأبرياء، وعلى مخالفة الأمان الذي منحه معاوية في صلحه مع الحسن لأنصار علي وشيعته، ثم سأل بسرا أن يؤجله أياما حتى يأتيه بكتاب من معاوية بتخلية سبيلهم، فأجله[1]، وهذا يشعر أن فكرة ممارسة الضغط على زياد عن طريق تهديده بقتل أولاده لم تكن من قبل بسر، ولكن مرجعها الأول معاوية، الذي كان له الأمر بتنفيذ القتل أو الامتناع عن ذلك، ويبدو أن أبا بكرة تمكن من اقناع معاوية - حينما قابله - بالامتناع عن قتل أولاد أخيه، وبعد أن حصل على كتاب العفو، قدم به الى البصرة واعطاه لبسر، فأفرج عن الأولاد وأطلق سراحهم[2].

وهكذا أخفق معاوية مرة ثانية في استمالة زياد، الذي ظل على إخلاصه لآل علي بن أبي طالب، والظاهر أن زياداً لم يعلم بتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية - والذي تم قبل قدوم بسر الى البصرة - إلاّ في هذه الأثناء، ومع ذلك بقي بفارس متحصنا بقلاعها المنيعة، وكان محبوباً من قبل أهلها[3]، الذين لمسوا فيه حسن التنظيم والادارة. وقد عبرّ إبن حزم عن امتناع زياد بفارس، وعدم قدرة معاوية على استمالته بقوله : "وقد امتنع زياد وهو فقعة القاع، لا عشيرة له، ولا نسب، ولا سابقه ولا قدم، فما أطاقه معاوية إلاّ بالمدارة"[4]، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذي لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولا وبامكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانيا، إلاّ أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية اذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذي دفع زياد في المرحلة التالية من علاقته بمعاوية الى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر ايجابية.

لقد عاود معاوية - بعد أن صالح الحسن، وبايعت له جماعة الناس - الإتصال بزياد، حيث

---

(١) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٢ (قالوا)، أيضا، ق ٤، جـ ١، (إحسان عباس)، ص ١٨٩ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٨-١٦٩ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البياسي، اعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٢٧. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩.

(٢) البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ ١، ص ٥٠٥ (عوانه). أيضا، ق ٤، جـ ١ (احسان عباس)، ص ١٨٩-١٩٠ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٩ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٥. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٧٧. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٩.

(٣) انظر : الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١٠٩. أبو الفدا، المختصر، جـ ١، ص ١٧٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٣٣٣. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٣.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عُميرة، ٥ جـ، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥م، جـ ٤، ص ١٧٣ وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن حزم، الفصل في الملل. الصفدى، الوافي بالوفيات، جـ ٥، ص ١٣. الكتبي، فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٣٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ ٣، ص ٤٩٦.

كتب إليه يطالبه بتقديم حساب عما في ذمته من أموال ولايته، فأجابه زياد: "إنه لم يبق عندي شيء من المال، وقد صرفت ما كان عندي في وجهه، واستودعت بعضه لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل الى أمير المؤمنين رحمة الله عليه"(١)، ومن جواب زياد هذا نلمس أول تغيّر يطرأ على موقفه تجاه معاوية، فبعد أن كان رفضه مطلقا أخذ يحاور معاوية حول المال بهدوء ومن غير تعنت، ويبدو أن معاوية قد اطمأن لجواب زياد، وقبل عذره الذي اعتذر به، طمعا في كسب وده، لا سيّما وأن زياد هذه المرة كان لينّ الجانب على غير عادته، الاّ أن معاوية أصرّ على أن يأتيه زياد، فكتب اليه: "أن أقبل إليّ ننظر فيما وليت وجرى على يديك، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك، وإلاّ رجعت الى مأمنك"(٢)، ولكن زيادا قابل طلب معاوية هذا بالرفض، ولعله حرص على أن لا يضع نفسه تحت رحمة معاوية، دون أن يأخذ منه ما يضمن به سلامة نفسه والمحافظة على اقليمه على الأقل. ويظهر أن عدم إستجابة زياد ورفضه لطلب معاوية أمر اضطر الأخير الى استخدام أسلوب الضغط والتهديد من جديد، حيث بلغ معاوية أن عبد الرحمن بن أبي بكرة يلي ما كان لزياد من أموال وأملاك بالبصرة، فكتب معاوية الى المغيرة بن شعبة - وكان واليه يومئذ على الكوفة - يأمره بمصادرة أموال زياد وبتعذيب عبد الرحمن إن امتنع عليه(٣)، والظاهر أن صداقة المغيرة لزياد جعلت الأول غير جاد في تنفيذ ما أمر به معاوية، كما أنه كان لزياد يد بيضاء عند المغيرة زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في حادثة أم جميل المرأة الهلالية(٤)، ولعل المغيرة - وهو ثقفي الأصل - عزّ عليه أن يُنكّل برجل يُعد من بين رجالات ثقيف البارزين، فاكتفى بتعذيب عبد الرحمن بن أبي بكرة تعذيباً صوريا، ثم كتب الى معاوية يخبره: "إني لم أصب عنده شيئا، وقد بالغت في عذابه، واستقصيت عليه"(٥).

وهكذا فشل معاوية مرة أخرى في الضغط على زياد، الذي لم يزل متربصاً في قلعته تلك يكره النزول على حكم معاوية، والدخول في طاعته، دون أن يأخذ منه ضمانا. ولعل زيادا أراد أن يظهر شأنه وقوته، إذ كان يعلم أنه في حصن آمن، وأنه لن يُبدأ بالقتال قبل محادثات ومفاوضات تسبقه،

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص١٦٨ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٩١.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص١٦٨ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٤١٥. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٤٩١.

(٣) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٦ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م٣، ص ١٠. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٤.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر الفصل الأول، ص ٥٣-٥٤.

(٥) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٦ ١٧٧ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٢٢. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٩٥. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٤.

وبـامكـانـه أن يلعب في تلك المفـاوضـات دوره، فـلا بأس عليـه اذن من بقـائه متحصنـا فترة من الزمن، ثم يصالح معاوية بشروط حسنة يحصل عليهـا، والواقع أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أمر جعـل زياد يـرى أن لا جدوى من عصيـانه وعنـاده لمعاوية، اذ أن أصحـاب الحق تنازلـوا عن حقهم، فما بال غيرهم؟! نود أن نقول أن زيادا لم يكن جادا في عصيانه بعد صلح الحسن مع معاوية بل اتخذه ظاهرة خارجيـة ليقلق بها معاوية، الذي ضاق بمكانه، وكان معـاوية يعلم أن لدى زياد مقدار من المال، وأن لـه أنصار يتعصبون لـه من أهل فارس، وكـان يعلم أيضاً مكره وسعـة حيلته وبُعد غوره في الدهاء، فلم يأمن جانبه.

إزداد قلق معاوية من أمر زياد، ولم ينقـذه من هذا القلق إلاّ المغيرة بن شعبة، والذي أفضى إليه معـاوية قلقـه، فأراد المغيرة أن يقلل من شأن زيـاد وأمـره، ليخفف من وجل معـاويـة الذي أعيـاه وأسهره الليـل، ولكن معاويـة لم تهدأ نفسه، وقـد عبرّ عن مخاوفه حينما قـال للمغيرة : "شر الوطء العجز، أترضى أن يكـون زياد وهو داهية العـرب، وقريع ذوى الرأي والحزم بمكانـه؟ ما يؤمنني أن يبايع لبعض أهل هذا البيت، فيعيـدها جذعه، والله لقـد بتّ ليلتي ساهراً لذكرى زيـاد واعتصامه بقلعة بأرض فارس "[1]، ولم يكن هذا القول تعبيراً عما في نفس معاوية من قلق فحسب، بل تضمن أيضا طلبـا للمشورة والمعـونة، ومعـاوية يعلم أن المغيرة من أشراف ثقيـف ومن دهاة العـرب، وهو المميز فيهم بحل المعضلات[2]، ويظهر أن المغيرة حـرص أشد الحرص على أن يحل هـذه المشكلة، فيتقرب بذلـك الى الخليفة الذي أعياه حلها، ويكسـب ود زياد الذي قُدّر له أن يكـون من رجالات الدولة البارزين.

لقد عرض المغيرة على معاوية مبادرة من جهتـه، يهدف بها المصلحة العامة، فطلب الأذن بزيارة زياد ومفاوضته، فأذن له معاوية ونصحه بالتلطف لزياد عند لقائه[3]، فكان بذلك أشد حاجة الى الصلح، وأكثـر حماساً من المغيرة، وعنـدما التقى المغيرة بـزياد تلطف لـه وترضـاه، وذكّره بمبـايعة الحسن بن علي لمعاوية، ثم حثه على الدخول في طـاعة معاوية قبل فوات الأوان، ويبدو أن زيادا لم

(١) البـلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٠ (قـالوا). الطبري، تـاريخ، جـ ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبـه). ابن عبد ربـه، العقد الفـريد، جـ ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن الاثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٢٢. النويري، نهايـة الارب، جـ ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٠. مؤلف مجهـول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤، Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 24-25.

(٢) انظـر ابن عبـد البر، الاستيعـاب، ق ٤، ص ١٤٤٦ (الشعبي). الطـرطـوشي، سراج الملـوك، ص ١٢٧ (الشعبي). ابن عسـاكر، تـاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٣ (الشعبي). ابـن تغرى بـردى، النجـوم الزاهـرة، جـ ١، ص ٧٢ (الشعبي). السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٣.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٢-٤٢٣. النويري، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٢٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٠. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤.

يتشبث برأيه كثيرا، بل استنصح المغيرة، فنصحه بأن يستسلم، حيث قال له : "أرى أن تصل حبلك بحبله، وتشخص إليه"(١)، ولا بد أن المغيرة وعد زيادا وعودا غير معلنة، أقدر منها الحاقه بنسب أبي سفيان وتساهل معاوية بشأن الأموال التي كانت معه.

وهكذا نجح المغيرة في حمل زياد على تعديل موقفه، وأقنعه بمهادنة معاوية، وقد رأى زياد أنه من الأفضل أن يتوجه الى دمشق، لا سيّما وأن معاوية قد كتب إليه بالأمان، فخرج من فارس سنة (٤٢هـ/ ٦٦٢م) قاصداً معاوية، وبرفقته المنجاب بن راشد الضبي، وحارثة بن بدر الغداني(٢)، وعندما قدم زياد الى دمشق أكرمه معاوية وتلطف له، ثم سأله عما صار اليه من أموال فارس، فأخبره زياد بها أنفق منها في الوجوه المختلفة، وما حمله إلى علي (رض) قبل موته، وما تبقى منها عنده فصدقه معاوية(٣) وأثنى على أمانته قائلا : "قد كنت أمين خلفائنا"(٤)، ويبدو أن معاوية لم يأخذ كل الأموال التي كانت في يد زياد، بل اكتفى بأخذ ألفي ألف درهم،(٥) وتنازل عن الباقي لزياد، وربها كانت هذه وسيلة منه لكسب ود وزياد أكثر فأكثر.

إن التبدل الذي أصاب الوضع السياسي على أثر تنازل الحسن، وتفويض الأمر لمعاوية بمبايعة جماعة الناس له، هو الذي يفسر لنا التحول في موقف زياد واستجابته لمعاوية أخيرا، بعد مداولات دامت أكثر من ثلاث سنوات، وقد عبرّ زياد عن هذا التحول بقوله "فلما رأيت الله صرف الأمر عنه (يعني علي بن أبي طالب) إلى معاوية، لم أتهم قضاء الله، ورضيت به، وقد رأيت الى ما صار أمر علي وأصحابه"(٦). والى جانب هذا فلا بد من الاشارة الى دور المغيرة الذي ساهم بمساعيه مساهمة فاعلة في تبدل موقف زياد، فما زال به حتى ثناه عن رأيه، وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما توسل به الى معاوية من خدمة، اذ كان زياد شوكة في جنب معاوية، وكان الى ذلك قوى الشكيمة

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٠-١٩١ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٧ (عمر ابن شبه). المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٥. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٦. العسكري، الأوائل، ص ١٩٩. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٦٥ (عوانه وعبد الملك بن عبيد الله الثقفي). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٥-٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٥.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٨ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٨ (مسلمة بن محارب). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٣. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٧٨ (مسلمة بن محارب).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩١ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤١. بينما ذكر ابن الاثير، أن زيادا صالح معاوية على ألف ألف درهم (انظر الكامل في التاريخ، م ٣، ص ٤٢٤). أما ابن كثير فيقول : "أكرم معاوية زيادا، وقبض ما كان معه من الأموال، وصدقه فيما صرفه". (انظر البداية والنهاية، جـ ٧، ص ٢٥).

(٦) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٧١ (أحمد بن ابراهيم الدورقي).

داهية عبقرى الادارة، بحيث كـان من الصعب على معاوية أن يصل إليه، أو يـوفق في إخضاعه إلا بعد قتال عنيف، لا يدري أحد من سيكون الرابح في مثل ذلك الموقف الخطير.

وبعد أن صالح زياد معـاوية سأل معاوية أن يأذن له في نزول الكـوفة، فأذن له، فشخص زياد الى الكوفة، وكان واليها المغيرة بن شعبـة، فأكرمه وعظمه(١). ولا ندري لماذا اختار زيـاد الإقامة في الكوفة؟ وكان الأولى به أن يقيم بالبصرة، حيث بيته وأولاده وماله، ويظهر أنه فضّل الإقامة بجانب صديقه المغيرة بن شعبة، الذي كان له الفضل في صلحه مع معاوية، وكره أن يقيم بالبصرة الى جوار واليها عبـد الله بن عامر، الذي كـان في نفسه شيء من زياد منذ ولايتـه لعثمان بن عفان (رض) على البصرة، وذلك عندما خـالفه زياد وقام بإصلاح نهر الابلة أثنـاء غيابه(٢)، ولعل هذا التباعد تنامى بعد اعتصام زياد بفارس وعدم استجابته لمعاوية إلاّ بآخرة.

ويظهر أن معاوية لم يطمئن تماماً إلى زياد الذي كان بالأمس من شيعة علي(٣)، فطلب من المغيرة مراقبة وملازمة زياد وجماعة من كبار أنصار علي وشيعته، فيروى الطبري أن معاوية كتب الى المغيرة: " خذ زيادا، وسلمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وابن الكواء، وعمرو بن الحمق بالصلاة في الجماعة " فكانوا يتواجدون معه في الصلاة(٤)، وعلى هذا فان إقامة زياد بالكوفة، كانت من وجهة نظر معاوية امتحانا له، يمكن لمعاوية من خلاله أن يتبين صدق زياد في ولائه له، ومدى ميله وانتمائه الى شيعة علي بعد الصلح، ولعل زياداً أثبت خلال إقامتـه بالكوفة صدق ولائه وطاعته لمعاوية، وقـد حاول أن يدلل على ذلك من خـلال تطلعه الى اعتراف معاوية به كـأخ له، ويبدو أن الناس وقتئـذاك كانوا يـرددون هذه المقالة، فأراد زيـاد أن يهتم معاوية بـالأمر، ويبادر الى الأقرار به رسمياً.

---

(١) الطبرى، تاريخ جـ ٥، ص ١٨٩ (قال بعضهم). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٤. النويرى، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٢٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

(٢) انظر البـلاذرى، فتوح، ص ٤٩٨ (عن جماعة من أهل العلـم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلـدان، ص ١٩٠ (عن جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (عن جماعة من أهل العلم).

(٣) انظر Hiskett, M. and Awad.M, The story of the Arabs, First Published, Peninsula Press LTD, hong Konk, 1957. P. 75.

وسيشار اليه عند وروده هكذا : Hiskett, The story of the Arabs

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٩ (قال بعضهم). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١١. الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٨٨. Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 25

إلحاق نسب زياد بأبي سفيان[1]

أمضى زياد بعد صلحه مع معاوية نحو عامين لم يتول خلالهما أي عمل سياسي أو اداري، وهذا ما لم يألفه من قبل، حيث دأب - منذ صغره - على تولي الأعمال الادارية والسياسية، أما معاوية فقد استتب له الأمر بعد مقتل علي (رض) وتنازل الحسن له، وتنفس الصعداء عقب صلحه مع زياد الذي كان يقض مضجعه، فسكت معاوية عن إلحاق زياد بنسب أبيه، وكأنه أراد تأخير ذلك بعض الوقت، فصار زياد هو الذي يسعى في أمر ذلك النسب، ويجتهد في استمالة معاوية اليه حتى أنه إتفق مع مصقلة بن هبيرة الشيباني، وجعل له عشرين ألف درهم على أن يذهب الى معاوية، ويذكر أمامه أن الناس تردد القول بأن زيادا هو ابن أبي سفيان، ففعل مصقلة ذلك[2]، وهذه الفكرة لم تكن حديثه العهد بالنسبة لمعاوية، فقد حاول عن طريقها بالأمس إستمالة زياد الذي كان متحصنا بفارس[3]، وعندما أدرك معاوية أن هذا الأمر يتداوله الناس ويعرفونه، رأى أن يستلحق زيادا ويثبت نسبه ويستصفي مودته باستلحاقه، فاتخذ الخطوات اللازمة لاثبات صحة نسبه وإعلانها للملأ.

وفي سنة (٤٤هـ/ ٦٦٤م)[4] حضر زياد من الكوفة الى دمشق، ومعه أربعة شهود[5]، وهذا يشير الى اهتمام زياد واعداده المسبق لتدعيم قضيته، التي لم يسبقه الى مثلها أحد في الاسلام، وقد

---

(١) الالحاق أي هو الادراك، وأستلحقه أي إدعاه. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ١٠، ص ٣٢٧-٣٢٨. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، جـ٣، ص ٢٨٩). يقول جواد علي: "الاستلحاق: هو أن يستلحق انسان شخصا فيلحقه بنسبه، ويجعله في حمايته، أي في عصبيته" ويضيف أيضا "ومن هذا القبيل ما كان يفعله أهل الجاهلية من استلحاق أبناء الاماء البغايا بهم" (انظر: المفصل في تاريخ العرب، جـ ٤، ص ٣٥٧-٣٥٨).

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩١ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٧ (عوانه). النويري، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٣٠٤. وذكر صاحب كتاب تاريخ الخلفاء: أن زيادا دعا بعض ثقاته، وبذل له ومنّاه، لكي يمضي الى معاوية ويذكر أمامه قول الناس في نسب زياد. (انظر مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠).

(٣) انظر العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٨١. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٠.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩١. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٤. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٧٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٨٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٣٥٨. أبو الفدا، المختصر، جـ ١، ص ١٨٤. ابن الوردي، تاريخ، جـ ١، ص ١٦٨. بينما ذكر السيوطي أن معاوية استلحق زيادا سنة (٤٣هـ/ ٦٦٣م). (انظر: تاريخ الخلفاء، ص ١٩٦. أيضا السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، مناهل الصفا بتواريخ الأئمة الخلفا، مخطوط متوفر في قسم مركز الوثائق والمخطوطات بمكتبة الجامعة الأردنية، ص ٢٨٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: السيوطي، مناهل الصفا / خط).

(٥) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٨.

جمع معاوية الناس وأحضر من يشهد لزياد بذلك النسب، ثم صعد المنبر وأمر زياد فصعد معه، فقامت جماعة من ا لناس وشهدت أن زيادا ابن أبي سفيان، أقرّ به قبل موته[1]، وقام المنذر بن الزبير بن العوام فشهد أنه سمع علي بن أبي طالب يقول : أن أبا سفيان أشهدني أن زياداً ابنه[2].

وكان فيمن حضر الشهادة أيضا أبو مريم السلولي[3] - وكان خمّارا في الطائف قبل الاسلام - وهو أخبر الناس ببدء الأمر، وذلك أنه جمع بين أبي سفيان وسميّة أم زياد في الجاهلية، فشهد أن أبا سفيان قدم عليه بالطائف، وطلب منه أن يصيب له بغياً فقدّم له سميّة، ثم أخذ أبو مريم يصف تفاصيل الواقعة بصراحة وبأسلوب فاضح[4]، ويبدو أن بعض المؤرخين المعروفين بتعصبهم ضد الأمويين ومؤيديهم كاليعقوبي والمسعودي، قد بالغوا كثيراً في الحديث عن الاستلحاق، وفي وصف الأسلوب الذي تم به[5] وذلك للطعن بزياد. والواقع أن معاوية حين استلحق زيادا وأشهد الشهود على ذلك، كان يريد تثبيت نسبه من أبي سفيان، وليس التشهير به ومحاولة المسّ من كرامته بأسلوب فاضح لا يمكن أن يقبله زياد، وبعد أن انتهى الشهود من الأدلاء بشهادتهم، قام زياد وقال : "أيها الناس إن أمير المؤمنين والشهود قد قالوا ما سمعتم، ولست أدري ما حقّ هذا من باطله"[6].

وهكذا ألحق معاوية زياداً بنسب أبيه، فصار يدعى زياد بن أبي سفيان، وكان يعرف من قبل

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٢ (قالوا). الدينوري، الاخبار الطوال، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٦، ص ١٣٢. المسعودي، مروج، م٣، ص ١٤-١٥. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٦، ص ٤٦٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٧ (المدائني). الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢، ص ٣١. ابن الطقطقي، الفخرى، ص ١١٠. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٥.

(٢) الزبيري، نسب قريش، ص ٢٤٤-٢٤٥. المسعودي، مروج، م٣، ص ١٤-١٥. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٦، ص ٤٦٦ (عوانه). البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٧٦-٢٧٧. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٥٨٠.

(٣) أبو مريم السلولي : هو مالك بن ربيعة، من بني مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، يعرفون بأمهم سلول، وهو بصري له صحبة، وكان من أهل الطائف في الجاهلية، (انظر : ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٥٤. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٧٥٥. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م١٦، ص ٢٠٦-٢٠٧. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥).

(٤) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٩. المسعودي، مروج، م٣، ص ١٦. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٤. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٥.

(٥) انظر : اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٩. المسعودي، مروج، م٣، ص ١٦.

(٦) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٢-١٩٣ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ جـ٢، ص ٢١٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١١٣ (العتبي). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٧ (المدائني). وذكر ابن عساكر أن زياداً قال حين استلحقه معاوية : "هذا أمر لم أشهد أوله، ولم أدع آخره، وقد قال أمير المؤمنين ما قد سمعتم، وشهدت الشهود بما قد حضرتم، فأنا امرؤ رفع الله مني ما وضع الناس، وحفظ مني ما ضيعوا، فإن يك ما قالوا حقا فالحمد لله على بلائه عند وهمه علينا، وأن يكن باطلا فقد جعلت الرحال بيني وبين الله تعالى". انظر : تاريخ دمشق/ خط، م٦، ص ٤٦٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٥٨٠)

بزيـاد بن عبيد. ولكي يؤكد معـاوية على صحة استلحاق زيـاد، ويربط أسرته ربطا تـاماً بأسرة أبي سفيان، فقد زوج ابنته من محمد بن زياد[1].

واذا كانت شهـادة الشهود هي الحجة الأولى التي استند إليهـا معاوية في استلحاقه لـزياد، فإن الحجة الثانيـة تتمثل في إقرار أبي سفيان ببنوة زياد، وذلك في زمن الخليفة عمـر بن الخطاب، وأمام علي بن أبي طالب، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك مخافة عمر[2]، ولا ندري لماذا لم يعترف أبو سفيان ببنوة زياد في خلافة عثمان وقد عاش فيها سنين عديدة[3]، وكان عثمان ألين جانباً من عمر. ذكر ابن أبي الدم (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، أن أبـا سفيان نفى زياداً عن نفسه، وأن معاوية هـو الذي حمله على ذلك[4]، وربما يكون هـذا حدث فعلا في خلافـة عمر، وهو يفسر لنا سكـوت أبي سفيان عن الاقرار ببنوة زياد أمام الخليفتين عمر وعثمان، كما يفسر تخوف معاوية من إمكانية استلحاق زياد في تلك الفترة، فأراد أن يبقى الأمر منسيا الى أن تسمح الظروف بذلك.

والواقـع أن الحوادث التي تلت قضية الاستلحـاق، أثبتت أن معاويـة كان مقتنعا بحـق زياد في ذلك ومؤمنا بأن استلحاقه لزياد لم يكن فضلا منه، ولا عزة لنفسه، بل أنه رآه عملا لابد منه، وذلك من باب وضع الشيء في موضعه السليم، ولما كان هذا معروفـا لدى الناس، والفرصة مهيأة وخاصة بعد الصلح الذي تم بين معاوية وزياد، أراد الأول أن يثبته ويعلنه للملأ، فكان له ذلك.

هذه القضيـة بلغ من أمرها أن الناس اختلفـوا ولا يزالون مختلفين في الحكم الـذي صدر بشأنها، ولقد كـان للشعر والاتجاهات السيـاسية أثرهما في اختـلاف الناس في هذا الحكم، ومـا كان لهم أن يتأثروا بهما في هـذا الصدد، وأن يؤثروهما على حكـم قاض مجتهد. لقد رأى كثير من النـاس أن هذه

---

(١) إبن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصـم، ص ٢٣٧، ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٨٩.

(٢) الزبيري، نسب قريش، ص ٢٤٤-٢٤٥. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٨. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٥، أيضا جـ ٦، ص ١٣٢. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٦-٢٣٧. ابـن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، أسد الغـابة، م٢، ص ٢١٥-٢١٦. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٧٥-٢٧٦. ابن أبي الحديـد، نهج البلاغـة، جـ ١، ص ١٧٣، أيضا، جـ ١٦، ص ١٨٠، ١٨١ (الواقـدي). ابن خلكـان، وفيات الأعيـان، م ٦، ص ٣٥٧. ابن الـوردي، تـاريخ، جـ ١، ص ١٦٨. القلقشنـدي، مـآثـر الخلافـة، جـ ٣، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) عاش أبو سفيـان صدرا من خلافة عثمان، يقول المقللـون إنه عاش ست أوسبع سنين. (انظر خليفـة بن خياط، الطبقات، ص ١٠. ابن قتيبة، المعـارف، ص ٣٤٤. الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٩٢ (الـواقدي). السيوطي، تـاريخ الخلفاء، ص ١٥٦). ويقول المكثرون إنه عاش عشر سنين. انظر ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦٨٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٨، ص ٢٦٥. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ ٢، ص ١٨٠).

(٤) ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ ١، ص ١٩٥.

مـا ردت به أحكـام الشريعة عـلانية[1]، وذلك لأن رسـول الله (ﷺ) قضى : (الـولـد ـاهر الحجر)[2]، وذكر ابن الأثير أن من اعتذر لمعاوية قال : إنما استلحق معاوية زيادا الجاهلية كانت أنواعا منها ، ان الجماعة يباشرون البغي ، فاذا حملت وولدت ألحقت الولد منهم والقول في ذلك قولها ، فعندما جاء الاسـلام حرّم هذا النكاح " إلاّ أنه أقرّ كل ولد ، الى أب من أي نكـاح كـان من أنكحتهم على نسبـه ، ولم يفرق بين شيء منهـا ، فتـوهـم ذلك جائز له ، ولم يفرّق بين استلحـاق في الجاهلية والاسلام " ، ثم ذكر أن " هـذا مردود لمين على إنكاره ، ولأنه لم يستلحق أحد في الاسلام مثله ليكون به حجة " [3].

ـد في دراستنا لهذه القضيـة أن نتجاوز السياسـة والتاريخ ، وعلى هـذا فاننـا نرى أن ذلك أهون مما ظنّ به البعض ، وأن معاوية كـان أجلّ من أن يكون استلحاقه لزياد أول قضية ـام الشريعة علانية ، فهـو من كبار صحابـة رسول الله (ﷺ) ، وكان ممن اختاره لكتـابة

عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، رأي أبي عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ في معاوية والأمويين، تحقيق السيد ـلار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٤-١٥ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الجاحظ، رأى الجاحظ ـة والأمـويين. وانظـر الجاحظ أيضا، رسـائل الجاحظ، تحقيق عبـد السلام هـارون، مكتبـة الخانجي، القاهـرة، ، جـ٢، ص ١١ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الجاحظ، رسائل. الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥. ابن ـكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠ (قالـوا). أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٥. ـنهايـة الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٠٥. السيوطي، مناهل الصفا/ خط، ص ٢٨٩. السكتـوارى، علاء الدين علي من تأليف كتابة سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٨٦م)، محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ، ص ٨٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا : السكتـوارى، محاضرة الأوائل. البغدادي، خزانة الأدب، جـ٤، ص ٣٢. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣.

صحيح ، وقد رواه الـزهري عن ابن المسيب عن ابن سلمه عن أبي هريـرة عن الرسول (ﷺ). انظر الصنعـاني، عبد ـ همام، (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م)، المصنف، حققـه وخرّج أحاديثه عبـد الرحمن الأعظمي، ١١ جـ، ط ١، المكتب ـي، بيروت، ١٩٧٠-١٩٧٢م، جـ٧، ص ٤٤٣، وسيشـار اليـه عند وروده هكـذا : الصنعـاني، المصنف. ابن ـحمد بن محمـد (ت ٢٤١هــ/ ٨٥٥م)، المسنـد، شرحـه أحمد محمـد شـاكر، ٢٠ جــ، دار المعـارف، القـاهـرة، ١٩٥٨م، جـ١٤، ص ١٨٤، وسيشـار اليه عنـد وروده هكذا : ابن حنبل، المسنـد. الدارمي، عبـد الله بن عبد ـت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، سنن الدارمي، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، ٢ جـ، دار احياء السنة النبوية، بيروت، جـ ١٥٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الدارمي، سنن. مسلـم بن حجاج (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، صحيح مسلم ـووى، ١٨ جـ، ط ٣، دار احيـاء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٤م، جـ١٠، ص ٣٧، وسيشار اليـه عند وروده مسلم، صحيح. أبـو داود، سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، سنن أبي داود، تحقيق محمـد محي الدين ـيد، ٤ جــ، المكتبة العصرية، بيروت، جـ٢، ص ٢٨٣، وسيشار اليـه عند وروده هكذا : أبي داود، سنن. ابن محمـد بن يزيد، (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، سنن ابن ماجـة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ٢ جــ، المكتبة العلمية، جـ١، ص ٦٤٧، وسيشار اليـه عند وروده هكذا : ابن ماجة، سنن. الترمـذي، محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ/ ، سنن الترمذي، تحقيق كمال يوسف الحوت، ٥ جــ، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، جـ٣، ص وسيشـار اليه عنـد وروده هكذا : الترمـذي، سنن النسـائي، أحمد بن علي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، سنن النسـائي ـلال الـدين السيوطي، المكتبـة العلمية، بيروت، جـ٦، ص ١٨٠، وسيشار اليـه عند وروده هكـذا : النسائي، لبيهقي، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هــ/ ١٠٦٥م)، السنن الكبرى، ١٠ جـ، ط ١، مطبعـة مجلس دائرة المعارف بحيدر أباد، ١٣٥٢هـ، جـ٧، ص ٤١٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البيهقي، السنن الكبرى.

ـر، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٥.

الوحي، وائتمنه على أمر السماء(1)، فبعيد على مثله أن يتعمد مخالفة أحكام الشريعة سراً أو علانية كما زعم أولئك القوم، وقد كان له في ذلك اجتهاد مقبول سنوضحه، ولا يهمنا بعد ذلك إن كان أخطأ فيه أو أصاب، لأن مثله اذا اجتهد فأخطأ عُـذِرَ في خطئه، وذلك لأن مسألة الاجتهاد يرجع أمرها الى التخمين والظن، ولا يُعلم الخطأ فيها بيقين.

ولو أمعنا النظر فيما ذكره أولئك الذين أنكروا على معاوية استلحاقه لزياد، لوجدنا أن منهم من ينكر ذلك الحكم بدعوى أن أبا سفيان لم يجتمع بسميه(2)، وهذا غير صحيح، لأنه لم يكن هناك ما يدعو أبا سفيان الى أن يكذب في دعوى اجتماعه بسمية، وقد كان لأبي سفيان من الأولاد من هو أعظم شأناً وأجلّ خطراً من زياد، ولو لم يكن له منهم إلاّ معاوية لكفى. ويبدو أن علي بن أبي طالب قد صدّق أبا سفيان في حديثه عن اجتماعه بسميّة وأن زيادا من صلبه، ولكنه رأى أن ذلك كان فلتةلا توجب ميراثا، ولا تحل نسبا(3)، ورأي علي في ذلك صحيح فيما كان منه في الاسلام، لا فيما كان منه في الجاهلية.

ومنهم من ينكر ذلك الحكم لمخالفته قضاء رسول الله (ﷺ) (الولد للفراش وللعاهر الحجر)(4)، إلاّ أن الرسول (ﷺ) قضى بذلك في زنا الاسلام لا في زنا الجاهلية، ولهذا "أقر كل ولد كان ينسب الى أب من أي نكاح من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها"(5)، وشتان بين استلحاق ولد بزنا الجاهلية واستلحاق ولد بزنا الاسلام، فالثاني هو الذي قضى به الرسول (ﷺ) في حديثه،

---

(1) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٤٠٦. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٦٤. الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٧٣. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، ١٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، م ١، ص ٢٠٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٣، ص ١٤١٦. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ١٦، ص ٦٧٤. ابن حجر العسقلاني، الأصابة، جـ٣، ص ٤٣٣.

(2) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (قالوا)، أيضا (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٠ (قالوا). الآبي، نثر الدر، جـ٤، ص ١٤٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٨.

(3) العسكري، الأوائل، ص ١٩٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٥-٥٢٦ (هشام بن محمد). الزمخشري، ربيع الأبرار، جـ٣، ص ٥٥٩. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢١٦. أيضا ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٢ (المدائني). ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥.

(4) الجاحظ، رسائل الجاحظ، جـ٢، ص ١١. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣ (قالوا). الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٤. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. أبو الفداء، المختصر، جـ١، ص ١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٢٩. السيوطي، مناهل الصفا/ خط، ص ٢٨٩. السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٨٩. البغدادي، خزانة الأدب، جـ٤، ص ٣٢٣-٣٢٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣. وكان ممن أنكر حكم معاوية لقضاء رسول الله (ﷺ) الحسن البصري. (انظر ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٥٧٤. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٩ (أبو مخنف). إبن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٣. أبو الفداء، المختصر، جـ١، ص ١٨٦. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٢٩).

(5) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١١٠. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٥.

أما الأول فهو محل اجتهاد، لأنه لم يرد بشأنه نص واضح وقاطع عن النبي (ﷺ)، ولما كان اتصال أبي سفيان بسميّة قد حدث قبل الاسلام، فقد وجد معاوية لنفسه مخرجا شرعيا، بأنه قد سبق الحدث صدور حكم هذا النص (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وإنه ليس لأي قانون حتمية الحكم الرجعي.

وينكر بعضهم الحكم لأن المسلمين اتفقوا على إنكاره، ولأنه لم يُستلحق أحد في الاسلام مثله ليكون به حجة(١)، وهذا خطأ ظاهر، وذلك لأن معاوية من كبار الصحابة، وممن يحتج بعمله، ولو لم يُسبق الى مثله، ودعوى الإتفاق في ذلك ظاهرة البطلان. ولا يبقى بعد هذا إلاّ أن يقال أن حق زياد قد سقط بطول المدة، وبنسخ الاسلام لذلك النكاح، الذي قام الاستلحاق على أساسه، ويمكن أن يجاب على هذا بأن الاسلام حين نسخ ذلك النكاح لم ينسخ آثاره، وقد اجتهد معاوية، فكان رأيه أن لا يضيع حق زياد بإسلامه، فالاسلام يضمن للناس حقوقهم ولا يضيعها، واذا قضى القاضي بما لا يراه غيره، فإنه لا يصح لمن خالفه الرأي، أن يطعن في حكمه ويشهّر به، لأن سلطة القاضي لها قداستها واحترامها، فهي من سلطة ولي الأمر، الذي أمر الله بطاعته، وقد قال معاوية لعبد الله بن عامر عندما أنكر عليه صنيعه: "والله لقد علمت العرب أني كنت من أعزها في الجاهلية، وما زادني الاسلام إلاّ عزّا، واني لم أتكثر بزياد من قله، ولم أتعزز به من ذلة، ولكني عرفت حقا فوضعته موضعه"(٢). وجواب معاوية هذا دليل واضح على اقتناعه بحق زياد وايمانه به، ولو كان ايمانه صادر عن رؤيته بضرورة رفع زياد الى منزلة ابن أبي سفيان، لاستطاع معاوية - وهو الخليفة - أن يرفع زياد الى المنزلة التي يريدها دون الدخول في مسألة حساسة كمسألة النسب، اذا لم يكن لها أصل في نفسه.

أما زياد فقد رأى من جانبه أنه استعاد باستلحاق معاوية له حقه الذي كاد أن يضيع، وقد عبرّ عن ذلك في إحدى خطبه قائلا: "فقد قال معاوية ما قد علمتم وشهدت الشهود بها قد سمعتم، وانما كنت إمرأ حفظ الله منه ما ضيع الناس، ووصل ما قطعوا"(٣)، فهناك إذاً جانب من زياد

---

(١) إبن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٥، البغدادي، خزانة الأدب، جـ٤، ص ٣٢٤. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣. العلوي، محمد بن عقيل (ت ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، دار الزهراء، بيروت، ص ٨٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: العلوى، النصائح الكافية.

(٢) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٤ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٥ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١ (الهيثم بن عدي). القالي، اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، ذيل الامالي والنوادر، مطبوع مع كتاب الأمالي للقالي، ط ١، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ١٣٢٤هـ، ص ١٨٩ (ابن معمر)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: القالي، ذيل الأمالي. الجريري، معافى بن زكريا (ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد مرسلي الخولي، ٢ جـ، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م، جـ٢، ص ٣٦٢-٣٦٣ (عبد الملك بن عمير)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الجريري، الجليس الصالح. البياسي، الاعلام بالحروب جـ١، ص ٢٧٦. وذكر الحسن البصري، أن زيادا قال في خطبته حين دخل البصرة: "أما بعد فإن معاوية غير مخوف على قومه، ولم يكن ليُلحق بنسبه من ليس فيه، وقد شهدت الشهود بما قد بلغكم، والحق أحقّ أن يُتبع". (انظر: ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٩. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣١٥). وقال زياد في خطبته حين قدم الكوفة "فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس، وحفظ مني ما ضيعوا". (انظر: الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة بن محارب)).

وضعه الناس وضيعوه، وقد جرت سنة الحياة وموازينها على أن يحاول صاحب الضعة تعويضاً لنفسه بالسبق في ميدان ما، وسياسة زياد مع أهل العراق فيما بعد، تشير الى أنه اتخذ من الحزم والشدة سلاحاً له.

ويبدو أن زياداً لم يكن ينظر الى عبيد الذي ولد على فراشه نظرة الابن لأبيه، بل كان يعتبره ربيبه وحاضنه، ولعله اشتراه مراعاة للحضانة، فقد حضنه منذ ولد على فراشه واليه نسب بالحضانة[1]، وبعد الاستلحاق نجد زياداً يذكر عبيد بقوله "وإنما كان عبيد ربيبا مبروراً أو ولياً مشكوراً"[2]. والواقع أن ما ورد عن حياة زياد في العصر الراشدي وبعده، يشعر أنه لم يكن قوّى الصلة بأسرته، حتى إننا لم نسمع عن علاقته بها، سوى ما ذُكِر من أمر شرائه لأمه سمية وزوجها عُبيد.

موقف الناس من الاستلحاق

أثار إستلحاق معاوية نسب زياد المعارضة الشديدة من قبل المسلمين عامة ومن جانب الأمويين خاصة. أما معارضة الأمويين فلم تكن ناتجة عن عقيدة دينية، وإنما أوجدتها العصبية الأموية، التي حاولت جاهدة منع دخول أي عنصر أجنبي الى البيت الأموي، والى الفرع السفياني بالذات، وكان الأمويون يعلمون المواهب والقدرات التي يتمتع بها زياد، فخشوا أن تجتمع شخصيته بما لديها من صفات مع شرف نسبه الجديد، فيصل بذلك الى أجلّ المراتب وأرفعها، ومن بين الأمويين الذين عارضوا فكرة الاستلحاق مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وهما أبناء عمومة، ينحدران من جد واحد هو أمية الأكبر بن عبد شمس بن عبد مناف[3]، فعندما استلحق معاوية زيادا، وآثر عمرو ابن العاص على أهل بيته من الأمويين وقربهما دونهم، خاف بنو أمية خوفاً شديداً، واجتمعوا في بيت مروان بن الحكم ليتداولوا الأمر، ويبدو أن معاوية علم باجتماعهم، فأراد أن يحول دون طموحاتهم وتدابيرهم، فبعث الى مروان وقد كتب له بعهده على المدينة[4]، إلاّ أن القوم أجمعوا على لقاء معاوية فأستأذنوا ودخلوا عليه، وتحدثوا اليه محاولين إقناعه بضرورة التراجع في أمر استلحاق

---

(١) انظر ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٨.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، م ٣، ص ١٦.

(٣) انظر السدوسي، مؤرج بن عمرو (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م)، حذف من نسب قريش، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦م، ص ٣٣، ٣٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: السدوسي، حذف من نسب قريش. الزبيري، نسب قريش، ص ١٥٩، ١٧٦. ابن سعد، الطبقات، جـ ٥، ص ٣٠، ٣٥. ابن حزم، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٧٨، ٨١، ٨٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب.

(٤) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٧٥ (أبو عبيدة). ابن منقذ، أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)، لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٣٥م، ص ٣٨٩ (المدائني)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن منقذ، لباب الآداب.

زياد، والاستغناء عن عمرو بن العاص الذي أدناه معاوية دونهم[1]، وهذا الموقف يصور لنا بما لا يدع مجالا للشك خوف بني أمية من خروج الأمر من أيديهم، وطمعهم في الاستئثار بالحكم، وبدون أي منافس، وقد فهم معاوية ما دبره قومه فوبخهم، وأخبرهم بحقيقة أمرهم قائلا " وأيم الله ما إيّاه راقبتم، ولا لي نظرتم، بل أدرككم الحسد القديم لبني حرب بن أمية"، ثم حذّرهم معاوية من معاودة الشكوى في ذلك[2].

أما زياد فقد دأب معاوية على إكرامه ورفع قدره متحديا بذلك بني قومه، فعندما كتب زياد الى سعيد بن العاص يخطب أخته أم عثمان رده سعيد[3]، فشكا زياد أمره الى معاوية، فقال له معاوية: " لأقطعنك أشرف ربع مكة، ولأسدّن عليه وجه داره"، وفعلا أقطع معاوية زيادا الرحبة الواقعة أمام دار سعيد بن العاص ودار الحكم بن أبي العاص، فبنى زياد فيها دارا، وترك طريقا عرضه تسعة أذرع للحكم، أما سعيد فجعل طريقه ثلاثة أذرع فقط، وقد سمّى أهل مكة دار زياد بـ(دار الصرارة)[4]، ويمكن القول أن خطبة زياد لأخت سعيد بن العاص كانت محاولة منه لاستمالة الأمويين والاعتراف من جهتهم بنسبه من أبي سفيان إعترافاً حقيقياً مرجعه القناعة والرضا، لا الامتثال والرضوخ لأوامر وتهديدات معاوية.

وكان عبد الرحمن بن الحكم - أخو مروان - ممن لم يرض من بني أمية عن استلحاق زياد، وقد عبرّ عن عدم رضاه بأبيات شعرية خاطب بها معاوية قائلا:

أتغضب أن يقال أبوك عفّ ... وترضى أن يقال أبوك زانِ
وأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان[5].

---

(١) انظر: ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٧٦-١٧٩ (أبو عبيدة). ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٩٠-٣٩٢ (المدائني).

(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ١٨١ (أبو عبيدة). ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٩٣ (المدائني).

(٣) الأزرقي، محمد بن عبد الله (توفي نحو سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ٢ جـ، ط ٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م، جـ ٢، ص ٢٣٩ (حمزة بن عبد الله)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الأزرقي، أخبار مكة. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٤، ص ١٦-١٧. وذكر ابن عبد ربه، أن زياداً كتب الى سعيد بن العاص يخطب اليه ابنته. (انظر العقد الفريد، جـ٦، ص ١٠٠).

(٤) الأزرقي، أخبار مكة، جـ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠ (حمزة بن عبد الله).

(٥) الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص ١٤٦ (أبو عبيدة)، أيضا، جـ٧، ص ٢٣٥. المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٧ (أبو عبيدة). الإصفهاني، الأغاني، م ١٣، ص ٢٦٦ (الهيثم بن عدي). العسكري، الأوائل، ص ١٩٩. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٧. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٧٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٠. أبو الفدا، المختصر، جـ ١، ص ١٨٥. الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢، ص ٢٧٨. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٠٦. وهذه الأبيات تُروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الشاعر، لكثرة هجائه لآل زياد (انظر الهمداني، الحسن بن أحمد (ت ٣٣٤هـ/ ٨٤٨م)، الاكليل، تحقيق محمد بن علي الأكوع، جـ٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٦٧-٢٦٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الهمداني، الأكليل. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٢٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن قتيبة، الشعر والشعراء. البلاذرى، أنساب (تحرير ماكس سلوسينجر)، ق ٢، جـ ٤، ص ٧٨-٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٢٣. ابن منظور، لسان العرب، م ٦، ص ١٣٣-١٣٤. البغدادي، خزانة الأدب، جـ ٤، ص ٣٢٤. داود سلوم، شعر إبن مفرغ الحميري، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١٥٣-١٥٤). والأرجح أن عبد الرحمن بن الحكم هو الذي قالها، واتخذ من نسبتها الى ابن مفرغ ذريعة لهجاء زياد. (انظر الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٢٠ (أبو عبيدة). فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥).

بهذين البيتين هاجم عبد الرحمن معاوية وهجا زيادا، فلما سمعهما معاوية غضب على عبد الرحمن ومنع عنه عطاءه، وحلف أن لا يرضى عنه حتى يرضى عنه زياد، فذهب عبد الرحمن الى زياد واعتذر له وصالحه، فرضي عنه معاوية(١).

وكان عبد الله بن عامر بن كريز - من بني أمية - ممن أنكر أيضا إستلحاق زياد، وذلك بدافع الغيرة والحسد، لا سيّما وأن العلاقة بينهما لم تكن جيدة منذ أن كان ابن عامر والياً لعثمان بن عفان على البصرة(٢)، وعندما استلحق معاوية زيادا كان ابن عامر عاملا لمعاوية على البصرة، ولعله خشي أن يعزله معاوية ويعين زيادا مكانه على إمارة البصرة التي كانت في أمسّ الحاجة الى أمير حازم وحكيم مثل زياد، وقد عاب ابن عامر زيادا ذات يوم بقوله: "هيه، إبن سميّة يقبح اثارى، ويعرّض بعمالي، لقد هممت أن آتي بقسّامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سميّة قط"(٣)، وعندما علم زياد بمقالة ابن عامر، شكا ذلك إلى معاوية الذي كان شديد الإيثار له، ولم يكن يحتمل أن يقول فيه أحد ما يكره، فغضب لذلك أشد الغضب، وأمر حاجبه أن يمنع ابن عامر من دخول القصر عليه، وقد نفّذ الحاجب أمر معاوية حتى ضاق عبد الله بهذه الجفوة، فشكا أمره الى يزيد بن معاوية، فتوسط يزيد لدى والده، لكنه لم يرض عن إبن عامر إلاّ بعد أن ذهب الى زياد واعتذر اليه وصالحه(٤).

ولم يبد يزيد بن معاوية رضاه عن عمل أبيه في استلحاق زياد، وكان كسائر الأمويين الذين لم يرضوا عن ذلك، وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الإبن غير الشرعي لأبي سفيان، وقد هاجم يزيد زياداً وأولاده من بعده في مواقف عديدة، وكان يحذّرهم من مخالفة أمره أو الوقوع في الزلل، فينقلهم بذلك من عزّ قريش الى ولاء ثقيف ومن أبي سفيان الى عُبيد(٥).

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، م ١٣، ص ٢٦٦-٢٦٧ (الهيثم بن عدي). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٩-٥٣٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٢٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٩٠-١٩١. الكتبي، فوات الوفيات، جـ ٢، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (عن جماعة من أهل العلم). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠ (عن جماعة من أهل البصرة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص 316 (عن جماعة من أهل العلم).

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٤ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٤ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٤) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٤ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٤-٢١٥ (عمر بن شبه). إبن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٥، ص ٨-٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٥) انظر الزبيري، نسب قريش، ص ١٢٨. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٤٢. ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ / ٨٦٩م)، المحتنى، ط ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، ١٩٨٠، ص ٢٤ (العتبي)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن دريد، المجتنى. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ٣٨١-٣٨٢ (محمد بن الضحاك الخزاعي). الجهشياري، الوزراء، ص ٢٧-٢٨، ٣١. ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، مختصر التاريخ، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م، ص ١٠٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الكازروني، مختصر التاريخ. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٣١ (العتبي). مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥١.

وهكذا إضطر معاوية الى التعنيف بقومه من بني أمية خاصة ومن قريش عامة، ليُدخل عليهم هذا النسب الجديد، وما أراهم تقبلوا منه ذلك واحتملوه إلاّ خوفا من سلطانه أو رغبة في ماله، وكثيرا منهم أظهر التصديق والقبول وأضمر الإنكار والرفض.

أما عن موقف البيت العلوي من قضية استلحاق زياد، فقد أنكرها عدد من أفراده، وكان الحسين بن علي ممن عارض حكم الإلحاق، وقد رأى معاوية خرج بعمله ذلك عن سُنة النبي (ﷺ)، حيث كتب اليه : "أولست المدعي زياداً في الاسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله (ﷺ) أن الولد للفراش وللعاهر الحجر"(١)، ولكن حتى في هذا التأنيب لم يتعد الحسين كلمة إدعيت وزعمت، ولم ينفِ نفياً قاطعاً بأن زياداً حقيقة ليس ابن أبي سفيان بل أن في كلام الحسين اعتراف ضمني بأن زيادا ابن غير شرعي لأبي سفيان.

وكان عبدالله بن عباس ممن نفى أخوة معاوية لزياد، وذلك لقضاء رسول الله (ﷺ)(٢) أيضا، وليست لدينا اشارات أخرى تشعر بأن أحدا من البيت العلوي استاء من هذا العمل، وحتى الحسن ابن علي فإنه لم يعلن عن غضبه واستيائه الاّ عندما رفض زياد وساطته في أمر واحد من أنصاره(٣).

وكان أكثر الشيعة ينكرون على معاوية استلحاقه لزياد(٤)، حتى أنهم وجدوا في عمله هذا مأخذا عظيما وسبباً آخر لنقده والتشهير به، فقال بعضهم إن "أول ذلّ دخل الكوفة، موت الحسن بن علي، وقتل حجر بن عدي، ودعوة زياد"(٥). ويبدو أن الشيعة في عهد زياد لم يعارضوا هذا العمل ولم يعيروا له أهمية، ليس لرضاهم عنه وإنما لخوفهم من زياد الذي اتبع معهم سياسة حازمة، وقد انصبّ غضب الشيعة على زياد وابنه عبيد الله عقب مقتل الحسين بن علي على يد عبيد الله بن زياد.

واستكمالا للحديث عن موقف الناس من مسألة الاستلحاق، لابد من شرح بعض المواقف التي

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ١، ص ١٨٨. البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٢١ (قالوا).

(٢) أنظر : مؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي)، أخبار الدولة العباسية، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م، ص ٦٣، ٦٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية.

(٣) انظر الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٩٩. البلاذرى، أنساب (محمد باقر المحمودي)، جـ٣، ص ٥٢-٥٣ (ابن عون). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ١١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٢-٥٠٣ (هشام بن محمد). إبن أبي الحديد، نهج البلاغة، م ١٦، ص ١٩٤-١٩٥ (الشرقي بن القطامي). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٤) ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٩ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩٥ (أبو مخنف). أيضا الأصفهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، مقاتل الطالبيين، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ٧٦ (أبو عبيد)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الأصفهاني، مقاتل الطالبيين. إبن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧. النويرى، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٣٤٠.

تبناها أفراد بارزون ليسوا من البيتين الأموي والعلوي، وقد كان لهذه المواقف صداها في نفوس الناس وأثرها في تفسيراتهم لفحوى هذه المسألة، فمن بين تلك المواقف المؤثرة موقف أبي بكرة - أخو زياد لأمه -، حيث كان ممن أنكر هذا الحكم ولم يرض عنه[1]، وقد رأى أن زياداً ركب أمراً عظيماً في الاسلام بانتفائه من عبيد وإنتسابه الى أبي سفيان، فأقسم "أن أبا سفيان لم يرَ سمية قط"[2]، وفي هذا بعض التعنت، فليس هناك ما يدعو أبا سفيان الى أن يكذب في دعوى اجتماعه بسمية كما ذكرنا، ويبدو أن أبا بكرة أنكر أمر الاستلحاق ولم يرض بحكمه، لأنه قبل كل شيء يمس من شرف أمه سميّة التي لا ندري ان كانت قد أدركت قضية استلحاق ابنها زياد أم أنها ماتت قبل ذلك، على أن ما جرى لسميّة في الجاهلية لا يضرها في الدين، فان الله عفا عن أهل الجاهلية بالاسلام، وأسقط الاثم والعار فلا يذكره إلاّ جاهل به.

وكانت أم المؤمنين عائشة (رض) متحفظة في موقفها تجاه هذا الحكم فلم تنكره كما أنها لم تؤيده، وقد أراد زياد أن يحصل منها على إقرار بصحة نسبه الجديد، فكتب إليها من "زياد بن أبي سفيان"، يريد أن تكتب له: الى زياد بن أبي سفيان، فيحتج بذلك لدى من ينكره، ولكنها كتبت اليه: من عائشة أم المؤمنين الى ابنها زياد[3]، وجواب أم المؤمنين هذا لا يتضمن إقراراً أو إنكاراً لنسب زياد من أبي سفيان، ولكن فيه تلطف يشعر برضا عائشة عن زياد وأفعاله. وذكر ابن سعد إن عائشة (رض) كتبت الى زياد "من عائشة أم المؤمنين الى زياد بن أبي سفيان"[4]، أي أنها اعترفت بنسبه إلى أبي سفيان، والأرجح أن أم المؤمنين لم تنسب زياد لأبي سفيان، ولو كان ذلك القول صحيحا لاحتج به معاوية وزياد وكل من أيدهم في حكم الاستلحاق.

ويروي البلاذري أن معاوية بعث الى سعيد بن عبيد أخي صفية بنت عبيد - زوجة الحارث بن كلدة - فأرضاه حتى أقرّ بحكم الاستلحاق، ولكن ابن يونس لم يرض، وأراد أن يصل الى معاوية

---

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٦. البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٠ (روى بعضهم). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ١٢. الأبي، نثر الدر، جـ٤، ص ١٤٧. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٨ (ابن سيرين). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. طه حسين، الفتنة الكبرى، ص ٢٢٥.

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٠ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ١٢. الأبي، نثر الدر، جـ٤، ص ١٤٧. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٦. ابن العربي، العواصم، ص ٢٣٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو عثمان). ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٦، ص ٣٥٨. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٨.

(٣) ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠٤. النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٣٠٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٥-١٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٠٠ (موسى بن اسماعيل). ابن قتيبة، المعارف، ص ١٧٨. البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٠. ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٣.

ليحاجه في صنيعه، فلم يستطع الوصول اليه، فلما حضرت الصلاة من يوم الجمعة ذهب يونس الى المسجد ووقف بين يدي معاوية مذكرا إيّاه بقضاء رسول الله (ﷺ) في ولد الزنا، ثم قال له " فوالله لئن كان زياد بن أبي سفيان، إنه لعبدي ومولاي أعتقته عمتي "، فغضب عليه معاوية غضبا شديدا، وحذّره من العودة الى مثل مقولته هذه[١]، والتي تتضمن اعترافا واضحاً ببنوة أبي سفيان لزياد، ولكن الحسد دفع يونس الى التجريح بنسب زياد، إلاّ أن زيادا سبق وأن اشترى والديه من صفية بنت عبيد[٢]، فليس ليونس بن سعيد أو غيره حق في تعييره بالعبودية أو الموالاة. وذكر المدائني أن معاوية أرسل يونس الى زياد بالعراق ليذاكره بما شاء، فقدم يونس البصرة ونزل عند عبد الله بن الحارث الكوسج، وحين علم زياد بمكانه استدعاه، فكلمه وأمر له ببعض المال، ثم أمره بالشخوص الى بلده ولكنه أبى، مما اضطر زياد الى تهديد الكوسج بالقتل ان هو لم يخرجه من البصرة، فأخرجه[٣]، ولم يعد يونس بعد ذلك الى التعرض لزياد أو لأبنائه من بعده.

ثم ابتلي ذلك الحكم من يزيد بن مفرغ الحميري أعظم ما ابتلي به، وكان يزيد شاعراً هجاء طويل اللسان، وقد إتصل بآل زياد ومدحهم ابتداء. ثم صحب عباد بن زياد الى خراسان، وقد انشغل عنه عباد بالحرب والخراج، فبسط يزيد لسانه فيه يذمه[٤]، مما أغضب عباد وجعله يحبسه ويضربه، فاحتال عليه يزيد حتى أخرجه من السجن، فهرب منه الى البصرة، ثم خرج منها هارباً الى الشام، وجعل ينتقل في قراها ونواحيها هجو بني زياد ويطعن في ذلك الحكم طعنا شديداً، فذاعت أشعاره بين الناس[٥]، وتأثروا بها تأثراً كبيراً، حتى صار ذلك الحكم عندهم مثلا في الخروج على أحكام الدين والشريعة الاسلامية، وكان مما قاله إبن مفرغ في هجاء آل زياد :

إذا أودى معاوية بن صخر   فبشرّ شعب قعبك بإنصداع[٦]
فأشهد أن أمك لم تباشر   أبا سفيان واضعة القناع

---

(١) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣ (قالوا). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٦ (أبو عبيدة). العسكري، الأوائل، ص ١٩٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ١٨٥ (سيف). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٨٥ (سيف).

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد وآخرون، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٨م، جـ٢٨، ص ١٠٢-١٠٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق.

(٤) انظر ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، جـ٢، ص ٦٨٨-٦٨٩. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٢٦. البلاذري، أنساب (ماكس سلو سينجر)، ق ٢، جـ٤، ص ٧٧-٧٨. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٣١٧-٣١٨ (أبو عبيدة). الاصفهاني، الأغاني، جـ١٨، ص ١٨٣-١٨٤ (عمر بن شبه ولقيط بن بكر). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٢٨. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩١.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، . م ١٨، ص ١٨٥ (لقيط بن بكر وعمر بن شبه).

(٦) القعب : هو القدح الضخم (انظر إبن منظور، لسان العرب، م ١، ص ٦٨٣.

ولكن كان أمر فيه لبس　　　على خوف شديد وإرتياع[1].

ولا شك أن هذه الأبيات وغيرها مما قاله ابن مفرغ في هجاء آل زياد لا يحتج بها في مثل هذا الموضع ، لأن ابن مفرغ كان على علاقة عداء مع زياد وأولاده ، فليس بعيداً على مثله أن يهجو ويتمادى في هجائه ، حتى أن عبيد الله بن زياد أراد قتله ، إلاّ أن معاوية منعه وأمر بتأديبه[2].

وهكذا اختلف الناس في هذا الحكم إختلافا كبيرا ، لأن معاوية كان له خصوم سياسيون من بني هاشم وغيرهم . ومن المؤكد أنه كان لمعاوية من الذكاء والدهاء وقوة الارادة ، ما يمكنه من تحقيق كل ما يريده دون اللجوء الى إقحام اسم أبيه في قضية مفتعلة ومحرجة ، فلم يعر معاوية بالغ اهتمام لأقوال الناس إزاء هذه المسألة ، ولعله اعتبر هذه الأقوال وتلك الطعنات في نسب زياد ومولده أمراً طبيعياً ، لغموض نسب زياد ، ثم لشعور الناس بالغيرة والحسد والعصبية الموروثة ، فزياد تتوفر في شخصيته كل مقومات رجل الدولة الناجح ، فكيف اذا اقترن ذلك بشرف النسب؟ ، وهذا ما عبر عنه عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب (رض) عندما سمع زيادا خطيبا : "لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش ، لساق العرب بعصاه"[3].

ولقد حاول زياد من جانبه أن يثبت صحة استلحاقه بأبي سفيان بشتى الوسائل ، ليس لمعاصريه فحسب بل للأجيال التالية أيضا ، فألف كتابا في المثالب . ويقال أنه ألفه ليكون أداة في يد أبنائه للدفاع عما يوجه الى أصالتهم ونسبهم ، فدفعه إليهم قائلا : "استظهروا به على العرب فأنهم يكفّون عنكم"[4].

---

(١) الهمداني ، الاكليل ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ . البلاذري ، أنساب (ماكس سلو سينجر) ، ق ٢ ، جـ ٤ ، ص ٧٩ . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ (أبو عبيدة) . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٨ ، ص ١٩١ (عمر بن شبه) ، أيضا ص ٢٠٧ (أبو عبيدة) . ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ق ٢ ، ص ٥٢٨ . ابن الأثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٥٢٣ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ١٦ ، ص ١٩١-١٩٢ . النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٢٠ ، ص ٣٠٧ .

(٢) البلاذري ، أنساب (ماكس سلو سينجر) ، ق ٢ ، جـ ٤ ، ص ٧٨ . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ (عمر بن شبه) . ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٣١٧ . وذكر الأصفهاني أن عبيد الله بن زياد استأذن يزيد بن معاوية في قتل ابن مفرغ فكتب اليه : "إياك وقتله ، ولكن عاقبه بما يُنكله ويشد سلطانك" . انظر الأغاني ، م ١٨ ، ص ١٨٩ (لقيط بن بكر ، وعمر ابن شبه) . والأرجح أن معاوية هو الذي أشار على عبيد الله بذلك ، وليس يزيد بن معاوية ، لأن عباد بن زياد ولي سجستان في أيام معاوية .

(٣) ابن العربي ، العواصم ، ص ٢٣٧ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٤٣ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ١٦ ، ص ١٨٠ (هشام بن محمد) . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م ٦ ، ص ٣٥٧ . ابن الوردي ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٠١ . البكري ، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) ، سمط اللآلىء ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦م ، م ٢ ، ص ٨٠٧-٨٠٨ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البكري ، سمط اللآلى . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، م ٦ ، ص ٣٦٤ . البغدادي ، خزانة الأدب ، جـ ٦ ، ص ٥٣ . كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ٣ جـ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠-١٩٦٢م ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي . أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ط ٨ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ١٦٨ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : أحمد أمين ، فجر الاسلام . ومن المرجح أن زيادا صاحب أول مؤلف في المثالب ، ويقال أن كتابه كان متداولا في القرن الثاني الهجري ، وقرظه الهيثم بن عدي (ت ٢٠٦هـ / ٨٢١م) ، وقام أبو عبيدة (ت ٢٠٨هـ / ٨٢٣م) ، بتهذيب نصه من جديد . انظر فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربي ، ترجمة محمود فهمي حجازي ، ٢م ، المملكة العربية السعودية ، أشرف على طباعته ادارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود ، ١٩٨٣م ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : سزكين ، تاريخ التراث العربي .

ظل بنو زيـاد ينسبون الى أبي سفيـان بن حرب ويـدونون في ديـوان قريش الى أن سقطت الـدولة الأمويـة وقامت على أثـر ذلك الدولـة العباسية، فلما كـانت سنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)، ردّ الخليفة العبـاسي المهدي بن المنصـور آل زيـاد الى نسبهم في ثقيف[١]، فأبطل بذلك حكم معـاوية بعد أن مضى عليه تلك المدة الطويلة وقد حمل المهدي على هذا رجلا من آل زياد يقال له الصفدي بن سلم ابن حـرب، قـدم عليـه فقـال لـه : "من أنت؟"، قـال : "ابن عمك"، قـال : "اي ابن عمي أنت؟"، فانتسب الى زياد، مما أغضب المهدي وحمله على التجريح بنسب آل زياد[٢]، ثم كتب الى محمـد بن سليمان والي البصرة يأمـر أن يُخرج آل زيـاد من قريـش وديوانهم والعـرب، وأن يـردهم الى نسبهم من عبيد في موالي ثقيف، وقد تحامل المهدى في كتابه على معاوية وطعنه في دينه، حيث زعم أن معاوية استلحق زيـاداً رغبة منه في هلاك دينه وآخرتـه، وتصميما على مخالفة الكتاب والسنة[٣]، ولـو كان حكم معـاوية كما يصـوره المهدي لـوجدنـا له صـدى عند خلفـاء بني أمية، وخلفـاء بني العباس الـذين سبقوا المهدي، ثم أن عمر بن عبـد العزيز وهـو الخليفة الأموي الذي لا يـوجد من يضاهيه في عدله ودينه من خلفاء بني العباس كلهم لم يبطل حكم معاوية[٤]، كما أبطل ما كان من لعن الخلفاء[٥]، ونحو ذلك من الأمور التي رأى أنها مخالفة للدين، وسكوته على حكم معاوية ان لم يكن دليلا على أنه ليس فيه مخالفة للدين، فهو على الأقل يشعر برضا عمر بن عبد العزيز عن ذلك الحكم، الذي اجتهد فيه معاوية وتحرى الحق.

تعيين زيـاد علـى العـــراق

بعد أن ألحق معاوية زيادا بنسبه، عاد زياد الى الكوفة، وكان عليها يومئذ المغيرة بن شعبة، فنزل في دار سليمان بن ربيعة الباهلي[٦]، ويظهر أن المغيرة داخله الشك والخوف مـن أنه بعد أن سعى في

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص ١٢٩. الأزدى، تاريخ الموصل، ص ٢٤٠ (علي بن محمد بن سليمان). ابن الأثير، الكامل، م٦، ص ٤٧. أبو الفدا، المختصر، جـ٢، ص ٨. القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، جـ١، ص ١٨٥.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٨، ص ١٢٩ (علي بن سليمان). الأزدى، تاريخ الموصل، ص ٢٤٠ (علي بن محمد بن سليمان). ابن الأثير، الكامل، م٦، ص ٤٧-٤٨.

(٣) انظـر نسخـة كتاب المهـدي الى والي البصرة في رد آل زيـاد الى نسبهم. الطبرى، تـاريخ، جـ٨، ص ١٣٠-١٣١ (علي بن سليمان). وقد تحامل على معاوية من خلفاء بني العباس أيضـاً المأمون والمعتضد، ووجد الأخير في حكم استلحاق زياد سبباً يستحق به معاوية اللعن. (انظر الطبرى، تاريخ، جـ١٠، ص ٥٤-٥٥، ٥٩-٦٠. البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٤٩٥).

(٤) يروي ابن عساكر، أن عمر بن عبـد العزيـز كان اذا كتب الى عمالـه، فذكـر زياداً قـال : "ان زياداً صـاحب البصرة، ولا ينسبه". تاريخ دمشق / خط، م٦، ص ٤٩١ (علي بن حرب).

(٥) انظر ابن عبد الحكم، عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م)، سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عُبيد، ط ١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٧م، ص ٢٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز.

(٦) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبه)، أيضا ص ٢١٧ (عبد الله بن أحمد المروزي). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٧.

الصلح بين معاوية وزياد، سيحل هذا الأخير محله في الولاية، وهذا الشعور من المغيرة لم نلمسه من قبل، وذلك حين وفد عليه زياد بعد صلحه مع معاوية، حيث قابله بحفاوة واحترام، فيروى الطبرى أن المغيرة أرسل الى زياد وائل بن حجر الحضرمي ليعلم خبره، ولكن زياداً أراد أن يبقي المغيرة في حيرة من أمره فلم يعط مبرراً لقدومه الى الكوفة(١).

وذكر الطبرى رواية أخرى مكملة للرواية أعلاه، توضح قلق المغيرة الشديد إزاء تواجد زياد بالكوفة، الأمر الذي جعله يخرج الى معاوية بالشام، ويسأله أن يعزله عن امارة الكوفة، ويقطعه منازل بقرقيسيا(٢) ليكون بين قيس، الا أن معاوية خشي أن يكون المغيرة قد دبّر له شيئاً ما، فرفض طلبه، وأمره بالعودة الى عمله بالكوفة، فعاد إليها، وعندما وصلها أمر في الحال بإخراج زياد منها، فأخرج في الليلة ذاتها التي دخل فيها المغيرة الى الكوفة وطرح زياداً الى ما وراء الجسر(٣). والواقع أن الرواية الثانية يبدو عليها الضعف ويتعذر قبولها، اذ أنه ليس من المعقول أن يتعامل المغيرة بهذا الأسلوب المجافي مع زياد الذي تربطه به علاقات ودية لا تقبل مثل هذا السلوك، وهو في الوقت ذاته أسلوب لا يمكن أن يتبعه الاّ انسان ضعيف محدود السياسة والدهاء، وهذا ما لا يتفق وشخصية المغيرة المعروفة بالدهاء والفكر والمنطق، ولا يعقل أن يكون المغيرة قد قام باخراج زياد بدافع انفعال غير مدروس، وهو يعلم وضع زياد الجديد، وقد أصبح أخا مقربا للخليفة، أضف الى ذلك شخصية زياد التي كان لها وزنها ومكانتها لدى رفاقه وأصدقائه. والأرجح أن المغيرة لم يتصل بمعاوية على أثر قدوم زياد الى الكوفة، ولكنه بقي قلقا لإقامة زياد في إمارته، وظل ينتظر الى أن ورد كتاب معاوية من دمشق بولاية زياد على البصرة(٤)، فسار زياد اليها، وبذلك اطمئن المغيرة وتنفس الصعداء، فقد انصرف عنه أجلّ الناس خطرا وأكثرهم تهديدا لمركزه.

وقبل أن نتناول تعيين زياد على مصرى العراق – البصرة والكوفة – لابد من إعطاء لمحة موجزة عن الأوضاع العامة في كل منهما، في الفترة الأولى من خلافة معاوية، وذلك لما كان لتلك الأوضاع من أثر في تعيين زياد على هذين المصرين، ثم اتباعه للسياسة الحازمة في إدارتها.

أما البصرة، فقد آلت الى حكم بني أمية بعد مقتل علي بن أبي طالب (رض) – سنة (٤٠هـ/ ٦٦٠م) – ومصالحة ابنه الحسن لمعاوية سنة (٤١هـ/ ٦٦١م)، فذكر الطبرى "لما صالح الحسن

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٣٠. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

(٢) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور، بالقرب من مصب الخابور في الفرات، وهي تشكل مثلث بين الخابور والفرات. (ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣٢٨. الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٥٥).

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٧ (عبد الله بن أحمد المروزي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦.

(٤) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢١٩. الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٦ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦. فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٥.

ابن علي ... معاوية أول سنة إحدى وأربعين، وثب حُمران بن أبان على البصرة فأخذها وغلب عليها . . فبعث (معاوية) بسر بن أبي أرطأة "[1]، إلاّ أن ولاية بسر على البصرة لم تطل، حيث مكث والياً عليها لمدة ستة أشهر، عُزل بعدها عن البصرة[2] ووليُ مكانه عبد الله بن عامر.[3]

وكانت البصرة قبل ولاية ابن عامر في حال من الفوضى والاضطراب، وذلك بسبب اختلاف القبائل العربية النازلة فيها[4]، وغلبة سفهائها عليها، هذا فضلا عن وجود خليط كبير معهم من سكان تلك المناطق من الفرس والترك والهنود، وكان لهذا الخليط أمزجته المتباينة وثقافاته المتفاوتة، وبلد ينزله كل يوم مختلف الجماعات وتأوى اليه مختلف الأحزاب لابد وأن تختل أموره اختلالا كبيرا، فيكثر في نواحيه التلصلص وقطع الطرق، ويتفشى فيه الفساد والعبث بالأمن والنظام. ويبدو أن ولاية ابن عامر كانت غير حازمة، ولم يكن بالوالي الكفؤ الذي يلجأ الى اللين والتسامح والى العنف والحزم كل في حينه، بل سار على خطة المغيرة بن شعبة في مسالمة الناس ومداراتهم، ولئن صح ما فعله المغيرة في الكوفة ولم يؤد الى مضاعفات خطيرة، فإن هذه السياسة في البصرة قد أدت الى فساد الناس واستفحال الشر.

وقد إزدادت الفوضى والاضطرابات في البصرة بسبب حركات الخوارج[5]، التي اشتد أمرها في المناطق المجاورة للبصرة، فأدى نشاطهم هذا الى قطع طرق التجارة، واضطراب المواصلات، وازدياد الخوف والقلق، حتى كادت البصرة أن تصبح في عزلة عن معظم الأقاليم، ولا شك أن اللصوص والمفسدين قد استغلوا اضطرابات الخوارج فنشطوا وزادوا الحالة سوءاً.

ويظهر أن ابن عامر كان مسؤولا الى حد ما عن فساد هذه المدينة، إذ ينسب إليه البعض اللين والضعف في الحكم، فذكر الطبرى "أن ابن عامر كان رجلا لينا كريما، لا يأخذ على أيدي

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٧ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٢٦. النويرى، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٢٩٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨. نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٢٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا : نايف معروف، الخوارج. وذكر ابن أعثم أن معاوية بعث الى البصرة عمرو بن أبي أرطأة، وهو أخو بسر. (انظر الفتوح، م ٢، ص ٢٩٨).

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٦٨ (المدائني). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٧ البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٢٨ (المدائني). النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٢.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٨٩. ابن قتيبة، المعارف، ص ٢١١ البلاذرى، فتوح ص ٥٧٥ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٧. الطبرى. تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٠ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٢٩٩. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١. ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٩، ص ٤٦٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٦. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٠. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.

(٤) انظر فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٢. نبيه عاقل، خلافة بني أمية، ص ٧٠. يوسف العش، الدولة الأموية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م، ص ١٣٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا : العش، الدولة الأموية.

(٥) لمزيد من ا لمعلومات عن نشاط الخوارج في البصرة في هذه الفترة، أنظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٨٨. الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٠-١٧٢ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٧-٤١٨. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٩٨-٢٩٩. النويرى، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٢٧٧-٢٧٨. نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص ١٢٢.

السفهاء، ففسدت البصرة بسبب ذلك "[1]، كما أنه كان "سهل الولاية لا يعاقب في سلطانه ولا يقطع لصا"، فلما عوتب في ذلك، احتج بمحاولته تأليف الناس، وزاد في دفاعه عن سلوكه "فكيف انظر الى رجل قد قطعت أباه وأخاه؟ "[2]، وقد عرض بعض الرجال الذين وفدوا على معاوية، سوء الحالة التي آلت إليها البصرة في ولاية ابن عامر، فقال عبد الله بن الكواء : "أما أهل البصرة، فقد غلب عليها سفهاؤها، وعاملها ضعيف "[3].

ويبدو أن ابن عامر حين طلب الى معاوية أن يوليه البصرة كان يريد أن يسترد أموالا كانت له فيها منذ ولايته السابقة زمن خلافة عثمان، ولا يريد أن يدخل في النزاعات التي كانت تقوم بين أهلها، فيصلح ذات البين ويقطع دابر المفسدين، ذكر المدائني أن ابن عامر قال لمعاوية : "إن لي بها أموالا وودائع، فإن لم توجهني عليها ذهبت "[4]، فاستجاب معاوية لرغبته رغم هذه الحجة الواهية، وقد اهتم إبن عامر بتحصيل أكبر قدر ممكن من المال ليساعده في شيخوخته بينما استمر في سياسة اللين والتسامح وعدم إثارة الناس عليه، حتى ساءت الأحوال في البصرة. ويمكن معرفة تلك الأحوال أكثر من خلال إلقاء نظرة سريعة على الخطبة البتراء التي ألقاها زياد بالبصرة، حين تولى عمله عليها من قبل معاوية، ففيها نرى أن القتل والغدر عام في المدينة، يُقتل الإنسان الضعيف فلا يجد من يدافع عنه. كما أن السرقة عامة فيها والأمن مفقود في الطرقات، حتى إذا أتى الليل خاف الناس على أنفسهم، والفسوق والفجور منتشر جهارا في وضح النهار، وبالتنقيب كان المحتالون واللصوص يدخلون الى المنازل فينهبونها ... [5]. هذا الوصف المروّع ينبيء بحالة عجيبة، تدل على انعدام الحكم وغياب النظام والمسؤولية، ومعاوية بصير في هذه الأمور، حيث تواردت الأخبار اليه عن ضعف ابن

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٢. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحق بن علي الهاشمي). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٠. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٣.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٢ (عمر بن شبه). البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٩. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٤.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٢ (مسلمة بن محارب)، أيضا ص ٢١٣ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣.

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ١٧٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٦. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٢٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٣.

(٥) انظر خطبة زياد البتراء لدى الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٢، ص ٦٢-٦٤. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٤-٣٠٦ (المدائني). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٣ (الهيثم بن عدي). البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (الحرمازي). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٥-٣٠٧. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريري، الجليس الصالح، جـ ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧ - ٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويرى، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٣١١-٣١٣. القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١، ص ٢٦٠-٢٦١.

عامر، وفساد حال البصرة، فطلب منه بطريقة وديّة أن يعتزل الولاية، بالمقابل سمح له بالاحتفاظ بما في ذمته من أموال[1]، ولا نرى مبرراً لسياسة الضعف التي انتهجها ابن عامر، سوى حرصه على حياته وسلطانه وانشغاله بجمع الأموال التي تولى البصرة بسببها.

كان الذي خلف ابن عامر على ولاية البصرة – في أول سنة(٤٥هـ/ ٦٦٥م) – الحارث بن عبد الله الأزدي[2]، ويبدو أن معاوية اختار الحارث لأنه من قبيلة الأزد التي كانت لها مكانة في البصرة، كما أن عددها حينئذ كان قد ازداد في هذا المصر[3]، فأراد معاوية أن يكسبهم الى جانبه بتعيين واحد منهم، وربما كان تعيين معاوية للحارث تمهيداً لتعيين زياد من بعده، إلاّ أن الحارث لم يكن أحسن حالا من الوالي السابق، فلم يزد الأمر في ولايته قصيرة الأمد "الاّ ارتباكا، وكثر الفساد في الناس وزاد السلب والقتل والجرح والسرقة، الى غير ذلك من الفضائع، ولم يبق للحكومة الاّ الاسم"[4]. وكانت الدولة تحاول السيطرة على زمام الأمور، ولكنها لا تستطيع الى ذلك سبيلا، فكلما حاولت إبدال وال بآخر على أمل أن يصلح الوضع هناك، فإن الوالي الجديد لا يستطيع القيام بمهمته بصورة مرضية، والحالة بالبصرة تنذر بأسوأ مما هي عليه، ولهذا كانت هذه المدينة في أمس الحاجة الى وال حازم يتمتع بصفات سياسية وادارية جيدة، تمكنه من وضع الأمور في نصابها وردّ فساد المصر الى صلاح، ولم يرّ معاوية بين رجاله من هو أقدر من زياد على القيام بهذه المهمة الصعبة، فولاه البصرة سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)[5]، وضم إليه خراسان وسجستان[6].

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢١٣-٢١٤ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م٩، ص٤٦٦ (اسحق بن عيسى الهاشمي).

(٢) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١٩١. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢١٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص٤٤١-٤٤٧. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص٢٨٢. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٢٩.

(٣) انظر إحسان النص، العصبية القبلية، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلموها، ص٦-٧.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص١٩٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢١٧ (المدائني). المسعودي، مروج، م٣، ص٣٣. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص٤٤٧. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٣٠. ابن خلدون، العبر، م٣، ص١٦. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص٧. فلهاوزن، الدولة العربية، ص١١٥ زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، ٢ جـ، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٢، جـ١، ص٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: زامباور، معجم الأنساب، الخربوطلي، تاريخ العراق ص٨٩. استمرت ولاية الحارث بن عبد الله الأزدي على البصرة أربعة أشهر فقط. (انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢١٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص٤٤٧. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٣٠).

(٦) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢١٧ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص١١٠ (أبو بكر الهذلي). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص٤٤٧. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص٢٨٢ (المدائني). النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص٣٠٩. أبو الفداء، المختصر، جـ١، ص١٨٥. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص٣٠. ابن خلدون، العبر، م٣، ص١٦.

هذا فيما يتعلق بالبصرة، أما الكوفة، فبعد أن ضمن معاوية سيطرته على العراق، ولّى عليها سنة (٤١هـ / ٦٦١م) المغيرة بن شعبة[١]. كانت الفوضى كامنة في الكوفة وإن كان الأمن والنظام بها أكثر استتبابا مما هو عليه في البصرة، وكان الشيعة بها أكثر عدداً وأقل تفرقة من شيعة البصرة، أما الخوارج فكانوا بالكوفة أشد مراساً وأعظم قوة، وقد واجه المغيرة طيلة فترة ولايته اضطرابات وثورات عديدة قام بها الخوارج، لكنه استطاع بدهائه أن يخمدها[٢]، على أن سياسة المغيرة التي انطوت على شيء من اللين والتسامح وإن رضي بها أهل الكوفة، إلاّ أنها لم ترض معاوية الذي ظلّ متخوفاً من شيعة علي في العراق عامة وفي الكوفة خاصة، فكان يريد أن يكون المغيرة أكثر حزماً وتفانيا له، وأن يستأصل الشر في بدايته وقبل أن يستفحل.

والحقيقة أن موقفاً حازماً من المغيرة كان كافياً لوقف محاولات التمرد التي كانت تعمل لتنظيم صفوفها المتفرقة من جديد، ولم يكن مثل هذا الموقف يكلفه كثيرا، ومع ذلك فإن المغيرة لم يتخذه. وقد عرف أهل الكوفة حالة الفوضى الضاربة في البصرة ومنطقتها، فترك كثير منهم مصرهم وغادروا اليها "فجعل المغيرة لا يسأل عن أحد الاّ قيل له قد خرج الى عبد الله بن عامر، حتى يسأل عن كاتبه، فقيل له قد لحق بعبد الله"[٣]، وهذا يشعر بضعف وعجز ولاية عبد الله بن عامر.

ويبدو أن المغيرة شعر بعدم رضا معاوية عن سياسته، وخشي أن يعد لينه وتسامحه إهمالا وتواطؤاً، فرأى أن يعلل تساهله بكبر سنه إذ كتب الى معاوية: "أما بعد، فقد كبرُت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهني سفهاء قريش، فرأي أمير المؤمنين في عمله موفّق"[٤].

لقد اختلف المؤرخون في تفسير الأسباب التي دعت المغيرة الى اتباع سياسة اللين والتسامح إزاء الخوارج والشيعة في الكوفة، فيروى الطبري نقلا عن النضر بن صالح أن المغيرة "أحب العافية، وأحسن في الناس سيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم"، وكان يقال له أن فلانا يرى رأى الشيعة، وأن فلانا يرى رأى الخوارج، فيقول "قضى الله ألاّ تزالوا مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا يختلفون، فأمنه الناس"[٥]. ويرى فلهاوزن أن المغيرة كان يبغي من اتباع تلك السياسة

---

(١) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٤. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢١٨. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٥ (عوانه). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٣. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٣١٨. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٩٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.

(٢) لمزيد من المعلومات عن ثورات الخوارج بالكوفة في ولاية المغيرة، أنظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٤. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٢٠-٢٢١. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٤-١٧٥، ١٨١ وما بعدها. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١١-٤١٣، ٤٢٥ وما بعدها. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٣٤-٢٣٦. النويرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٢٧٥-٢٧٦، ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٩.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص ٨٣.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢١.

المحافظـة على منصبه، فلم يستأصل الأخطار في بدايتهـا بل تركها ليتداركهـا من يخلفه(١). ويرجع لامنس تسـاهل المغيرة الى كبر سنه، ويقـول: "كان همه الأول هـو البقاء في الحكم واتمام مستقبلـه المضطرب بهدوء" (٢). أما بروكلمان فينسب هذا التساهل الى أخلاق المغيرة، حيث وصفه بأنه "رجل انتهازي لا ذمة له ولا ذمام" (٣)، ولكن ميور (Muir) لا يتفق مع أصحابه من الباحثين الغربيين، بل يراه رجلا ذكيا حكيماً عاقلا (٤). ويمكن القول أن سياسة اللين التي انتهجها المغيرة مع الخوارج والشيعة، تبلـورت وفقا لرؤيته التي كـانت ترمي الى التوفيق بين رضـا معاوية عنه من جهـة، وعدم التعـرض لأهل الكوفـة بقتل خيارهم مـن جهة أخـرى، لذلك فقـد دأب المغيرة على إخماد الفتن في ولايته دون أن يثير ذلك الشكـوى لدى أهل الكوفـة، أو ينال من رضا معـاوية الذي كـان في وسعه عزل المغيرة كما عزل ابن عامر عن البصرة من قبل، وهو الأقرب رحما لمعاوية، وقد وضح المغيرة جانبا هامـا وكبيراً من سياسته حينما قـال: "ولا أحبّ أن ابتدىء أهل هـذا المصر بقتل خيارهم، وسفك دمائهـم، فيسعدوا بـذلك وأشقى، ويعزّ معاوية في الـدنيا، ويذل يوم القيـامة المغيرة، ولكني قابل من محسنهم، وعـاف عن مسيئهم، وحـامـد حليمهم، وواعـظ سفيههم حتى يفـرق بيني وبينهم الموت" (٥). وبعدُ، فقد كان المغيرة مـرتاحا في حكم ولايته، وهو لبعد نظره وقوة حـدسه كان يعرف الأوقـات التي يتجه فيهـا فكـر معاويـة الى عـزله عـن عمله، يعـرف ذلك منـه فيحول دونـه بشتى الوسائل(٦)، وهكذا تمم المغيرة ولايته بسلام الى أن توفى سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، فضم معاوية الكوفة لزياد(٧).

كانت العراق أهم ولايات الـدولة الاسلامية، فمنذ تأسيس معسكريّ البصرة والكـوفة أيام عمر

---

(١) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١١٠.

(٢) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 11.

(٣) كارل بـروكلمان، تاريـخ الشعوب الاسلاميـة، ترجمة نبيـه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٥، دار العلـم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م، ص ١٢١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية.

(٤) William muir, The Caliphte : It's Rise, Decline and Fall, Kharats, Beirut, 1963, P.310. وسيشار اليه عند وروده هكذا: Muir, The Caliphat.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٠ ابن عساكر. تهذيب تاريخ دمشق جـ ٢، ص ٣٧٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٣٢٠.

(٦) انظـر ابن قتيبة، الامـامة والسيـاسـة، جـ ١، ص ١٧٢-١٧٣. اليعقـوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٩- ٢٢٠. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٠١-٣٠٢ (الشعبي). العسكري، الأوائل، ص ١٨٨ (الشعبي). ابـن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٥٠٣. البياسي، الاعـلام بالحروب، جـ ١، ص ١١. ابن خلـدون، م ٣، ص ٣٣-٣٤. السيوطي، تـاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥ (الحسن البصري).

(٧) ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ٩٩. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٥، أيضا ١٩٧ (الـوليد بن هشـام). ابن قتيبة، الأمامة والسياسة، جـ ١، ص ٢٥٠. أيضا ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٥. الدينـوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٣. اليعقـوبي، تـاريخ، جـ ٢، ص ٢٢٩. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٥ (عوانـه)، أيضا ص ٢٣٢. ابن أعثم، الفتـوح، م ٢، ص ٣٠٨. المسعودي، مـروج، م ٣، ص ٣٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني). المقدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ١-٢. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٤٤٧. ابن عساكـر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١. ابن أبي الـدم، التاريخ الاسلامي، جـ ١، ص ١٩٦. أبو الفدا، المختصر، جـ ١، ص ١٨٥. النويري، نهاية الارب، جـ ٢٠، ص ٣٢٥. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٨. زامباور، معجم الانساب، جـ ١، ص ٦٢

ابن الخطاب، كان كل منهما يؤلف منطقة إدارية مستقلة عن الاخرى، كما كان لكل منهما حاكم مستقل يعين من قبل الخليفة، وقد اتبع معاوية أول الأمر النظام الإداري الراشدي، الذي كان معمولا به في العراق بتعيين أمير على كل مصر، وبقي الأمر كذلك الى أن توفي المغيرة بن شعبة سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، حيث جمع معاوية العراق لزياد، فكان أول أمير يجُمع له مصرى العراق[١]، وقد سار خلفاء بني أمية على هذا النهج الاداري الجديد.

ومما يلاحظ على ذلك النظام الجديد، إنه لم يصل الى حد إدماج الولايتين في وحدة ادارية واحدة، بل ظلّ كل مصر مستقلا عن الآخر في جميع النواحي، وربما يعود ذلك الى رغبة الخلفاء والولاة في الحد من شدة المعارضة العراقية، إذ أن الاتجاه المذهبي والسياسي يختلف عند سكان المصرين، فأهل البصرة أكثرهم عثمانية تهمهم مصلحتهم التجارية، ولا يعيرون الناحية السياسية كثير اهتمام، أما أهل الكوفة فأكثرهم شيعة معارضين للحكم الأموي، لذلك فقد اهتموا كثيراً بالناحية السياسية، ودأبوا على ذلك الى أن سقطت الدولة الأموية[٢].

ولا شك أن توحيد مصرى العراق - البصرة والكوفة - كان له مزايا ايجابية واضحة، فالكوفة قريبة من البصرة، ووجود سياستين مختلفتين في كل منهما ربما يؤدي الى تأثير احداهما على الأخرى، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ولاية كل من المغيرة بن شعبة على الكوفة، وعبد الله بن عامر على البصرة، حيث كانت سياسة الأخير أكثر لينا وضعفا، الأمر الذي شجع الكثير من أهالي الكوفة على مغادرة مصرهم الى البصرة[٣] التي كانت الفوضى تضرب في أطنابها. وقال زياد حين مات المغيرة معبرا عن خوفه من استعمال ابن عامر على الكوفة: "إن وليها لم آمن أن يضرنا بجواره ويلجأ أهل خراجنا اليه"[٤]. ثم أن الكوفة مهمة جداً بالنسبة للعراق من حيث موقعها وماضيها، حيث كانت عاصمة الدولة الاسلامية في خلافة علي بن أبي طالب (رض). أما البصرة فتكمن أهميتها بالنسبة للعراق في موقعها التجاري المتميز، حيث تعتبر المرفأ الرئيس في مجال التبادل التجاري، وهي الى جانب ذلك غنية بواردات الجباية التي تأتي إليها من كافة المقاطعات التي فتحت على أيدي مقاتلها، أضف الى ذلك فان توحيد مصرى العراق، كان من شأنه التخفيف من الاقليمية التي تأصلت في نفوس أهالي المصر الواحد، حتى تجاوزت العصبية القبلية في بعض الاحيان.

---

(١) خليفة بن خياط، جـ١، ص ٢١٨. ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١، ص ٢٥٠. أيضا ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦، ٥٧١. اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٢٩. ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص ١٩٥. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٢. المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني). المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص ٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ١، ص ١٩٦. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٢٥. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ١، ص ٥٨٠.

(٢) ثابت اسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي، ط ٢، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٢٤-٢٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الراوى، العراق في العصر الأموي.

(٣) انظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٩.

(٤) البلاذرى، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٧ (ابن الكلبي).

ومثلما كان لتوحيد الكوفة والبصرة جوانب ايجابية، فإن هناك جوانب أخرى سلبية وخطيرة على الدولة ينبغي الالتفات اليها، إذ أن تولي أمير واحد للعراق يعني سيطرته على منطقة واسعة من الدولة الاسلامية، وتصرفه في تلك المنطقة تصرف الملوك المستقلين، فيعين العمال على البلاد التي تحت إمرته، ويجيبي الأموال، فينفق منها على جنده وفيما تقتضيه العمارة من إصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك، والمشكلة المحتملة تقع اذا ما أصيبت إدارة هذه المنطقة الواسعة بالضعف أو الفساد، أو أن يقوم الأمير بحركة تمرد وعصيان، غير أن مثل هذه الأخطار لم تحدث في ولاية زياد، وذلك لكفاءته وخبرته الواسعة، وقدرته على التنظيم، ثم لاخلاصه لمعاوية[1] الذي تربطه به رابطة القرابة والدم.

أما الأسباب التي دفعت معاوية الى جمع المصرين تحت إمرة زياد، فالراجح أن قابلية زياد الادارية وكفاءته ومقدرته واخلاصه للدولة، هي التي شجعت معاوية على توحيد إدارة العراق تحت إمرته، ولعل معاوية لمس بوادر الفتنة والفوضى في الكوفة، مثلما لمسها في البصرة من قبل، وبالمقابل كانت أحزاب المعارضة للنظام الأموي في الكوفة أكثر تعاضداً مما هي عليه في البصرة، فولى أمرها لزياد، لكي يضبطها كما ضبط البصرة التي كانت أشد فوضى وأكثر فسادا. ويبدو أن زيادا كان يرغب في ضم الكوفة الى عمله بالبصرة، فبعد أن توفي المغيرة بن شعبة، تخوف زياد أن يستعمل معاوية، عبد الله بن عامر على الكوفة، فكتب إليه ينبئه بوفاة المغيرة، ويشير عليه بتولية عروة بن المغيرة، وربما لمّح زياد لمعاوية برغبته في ولاية الكوفة، فعرف معاوية قصده وكتب اليه: "ليُفرخ روعك يا أبا المغيرة، لست بمولّ عبد الله بن عامر" وبعث اليه بعهده على الكوفة[2].

كان زياد يقيم في أحد المصرين إما البصرة أو الكوفة، ويعين نائبا عنه في المصر الآخر ويخوله أغلب الصلاحيات الادارية التي يتمتع بها الامير، وكان يقيم في البصرة ستة أشهر، وفي الكوفة مثلها، فاذا خرج الى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن حريث[3]، وإذا قدم الكوفة استخلف سمرة بن جندب الفزاري على البصرة[4].

---

(1) القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، جـ١، ص ١١٢.

(2) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٧ (ابن الكلبي). العسكري، جمهرة الأمثال، جـ ١، ص ٥٦ (عن أبي العباس). وذكر ابن منظور أن زيادا أشار على معاوية بتولية الضحاك بن قيس على الكوفة. (انظر لسان العرب، م ٨، ص ١٣٥ (أبو عبيد)).

(3) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٢٣، أيضا جـ ٧، ص ٩٩. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٦ (عوانه). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. النويري، نهاية الأرب. جـ ٢٠، ص ٣٣١. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٥٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ ٢، ص ٥٣١.

(٤) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٤، أيضا جـ ٧، ص ٩٩. البخاري، التاريخ الكبير، م ٤، ص ١٧٦ (سليمان بن مسلم العجلي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٠ (عباس بن هام الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٣٧ (عمر بن شبه). ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، ص ٣٨. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط م ٦، ص ٤٨٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١. أبو الفدا، المختصر، جـ ١، ص ١٨٥. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٧.

وفي ولاية زياد أصبح العراق يشكل مركزا للاشراف الاداري على المناطق الشرقية والشمالية الخارجة عن حدوده الجغرافية، والتي هي في الأصل من فتوح البصرة أو الكوفة، فمن فتوح البصرة فارس وكرمان(١)، وخراسان وسجستان(٢)، وأصبهان(٣)، والأهواز(٤). وكانت فتوح الكوفة تنحصر في المناطق الشمالية، كقزوين وزنجان(٥)، وطبرستان(٦)، وأذربيجان(٧)، والري وقومس ونهاوند(٨). كانت هذه المناطق ترتبط بأمير العراق (زياد) مباشرة، حيث كان المسؤول الأول عن إدارتها، وعن تعيين الولاة والعمال عليها في جُلّ الأحوال، وقد كان لهذا الارتباط أهمية كبرى، لأنه يخفف من أعباء إشراف الخليفة على الأقاليم البعيدة، ويعطي أمير العراق أهمية ودوراً رئيسا، وقد بقيت هذه الأقاليم تابعة ادارياً لأمير العراق حتى نهاية الدولة الأموية، ذكر المدائني أن "عمل العراق من هيت الى الصين والسند والهند، ثم كذلك الى الري وخراسان والديلم وجيلان والجبال واصبهان" ثم أضاف "ومن ولي العراق فقد وليّ البصرة والكوفة والأهواز وفارس وكرمان والهند والسند وسجستان وطبرستان وجرجان"(٩)، وبذلك يكون هذا التحديد هو التحديد الاداري لا الجغرافي للعراق، الذي غدا بمصريه (البصرة والكوفة) في أيام زياد الاقليم المسيطر ادارياً وسياسياً وعكسريا على كل بلاد فارس تقريبا.

وعلى الرغم من امتداد وسعة الأقاليم الخاضعة ادارياً لمصرى العراق، الاّ أنها لم ترضِ طموح

---

(١) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٣٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٤٤. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٨٠. ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٢٧، ٤٥٤.

(٢) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٣٩-١٤١. البلاذري، فتوح، ص ٥٦٧، ٦٠٧. الطبري. تاريخ، جـ٤، ص ١٨٠-١٨١. ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١٩٠-١٩٢. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤.

(٣) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٣٧. البلاذري، فتوح، ص ٤٣٦. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٦١. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٣٩-١٤١. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٢٠٩.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٥٣١. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٢، ١٨٣-١٨٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٢٨٤-٢٨٦. ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٥٤٢-٥٤٤.

(٥) انظر: البلاذري، فتوح، ص ٤٤٨. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٩-٢٨١. ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١٥٢. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٢٣.

(٦) انظر: خليمة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٤١-١٤٢. البلاذري، فتوح، ص ٤٦٧. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٣٠٧. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٥٣.

(٧) انظر: خليمة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٢٤-١٢٥. البلاذري، فتوح، ص ٤٥٥-٤٥٦. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٨٤. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١٥٣-١٥٥. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٢٧.

(٨) انظر: البلاذري، فتوح، ص ٤٢٤. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ١١٤، ١٥٠-١٥٢. ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص ١١٧-١١٨.

(٩) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٦١-١٦٢. وذكر الأصمعي أن "عمل العراق هيت الى الصين والسند والهند، ثم كذلك الى الري وخراسان الى الديلم والجبال كلها ... ... والجزيرة ما بين دجلة والفرات، والموصل من الجزيرة، لا تدخل في عمل العراق". (انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م١، ص ٢١٤).

زياد كما يبدو، حتى أن معاوية أضـاف الى عمله الهند والبحرين وعُمان[1]، والظاهر أن هذا التبدل الاداري لم يحدث الاّ في خـلافة معـاويـة ، حيث بقيت البحـرين وعُمان تـابعتين اداريا للخليفـة في المدينة طيلة العهد الراشدي ، ويوضح أبو نعيم الأصبهاني سبب هذا التبدل فيقول : " عمد معاوية فأخـذ أصبهان مـن أهل البصرة ودفعها الى أهل الكـوفـة ، وأخذ البحـرين وعُمان من أهل الحجـاز فأعطاها أهل البصرة مكان أصبهان "[2]، أما مناطـق الجزيرة الأخرى فقد بقيت تـابعة الى المدينة ، فيرى البلاذرى أنه كان " مجرى عيون الطف وأراضيها مجرى أعراض المدينة وقرى نجد وكل صدقتها الى عمال المدينة ، فلما ولي اسحـاق بن ابراهيم بن مصعب السـواد للمتوكل على الله ضمهـا الى ما في يده "[3].

والجدير ذكـره أن المصادر المتوفرة لم تشر الى مـدى ارتباط البحرين وعُمان بمركـز الادارة في العراق إبّان ولاية زيـاد ، ويبدو أن هذا الارتباط لم يكن يسير تبعا لقـواعد مقننة وثابتة ، وإنما تأثـر بالأحوال القائمـة حتى أن زيادا لم يعين واليا من قبله على تلك المنطقـة ، كما هو الحال بالنسبة لبـاقي الأقاليم والولايات التـابعة للعراق ، بل أن معـاوية هو الذي كـان يولي عليها[4]، ولعل الفائدة المرجـوة من تبعية شرق الجزيرة العربية للعراق ، تكمن في قدرة هذه المنطقة على تأمين العراق بالمهاجرين ، كما أن هذه التبعيـة تمكّن أمير العراق من اتخاذ اجـراءاته فيها عنـد الحاجة لملاحقـة مثيري الفتن والقلاقل الذين يتخذونها ملجأ لهم[5].

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٥ ، ص ٢١٧ (المدائني) . ابن الاثير، الكامل، م ٣ ، ص ٤٤٧ . البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١ ، ص ٢٨٢ (المدائني) . أبـو الفدا، المختصر، جـ ١ ، ص ١٨٥ . النويـرى، نهاية الأرب، جـ ٢٠ ، ص ٣٠٩ . ابن كثير، البداية والنهـاية، جـ ٨ ، ص ٣٠ . ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦ . فلهـاوزن، الدولة العربيـة ، ص ١١٥ . وذكر ابن عبد ربه أن " عبيد الله بن زياد أول من جمع له العراق وسجستان وخراسان والبحران وعُمان ، وانما كان البحران وعُمان الى عمال أهل الحجاز" . (انظر العقد الفريد، جـ ٥ ، ص ٨).

(٢) الأصبهـاني، أبو نعيم أحمد بن عبـد الله (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧م)، تـاريخ اصبهان، تحقيق سفن ديـدرنج، ليدن، بـريل، ١٩٣١ ، ص ٢٩ ، وسيشار اليـه عند وروده هكذا : الاصبهـاني، تاريخ أصبهان. ويؤكـد قول الاصبهاني هـذا ما رواه ابن عباس، حيث ذكر أن " البحريـن من أعمال العراق، وحدّه من عُمان ناحية جُرّفـار واليمامة على جبالها، وربما ضمت اليمامة الى المدينة، وربما أفردت، هذا كان في أيام بني أمية، فلما ولي بنو عباس صيروا عُمان والبحرين واليمامة عملا واحدا" . (انظر ياقوت، معجم، البلدان، جـ ١ ، ص ٣٤٧) . وذكر صالح أحمد العلي نقلا عن ابن الجوزى في كتابه (مرآة الزمان / مخطوطة اكسفورد، ص ٢٨٩) أن الشعبي روى أن " أول من جمع له العراقان وخراسان وسجستان والبحرين وعُمان زياد، وإنما كانت البحرين وعُمان الى ولاة الحجاز" . (انظر : صالح العلي، ادارة الحجاز في العهود الاسلامية الأولى، مجلة الأبحاث، تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت، جـ ١ ، السنة (٢١)، آذار ١٩٦٨م، ص ١٥).

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ٤١٩ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤ ، ص ٣٦ .

(٤) ولىّ معاويـة على البحرين الأحـوص بن عبد بن أميـة . (انظر الـزبيري، نسب قريش، ص ١٥٢ . ابن حجـر العسقلاني، الاصابة، جـ ١ ، ص ٢٣) . كما ولىّ عليها أيضا مروان بن الحكم. (انظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٥٣).

(٥) انظر البلاذرى، أنساب (محمد حميد الله)، جـ ١ ، ص ٤٥٩ .

وذكر بعض المؤرخين أن زيادا طالب بحكم الحجاز، اذ كتب الى معاوية : "قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة فأشغلها بالحجاز"(١)، ويبدو أن هذا زعم غير صحيح، لأن الحجاز ولاية ذات أهمية كبيرة ويفترض أن يتولاها والي مستقل يقيم فيها، لا أن تحكم من قبل والي العراق، وهذا ما حدث فعلا في العهد الأموي، ولم يكن زياد كثير الود لأمويّ الحجاز، الذين تباعدوا عنه منذ استلحاق معاوية لنسبه، فكيف به يطلب الولاية عليهم؟ إن مثل هذا الطلب - إن كان صحيحا - يُعد تحديا من جانب زياد للأمويين في الحجاز، حتى وان اقتصر الطلب فقط على ترأس موسم الحج كما ذكر اليعقوبي(٢). مثل هذه الادعاءات التي وضعت على لسان زياد تبدو مبالغا فيها، وهي تفسر لنا حقد وتخوف الأمويين الغيورين من الحظوة والنجاح الدائمين لهذا الرجل الذي داخلهم النسب مجددا، وساهم أبناء زياد الذين كانوا يرمون الى احتلال مكانة أعلى، ساهموا أيضا في ايجاد هذه المعطيات التي كادت أن تنال من شخصية زياد، وتلصق بها من الصفات ما ليس فيها.

ان الثقة غير المحدودة التي أولاها معاوية لزياد لا تقل مديحا عن الشعر، هذه الثقة جعلته ملكا غير متوج على النصف الشرقي للأمبراطورية الاسلامية(٣)، وكان معاوية بما لديه من خبرة واسعة في عالم السياسة يعرف جيدا كل بلد والأسلوب الذي يناسبه، وكانت حنكته وراء نجاحه في إقرار الأمور في سائر الأقاليم، أما العراق فقد جعل أمرها لأخيه زياد ولم يتدخل في أموره، بل كان يوجهه بين الحين والآخر توجيهات عميقة لكنها غير تفصيلية، وقد أتاحت هذه الظروف المجال لزياد أن يستمر في اتخاذ تدابير جذرية لاعادة تنظيم ولايته الشاسعة المضطربة، حتى جعل من سلطة أسلافه المهزوزة سلطة قوية وحقيقية تعمل لمصلحة بني أمية، ووصف الطبرى ثمرة تلك الجهود بقوله : "وكان زياد أول من شدّ أمر السلطان، وأكد المُلك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة"(٤).

---

(١) أبو عبيدة، النقائض، جـ٢، ص ٦٢٠. البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٨، ٢٧٦ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٩ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ١، ص ٨٢، أيضا جـ٥، ص ١٢. المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٥. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٣. المقدسي، البدء والتاريخ، جـ٦، ص ٢. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٥٣٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٥ (ابن شوذب). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٢، ص ٤٦٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٦٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٣٠. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٢١٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٢٩.

(٣) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 676.

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٨٧. أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٥.

الفصـــل الثالـــث
أعمـال زيـاد الاداريـة والاجتماعيـــة

* اجراءاته الأولية (في البصرة والكوفة) .
* سياسته تجــاه الرعيـــة .
* تنظيم زياد للقبائل في العراق .
* سياسته تجاه القبائل .
* سياسة التهجيـــر.
* سياسة زياد تجاه عماله وموظفيه .
* المقاتلـــــة .
* الشرطـــة والحــــرس .
* الدواويـــــــن .

اجراءاته الأولية (في البصرة والكوفة)

قدم زياد الى البصرة في بداية سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)(١)، فألقى نظرة على منازلها وخصاصها، وقال محدثا نفسه: "رُبّ فرح بإمارتي لم تنفعه، وربّ مبتئس منها لن تضره"(٢). لقد أدرك زياد بفكره الثاقب الحالة التي آلت اليها الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ورأى أن إصلاح هذه الأوضاع يحتاج الى عمل شامل وجذري، فصمم على ذلك التغيير بكل ما أوتي من قوة.

بدأ زياد ولايته على البصرة بخطبة سياسية مرتجلة ذاعت شهرتها في الأدب العربي، وقد عرفت بإسم (البتراء) - أي المنقوصة - وذلك أنه لم يبدأها كما هو معتاد بالتسليم والحمد لله(٣). رُويت هذه الخطبة في أمهات كتب الأدب والتاريخ، واقتصرت بعض المصادر على رواية أطراف منها، ورواها الجاحظ على نحو من الترتيب والتأليف لا يخلو من أثر الصنعة شأنه في ذلك شأن الكثير من رواة العراق في أكثر ما رووا من خطب ذلك العصر(٤). وتُعدّ خطبة زياد (البتراء) وثيقة سياسية أدبية، وهي جديرة بالدراسة والتحليل من هاتين الناحيتين، ولكننا سنشير إليها هنا بقدر ما تُعيننا على فهم شخصية زياد وسياسته. ان القارىء لهذه الخطبة لا يملك الاّ أن يلاحظ أنها تكاد تكون مقسمة الى

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٧ (المدائني). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٠٩. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٣٠. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٦. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٧

(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٢. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١ (الهيثم بن عدي). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٣. القالي، ذيل الأمالي والنوادر، ص ١٨٨-١٨٩ (أبو العباس). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٥ (العتبي).

(٣) انظر: الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٢. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٧ (المدائني). ابن زكريا، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ٦ جـ، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧١هـ، جـ١، ص ١٩٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن زكريا، مقاييس اللغة. ابن الأثير المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ١، ص ٩٣. ابن منظور، لسان العرب، م ٤، ص ٣٧-٣٨. ذكر الهيثم بن عدي أن زياداً أول من خطب خطبة بتراء. (ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١).

(٤) نص هذه الخطبة ورد في العديد من المصادر انظر: الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٢-٦٥. ابن بكار، الأخبار الموفيات، ص ٣٠٤-٣٠٦ (المدائني). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٢ (الهيثم بن عدي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٥-٣٠٧. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريري، الجليس الصالح، جـ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩١-٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧-٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣١٠-٣١٣. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٢٦٠-٢٦١. وقد أوردنا نص الخطبة نقلا عن الجاحظ في الملحق رقم (١).

ثلاثة أقسام متكافئة :

في القسم الأول : - عرض عـام لأخلاق أهل البصرة ومسلكهم، من ضلال وفسـاد ومعصية لله واستهانة بما أعدّ لأهل الطاعة والمعصية من الثواب والعقاب، إذ قال : "كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته" [١] وكأنما وجد في هـذا التعميم مجالا للشك، فجعل يخصـه بضرب الأمثال، فهم يتركـون الضعيف يُقهـر ويؤخـذ ماله، ويغضـون عن المختلس، ويعتذرون بغير العذر، وهم يرون أمـاكن الفسوق تنتشر بينهم دون أن يقاوموا أو ينكروا [٢].

والواقع أن هذا التفكك الاجتماعي والتدهور الأخلاقي ناتج بالدرجة الأولى، عن طبيعة تكوين المجتمع في البصرة، والتباين الـذي تخلل تركيبة هـذا المجتمع الجديد، اذ نزلت البصرة قبائل عـربية عديـدة من الجزيرة العـربية، وهذه القبـائل بعضها متحضرة - كـالقبائل اليمنيـة - والبعض الآخر بدوية، كما أن بعض هذه القبائل كان يتمتـع بالعطاء، بينما كان بعضها محروم منه [٣]، ولا ريـب أن اللصوص والمختلسين وقطـاع الطرق كانـوا من هذه الجماعة المحـرومة من العطاء، والى جـانـب هذا التناقض، نجد عناصر غريبة عن المجتمع العربي في البصرة كالأساورة والسيابجة والزط [٤]، وهؤلاء على قلتهم لا بـد أنهم احتفظوا ببعض مقـومات وعادات مجتمعهـم الأول، فأثروا - وبقـدر ما - في مجتمع هذا المصر الـذي يعيشون فيـه. وقد أدى ضعف بعض الـولاة في البصرة وتساهلهم في حكم هذه الولاية الى زيادة تدهور مجتمعها الجديد، الذي كـان بحاجة الى مزيد من الرعاية والتوجيه، كل هذه الظروف سـاعدت على ابتعاد الناس - وخـاصة الجيل الجديد - عن تعاليـم الاسلام ومبادئه، وضعفت الروح العـربية، وانتشرت السرقات، وكثر الاعتـداء على الأموال والأنفس حتى أن البعض لم يجد حرجا في نبش القبور [٥] لسرقة أكفان الموتى وبيعها.

---

(١) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٢. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٦-٢٠٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٨ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١٠ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٨.

(٢) انظر : الجاحظ، البيـان، جـ ٢، ص ٦٢-٦٣. ابن بكـار، الاخبار الموفقيـات، ص ٣٠٥. البلاذري، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٧ (قالوا). الطبري، تـاريخ، جـ ٥، ص ٢١٨-٢١٩ (المدائني). ابن عبد ربـه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي)، ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٨. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، م ١٦، ص ٢٠١.

(٣) انظر العلي، التنظيمات، ص ٥٢.

(٤) انظر البـلاذري، فتوح، ص ٥١٩-٥٢٤. الطبري، تـاريخ، جــ ٤، ص ٩٠، ٤٦٨ (سيف). العلي، التنظيمات، ص ٤٠.

(٥) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٣. ابن بكار، الأخبار الموفيـات، ص ٣٠٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ٢٠٢.

أما القسم الثاني من خطبة زياد، فقد كان اعلانا للمنهج العام الذي سيسلكه في سياسته، وهو أشبه ما يكون بالتصريحات الوزارية في الوقت الحاضر، من حيث إبانتها لأغراض الحاكم الجديد ومذاهبه في الادارة والحكم ووجوه المنافع والاصلاح فيه. لقد جمع زياد في منهجه بين اللين والشدة، لكنه غالى بعض الشيء في الخطوط التي حددها لتغيير الحالة الى الحد الذي وسّع فيه نطاق المسؤولية الشخصية حتى شملت الجماعة، فأراد أن تكون عقوبته من نوع جديد، فلم يقصرها على الطغاة وحدهم بل مدها الى شركائهم ولو من بعيد، ومدها الى من يجوز أن تحوم حولهم الظنة، حيث قال: "وإنيّ أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي"(١)، وهذا أمر ليس جاريا على القانون الشرعي، الذي يقصر المسؤولية على شخص المجرم، وانما ذلك يلجأ اليه الاداريون للحدّ من الجرائم والارهاب، وفائدة ذلك في الغالب وقتية(٢)، وكأنما شعر زياد – مرة أخرى – بأن في وعيده هذا مسارب للشك، فأعلن لسامعيه أنه لا يرتضي لنفسه في موقفه هذا أن يُكذب، وأن "كذبة المنبر بلقاء مشهورة"(٣)، فهو قد عقد العزم على أن يفعل ما يقول، وفي منهجه وعد بحماية الرعية وصيانة أموالها.

ومن التدابير التي سلكها للتأكيد على منهجه الذي أقره في خطته، أخذه رؤساء القبائل بسفهائها ومجرميها، وتهديده بقطع العطاء عن مثيري الفتن والقبائل المشاركة فيها، وكان زياد يجبر رؤساء القبائل وأشرافها على تأديب سفهاء قومهم، ومن تحدثه نفسه منهم بالتمرد على السلطان(٤)، ويُذكر أن زيادا قال لأهل البصرة: "أخبروني بصلحاء كل ناحية، فأخبروه، فاختار منهم رجالا فضمنهم الطريق" وحدّ لكل واحد منهم حدا(٥)، وليس هناك ما يدل على أن هذا الضمان كان مقابل عوض مادي كما إنه لا يتعلق بالأراضي، وإنما هو اجراء يدخل ضمن الاجراءات الادارية والأمنية.

---

(١) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٣. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٥ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢١٩ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٩٢ (عبد الملك بن عمير).

(٢) محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية، ٢ جـ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٦٩م، جـ ٢، ص ١٠٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الخضري، محاضرات.

(٣) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٣ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٤، ص ١١١ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٨. كان زياد صادقا في خطبه ومقالاته حتى أن ابن عمار قال في قصيدته التي مدح فيها المعتضد عبّاد:

السيف أصدق من زياد خطبة   في الحرب ان كانت يمينك منبرا

(علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، ٤ ق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م، ق ٢، م ١، ص ٣٨١–٣٨٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن بسام، الذخيرة).

(٤) انظر البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٣ (مسلمة بن محارب). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٧–٢٥٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤. النص، العصبية القبلية، ص ٢٤٢.

(٥) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٣٩. البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٤٧٤. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٧ (العتبي). وقال المدائني: "أرسل زياد الى قوم كانوا بصيبون الطريق فيهم مالك بن الريب، فضمّن كل رجل منهم ما يليه". (البلاذرى، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٠).

وحين رأى زياد أن أهـل البصرة قد أحدثـوا أحداثـاً لم تكن، صمم على أن يضع لكل داء دواء، ولكل ذنب عقوبة شافية عادلة حيث قال: "وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غـرّق قوما غرقناه، ومن أحرق قـوماً أحرقناه"(١)، وهذه القوانين العرفيـة الشديدة رآها زياد لائقة لمعالجة حال أهل العراق، وقد أفادت فعلا في اصلاح حالهم، ولكي يضمن زياد سلامة النـاس وأمنهم في الليل ويحول دون نشاط اللصـوص والمختلسين، فقد منع السير ليـلا بعد صـلاة العشـاء، وأعلن أنه اذا وجـد شخصاً بعـد ذلك سيقتلـه، وأمهل في ذلك الى أن يأتي الخبر الكوفـة ويرجع اليهم، فكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلي، ثم يأمر المقرىء بتلاوة سورة البقرة أو غيرها من القرآن الكريم، بعد ذلك ينتظر بحيث يترك لكل انسان مهلة من الوقت يبلغ معها أقصى البصرة عـائداً الى بيتـه من المسجـد أو غيره، ثم يأمـر صـاحب الشرطـة أن يخرج فـاذا رأى انسـانـا قتله، وطبق ذلك ليال متتالية حتى صار الناس اذا انتهوا من صلاتهم عادوا مسرعين الى منازلهم(٢)، ويذكر مسلمـة بن محارب أنه أُتي لزياد بأعرابي كان يسير ليـلا في البصرة فسأله زياد: "هل سمعت النداء؟ فقـال: "لا والله قدمت بحلوبـة لي وغشيني الليل، فاضطررتها الى مـوضع فاقمت لأصبح ولا علم لي بما كـان من الأمير"، فقـال زيـاد: "أظنك والله صادقـا، ولكن في قتلك صـلاح هـذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه"(٣)، هذه الحادثـة وان كانت لا تخلـو من المبالغـة الآ أنها تدل على حزم زياد وتصميمه على الالتزام بأقوالـه، وربما قصد بها اثارة الخوف والفزع في نفوس أهل البصرة. والحق أن مثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيـره ضبط الأمور وتأمين الناس. وقد وجد زياد في البصرة حين قدم إليها عدداً كبيراً من المواخير، فأمر بهدمها، فهدمت حتى لم يبق منها شيئاً(٤).

وفي القسم الثالث والأخير من الخطبة، تناول زياد أموراً عديدة تتعلق بالرعية وراعيها، وما يجب أن يكون بين هذين الطرفين من صلات وشؤون، ومن هذه الأمور: ألآ يثير الناس نعرة العصبية وأن يكفوا أيديهم عن الوالي، وألآ يقفوا مواقف الريب والظنون، ثم أعلن أن لـه عليهم الطاعة والسمع وأن لهم عليه أن يعدل، وألآ يحتجب عن صاحب الشكوى ولو طـرق بابه ليلا، ولهم عليه أيضا ألآ

---

(١) الجاحظ، البيـان، جـ٢، ص ٦٣. ابن بكـار، الأخبـار الموفقيات، ص ٣٠٦ (المدائني). البـلاذري، أنساب، (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٧ (الحرمازي). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٦. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي).

(٢) انظر: البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٦، ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢ (مسلمـة بن حـارب). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الاثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٥٠ ابن خلدون، العبر، م٣، ص ١٧.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢، العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٥٠. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣١٥.

(٤) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠١ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٦، ص ٤٩٩ (أبو سليمان). الماخـور: "هو مجلس الـريبـة، ومجمع أهل الفسق والفسـاد، وبيوت الخمارين". (انظر: ابن الأثير المبارك، النهاية في غريب الحديث، جـ٤، ص ٣٠٦. ابن منظور، لسان العرب، م ٥، ص ١٦١).

يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها، وألا يدع المحاربين منهم زمنا طويلا في الثغور(١)، وهذه الأمور متى وفرها الوالي وصدقها لا تجد سبباً للثورة أو الفتنة، ثم استمر زياد في تقرير ما أشار اليه من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فذكر أن الأئمة هم ساسة الأمة المؤدبون لها، وكهفها الذي تأوى اليه، وان في صلاحهم صلاحها، وانه لا خير يرجى للأمة من وراء بغضها لأئمتها، ثم كانت خاتمة خطبته قصيرة جامعة على نغمة واضحة من الانذار والتهديد، فيقول: "وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي"(٢).

وقد وجم الناس لهذه الخطبة وذهل السامعون حتى ظن بعضهم أن الأمير مازح هازل، اذ كيف يأخذ الصالح بالطالح والمقيم بالثائر، فقام أبو بلال مرداس بن أديه - وهو من زعماء الخوارج - وقال لزياد: "أنبأ الله بغير ما قلت، قال الله عز وجل (وابراهيم الذي وفى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى، وان ليس للانسان الاّ ما سعى) فأوعدنا الله خيرا مما واعدت يا زياد"، فقال زياد: "إنّا لا نجد الى ما تريد أنت وأصحابك سبيلا حتى نخوض إليها الدماء"(٣). وأما سيّد تميم الأحنف بن قيس، فقد صوّر جانب المحايدين الذين لا يريدون أن يردوا على الأمير مقالته بما يكره، ولا أن ينزلوا عن مروءتهم في غير جدوى، فقال لزياد: "انما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نثني حتى نبتلي" فأجابه "صدقت"(٤).

هكذا كشف زياد في خطبته هذه عن الخطوط العامة للسياسة التي ينوي انتهاجها، هذه السياسة وهذا التهديد والوعيد الذي أعلنه على مسامع أهل البصرة، قصد به أن يغير الناس من خطة سيرهم، ويقلعوا عن الانهماك في الشهوات والاسترسال في الفسق والضلال دونما رادع من دين أو وازع من خلق، كما إنه أراد أن يعلن هؤلاء طاعتهم لحكمه، وهذا الأمر لا يتم الاّ اذا استقام المجتمع، واعترف المواطنون بواجباتهم تجاه الدولة، وقد استمر زياد في تنفيذ سياسته ببراعة واحكام حتى بسط سلطانه وعمت هيبته، ولم يكن يحتاج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات الاّ قليلا، لعلم

(١) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٤. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠٢-٢٠٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٢) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٥. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢٤٢ (الهيثم بن عدي). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢١ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريري، الجليس الصالح، جـ٢، ص ٣٦٣ (عبد الملك بن عمير). ابن عساكر تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢١ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١١ (أبو بكر الهذلي). القالي، ذيل الأمالي، ص ١٨٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٦، ص ٢٠٣. الآيات الكريمة التي في النص من سورة النجم: (٣٧-٣٩).

(٤) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٥. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٩ (المدائني). البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٩ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢١ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٣ (أبو بكر الهدلي). الجريري، الجليس الصالح، جـ٢، ص ٣٦٤ (عبد الملك بن عمير)

الناس بصدقة في الايعاد، فأخذوا يقفون عند الحد المشروع لهم، وكانت النتيجة أن استظل الناس بظل حكمه في أمن وسلام "حتى أن الشيء ليسقط من الرجل فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه"، وأصبحت المرأة تبات في بيتها دون أن تغلق عليها بابها، بعد أن كانت تستغيث من اعتداءات المجرمين واللصوص فلا تغاث[1].

يروي هشام بن الكلبي، أن زياداً أراد أن يختبر مدى نجاح تدابيره الأمنية فبعث "بقطيفه ديباج منسوجة بذهب، فألقيت بالخريبة، فمكثت ليالي وأياما ما يمسها أحد" حتى بعث إليها من أتى بها[2]. وبفضل ارادة زياد القوية تمكن أول الأمر من توطيد الأمن واقرار السلطان الحكومي في منطقة البصرة، فعندما قيل له "أن السبل مخوفة" قال: "لا أعاني شيئاً سوى المصر حتى أغلب على المصر وأصلحه فغيره أشد غلبة"[3]، فلما ضبط البصرة تكلّف ما وراء ذلك فأصلحه حتى ساد قلب البادية نفسها أمن لم تعهده من قبل، وتبقى مقولة زياد، "لوضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه"[4] من الصور البارزة في سجل أعماله وهو يحيط الناس بالأمن ويُذهب عنهم الفزع وأسباب الخوف.

لا غرو أن نالت اجراءات زياد وسياسته الادارية في البصرة رضى معاوية واعجابه، فما كاد المغيرة ابن شعبه يلقى حتفه سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)[5]، حتى ضم اليه الكوفة، التي كانت أقل فوضى وأكثر أمناً من البصرة، على أن في الكوفة خطراً كبيراً، وهو أنها متشيعة ناصرت عليا وأحبته وتمسكت به وبذكراه حتى جعلته مثلها الأعلى، وكان في هذا صعوبة كبيرة، اذ هي الآن تحت حكم الأمويين، وهم أعداء علي بن أبي طالب وشيعته.

بعد أن كتب معاوية الى زياد بعهده على الكوفة، توجه الأخير إليها مستخلفا سمرة بن جندب

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٦. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٢ (مسلمه بن محارب). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٥٠. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ ١، ص ١٩٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٦. وذكر ابن بكار أن زيادا سأل أهل البصرة: "أي مسالك البصرة أخوف؟" فقالوا: المربد"، فأمر بكساء خزّ فألقي فيه" فبقي سبعة أيام لا يقربه أحد" ثم قال للناس "افتحوا منازلكم وحوانيتكم فمن ذهب له شيء فزياد له ضامن". (ابن بكار، الاخبار الموفقيات، ص ٣٠٨. الساسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٣. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧ ١٨ مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٣. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٧ (العتبي). مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٥. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٦. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٤. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٢٩. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٥ (عوانه). المسعودي، مروج، م ٣، ص ٣٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني).

على البصرة[1]، وحين قدم زياد الكوفة صعد المنبر وخطب في أهلها خطبته الأولى، ويبدو أنه لم يكن ينظر لأهل الكوفة نظرته لحال أهل البصرة من قبل، لذلك نراه يخطب خطبة مقتضبة يبدأها بالحمد والثناء، ثم يذكر لهم أنهم أهل حق، لهذا فقد أتاهم في أهل بيته، وكان في وسعه أن يشخص اليهم في ألفين من شرطة البصرة[2]، لكن هذه الخطبة الرقيقة لم يكن لها أثر في نفوس أهل الكوفة، فلم يكد زياد يفرغ من خطبته حتى حصبوه، وظنوا أنه كسلفه المغيرة سيتغافل عن فعلتهم تلك، لكنه أمر بأغلاق أبواب المسجد، ثم دعاهم ليقسموا أنهم لم يحصبوه، فخلى سبيل من أقسم وقطع أيدي من لم يقسم[3]، هذه الرواية تصور لنا حزم زياد وعدم تهاونه مع من يحاول إثارة الفتن والترويج للثورة، وقد رأى أن يبدأ ولايته بالشدة والحزم، كي لا يظن أهل الكوفة أنه ضعيف وليّن في كل الأحوال، وليضع حدا لتطاولهم على الولاة وانتقاد اجراءاتهم، على أن هذه الرواية لا تخلو من المبالغة، فكيف بأهل الكوفة يجرأون على حصب زياد على المنبر وقد سمعوا ما سمعوا عن شدته وبأسه، ومكانته لدى الخليفة؟ فالبصرة قريبة من الكوفة، ولا بد أن أهلها قد عرفوا الكثير عن السياسة التي اتبعها زياد مع أهل البصرة خلال الأعوام السابقة حتى استقام له أمرها، وتمكن من ضبطها وتحسين أوضاعها.

ويمكن القول أن ادارة زياد لمدينة الكوفة، كانت مشابهة من حيث الجوهر لسياسته وادارته لمدينة البصرة، وقد أثبت مقدرته في ضبط الكوفة بحسن التدبير والحزم والوعد الصادق، قال الشعبي: "فوالله ما تعلّقنا عليه بكذبة وما وعدنا خيرا ولا شراً الاّ أنفذه"[4]. والواقع أن زياداً بالرغم من شدته البادية في ولايته للكوفة، الاّ أنه لم يُرهب الناس باجراءاته الأولية فيها كما فعل في البصرة من قبل، ولقد روى الشعبي أن أول رجل قتله زياد في الكوفة هو أوفى بن حصن الطائي، حيث بلغه عنه شيء فهرب خوفاً من زياد، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فوجد أوفى بينهم، فسأله زياد عن رأيه في عثمان ومعاوية، فقال خيرا فيهما، ثم سأله: "فما تقول فيّ" قال: "بلغني أنك قلت بالبصرة: والله لآخذن البريء بالسقيم، والمقبل بالمدبر" قال زياد: "قد قلت ذاك" فقال: "خبطتها عشواء"، فقتله زياد[5]، ويبدو من رواية الشعبي أن أوفى لم يكن من شيعة علي

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٤ (المدائني). العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني). ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٦١. أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.

(٢) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٧-١٩٨ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة بن محارب)، مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٨.

(٣) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠-٣١١ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة بن محارب). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦١-٤٦٢. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٢٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٥. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٦.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٥-٢٣٦. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٢. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.

كما أنه لم يكن مناهضا لبني أمية، فقد أثنى على كل من عثمان ومعاوية، ولكنه انتقد اجراءات زياد بالبصرة وفكرته في أخذ البريء بالسقيم والمقبل بالمدبر، وكأنه يريد اقناعه بضرورة العدول عن مثل تلك الاجراءات، والواقع أن أوفى كان على حق في نقده ذلك، غير أن زياداً حقيقة لم يتخذ تلك الاجراءات الا عندما تولى البصرة، وقد قصد بها اصلاح الحال واعادة الأمن والنظام، فما أن استقرت الأمور وصلحت الأحوال في البصرة حتى تناساها، يؤيد ذلك ما ذكر عن معاملته للرعية في المرحلة التي أعقبت فترة الأحكام العرفية – اذا جاز التعبير – حيث اتصفت بالحزم حيناً وباللين حينا آخر، ومهما يكن فان قتل زياد لأوفى لم يكن حقا، فهو لم يأت عملا يستحق به القتل، وكل ما في الأمر أنه سُئل في بعض الأمور فأجاب بكل صراحة وجرأة، والظاهر أن زياداً رأى في فكرة قتله درساً يمكن أن يستفيد منه كل من تحدثه نفسه بالتطاول على الحكام، وانتقاد سياستهم واجراءاتهم.

بهذه الاجراءات الحازمة تمكن زياد من اخضاع مصرى العراق، وفرض سلطانه عليهما والقضاء على كل محاولة للخروج على سلطان الدولة، سواء كانت فردية أم جماعية، ولم يحتج الى جيوش شامية لضبط العراق، وانما ضبطها بأهلها كما قال عباد بن زياد لعبد الملك بن مروان قال: "يا أمير المؤمنين ان زيادا قدم العراق وهي جمرة تشتعل فسل أحقادهم وداوى أدواءهم وضبط أهل العراق بأهل العراق"(1). ولا شك أن دهاء زياد وعبقريته واستغلاله للخصومات والنزاعات القبلية، كل هذه العوامل ساعدته على مسك الأمور في العراق، كما ساعده على ذلك أن المعارضة العراقية كانت لا تزال غير منظمة، ولم تتبلور وتسير في اتجاه معين مما جعل مهمته سهلة الى حد ما، وكان زياد يقول: "لو ظلّت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدّلني عليها"(2).

سياسته تجاه الرعية

كانت اجراءات زياد الأولية في مصرى العراق بمثابة أحكام عرفية، وهي خطة لا يمكن قياسها بمقاييس الأحكام الشرعية، لأنها تدل على حالة استثنائية تُتخذ فيها تدابير استثنائية وهذه التدابير سرعان ما بطل مفعولها بمجرد استتباب الأمن وعودة الهدوء والاستقرار الى هذه الولاية، وبنجاح زياد في خطته يكون "أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة"(3).

سار زياد في الناس سيرة حسنة تنبيء عن عمق وعيه وتفهمه لمسؤوليته تجاه الرعية، فقد أخذ على نفسه حمايتها وصيانة حقوقها بما في يده من سلطان ومال إذ يقول: "نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا"(4)، هكذا بيّن زياد ما على

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ٥، ص ٨.

(2) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٧ (شعيب بن صخر)

(3) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٥٠. أبو الفداء، المختصر، جـ١، ص ١٨٥

(4) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٤. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٨. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٩

الرعية من واجبـات وما لها من حقوق، وهو في ذلك مدرك للهدف الأسمى الـذي لم تزل تسعى اليه الشعـوب ألا وهو العـدل، وقد سأل معـاوية عبيـد الله بن كعب النميري عن رأى زياد في حقـوق الناس، فقـال له: "يأخـذ ماله عفـوا، ويعطي ما عليـه عفوا"[١]، وهذا يـدل على حنكة زيـاد السياسيـة والادارية وقدرته على تفهم ومعـرفة النفسيات المختلفـة بين رعيته، وتخطى ذلك في عمق المعرفة بـالحاجات الأولية وأهميتها في استقرار النفـوس، فوعدهم بأنه لن يؤخـر لهم عطاء ولا رزقا، ولن يغلق بابه في وجه محتـاج ولو أتاه طارق بليل[٢]. وقال زياد لحاجبه عجـلان: "قد وليتك بابي وعـزلتك عن أربعة: طـارق ليل... ورسـول صاحب الثغـر. وهـذا المنادى بـالصلاة وصـاحب الطعام"[٣].

وكان زياد يحترم أشراف القوم وعلماءهـم وشيوخهم، وقد خطب يوما فقال: "استـوصوا بثلاثة خيرا: الشريف والعالم والشيخ، فوالله ما يأتيني شريف بوضيع أستخف به الاّ انتقمت له منه، ولا يأتيني شيخ بشـاب استخف به الاّ أوجعتـه ضربا، ولا يأتيني عـالم بجاهل استخف بـه الاّ نكلت به"[٤].

وكان زيـاد الى جانب شدتـه وحزمه لا يـؤمن بالتمييز بين الأغنيـاء والفقراء، وقد سأل حـاجبه يوماً: "كيف تدعو الناس؟"، فأجـابه الحاجب: "على الشرف، ثم على الأسنان، ثم أترك الذين لا يعبأ الله بهم" - يعني الفقراء - فا غتاظ زيـاد لقوله ووبخه[٥]، وقد كان زياد حريصا على تلبية حـاجة المحتـاجين ومسـاعدة الفقـراء وأهل الـذمـة، لأن في ذلك محافظة على الأمن والهدوء ومنعـا لأسباب الجريمة والاختلاس، ذكـر المدائني أن زياداً ولىّ أبا بردة صدقة أسـد وغطفان، وأعطاه من بيت المال ثلاثة عشر ألف درهم وقال له: "انطلق فأعـطِ، وألصق بأهل الفاقة، ومن أعطيته ورقا

---

(١) البلاذرى، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٩٠ (المدائني). الآبي، نثر الدر، جـ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤١ (المدائني).

(٢) الجاحظ، البيـان، جـ٢، ص ٦٤. الطبرى، تاريـخ، جـ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبـد ربه، العقـد، جـ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٩.

(٣) الجاحظ، رسائل، جـ٢، ص ٣٥-٣٦ (المدائني). ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٢. البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص٢٠٣ (المدائني). المبرد، الكامل، جـ١، ص ٣٠٠ (مسعود). ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٧١. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (مسلمة بن محارب). ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، بهجـة المجالس وأنس المجـالس، تحقيق محمـد مرسي الخولي، ٢ م، ط ٢، دار الكتب العلميـة، بيروت، م١، ق ١، ص ٢٦٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن عبد البر، بهجـة المجالس. الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، جـ١، ص ٢٠٥. وذكر الماوردى أنـه كان مكتوباً على بسـاط زياد "لا حجاب عن صاحب ثغـر ولا طارق ليل". (الماوردي، على بن محمـد (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، نصيحـة الملـوك، تحقيق محمد جـاسم الحديثي، دار الشـؤون الثقافيـة العـامة، بغـداد، ١٩٨٦م، ص ٣٨٩-٣٩٠ (قالوا)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الماوردي، نصيحة الملوك).

(٤) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ١٤٥. ابن بكـار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١١، البلاذرى، أنسـاب (أحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣١ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٣. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٦ (المدائني). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٨.

(٥) البلاذرى، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٠ (عبد الله بن صـالح). ابن عبد ربه، العقـد، جـ١، ص ٦٧، أيضا، جـ٥، ص ١٢. العسكري، الأوائل، ص ٢٣٩.

فلا تعطه غنما ومن أعطيته غنما فلا تعطه ورقا ، وما وجدت من شِغار فأردده "[١]، وكان زياد يعطي المحتاجين والفقراء وأهل الفاقة من غير أن يسألوه العطاء[٢].

هكذا ساد الأمن والاستقرار في ولاية زياد ، وقد بالغ البعض حين قال : أنه لم يضبط العراق الاّ بالسيف وحده[٣]، والحقيقة أن زيادا كان يدرك أن السياسة فن لا يمكن أن يسير في اتجاه واحد في كل الأوقات ، فقد جرد السيف واعتمد على القوة حين كانت ضرورية لحفظ الأمن ، واسترجاع هيبة السلطة والدولة ، بعدها أخذ ينفذ الى قلوب رعيته ، فعرف متى يعتمد على القوة ومتى يلجأ الى اللين والسياسة ومحاولة كسب القلوب ، وهو في ذلك يسير في خط سياسي واداري معتدل : شدة في غير عنف ولين في غير ضعف[٤]، مع الصدق في الوعد والوفاء بالعهد ، ويظهر أن هذا المزج بين الشدة واللين كان شعارا يود زياد أن يعرف به بين الناس ، فقد كان مكتوبا في صدر مجلسه[٥]. وقد شبّه البعض زيادا بعمر بن الخطاب (رض) في حزمه وسياسته تجاه الرعية ، فقال الحسن البصري : " تشبه زياد بعمر وأفرط "[٦]، والواقع أن هذا الافراط كان حصيلة ظروف زمانية ومكانية عاشها زياد ولم يدركها عمر، كما أن سلوك الرعية غالبا ما يكون له أثر في سياسة الحكام ، وكان زياد يحتذي فعل عمر في تعرّف أمور رعيته وولايته فيذكر أنه كان يركب بغلة ويتجول في سكك المدينة ، ومعه رجل أو رجلان من خاصته[٧]، وروي أن رجلا كلّمه في حاجة له ، فعرّف بنفسه اليه وهو يظن أنه لا يعرفه ، فقال له زياد : " تتعرّف إليّ وأنا أعرف بك منك بأبيك؟ والله أني لأعرفك ، وأعرف أباك وجدك وأمك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو لفلان إبن فلان " فاندهش الرجل حتى

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٠ (المدائني).

(٢) انظر مثلا : البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٧-٢١٨ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ ١، ص ٢٧١. التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص ٢٣٥ (الشيباني). العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (مسلمة بن محارب). أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، جـ٣، ص ٨١ (ابن الأعرابي). الآبي، نثر الدر، جـ٤، ص ١٢٠.

(٣) ذكر الطبرى أن زيادا "أول من شد أمر السلطان... وتقدم في العقوبة، وجرد السيف وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة". (تاريخ الطبرى، جـ٥، ص ٢٢٢ (مسلمة بن محارب). وانظر : ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٩. أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٥. النويرى، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٣١٥. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٦).

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢١١ (عبد الملك بن عمير). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٧ (العتبي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٨. وذكر مسلمة بن محارب أن زيادا قال : "جمال السلطان لين في غير اهمال، وشدة في غير افراط". (البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٨. ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٣٩. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٣٥. ابن الحداد، الجوهر النفيس، ص ٧٠).

(٥) انظر . ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢١١ (عبد الملك بن عمير). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٧ (العتبي). ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٣٤ (عبد الملك بن عمير). ابن الأزرق، بدائع السلك، جـ٢، ص ٣٢.

(٦) الجاحظ، البخلاء، ص ٧٤. البيان والتبيين، جـ٢، ص ٦٦. ابن بكار، الاخبار الموفقيات، ص ٣١١. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣٢٩. ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٧. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٩، ص ١٢٤.

(٧) الجاحظ، رسائل، جـ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩ (الاصمعي).

كاد يغشى عليه[1]، وقد ظل زياد يتعرف أفراد رعيته وأمورهم، حتى عرف العدو من الصديق والمُوادع من المشاغب، فساس الرعية على ذلك.

ذكر مسلمة أن زيادا قال: إنّ معاوية لم يغلبه في السياسة الاّ في أمر واحد، وذلك أن رجلا من عماله كسر عليه الخراج ولجأ الى معاوية، فكتب اليه زياد أن في هذا مفسدة للعمال، فأبعث به اليّ، فأجابه معاوية: "انه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس سياسة واحدة، انّا ان نشتد جميعا نهلك الناس ونُحرجهم، وان نلن جميعا نُبطرهم، ولكن تلين وأشتد، وتشتد وألين، فاذا خاف أحدهم وجد بابا فدخله"[2]، وهذا التوفيق بين سياسة هذين الرجلين، ان دلّ على شيء فانما يدل على خبرتهما الواسعة وفهمهما الواعي لما يحيط بهما، حتى أصبح كل منهما أماما في السياسة.

ويبدو أن سياسة زياد غالباً ما كانت تعتمد على مبدأ الأخذ بالقوة أولا، ثم اللجوء الى السياسة، حيث تكون الحالة قد استقرت نوعا ما، وهذا ما حمل معاوية على القول: "ضبط زياد العراق بالسيف وضبطت العراق والشام والحجاز واليمن بالحلم"[3]، ولعل معاوية ظلم زيادا في قوله هذا، فقد أهمل تأثير فكره ودهائه في تسيير شؤون العراق المضطربة، التي كان يمكن أن يكون للسيف رد فعل عكسي لو لم يعرف زياد متى يضرب به ومتى يغمده. وذكر عوانه أن زيادا قدم على معاوية في بعض وفداته فقال له معاوية: "ما بلغ من سياستك رعيتك؟" فأجابه "أقمتهم بعد جَنَف، وكففتهم عماّ لا يُعرف، فأذعن المعاند رغبة، وخضع الأصيد الغشوم رهبة"[4].

وعلى الرغم من هذا التباين الملحوظ بين سياسة هذين الداهيتين، الاّ أن سياسة زياد في العراق حظيت برضا الخليفة الذي كان مدركاً أن أهل العراق "قوم لا يصلحهم الاّ الشدة، واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا الى الأمراء أو الخلفاء من غير بينة واضحة"[5]، وعلى الجملة فان عهد زياد بالعراق على ما فيه من شدة وقسوة الاّ أنه كان عهد رفاه وأمن، فيروى

---

(١) التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ، ص ١٦٩. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٥. البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ١٤٤. الزمخشري، ربيع الأبرار، جـ ٤، ص ٢١٩. الماوردى، نصيحة الملوك، ص ٣٨٧-٣٨٨. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، م ١، ص ٣٠٨. الأبشيهي، محمد بن أحمد (ت ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد قميحة، ٢ جـ، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، جـ ١، ص ٢٠٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الابشيهي، المستطرف.

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٨٤ (مسلمة بن محارب). ابن عبد ربه، العقد، جـ ١، ص ٤٢-٤٣ (الشعبي). الثعالبي، تحفة الوزراء، ص ٦٨. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٥. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٥٢ (عوانة). ابن حداد، الجوهر النفيس، ص ٧٣-٧٤. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٢.

(٣) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٥ (المدائني).

(٤) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٤. الجنف: الميْلُ والجور. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٩، ص ٣٢).

(٥) الخضرى، محاضرات، جـ ٢، ص ١٠٨.

المدائني، أن رجلا من العراق قدم على معاوية، فسأله معاوية : "هل من مغرّبة خبر؟" قال : "نعم" وذكر له أنه مرّ بأعرابي يسقي ابله فلما شربت ضربها على جنوبها وقال : "عليك زيادا" فسأله ما معنى ذلك، فقال : "ما قام لي بها راع مُذ ولي زياد" [١]، هذه الرواية تشعر بمقدار الأمن والاستقرار اللذين نعمت بهما كافة مناطق الولاية.

لقد جرت عادة ولاة العراق على اطعام عامة الناس في سبيل نيل رضاهم، وكان زياد ممن اتبع هذه العادة، وقد ذُكر أن معاوية كتب اليه يأمره "باطعام السابلة والفقراء وذوى الحاجات" [٢]، فكان زياد يطعم الناس بالغداة والعشي، ولا يُردّ عن طعامه أحد، عدا يوم الجمعة، فكان يكتفي بالعشاء دون الغداء [٣]، وكان يطعم بالبصرة والكوفة، فاذا غاب عن احداهما قام نائبه مقامه [٤]، وكان يسوى بين طعامه وطعام أصحابه، فوضع يوما على مائدته شهد، فقال : "أعلى كل مائدة مثلها؟" قيل : "لا" قال : "فأرفعوها" [٥].

وبعد، فقد كان زياد دائم السؤال عن أحوال رعيته، فيقول : "ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم" [٦]، وقد طالب عماله وأصحابه والمقربين له بأن يبلغوه عن أهل ولايته، فكان يقول لهم "ليس كلّ يصل اليّ ولا كلّ من وصل اليّ أمكنه الكلام فاستشفعوا لمن وراءكم، فاني من ورائكم أمنع ان أردت أن أمنع" [٧]، وهذا يشعر باهتمام زياد البالغ بحقوق الناس وحاجاتهم. وكان يدعو أهل ولايته الى السمر عنده فيقول لهم : "ما أحسب الذي يمنعكم من اتياني الاّ الرّجلة (أي المشي)، فيقولون : أجل. فيحملهم ويقول : أغشوني الآن وأسمروا عندي" [٨]، يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم ومشكلاتهم من طرف خفي، ويستشيرهم في بعض الأمور [٩]، وهو الى جانب ذلك "يحب السمر ليستجم بحديث الليل تدبير النهار" [١٠]، ويبدو أن زيادا كان يكره اجتماع

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٨ (المدائني). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٦.

(٢) التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ، ص ١٥.

(٣) البلاذري، أنساب (ماكس سلوسينجر)، ق ٢، ص ٨٦ (قالوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٧ (العتبي).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٢، جـ ١، ص ٢٤٢ (قالوا).

(٥) العسكري، الأوائل، ص ٢٤٢ (المدائني). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٧ (العتبي).

(٦) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٥. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٩.

(٧) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٥. الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٣٤، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الثعالبي، التمثيل والمحاضرة. الحصري القيرواني، ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، زهرة الآداب وثمر الألباب، ٢ جـ، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٣م، جـ ١، ص ٢١٠، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الحصري القيرواني، زهرة الآداب.

(٨) المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٩) انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٩.

(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٩٠ (المدائني). الآبي، نثر الدر، جـ ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠-٤١ (المدائني).

الناس في بيوتهم، لذلك حاول استمالتهم له والى مجلسه، وخاصة الرؤساء والأشراف منهم. وكان جادا في مجلسه لا يداعب أحدا ولا يمزح(١)، ويعجبه من الرجل "إذا أتى مجلس قوم عرف قدره، وعلم أين ينبغي له أن يجلس منه"(٢)، وقال: "ما أتيت مجلسا قط الاّ تركت منه ما لو أخذته لكان لي، وترك ما لي أحبّ اليّ من أخذ ما ليس لي"(٣).

كان زياد في معاملته للرعية متقدما على عصره، فقد دأب على تقديم النصح والارشاد لها، وهو القائل: "ما أعلم شيئا بعد الاخلاص وأداء الفرائض أفضل من نصيحة الوالي رعيته"(٤)، وخطب يوما فقال: "أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون منّا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا"(٥)، وكان بطبيعته شهما صاحب مروءة بارا بأهله يكره الريب، ويرى أن من النبل قيام الرجل بواجباته نحو أهله(٦)، وكان يرى أن أغبط الناس عيشا رجل له دار وزوجة رضيها ورضته في كفاف من عيشه لا يعرف الأمير ولا الأمير يعرفه(٧). ولعل خير وصف لسيرة زياد في أهل العراق ما نقله المبرد عن عمر بن عبد العزيز قال: "قاتل الله زيادا، جمع لهم كما تجمع الذّرة وحاطهم كما تحوط الأم البرّة وأصلح العراق بأهل العراق"(٨)، ويقصد بذلك أنه رعاهم وأمّن مستقبل أجيالهم وأغناهم بما أولى الحياة الاقتصادية من اهتمام زائد، فحفر الأنهار، واستصلح الأراضي وبسط الرزق، وزاد الخراج حتى بلغ خراج السواد مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف درهم(٩). "وهذه أحسن سيرة لعامل.. وبمثلها يعم الصلاح وتتم الاستقامة"(١٠).

---

(١) انظر البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٥ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٣، ص ٦٠.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٣-٢١٤. ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ٤٨. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٩ (الأصمعي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠٠.

(٣) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٠٠. ابن عبد ربه، العقد، جـ٢، ص ٤٣٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٩ (الأصمعي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠٠.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٣ (قالوا).

(٥) ابن عبد ربه، العقد، جـ٢، ص ٢٥٤. الوطواط، برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، دار صعب، بيروت، ص ١٥٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الوطواط، غرر الخصائص.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٣.

(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٦٤ (الأصمعي). البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٢٦٩. ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٨٣. ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ١١٧ (الاصمعي). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٣٣٣.

(٨) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٦١. ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٧. الآبي، نثر الدر، جـ٢، ص ١٢٤. الثعالبي، عبد الملك بن محمد (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٤٤٠ وسيشار اليه عند وروده هكذا: الثعالبي، ثمار القلوب. الماوردي، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الوزارة، المعروف بـ(أدب الوزير)، تحقيق محمد سليمان داود وفؤاد عبد المنعم أحمد، ط ١، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، ١٩٧٦م، ص ١١٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الماوردي، الوزارة. الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، جـ١، ص ١٦٨.

(٩) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٦١. الآبي، نثر الدر، جـ٢، ص ١٢٤. الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٤٤٠. وذكر اليعقوبي أنه بلغ خراج العراق أيام معاوية مائة وعشرين ألف ألف درهم (تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٣).

(١٠) الماوردي، الوزارة، ص ١١٩.

وقد اتصف زياد بسعة أفقه في معالجة القضايا التي لا نص لها في الاسلام، وحاول حل الكثير من المشكلات التي واجهها بعض أفراد رعيته بالاجتهاد، وقد عرف عنه رجاحة عقله وأصابته في حكمه وصحة تشريعاته، فكان يشرف بنفسه على القضاء، فيجلس والى جانبه شريح القاضي ويقول له : "ان حكمت بشيء غيره أقرب الى الحق فأعلمني"، فكان زياد يحكم وشريح لا يرده بشيء[1]. وقد وُصف زياد بالتزام جانب الحق وطريق العدل حتى في معاقبة المذنبين، فيروى المدائني أن زيادا كان اذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام، ثم يقرر بعد ذلك، فان لم ير عقابه خلى سبيله، قال : "لم يمنعني من عقوبته الاّ مخافة أن أكون انما عاقبته للغضب"[2]، وكان اذا أتي بصاحب زلة أخّر عقوبته أياما ليسأل عن قضيته مخافة الأجحاف في العقوبة[3]، ومن كلامه في هذا الصدد : "تأخير جزاء المحسن لؤم، وتعجيل عقوبة المسيء طيش"[4]، وهذا يفسر لنا عدل زياد في رعيته، وترويه في معاقبة المخالفين وعدوله عن سياسة العنف التي اضطرته اليها الظروف في أول عهده.

كان زياد يجمع حوله أعيان ولايته لا ليُكون بلاطا، ولكنه أراد من خلال هذه الاجتماعات أن يوضح سياسته، ويزيل سوء الفهم الذي قد يحصل بينه وبين رعيته، وليقنعهم بحسن نواياه. وعلى عكس العادة العربية، فان الشعر لم يحظ بمكانة مرموقة في هذه الاجتماعات، ويظهر أن زيادا كره الشعراء كما كره العصبية القبلية، والشعراء هم أبواق دعوى القبلية بما يبالغون به من هجاء ومدح، وبما يثير شعرهم من كوامن الثأر والأحقاد، فعندما استعدى بنو فقيم وبنو نهشل زيادا على الفرزدق لهجائه لهم طلبه زياد[5]، ولكنه هرب وغادر العراق الى الحجاز، فاستجار بسعيد بن العاص، عامل معاوية على المدينة، وبقي هناك الى أن توفي زياد[6]، والواقع أن زيادا لم يلاحق الفرزدق

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٣٥ (محمد بن سيرين). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ١٠. لقد تولى زياد بنفسه القضاء في كثير من الخصومات والنزاعات، ووصف قضاؤه بالعدل والانصاف (انظر مثلا الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٣٠١ (عوانه). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٧٠. البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٥-٢٠٦ (عبد الله بن صالح)، ص ٢٣٦ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٥. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ١٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٨٢).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٧٥. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٣٢٢.

(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٤٧.

(٤) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٩٧.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٦ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤١ (المدائني). الأصفهاني، الاغاني، م ٢١، ص ٣٧٣ (ابن حبيب). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٤٦.

(٦) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، جـ ١، ص ٣٢١ (أبو يحيى الضبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤٩ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٠. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨، ص ٤٦.

لهجائه بني فقيم وبني نهشل فحسب، بل لسلوكه الأحمق بالبصرة أيضا، فقد ذكر أنه جاء يوماً الى المربد ومعه ابلا لأبيه فباعها، ثم أخذ يبعثر ثمنها وينهبه للناس، وذلك مغالاتا في ادعاء الشرف وتحديا للناس بالكرم، وكان زياد "ينهى أن يُنهب أحد مال نفسه" فلما بلغه صنيع الفرزدق طلبه ليعاقبه ولكنه لم يظفر به[1]. وقد حبس زياد مرة بن محكان السعدي، لأنه أنهب ماله للناس، وبعثره تحدياً لجماعة من قومه كانوا ينافسوه في الشرف[2].

ومن الشعراء الذين أكرمهم زياد وشملهم برعايته حارثة بن بدر الغداني من بني تميم، وقد صحب زياد منذ فجر حياته وحتى مماته، وكان حارثة شاعراً فصيحا بليغا عارفا بأخبار الناس وأيامهم، وقد اشتهر بدماثة خلقه ورجاحة عقله، وانما كانوا يعيبون عليه أنه صاحب شراب[3]، وكان من أثر صداقته لزياد أن أدرج اسمه في ديوان قريش، على الرغم من كونه تميمي الاصل[4]، وهذا التمييز جعل البعض يوجه اللوم لزياد فقيل له: "انّ هذا قد غلب عليك، وهو مستهتر مولع بالشراب" فقال زياد: "كيف لي باطّراح رجل هو يسايرني منذ دخلت العراق، لم يصكك ركابي ركابه، ولا تقدمني فنظرت الى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي اليه ... ولا سألته عن علم الاّ ظننت أنه لم يحسن غيره"[5]، ان تقدير زياد لمواهب وأخلاق حارثة هو الذي وطّد روابط الصداقة بينهما، بالرغم مما أخذ على حارثة من فتور ايمانه، ولا شك أنه كان أبرز شعراء العصر الذين مدحوا زيادا وأثنوا عليه، فقد قال فيه عددا من القصائد مبعثرة في كتب الأدب والتاريخ، منها قصيدة يمدحه بها لتوزيعه العطايا في البصرة[6]. ولا نعرف ما هو موقف زياد من شعراء عصره عامة، اذ لم تصلنا أبيات في ذمّه أو هجائه، أما ما ذكر عن هجاء يزيد بن مفرغ لآل زياد، فقد كان ذلك بعد وفاة زياد وليس في حياته[7]، كما أن هجاءه لآل زياد جاء على أثر علاقته السيئة بأولاد زياد، وليس لقناعته بأن زيادا يستحق الهجاء.

ولقد أحسن زياد في معاملته للموالي الذين كانوا يؤلفون عددا غير قليل بين السكان العرب في

---

(١) أبو عبيدة، النقائض، جـ٢، ص ٦٠٧-٦٠٨. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٦ (المدائني). المبرد، الكامل، جـ٢، ص ٨٦-٨٧. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٤٢ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، جـ٢٢، ص ٣٤٨-٣٤٩ (المدائني).

(٣) ابن عبد ربه، العقد، جـ٣، ص ٥٩. الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٨٢ (القحذمي). الرقيق القيرواني، أبي اسحاق ابراهيم (ت ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م)، قطب السرور في أوصاف الخمور، تحقيق احمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩م، ص ١٦٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الرقيق القيرواني، قطب السرور. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤ (محمد بن يزيد). الحصري القيرواني، زهرة الأدب، جـ٢، ص ٩١٥.

(٤) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٢٩. الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٤٧ (أبو اليقظان).

(٥) المبرد، الكامل، جـ١، ص ٣١٥-٣١٦. ابن عبد ربه، العقد، جـ٢، ص ٤٣١-٤٣٢ الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٨٩ (ابن الأعرابي). الرقيق القيرواني، قطب السرور، ص ١٦٧. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤ (محمد بن يزيد). الزمخشري، ربيع الأبرار جـ٢، ص ٢٩٦. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠٠

(٦) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٣-٢٢٤. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٤.

(٧) انظر موقف يزيد بن مفرغ من استلحاق زياد، ص ٩٣-٩٤.

مصري العراق[١]، فجعل لهم نصيبا في الوظائف العامة، وخاصة فيما يتعلق بالادارة المالية فكان عامل خراج زياد وكاتبه من الأعاجم[٢]، وكان زياد يقول : "ينبغي أن يكون كتّاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج"[٣]، ولقد أوصى معاوية زيادا بأن يتقرب الى الموالي ويحسن اليهم، فكتب اليه "عليك بالموالي فانهم أنصر وأغفر وأشكر"[٤]، ويبدو أن زياداً عمل بوصية أميره، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال القطائع والأنهار والحمامات التي منحها زياد لعدد من الموالي[٥]، والواقع أننا لم نسمع أن الموالي أثاروا شكوى أو تذمروا لأي سبب من الأسباب في أيام زياد، مما يشعر بحسن معاملته لهم، وكان من حسن سيرته معهم ان ابن أخ له خرج الى السواد يوما فقتل دهقانا، فدفعه زياد الى ولي أمر الدهقان ليقتله، ولكنه عفا عنه[٦]، وقد سار عبيد الله بن زياد على سياسة أبيه في تقريب الموالي، بل فاقه في ذلك فأبدل بالعمال العرب غيرهم من الأعاجم، وكان أول من جفا العرب، كما أنشأ جيشاً من الموالي سمّاه (المحاربة) وفسر ابن زياد هذه السياسة بقوله : "أما استعمال الدهاقين فقد استعملهم أبي ومن كان قبله، وأما المحاربة فوالله ما اتخذتهم الاّ وقاية، لأني كنت أقتل بهم أهل المعصية، فلو أمرت عشائرهم بهم لم يقتلوهم ولشق ذلك عليهم"[٧].

هذه هي سياسة زياد تجاه رعيته فهو لم يفتش عن النوايا، ولكنه لم يدع أحدا يعبث بأمن الناس ويفسد أمورهم، وهذه مهمة أي حاكم يتوخى الصالح العام في أي عصر من العصور، وله بعد ذلك بعض العذر ان أخطأ أو تجاوز الحد. ومما يؤكد حسن سياسة زياد تجاه الرعية ما ذكره (أبو اسحاق) الذي عاصر زياد ومن بعده حتى أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز. قال : "والله ما رأينا بعد زياد مثله"[٨]، وقال : "ما رأيت قط خيرا من زياد" فقال له أحدهم : "ولا زمن عمر بن عبد العزيز؟" فقال ما كان زمن زياد الاّ عرس"[٩]، وكلام أبو اسحاق هذا وان كان لا يخلو من المبالغة، الاّ أنه يشعر أن أهل العراق لم ينعموا في العهود التي تلت عهد زياد بما نعموا به في أيامه.

---

(١) انظر الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٩٤.

(٢) كان مهران – وهو من الموالي – كاتب زياد على الخراج. (البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٩ (الهيثم بن عدي). وكتب اليه على الخراج أيضا زادا نفروخ. (الجهشياري، الوزراء، ص ٢٦).

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٤. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٣٠.

(٥) انظر مثلاة ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٥-٤٣٦؛ جـ ٢، ص ٢٩٨، جـ ٥، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٣٦ (محمد بن سيرين).

(٧) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ ١، ص ٢٥٥ (عوكل).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٧٩.

(٩) ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٩٤.

تنظيم زياد للقبائل في العراق

* البصـــــرة

كان عدد المقاتلة الذين نزلوا البصرة عند تأسيسها قليلا[١]، وهم ينتمون الى قبائل مختلفة، ويبدو أن خططهم في المدينـة ثبتت في ولاية أبي مـوسى الأشعري للبصرة، فيـذكر أبو وائل "اختـط الناس البصرة سنـة سبع عشرة"[٢]، ويوضح ذلـك الدينورى الـذي ذكر أن عمـر أمر أبـا موسى عنـدما أرسلـه " أن يصرف الخطط لمن هنـاك من العـرب، ويجعل كل قبيلـة في محلـة، وأن يـأمـر النـاس بالبناء "[٣]، ولعل الـواقـدي قصد ذلـك حين قال أن البصرة أنشئت سنـة (١٧هـ/ ٦٣٨م)[٤]، وتغيب عنا أخبـار القبائل التي نـزلت البصرة عند تمصيرها، فـالطبري الذي يعطينـا تفصيلات عن المجموعات القبلية الممثلة في الكوفة عند تأسيسهـا، ويشير بدقة الى كيفية تطبيق الاختطاط لا يذكر مثل تلك التفصيـلات عن البصرة، حتى أن البلاذري الـذي أفرد فصـلا في كتابـه (فتوح البلـدان) لبحث تمصير البصرة لم يتعرض لهذا الموضوع، على أنه من المحقق أن عـدد سكان البصرة أخذ يتزايد تزايداً سريعاً منذ استقرار الرواد الأوائل فيهـا، وكان من دواعي هذا التزايد كثرة الغنائم التي حصل عليها مقاتلة البصرة[٥]، وإرسال عمر بن الخطاب المقاتلـة اليها من المدينة عقب اختطاطها[٦]، ثم نزوح القبائل التي كانت مواطنها قريبة من البصرة واستقرارها في المدينة، وكان في طليعة هذه القبائل تميم وبكر بن وائل، وهما أكثر القبـائل عدداً في البصرة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطـاب، فيذكر المدائني أن الأساورة أسلموا بعـد فتح الأهواز سنة (٢٠هـ/ ٦٤٠م)، ونزلوا في بني تميم وتـركوا بكر ابن وائل[٧].

ومن المتوقع أن الأزد كـانت قد نزلت البصرة بعد فتح فـارس وكرمان في خلافـة عثمان بن عفان، فـاستمـرار الفتـوحـات من البصرة وبشكل ملحـوظ في ولايـة عبـد الله بن عـامـر (٢٩-٣٥هـ/ ٦٤٩-٦٥٥م)، وانضمام البحرين والمنـاطق الشرقية من الجزيرة العـربية الى البصرة[٨]، هذه الأمور

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر ص ٤٩.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢١٧. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨.

(٣) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١١٨.

(٤) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلـدان، ص ١٨٨. وربما قصد ذلك سيف حين قال: "واستقر بأهل البصرة منـزلهم بعد ثلاث نزلات كلها ارتحلوا عنها في المحرم سنة سبع عشرة". (الطبري، تـاريخ، جـ ٤، ص ٤٢. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨).

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٧ (الواقدي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٧.

(٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٧ (الواقدي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٥١٦ (أبو عبيدة).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٢٠.

(٨) انظر العلي، التنظيمات، ص ٤٢.

شجعت الأزد وعبد القيس أن تتجه في هجرتها الى البصرة، ويبدو أن الأزد كانت قبيلة مستقلة لها دورها في الأحداث التي جرت في مطلع خلافة علي بن أبي طالب وإبّان وقعة الجمل[١]، وذكر المدائني أن أناساً من الأزد نزلوا بعد وقعة الجمل في دور لبني عجل تحولوا الى الكوفة[٢]، وهذا ينبىء بكثرة رادفة الأزد في تلك الآونة.

وبدلا من نظام الأعشار ثم الأسباع الذي كان متبعاً في الكوفة أول الأمر، أتبع في البصرة نظام الأخماس، ويرد أول ذكر لتنظيم القبائل العربية في البصرة على أخماس أيام علي بن أبي طالب عند الخروج الى صفين، وهذه الأخماس هي : أهل العالية، وتميم، وبكر بن وائل، وعبد القيس والأزد[٣].

ويتكون خمس أهل العالية من العشائر الحجازية الأصل التي استوطنت البصرة وأهمها قريش وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة[٤]، وقد سكنوا في الجهة الجنوبية الشرقية من البصرة[٥]. أما تميم فتعد من أبرز وأكبر القبائل العربية التي استوطنت البصرة منذ بداية تأسيسها، وتسكن في الجهة الجنوبية الغربية ما بين المربد والمسجد الجامع[٦]. وشكلت بكر بن وائل - وهي أقل عدداً من تميم - احدى المجموعات القبلية الخمسة في البصرة، وقد شارك بعض رجالها في الفتوح الاسلامية الأولى، وكانت بكر تتكون من ثماني عشائر كبرى هي : بنو قيس بن ثعلبة وعنزة وشيع اللات وعجل (وهؤلاء يسمون اللهازم)، وذهل بن شيبان، ويشكر، وذهل بن ثعلبة، وضبيعة (وهؤلاء يسمون البطون)، ثم أضيفت اليهم حنيفة[٧]، وكانت خطط بكر تقع الى شرقي وشمال شرق المسجد الجامع[٨].

أما عبد القيس، فالمعلومات عن عشائرها وخططها قليلة، بالرغم من أنها تؤلف بمفردها أحد

---

(١) انظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٦٦ (محمد بن أبي يعقوب الضبي). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٤٦. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٥٠٥ (سيف)، ٥٢٢ (أبو مخنف).

(٢) البلاذري، أنساب (إحسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٥.

(٣) نصر بن مزاحم، صفين، ص ١١٧ (عمر بن سعد). البلاذري، أنساب (محمد باقر المحمودي)، جـ ٢، ص ٢٩٥ (أبو مخنف) ماسينيون، خطط الكوفة، ص ١٤٠-١٤١. صالح أحمد العلي، خطط البصرة ومنطقتها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م، ص ٨١ وما بعدها، وسيشار اليه عند وروده هكذا : العلي، خطط.

(٤) ابن الاثير، الكامل، م ٥، ص ٧١.

(٥) العلي، خطط، ص ٨٢. أحمد كمال زكي، الحياة الأدبية في البصرة، دمشق، ١٩٦١م، ص ٧٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : زكي، الحياة الأدبية.

(٦) العلي، خطط، ص ٨٩. زكي، الحياة الأدبية، ص ٧٦.

(٧) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٥١٥ (أبو عبيدة).

(٨) العلي، خطط، ص ٩٣.

أخماس البصرة، مما يشعر بقلة عددها في هـذا المصر، وكانت منازلها في الأطراف الشمالية الشرقية من البصرة حول نهر معقل، وبالقرب من دار الرزق[1]. وكانت الازد واحدة من القبائل الخمسة الكبرى في البصرة، وقد شغلـت خمسا مستقـلا من أخماسها، ذكـر أبو عبيدة "ان مضر كـانت تكثـر ربيعة بـالبصرة، وكانت جماعـة الأزد آخر من نـزل بالبصرة... وأقـامت جماعة الأزد لم يتحـولوا، ثم لحقـوا بالبصرة بعد ذلك في آخر خلافة معاويـة وأول خلافة يزيد بن معاوية"[2]، ورواية (أبو عبيدة) لهذا الخبر مضطربة بعض الشيء وهي توهم أن الأزد لم ينزلـوا البصرة قبل هذا التاريخ، وينبغي أن نفهم من الخبر أن الأزد كانوا آخـر من نزل البصرة منذ تمصيرها، وأن عـددهم فيها ابتداء كان قليـلا تزايد بالهجرة المستمرة، وأن من نزل منهم البصرة في نهاية عهد معاوية وبداية عهد ابنه يزيد انها كانوا موجة واسعة من مهاجرتهم، وقد كانت خططهم في الأطراف الجنوبية الغربية من البصرة[3].

كانت هـذه القبائل المكـونة للأخماس في البصرة تـذكر قبل خـروج علي لصفين بشكل مشوش، وذلك عند استنفار المقاتلة أحياناً أو عنـد تعداد ضحايا معركة الجمل[4]، الأمر الذي يصعب معه ذكـر أخماس البصرة في الفترة التي سبقت وقعة صفين. والـواقع أن نـزول هذه القبـائل وتوزيعهـا في البصرة لم يخلق مشكلة كما في الكـوفة، ومـرجع هذا الى قلـة تنوع القبـائل التي استقرت في البصرة، وكانت في البـداية تتألف من تميم وبكـر بن وائل وأهل العاليـة، وبعد نـزول عبد القيس والأزد ظل وضع القبائل في البصرة بعيداً عن كل التعقيدات الظاهرة التي تبلورت في الكوفة على أثر نزول خليط من القبائل الشمالية والجنوبية فيها عند تأسيسها.

وعلى الرغم من كثـرة الهجرات الـوافدة الى البصرة الآّ أنها بقيت محافظـة على التنظيم القبلي الذي عرفته منذ تأسيسها، مما يشعر أن الموجات الطارئة لم تكن من قبائل جديدة غير التي كانت تنزلها في السابق، ولو كان هناك هجرات لقبائل جديدة لكان من المرجح أن تؤدي الى تغيير في التنظيم القبلي فيها. ويبدو أن تنظيم القبائل العربية في البصرة على الأخماس، ظل حتى نهاية الدولة الأموية، ويرد آخر ذكر لها في أيام ثورة يزيد بن المهلب سنة (١٠٢هـ/ ٧٢٠م)[5].

كان توزيع السكان في البصرة ابتداء متوازناً، مما يدل على أن الخطط روعي في بداية توزيعها عدد أفراد العشائر التي تسكنها، غير أن هذا التوازن ما لبث أن اختل على مر السنين نتيجة لتباين أعداد الوافدين مـن مختلف العشائر، ولم تكن الدولة قـد وضعت خطة لتحديد الهجرة، وكـان هذا الخلل

---

(١) العلي، خطط، ص ٩٦.
(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٥١٦.
(٣) العلي، خطط، ص ٩٧.
(٤) انظر: خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٦٧-١٧١. الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٥٣٩، ٥٤٥.
(٥) انظر الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٦١٨ (أبو مخنف)، جـ٦، ص ٩٥ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٥، ص ٧١.

ينذر بحدوث مشاكل ادارية واسعة لا يمكن افتراضها، وقد أدرك زياد في عهده اختلال ميزان القوى القبلية في البصرة، الأمر الذي دفعه الى اعادة النظر في تنظيم قبائلها، ويبدو أنه رأى أن نظام الأخماس ملائم لهذا المصر، فأعتمده في تنظيمه الجديد، حيث قسم البصرة الى خمس قبائل كبيرة، يسمى كل منها خُمسا، ويضم عددا من العشائر، ويرأسه رجل[1] له سلطات واسعة مستمدة من مركزه الشخصي[2].

والواقع أن المصادر المتوفرة لا تعطينا تفصيلات واضحة عن تنظيم زياد للقبائل في البصرة، حيث أننا لا نجد اشارات الى عدد العشائر التي تتكون منها كل من هذه القبائل الخمسة، ونحن نأسف لذلك وكنا نود أن نرى كيف تم هذا التنظيم، لنعرف مدى قوته وفائدته، ومهما يكن من أمر هذا التنظيم فقد كان عملا خطيرا جليلا.

احتفظ زياد في اجراءاته الجديدة بالهيكل العام للتنظيم السابق، ولكنه في الوقت ذاته لجأ الى أسلوب جديد في التنظيم الداخلي، فتدل الأخبار أنه عمد الى ادخال بعض العشائر في قبائل لا تربط بينها صلة نسب أو رابطة دم، لا بل أنه عمل على ادخال جماعات من العجم ضمن القبائل العربية، فأدخل مع بني تميم الأساورة والسيابجة والزط[3] وأدخل معهم أيضا بني العم، وهم ليسوا عربا[4]، ولا ريب أن زياداً لجأ الى هذا الاجراء ليجعل عدد القبائل أكثر توازناً، وربما أراد صهر العشائر الموالية للعلويين والمناوئة له، وتخفيف حدّة العصبية القبلية التي نمت في ظل التنظيم القبلي السابق، حيث روعي فيه النسب ورابطة الدم. ويمكن القول أن التغيير الذي أحدثه زياد - والذي لم توضحه لنا المصادر - حدّ كثيراً من وحدة القبيلة وأضعف تماسكها، كما أن سلطتها لم تطغ على العشائر المنضوية تحت لوائها، لذا فقد بقيت العشائر هي الوحدات الأساسية في التنظيم الاجتماعي والاداري والمالي، على أن القبيلة بقيت أهم وحدة في الحوادث والأزمات السياسية التي تتعرض لها المدينة وذلك لأنها أكثر عدداً من العشيرة، وأعظم بأساً منها في الدفاع عن أفرادها[5].

لقد وضع زياد تنظيماته هذه في زمن كانت البصرة قد وصلت فيه الى مرحلة متقدمة من التطور والنمو، ولا شك أنه لم يعد النظر في تنظيم خطط القبائل والعشائر، الاّ أن النمو الكبير في سكان البصرة بعد أقل من نصف قرن من تأسيسها، لا بد أن تكون قد رافقته زيادة في عدد الخطط وربما في اعادة تنظيم بعضها، يروى البلاذرى، أن زياداً خطب فقال للعرب: "ان عشائركم قد وردت

---

(١) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٠.

(٢) العلي، التنظيمات، ص٥٣.

(٣) انظر البلاذرى، فتوح، ص ٥١٩-٥٢٤. الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٩٠. العلي، التنظيمات، ص ٥٤-٥٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، م٣، ص ٢٥٢.

(٥) العلي، التنظيمات، ص ٥٥.

علينا، فاختاروا أن نأخذ نصف أعطياتكم وأرزاقكم فنقوتهم بها مع ما لهم عندنا، أو تكفينا كلّ عشيرة من فيها، فمنهم من ضم عشيرته، ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله "[(١)]، ويظهر أن كثيراً من الافراد المهاجرين لحقوا بعشائرهم واستوطنوا معهم في خططهم القديمة، ولما كانت الهجرات الوافدة مختلفة من عشيرة لأخرى فقد أدى ذلك الى ازدحام بعض المناطق، وبقاء البعض الآخر قليل الازدحام، ولعل زياد حاول أن يخلق نوعاً من التوازن في خطط القبائل البصرية، كما أوجد توازناً في تنظيمها الاداري، وبذلك يكون قد أكسب البصرة شكلا عمرانياً فريدا، حتى "أصبحت خريطة قومية لجزيرة العرب بأسرها، أو على الأقل بوتقة صُهرت فيها بشكل متلاصق عناصر عربية متنوعة "[(٢)].

ولما كانت خراسان وثيقة الصلة بالبصرة التي كانت قاعدة فتوح خراسان، فقد كان تنظيم العرب الاجتماعي والعسكري فيها قائما على أساس الأخماس كما كان الحال في البصرة، مما يُشعر أن جُلّ المستوطنين العرب في خراسان كانوا من أهل البصرة، ومن بينهم كانوا يختارون ولاتها. والحقيقة أن المصادر المتوفرة لم تتحدث عن بداية تنظيم القبائل العربية في خراسان، ونظن أنه كان مع أول استيطان القبائل العربية في تلك المنطقة أي في زمن زياد، وذلك لضرورة هذا التنظيم في تعبئة المقاتلة وتوزيع العطاء، على أن مصادرنا لم تذكر أخماس خراسان الآّ في فترة متأخرة، ولعل أول ذكر لها ورد أيام قتيبة سنة (٩٣هـ/ ٧١١م)، عندما عقد الصلح مع سمرقند، يروى الطبرى "فلما تم الصلح بعث قتيبة عشرة من كل خمس برجلين فقبضوا ما صالحوهم عليه "[(٣)]، وعندما قتل قتيبة كان عدد الأخماس في خراسان حوالي أربعين ألفا مقسمة على النحو التالي : "من أهل العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف ... وتميم عشرة آلاف ... وعبد القيس أربعة آلاف . . والأزد عشرة آلاف "[(٤)]، وقد تردد ذكر الأخماس في خراسان في سنوات متعاقبة وخاصة في أثناء الاستعداد للقتال وغزو ما وراء النهر[(٥)].

* الكوفـــة

ذكر سيف بن عمر تفصيلات دقيقة للقبائل التي نزلت الكوفة ابتداء وهي : سليم وثقيف وهمدان، وبجيلة وتميم اللات، وتغلب وأسد والنخع وكندة والأزد، والأنصار ومزينة وتميم ومحارب

---

(١) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٣٧ (الشعبي).

(٢) شارل بلا، الجاحظ، ص ٣٥٢.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ ٦، ص ٤٧٥ (المدائني).

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ ٦، ص ٥١٢ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ١٥.

(٥) انظر الطبرى، تاريخ، جـ ٧، ص ١٢، ١٤، ١٧٤.

وعامر وبجالة وبجلة، وجديلة وجهينة[1]، كان تنظيم هذه العشائر في البدء على الأعشار، فكل قبيلة أو زمرة من القبائل التي ترجع الى أصل واحد تؤلف عشرا، وهذا النوع من التنظيم كان يساعد في التعبئة العسكرية وفي سرعة استنفار الجند كما يسهل في توزيع العطاء والفيء.

ويبدو أن سعدا قد شعر بصعوبة هذا التنظيم نتيجة لكثرة الروادف، فبعث الى الخليفة عمر يستشيره في تعديل الأعشار، فبعث اليه عمر قوماً من نساب العرب وذوي الرأي والعقلاء منهم لدراسة أوضاع القبائل واعادة تنظيمها، فجعلوا القبائل أسباعا[2]، وقد ذكر سيف أسباع الكوفة في عهد سعد بن أبي وقاص على النحو التالي[3]:

السبع الأول : كنانة وحلفاؤهم من الأحابيش وغيرهم، وجديلة وهم بنو عمرو بن قيس عيلان.

السبع الثاني : قضاعة وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد، وهم من اليمانيين.

السبع الثالث : مذحج وحمير وهمدان، وهم من العناصر اليمانية أيضا.

السبع الرابع : تميم وسائر الرباب وهوازن، وهؤلاء مضرية.

السبع الخامس : أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب.

السبع السادس : اياد وعك وعبد القيس، وأهل هجر والحمراء.

وقد أورد الطبرى ستة أسباع وأغفل السبع الأخير، ويرى ماسينيون أن طيئا كانت تشكل السبع السابع، وذلك استناداً إلى وجود سهم لهم في الغنائم والفيء ابتداء، ثم لمشاركة أفرادها مع علي بن أبي طالب في صفين وبأعداد كبيرة[4]، ويبدو أن الواقع غير هذا، فأبو مخنف يوضح حقيقة تنظيم طيء بقوله "إلاّ أن عدي بن حاتم كان على طيء مفردا دون صاحب سبع مذحج والأشعرين"[5]، مما يشعر أن طيئاً كانت ضمن السبع الثالث مع مذحج، ويمكننا التعرف الى السبع الأخير من خلال رواية لأبي مخنف أيضا تبين أنه يتكون من بكر بن وائل وتغلب وسائر ربيعة عدا عبد القيس[6]، ولعل بكراً لم تنزل الكوفة عند تمصيرها، وبقيت في مراعيها القريبة الى خلافة عثمان وعلي ابن أبي طالب، حيث أخذت تستقر تدريجياً في الكوفة، يؤكد ذلك ما ذكره اليعقوبي بأن بكرا استقرت في الكوفة بعد اختطاطها، ونزلت الأطراف[7]. ومن الواضح أن توزيع هذه الأسباع كان

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٨ (سيف).

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٤٨. ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٤٢-٤٧.

(٤) ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٤٨.

(٥) البلاذرى، أنساب (المحمودي)، جـ ٢، ص ٢٣٥.

(٦) انظر البلاذرى، أنساب (المحمودي)، جـ ٢، ص ٢٣٦. الدينورى، الأخبار الطوال، ص ١٤٦.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٧٠.

على أســاس المبـدأ القبلي ، اذ وزعت القبائل القحطـانيـة على ثـلاثـة أسباع ، بينما تـوزعت القبـائل العدنانيـة وأحلافها على الأسباع الباقيـة ، ويلاحظ أن هذا التوزيع تجاوز الأنساب أحيـاناً ، فكانت بعض القبائل موزعة على سبعين أو أكثر ، فقبيلة قيس عيلان مثلا نجدها موزعة في الأسباع : الأول والرابع والخامس ، ويبدو أنه روعي في هذا التوزيع مواطن نزول القبائل ، كما كان هناك محاولة لايجاد توزيع عددي متكافىء .

ظلت أسباع الكوفـة على التنظيم الذي أوجده سعد بن أبي وقاص الى خـلافة علي بن أبي طالب حيث طرأ عليها بعض التعـديل ، وذلك لأن عدد القبائل والعشائر كان عرضـة لتغير مستمر نتيجة الهجرات المتصلة ، وأمام هذا التخلخل الذي حصل في الاسباع ، اضطر علي بن أبي طالب الى إعادة تنظيمها من جـديد ، وقـد تم تعديل الاسباع قبيل وقعـة الجمل سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م) على النحو التالي :

السبع الأول : قيس عيـلان ، وعبـد القيس . السبع الثاني : قـريش وكنـانـة وأسد وتميم وضبـة والرباب ومزينة . السبع الثالث : الازد وبجيلة وخثعم والأنصار . السبع الرابع : كندة وحضرموت وقضـاعة ومهـرة . السبع الخامس : مـذحج والأشعرين وطيء . السبع السـادس : همدان وحمير. والسبع السابع : بكر بن وائل وتغلب ، وسائر ربيعة عدا عبد القيس(١) .

واذا قارنـا الأسباع زمن سعد وأيـام علي بن أبي طالب نلاحظ بعض التغييرات في تـوزيع القبائل على الاسباع ، فكانت مذحج وحمير وهمدان وحلفـاؤهـم سبعا زمن سعد فأصبحت سبعين ، وكانت قضاعة وبجيلة وحضرموت وخثعم وكندة والأزد سبعا واحداً ، فأعيد تنظيمه بين سبعين زمن علي ، وهذا يـؤكد كثرة رادفة هـذه القببائل ، ومما يلاحظ أيضـا أن القبائل الشمالية كانت هي الغـالبة على سكان الكوفة عند تأسيسها ، حيث كانت موزعة على أربعة أسباع اضافة الى سبع بكر بن وائل الذي لم ينزل الكـوفة ابتـداء ، أما القبائل اليمانيـة ، فكانت موزعـة على سبعين وقد تغيرت هـذه النسبة في خلافة علي ، فصارت ثلاثة أسباع شمالية وأربعة يمانية ، ولا ريب أن هذا يشير الى كثرة رادفة القبائل اليمانيـة وتقلص رادفة القبـائل الشمالية . وعنـدمـا توجـه علي بن أبي طالب الى صفين بقيت أسبـاع

---

(١) البلاذري ، أنساب (المحمودي) ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ .

ذكر نصر من مزاحم هذه الأسباع يوم صفين ، وجعل طيئا سبعا مستقلا ، وأغفل سبع بكر وتغلب وربيعة ، ولكن أخبار وقعة صفين تؤيد أن طيئاً مع مذحج بالرغم من اختلاف رايـاتهم (انظر وقعة صفين ، ص ١١٧ (عمر بن سعد) . وذكر الدينوري في كتابه "الأخبار الطوال" ، ص ١٤٦ ، هذه الأسباع ، ولكنه جعلها ثمانية ، اذ جعل طيئاً سبعا ثامناً مستقلا . أما الطبرى ، فروى لنا خمسـة من هذه الاسباع وذكر أمـراءها ، وهذه الأسباع (١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧) . (انظـر الطبرى ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٥٠٠ (المدائني) . التصنيف الذي ذكرناه لم يرد في المصادر وقد وضعناه لتسهيل الحديث عن الأسباع .

الكوفة كما كانت عليه في وقعة الجمل، الاّ أن تعبئة المقاتلة روعي فيها توحيد القبائل التي تنتسب الى أصل واحد من أهل المصرين (البصرة والكوفة). فجعلت القبائل اليمنية من البصرة والكوفة في الميمنة، وربيعة في الميسرة، ومضر في القلب[1]. ولا شك أن هذه التعبئة كانت ضرورة عسكرية لا شأن لها بالتوزيع القبلي في المصرين.

بقي نظام الاسباع متبعا في الكوفة طيلة خلافة عمر وعثمان وعلي وصدرا من خلافة معاوية الى أن جاء زياد، ولا نجد في المصادر التاريخية المتوفرة ما يدل على أن تغييراً ما قد طرأ على الأسباع قبل ولاية زياد للكوفة سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، فلما تولى أمرها حلّ البناء السباعي وأعاد تنظيمه من جديد على شكل أرباع على النحو التالي:

الربع الأول: أهل المدينة.

الربع الثاني: تميم وهمدان.

الربع الثالث: كندة وربيعة.

الربع الرابع: مذحج وأسد.[2]

ومما يلاحظ على هذا التوزيع أنه أغفل فيه ذكر عدد من القبائل التي وردت من قبل في الاسباع كالأشعرين وحمير والأزد وغيرها، وهذا يشير الى أن زياداً ألحق القبائل القليلة العدد، بالقبائل الكبيرة التي تمت اليها برابطة النسب، فألحق مثلا الأشعرين وطيء بمذحج، وألحق قبائل حضرموت ومهرة وقضاعة بكندة وهكذا، ويلاحظ أيضا أن زياداً جمع في الربع الواحد بين قبائل شمالية وأخرى جنوبية، وجعل كل ربع يتكون من مجموعتين قبليتين تشترك معها بعض القبائل الأقل عددا، أما ربع أهل المدينة فقد جمع قبائل مختلفة يمنية ومضرية كقريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم ومزينة وغيرها، وهذه القبائل يجمع بينها أنها كانت قبل الاسلام تستوطن الحجاز والمناطق المجاورة له.

وعندما نقف على أسماء رؤوس الأرباع أيام زياد، يتضح لنا أن اختيارهم لم يكن بالضرورة من القبائل التي سميت بها الأرباع، وربما كان من قبيلة أخرى غير القبائل المكونة للربع الذي يرأسه، وكان رؤساء الأرباع في الكوفة: عمرو بن حريث المخزومي على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة العذرى حليف بني زهرة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي

---

(١) نصر بن مزاحم، صفين، ص ٢٠٥ (عمرو بن شمر). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٤ (أبو مخنف).

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٥-٢٦. وقد أخطأ ماسينيون عندما أطلق على الربع الأول اسم أهل العالية (انظر خطط الكوفة، ص ٦١). فخمس أهل العالية كان بالبصرة، وهو يقابل ربع أهل المدينة في الكوفة، (انظر ابن الأثير، الكامل، م ٥، ص ٧١).

على ربع كندة وربيعة، وأبا بردة بن أبي موسى الأشعري على ربع مذحج وأسد[1]. ولا ريب أن هذا التنظيم خفف كثيراً من احتمالات الخلاف القبلي في الكوفة، وقد بقي نظام الأرباع في الكوفة لم يطرأ عليه أي تبديل أو تعديل حتى نهاية الدولة الأموية، ونجد في المصادر التاريخية - في سياق حديثها عن بعض الأحداث التي شهدتها الكوفة في هذه الفترة - اشارات عديدة الى هذه الأرباع والى رؤسائها[2]، ويرد ذكر الأرباع آخر مرة في حوادث ثورة زيد بن علي سنة (١٢٢هـ/ ٧٣٩م)[3].

لم يتحدث المؤرخون عن الدوافع التي حملت زيادا على حل نظام الاسباع بالكوفة، وتحويله الى أرباع وجمعه للقبائل المتباينة النسب في ربع واحد، ولعل الدوافع الحقيقية لهذا التنظيم تعود بالدرجة الأولى الى التطور السريع الذي شهدته حياة الكوفة القبلية في النصف الأول من القرن الأول الهجري، والى سياسة زياد في جمع اليمانية والنزارية في كل ربع، ويمكن فهم التغييرات التي شهدتها الكوفة أيام زياد عن طريق دراسة الأرباع والتي تشعر بوجود مجتمع كوفي جديد يختلف اختلافاً واضحاً من حيث الحجم والتركيبة عن ذلك المجتمع الذي أسس هذا المصر. ولقد كان لبعض الباحثين الغربيين آراء في الدوافع التي حملت زياد على القيام بهذا التنظيم فيرى فلهاوزن أن زيادا أراد بتنظيمه هذا التخفيف من حدة التوتر السياسي في العراق[4]، ويفسر لامنس أيضا مسلك زياد هذا بأنه محاولة لكسر المعارضة ضد الأمويين في العراق، ويقول بأن زيادا رأى أن القبائل العربية في العراق متحدة، وتشكل كتلة ضد سلطة بني أمية، مما دفعه الى محاولة القضاء على هذه المعارضة وتحطيم هذا التحالف[5].

وتبدو تفسيرات فلهاوزن ولامنس دوافع محتملة لمسلك زياد اضافة الى دوافع أخرى ليست أقل منها أهمية، فزياد أدرك منذ أن تولى امرة البصرة أن من الاصلاحات الواجب اتخاذها ابتداء تنظيم القبائل العربية في العراق بشكل يساعد على الحد من العصبية القبلية التي كان لها أثر فاعل في تردي أحوال المجتمع العربي في مصرى العراق، وقد أدت تنظيمات زياد الجديدة الى اضعاف الروح القبلية، وذلك عن طريق جمع المقاتلين من كل قبيلة في فرق مختلفة بحيث لا يقاتل أبناء القبيلة الواحدة في فرقة عسكريةمستقلة، بل كانت الفرقة عبارة عن خليط من أفراد ينتمون الى قبائل

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ١٨٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٥-٢٦.

(٢) انظر الاشارة الى الارباع لدى البلاذري، أنساب، جـ ٥، ص ٢٤٨ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٣٨. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٦٩، ٤٢٢ (أبو مخنف)، جـ ٦، ص ٨١، ٢٥٣، ٥٩١-٥٩٢ (أبو مخنف). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٤، ص ١٨٠.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٧، ص ١٨٢ (أبو مخنف).

(٤) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٠.

(٥) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 657.

مختلفة، وبذلك تمكن من جعل ولاء المقاتلة للدولـة لا لقبائلهم التي ينتمون اليها. وكان زياد يعلم الاتجاهات السياسية للقبـائل العراقية، فعرف كيف يعالجها بحكمة وذكـاء في تنظيمه الجديد الذي جمع العناصر المتعـادية في مجموعة واحـدة، ولا شك أن هذا الاجـراء من شأنه التخفيف مـن حدة التوتر السياسي، وخـاصة في الكوفة التي ظلت مناوئة للحكم الأموي. ويبـدو أن زيادا كان يخشى من التقسيمات القبلية القـديمة، التي روعي في تكـوينها مسألـة النسب، مما يجعل احتمال مقـاومة تلك التقسيمات للسلطة أكبر وأقـوى، فالتغيير الـذي أحدثه قلّص من عـدد الوحـدات القبلية في الكوفة، كما قلّص من سيادة استقلال القبيلة ذاتها، وهذا سيجعل الوضع أكثر استتبابا له ويمكنه من فـرض سيطـرته على القبـائل الكـوفيـة، لا سيّما أنـه لم يجعل على رؤوس الأرباع رؤسـاء القبـائل التقليـديين، بل جعل عليها رؤسـاء يعينون من قبلـه ليضمن ولاءهم لـه، ولا ريب أن هذا منحـه الفرصة للتدخل غير المباشر في التنظيم الداخلي للقبـائل، وتغييره ليخدم مصلحة سياسته المركزية، كما أن تعيين رؤساء معروفين بولائهم لبني أمية، كان من شأنـه أن يؤدى مع الزمن الى اذابة المعارضة ضد الأمويين في العراق، لو أن خلفاء زياد تابعوا تلك السياسة.

واضح أن النظام الذي أقيم في البصرة والكـوفة في خلافة عمـر بن الخطاب قد تغير تحت ضغط نزوح القبـائل غير المنظم، ومثلما تطلب الأمـر اعادة تنظيم القبـائل أيام زياد، فقـد حتمت ضرورة تنظيم العطاء والانتـداب، وجود نظـام اداري متكامل على رأسـه رؤوس الأرباع – في الكـوفة - أو رؤوس الأخماس كما في البصرة، وتعد وظيفـة هؤلاء الـرؤوس من أهم وأسمى الوظـائف الاجتماعية، وقد انشئت هذه الوظيفة رسمياً في أيام زياد، ويلاحظ أن الرؤساء كانوا يختارون ممن لهم مكانة جيدة في القبائل، وممن عـرفوا بميلهم الى بني أمية، وكـانوا يعينون بعد اقـرار الخليفة لتعيينهم[1]، هذا ما جرت عليه العادة، أما في أيام زياد فلم يرد ذكر لأحد الرؤوس أقر تعيينه الخليفة، وتفيد الروايات أن زيادا هـو الذي كان يختـار رؤوس الأخماس أو الأرباع[2]، كما كان يختـار سائر عمالـه دون مشاورة معاوية في جُلّ الأحوال، ولا ريب أن زياداً الذي أعاد تنظيـم القبائل العراقية وظل مـلازما لها منذ صباه كـان أعرف بها وبزعمائها من معـاوية، وبالتـالي فهو أقدر على اختيار الـرؤساء ممن يطمئن الى ولائهم.

يعتبر الـرؤوس هم الوسطـاء بين أخماسهم أو أربـاعهم وبين الأمير، وهم يتمتعون بسلطـة كبيرة واحترام واسع بين قبائلهم، ولعـل من أهم الواجبات التي أنيطـت بهم، الحكم في بعض الخلافات الناشئة بين أفراد القبيلـة ورئاسة مجالس القبائل[3]، وكانوا يقـررون مواقف أخماسهم أو أرباعهم في

---

(١) العلي، التنظيمات، ص ١٢٠.

(٢) انظـر مثـلا تعيين زيـاد لرؤوس أربـاع الكـوفـة لـدى: البـلاذرى، أنساب (احسـان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٣) انظـر: البـلاذرى، أنسـاب (احسـان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ٤٠٦ ومـا بعـدهـا. الطبرى، تـاريخ، جـ٥، ص ٥٢٥-٥٢٦ (عوانه).

الأحداث الهامة[1]، ولقد استعان زياد بهم في القضاء على بعض الفتن والقلاقل التي واجهته في حكم مصرى العراق، وليس أدل على ذلك من شهادة رؤوس أرباع الكوفة على حجر بن عدي الكندي عندما أراد زياد تحويل قضيته الى معاوية بالشام[2]. ان هذه الواجبات الكبيرة الملقاة على عاتق الرؤساء، تشعر بأنهم كانوا يتمتعون بسلطات ادارية واسعة، على الرغم من تبعيتهم للأمير وخضوعهم له واقتصار سلطتهم تلك على عشائرهم فحسب، ولعل هذه السلطات تضاءلت فيما بعد نتيجة لنمو الحياة المدنية وتطورها في الأمصار، ثم للضعف الذي أصاب الروح القبلية، على أن زياداً استطاع بهذا النظام أن ييسر لنفسه حكم العراق والمشرق وأن يديرها بأهلها.

وهناك وظيفة مدنية أخرى لحق بها بعض التغيير على أثر التنظيم القبلي الذي استحدثه زياد، وهذه الوظيفة هي (العرافة)، تؤكد الروايات على وجود وظيفة العريف في زمن عمر بن الخطاب، فيذكر سيف أن توزيع العطاء في الكوفة كان على العرافات "وعرّفوهم على مائة ألف درهم، فكانت كل عرافة من القادسية خاصة ثلاثة وأربعين رجلا، وثلاثا وأربعين امرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم، وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، وكل عيّل على مائة على مائة ألف درهم، وكل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلا، وستين امرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم، ثم على هذا الحساب "[3]، ويتبين من رواية سيف أن العرافات تساوت في مجموع العطاء ولم تكن متساوية في عدد المقاتلة، وبذلك فان مسؤولية العريف في هذا التنظيم مالية فقط، وكان يساعده في توزيع العطاء وصرف الأموال رجلان آخران أحدهما يعرف بـ(النقيب) والآخر بـ(الأمين)، فيذكر عطية بن الحارث "كان العطاء يُدفع الى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات على أيادي العرب، فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه الى أهله في دورهم"[4]، ويتضح من كلام عطية أن وظيفة العريف أعلى مرتبة من وظيفة النقيب، يؤيد ذلك قول جبهاء الاشجعي:

رعـــاع عاونـت بكـر عليهـــا   كما جعل العريف على النقيب[5]

والواقع أن معلوماتنا عن هذا المنصب قليلة ومتناقضة أحياناً بحيث يصعب توضيح أهميته ودوره في ادارة المصر، ولعل ذلك يرجع الى أنه كان أقل أهمية من العريف، وربما كان يساعده في توزيع

---

(١) انظر مثلا موقف رؤوس أخماس البصرة من الحسين بن علي حين خرج وبعث اليهم بكتابه. (الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٣٥٧ (أبو مخنف). ولمزيد من المعلومات عن واجبات رؤساء الأخماس والأرباع، انظر العلي، التنظيمات، ص ١٢٠-١٢١

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م١٧، ص ٨٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٤٩. المقريزي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، مطبعة بولاق، ٢جـ، القاهرة، ١٢٩٤هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠م، جـ١، ص ٩٣، وسيشار اليه عند وروده هكذا: المقريزي، الخطط.

(٤) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٤٩. المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٩٣. ولعل هذا التنظيم أتبع في البصرة أيضا.

(٥) الجاحظ، الحيوان، جـ٦، ص ٤٨.

العطاء وجمع المعلومات عن الأفـراد الذين في عرافته ، ويظهر أن وظيفة النقيب لم تستمـر طويلا بل ذهبت في وقت مبكر، بحيث أنه لم تعرف ماهيتها في القرن الثاني الهجري .

أما العـرافة ، فقد بـرزت في العصر الأموي وخضعت للتغيير أيام زيـاد شأنها في ذلك شأن سائر المؤسسات الادارية والمالية والاجتماعية ، يروى البلاذري أن زياداً " أول من عرّف العرفاء "[١]، وهذا لا يتفق والأخبار الآنفة الذكر، والأرجح أن زياداً أعاد تنظيم العرافة بحيث صار لكل عشيرة عريف خاص بها[٢]، فنسمع عن قبيصة بن برمة الأسـدي عريف قومه[٣]، وعبيـدة بن قيس السلماني من مراد الذي كان عريف قومه[٤]، ورافع بن أبي الطـائي عـريف بني ثعل من طيء[٥]، وكان هناك عريف لبني نمير في البصرة[٦]، ويزيد بن شريك التميمي الكـوفي عريف قومه[٧]، وهذا يعني أن مسؤوليـة العرفاء لم تعد تقتصر على قيـادة عشرة جنود، بل توسعت حتى شملت عشيرة بكـاملها ، وأصبح العـرفاء مسـؤولين عن الأمن والنظـام ومـراقبة مثيري الفتـن في عرافـاتهم[٨]، وكانـوا حلقة الاتصـال بين أفـراد العشـائر وبين السلطـات الاداريـة للـدولـة فيما يتعلق بتثبيت أسماء الجنـد في الدواوين أو توزيع العطاء عليهم[٩]، ولا ريب أن العطاء يتطلب من العـريف اعداد سجل يدوّن فيه المقاتلة والنساء والأطفال ومقدار عطائهم ، يبين أبـو مخنف أن العرفاء كانوا يكتبون أسماء الناس في عرافاتهم للوالي ، وكانوا يأتونه بالغرباء والمشبوهين منهم[١٠]، وذكر مصعب الزبيري أن العرفاء في زمن معاويـة بن أبي سفيان كانـوا يأخذون العطـاء فلا يغيبون غـائباً ولا يميتون ميتـا ، وأنهم لذلك يقتسمـون العطاء مع أهل هـؤلاء الغياب أو الأمـوات[١١]، ولا شك أنـه كانت تتـاح للعرفـاء عند قيامهم بهذه المهمة بعض الفـرص لاستغلال وظيفتهم ، فبوسعهم مثلا ألا يبلغوا عن حـالات الوفاة أو الغياب في عـرافاتهم ، ويستمـروا في دفع عطاء المتـوفي أو الغائب لأهلـه ، وربما دفعوا جـزءاً من عطاء المتوفي أو الغائب الى أهله وأخذوا هم الباقي بالاتفاق معهم ، وهكذا فان العريـف مسؤول عن

---

(١) البـلاذري ، أنسـاب (احسـان عبـاس)، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ (قـالـوا) . العسكـري ، الأوائل ص ٢٤٣ (الجوهـري) . القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

(٢) اليعقوبي، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ١٩٤ (جعفر بن سلام الاسدي) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٩٣ (محمد بن سيرين) .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٦٨ .

(٦) الأصفهاني ، الأغاني ، م ٦ ، ص ١٨٥ .

(٧) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ١٠٤ .

(٨) البيهقي ، المحـاسن والمساوىء ، ص ٤٧٤ . وانظـر العسكري ، جمهـرة الأمثال ، جـ ١ ، ص ١٤٧ ، عـن محاولة زيـاد إلقاء القبض على الفرزدق عن طريق عريف بني مجاشع .

(٩) الطبرى ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ٤٩ (عطية بن الحارث) .

(١٠) انظر الطبرى ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣٥٩ (أبو مخنف) . ابن الأثير، الكامل ، م ٤ ، ص ٢٤ . ابن منظـور، لسان العرب ، جـ ٩ ، ص ٢٣٨ .

(١١) الزبيري ، نسب قريش ، ص ١٥٤ . وانظر ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦ (الواقدي) .

تفقد أفـراد عرافتـه وعن مراقبتهم ومعرفـة تحركاتهم، وهـو الذي يدعـوهم الى الجهاد، وهـذه المهام تتطلب ممن يشغل هذا المنصب أن يكون صاحب شخصيـة قوية، وأن يتمتع بنفوذ واسع ليستطيع تأدية الواجبات المطلوبة منه على أكمل وجه.

ولما كان العـرفاء مـن بين الموظفين الكبار الذيـن اعتمد عليهم الأمير في ادارة امـارته، فقـد كان تعيينهم عن طـريق الأمير مباشرة، وعلى الـرغم من أننـا لا نعلم الأسس التي كان يتبعهـا الأمير في اختيار العرفاء، الآ أنـه من الراجح أن الأمير كان يراعي في اختياره للعرفـاء مكانتهم الاجتماعية بين أفراد العشـائر، وفي الغالب كـان العريف سيـدا وشريفا في قـومه[1]، أي أنـه مـن ذوي النفـوذ في العشيرة، وهذا يمكنه من القيام بواجبه تجاه السلطة وتجاه العرافات ذاتها، وقد زادت أهمية العرفاء في الأمصار التـي كانت تسـودها الاضطـرابات كـالبصرة والكوفة وخـراسان، فبعـد أن جمعت البصرة والكوفـة الى عبيد الله بن زيـاد ألزم العـرفاء بـالإخبار عن الخوارج والمتمـردين على السلطة مـن أفراد قبائلهـم[2]، واعتمد الحجاج اعتماداً كبيراً على العرفاء في مراقبة نشاط القبائل السياسي، وفي استنفار المتخلفين من المقاتلة[3]. وفي خراسـان كان الوضع مشـابهاً لما هو عليه الحال في الكـوفة والبصرة، حيث كان لكل عشيرة عريف يقوم بتوزيع العطاء على أفرادها[4].

يتبين مما تقدم أن زياداً جعـل كل عشيرة وحدة مالية مستقلة، وعيـّن عليها عـريفا مسؤولا عن توزيع العطاء على أفراد عرافته، والواقع أن العشيرة تصلح لأن تكون أساساً طبيعياً لتوزيع العطاء، وذلك لما بين أفـرادهـا من روابط اجتماعيـة، وبـذلك جعل زيـاد التنظيم المالي منسجماً مع التنظيم الاجتماعي الذي يستنـد أسا ساً الى العشيرة، وقـد كان هذا التنظيم الجديد عـاملا لصالح الحكـومة المركزية، ولصالح الاستقرار في مصرى العراق.

وقد أحدث زياد وظيفة جديدة هي المنكب[5]، فيذكر الجوهري "زيـاد أول من عرّف العرفاء، وجعل عليهم المناكب، وقال: العرفاء كـالأيدي والمناكب فوقها"[6]، ويتضح من هـذا أن وظيفة المنكب كانت أعلى من وظيفة العريف، ولعل المنكب كان مسؤولا عن ا لعرفاء في كل قبيلة، يوضح ذلك الليث بن سعـد في تعريفـه للمنكب: "منكب القـوم رأس العرفـاء، على كذا وكـذا عريفـا منكب"[7]، ويتضح ذلك أيضـا ممـا ذكره الشعبي: ان الحجـاج جعلـه "عريفـا على الشعبيين،

---

(١) انظر ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ١٩٤ (عن قبيصة بن برمة الأسدي).

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٣٥٩ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٤، ص ٢٤-٢٥.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٦، ص ٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٤٧٤ (المدائني).

(٥) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٢ (قالوا). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٨.

(٦) العسكري، الأوائل، ص ٢٤٣. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٤٨٣.

(٧) ابن منظور، لسان العرب، م ١، ص ٢٧٢.

ومنكبا على جميع همدان "[1]، وهذا ينقض ما ذكره ابن الاثير : "ان المناكب قوم دون العرفاء "[2]، والحق أن المعلومات الواردة في المصادر المتوفرة عن هذه الوظيفة قليلة ومتناقضة، بحيث لا تمكننا من تحديد ماهيتها بالضبط، أو توضيح دورها وأهميتها، ولعل ذلك يعود الى أنها لم تدُم طويلا بل زالت في وقت مبكر، شأنها في ذلك شأن وظيفة النقيب التي أسلفنا ذكرها[3].

هذه السلسلة من الوظائف الادارية كانت تؤلف قنوات اتصال بين الأمير والقبائل، وقد توسعت صلاحياتها منذ أيام سعد بن أبي وقاص، حتى كان لها دور كبير أيام زياد الذي وضع نظاماً ادارياً دقيقاً ساعده على تحقيق سياسته وتنظيم أحوال امارته ورعيته.

سياسته تجاه القبائل

لا يستطيع باحث في تاريخ صدر الاسلام أن يتجاهل عاملا خطيرا، كان وراء كثير مما جرى في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ المسلمين، ذلك هو الصراع القبلي الذي لعب دوراً كبيراً في حياة الناس، وأثر في كثير من المواقف والقضايا السياسية المصيرية وقتئذ، والحديث عن العصبية القبلية لا يجوز تعميمه، فبالرغم من مظاهر العصبية التي كانت عند بعض القبائل، إلا أن عامل العقيدة والايمان بالاسلام كثيراً ما كان يتجاذب أفراد القبيلة الواحدة، فنجد طائفة منها في معسكر، بينما تكون الطائفة الأخرى في المعسكر الآخر كل حسب اعتقاده واجتهاده. ولا ريب أن الروابط الجديدة الواسعة التي دعا اليها الدين الاسلامي بين معتنقيه، ساهمت كثيراً في الحد من الروح القبلية التي ألفها العرب في جاهليتهم، كما أن استقرار القبائل في الأمصار الاسلامية الجديدة وخضوعها لسلطة الأمير العليا ساعدت على اضعاف الروابط القبلية القائمة على أساس علاقة الدم، ذلك أن الأمير لم يكن يستمد قوته من رابطة الدم، بل من سلطة عليا تتمثل في "الخلافة"، ولقد أدى ازدياد السكان في الأمصار واتساع نطاق المصالح الفردية المتزايدة الى تقلص المفاهيم القبلية، واستقلال الكثيرين عن عشائرهم بالتدريج.

وفي العصر الأموي، بذل عدد من الخلفاء والولاة جهوداً كبيرة في محاربة العصبية القبلية، على أن هذه الجهود لم تتعد كونها محاولات فردية محدودة النطاق، فالدولة لم تضع خطة معينة يتبعها الخلفاء والولاة في سياستهم تجاه القبائل، وفي مناهضتهم للنعرة القبلية، بل كان سلوك الحكام إزاء ذلك مستوحى من نزعاتهم الشخصية، وتبعا لما تقتضيه المصلحة العامة للدولة.

كان زياد من أشد ولاة بني أمية مناهضة لداء العصبية الذي ظل مستعصيا وقتا طويلا، وقد

---

(١) الجريري، الجليس الصالح، جـ ١، ص ٨٥-٨٦. ابن عساكر، الجزء الخاص بتراجم حرف العين المتلوة بالألف، تحقيق شكري فيصل، ص ٢٠٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن عساكر، جزء تراجم حرف العين المتلوة بالألف.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، جـ ٥، ص ١١٣. ابن منظور، لسان العرب، م ١، ص ٢٧٢.

(٣) انظر العلي، التنظيمات، ص ١١٩.

حاول اصلاحــه منذ أن تولى إمرة البصرة ، فنجده في خطبته البتراء يحذر النـاس من العصبية ودعوى الجاهلية ، ويتهدد الداعي بها بقطع لسانه(١)، ولقد كان تنظيمه للقبائل العـربية في البصرة والكوفة محاولـة جادة منـه للقضـاء على العصبيـة ، حيث جعل هـذه القبائل مـوزعـة في زمـر لا علاقـة لها بالترتيبـات القبلية السـابقة ، وعلى الـرغم من أن تنظيمـه للقبائل في البصرة كـان قبلياً أكثـر منه في الكوفة ، إلا أن هذا التنظيم الخطير في مجمله يؤكد رغبة زياد في محاولة القضاء على النعرة القبلية ، كما ينبىء عن مقدرته الادارية والسياسية الحكيمة في معالجة القضايا المستعصية والمزمنة .

بذل زيـاد جهودا كبيرة لاطفـاء نار العصبيـة إبان ولايتـه على المصرين ، وكان من التـدابير التي اتخذها في سبيل ذلك أنه حمّل القبائل مسؤولية سلوك أفرادها ، وأخذ رؤساءها وأشرافها بالجرائم التي يـرتكبها رجـال قبائلهم ، وأجبرهم على تأديـب سفهاء قـومهم ومن يتمرد منهم على السلطـان(٢)، وهكذا أخذ رجال القبائل يتنافسـون في التقرب الى الأمير، بسبب منافساتهم وحزازاتهم التي استغلها زياد جيـدا ، الى جانب استعمالـه لبيت المال كوسيلـة لتقريب القلـوب اليه(٣)، ولقد استعـان زياد بأشراف القبائل وصلحـائها أيضا في فـرض سيطرته على الـولاية وتـوطيد النظام والأمن فيهـا ، فقال يومـا : "دلوني على صلحـاء كل ناحية ومن يطـاع فيها ، فـدلوه فضمنهم الطريـق وحدّ لكل رجل حدا "(٤)عن طريق ذلك تمكن زيـاد من ضبط الأمن في العراق ، ولا ريب أن هـذا الاجراء الاداري الأمني أفاد في الحد من التيـار القبلي الذي ترعـرع ونما من قبل في ظل التنظيم الذي روعي في تخطيط مصري العراق ، حيث كـانت القبائل متجاورة في خطـط مستقلة ، ضمت كل منها قبيلـة أو قبائل تجمع بينها رابطة الدم والنسب .

ان الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية مع بعضها البعض - في البصرة والكوفة - بعيدة عن النسب أو الحلف كـانت لها أعظم الأثر في نفوس القبـائل العربية ، حيث أخـذت تهيّئُها نفسيا لتدرك أن حياة المدينة تختلف عن حياة البـادية التي تعود عليها العرب في حياتهم الأولى ، وقد أخذت هذه القبائل تتحول تدريجياً الى شكل جديد بحكم الحياة المستقرة ، وأصبح أفرادها يشعرون أنهم أبناء مدينة تربط بينهم علاقـات اجتماعية ذات ملامح وسمات متميزة ، على أن هذا الاحساس لم يقض تماما على الاحسـاس القبلي المتأصل ، مما يشعر بتحـول العصبية القبلية الى عصبية للمـدينة

---

(١) انظر الجاحظ ، البيان ، جـ ٢ ، ص ٦٣ . ابن بكار، الأخبار الموفقيات ، ص ٣٠٦ (المدائني) . ابن قتيبـة ، عيون الأخبار، م ٢ ، ص ٢٤٣ . البلاذري ، أنساب (احسان عباس)، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ (الحرمازي) . الطبري ، تاريخ، جـ ٥ ، ص ٢١٩-٢٢٠ (المدائني) .

(٢) البلاذري ، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ (قـالوا) . الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨ (أبو مخنف) . الأصفهاني ، الأغاني ، م ١٧ ، ص ٨٢ (أبو مخنف) . ابن الأثير، الكامل م ٣ ، ص ٤٧٤ .

(٣) ذكـر الطبري أن زيـاداً "كتب خمسمائة من مشيخـة أهـل البصرة في صحـابتـه ، فـرزقهم مـا بين الثـلاثمائة الى الخمسمائة" . (الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٢٣) .

(٤) البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، ص ٤٧٤ . ابن عبد ربه ، العقد ، جـ ٥ ، ص ٧ (العتبي) .

التي قطنوهـا ، ومن هنا بدأت تظهر في الأفق ظـاهرة جديـدة تحولت بموجبها القبلية الى حيـاة تؤمن بالمدينـة ، وذلك أن تسمى القبيلة بـإسم المدينة ، مثل : أزد الكـوفة ، وأزد البصرة ، وتميم الكـوفة ، وتميم البصرة[1].

وعلى الرغـم من معرفـة زياد الـواسعة بـالقبائل العـربية النـازلة في العـراق وقدرتـه على ضبطها وتنظيمها ، إلا أننـا نجده يستشير معـاوية في كيفيـة سياستها ، فـأشار عليه بأن يتبع مـع كل قبيلة أسلـوب خـاص يـوافق أخـلاقهـا وطبـائعهـا ، فكتـب اليـه : "انظـر أهل اليمن فـأكـرمهم في العلانية ، وأهنهم في السر ، وانظر هـذا الحي من ربيعة فأكرم أشرافهم واهن سفلتهم فإن السفلة تبع للاشراف ، فأما هذا الحي من مضر فإن فيهم فظـاظة وغلظة فأحمل بعضهم على رقاب بعض "[2]، ويتضح من كلام معاوية أنـه كان عميق المعرفة بالقبائل وخصائصها ، فهـو يشير على زياد بالدهاء في معـاملته لأهل اليمن الـذين كانـوا أكثـر تحضراً من غيرهم ، ويوصيـه بأن يحسن لهم في العلانيـة ويتجـافى عنهم في السر ، ويظهر أن معـاويـة كان يشعـر بـالنظام الطبقي في ربيعـة ، فمتى أخضع الاشراف بالاكرام والاحترام خضعت القبيلة كلها لانقياد العامة للخاصة . أما مضر فيبدو أنهم كانوا أقل النـاس تحضرا في مصرى العـراق وأكثرهم غلظـة وفظـاظـة ، لـذلك رأى معاويـة أنـه لا يمكن اخضـاعهم بسهولـة ويسر ، وأنـه لا بد من تسليط بعضهم على بعض ، وتشعـر سيـاسة زيـاد تجاه القبائل أنه أخذ بخطـة معاوية غير المقننة في جلّ الاحوال ولكنه تجاوزهـا أحياناً ، فحين أراد القبض على حجر بن عدى وأصحابه بالكوفة هدّد رئيس كندة محمد بن الأشعث وأرغمه على الاتيان بحجر ولم يجد بأساً في اذلالـه حتى جعله مثلا لسائر رؤسـاء وأشراف أهل العراق[3]. والحقيقة أن سياسة زياد الحازمـة إزاء الرؤساء والأشراف الذين وقفـوا الى جانب الادارة الأموية أدت الى تضـاؤل نفوذهـم القبلي ، وفقدانهم كثيرا من الامتيازات التي كان يتمتع بها أسلافهم فيها قبل الاسلام ، حتى أنه لم يجرؤ كثير منهم على اجارة من يحل به سخط الأمير أو السلطـان ، فحين طلب زياد الفرزدق لم يجد الأخير من يجيره خوفا من زياد[4]، وكذلك لما طلب عبيـد الله بن زياد يزيد بن مفـرغ لهجائه آل زياد ، لجأ ابن مفرغ الى الأحنف بن قيس ليجيره ، فامتنع عليه ، وقال له : "اني لا أجير على ابن سمية فأعزل ، وانما يجير الرجل على عشيرته ، فأما على سلطانه فلا" ، فحين اجترأ المنذر بن الجارود على ايوائه شتمه عبيد الله وأذله وأخذ منه جاره قسرا[5].

---

(١) ليس أدل على ذلك من قـول الأحنف بن قيس التميمي : "يـا معشر الأزد وربيعة من أهل البصرة ، أنتم والله أحب إلينـا من تميم الكوفة ، وأنتم جيرانا في الدار ويدنا على العدو" . (المبرد، الكامل، جـ ١، ص ١٤١ (أبو عبيدة)).

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٥ (الشعبي)، ص ١٥ (المدائني).

(٣) انظر البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٠-٢٥١ (الكلبي). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٣ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٤٧٦.

(٤) أبو عبيدة، النقائض، جـ ٢، ص ٦١٦.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ١٨، ص ١٨٨-١٨٩ (قالوا).

وقد نهج زياد نهج عمر بن الخطاب في الضرب على أيدي الشعراء الذين عمدوا الى هجاء الناس واثارة الأحقاد القبلية في أشعارهم، فعندما هجا الفرزدق بني نهشل وبني فقيم، ألحّ زياد في طلبه ليعاقبه على فعله الذي اقتدى فيه بشعراء الجاهلية، بقصد التفاخر واثارة الفتن القبلية، ولقد اضطر الفرزدق الى مغادرة العراق خوفاً من زياد فلم يعد إليها الاّ بعد موت الأخير[1]. وكذلك قمع زياد حوادث الثأر الفردي وضرب على يد مرتكبيها، ومن ذلك طلبه بني عوف بن القعقاع، وقتله عمرو ابن عوف لقتلهم غلاما من بني ميثاء، بقيس بن عوف بن القعقاع[2].

والواقع أن موقف زياد المناهض للعصبية القبلية لم يمنعه من استخدامها كسلاح فعّال عند الضرورة، وذلك لتحقيق بعض المقاصد السياسية، وليس أدل على ذلك من صنيعه في فتنة عبد الله ابن الحضرمي أيام علي بن أبي طالب، حيث أخذ يثير في نفوس الأزد حمية الجاهلية وروح الاعتزاز القبلي، لينصروه على بني تميم الذين أجاروا ابن الحضرمي[3]، والحقيقة أن مثل هذا الصنيع لم يحدث ابان ولاية زياد على العراق، ويعود ذلك الى سياسته الحكيمة مع القبائل العربية، وقدرته على معالجة شتى القضايا التي قد تؤدي الى اثارة الروح القبلية لدى أفراد القبائل المختلفة، ولعل في قضية حجر بن عدي الكندي ما يدلل على ذلك، فقد كلّف زياد طائفة من مذحج وهمدان بالمسير الى جبانة كندة ليأتوه بحجر، بينما أرسل سائر أهل اليمن الى جبانة الصائديين، وكره أن يسيرّ طائفة من مضر مع طائفة من أهل اليمن " فيقع بينهم شغب واختلاف، وتفسد ما بينهم الحمية "، ولم يُخرج زياد حضرموت مع أهل اليمن في طلب حجر، وذلك لمكانهم من كندة قبيلة حجر[4].

ويمكن القول أن القبائل العربية في الكوفة والبصرة عاشت أيام زياد بعيداً عن ضروب التوتر القبلي، وإن كان التحاسد موجوداً بينها، ولكنه لم يولد انفجارات أو فتن قبلية، ولم يؤد الى أعمال عنيفة كما هو الحال بين الأحزاب السياسية، ومرد ذلك الى السياسة الحكيمة التي اتبعها زياد إزاء القبائل ورؤسائها.

ويظهر أن زيادا رأى أن التدابير التي اتخذها في تنظيماته للقبائل وفي سياسته تجاهها لم تكتمل بعد، على الرغم من سلامتها وشمولها، ولعله لمس بعض مظاهر الفوضى في الكوفة والبصرة الأمر الذي دفعه الى القيام بخطوة رائدة في سبيل توطيد الأمن، ومقاومة التكتلات القبلية والسياسية في مصري العراق، وذلك باتباعه لسياسة تهجير السكان من الكوفة والبصرة الى مناطق بعيدة عن هذه المراكز.

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٦-٢٢٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٤٦-٢٥٠ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٧-٤٧٠.

(٢) انظر: أبو عبيدة، النقائض، جـ ١، ص ٧٨-٧٩.

(٣) البلاذري، أنساب (المحمودي)، جـ ٢، ص ٤٢٧-٤٢٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١١١ (عمر بن شبه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٣٦٢.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٠-٢٦١. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٥.

سياســة التهجيــر

يمكن تقسيم هذه السياسة الى نوعين متباينين كل له دوافعه وفوائده، أما النوع الأول: فيقوم على تهجير العناصر غير العربية، والتي تواجدت بشكل ملحوظ في الكوفة، فيذكر مسعر بن كدام أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يعرفون بجند (شهانشاه) طلبوا الصلح من سعد شريطة أن يسمح لهم بأن ينزلوا حيث شاءوا، ويحالفوا من يريدون من قبائل العرب وأن يفرض لهم في العطاء، فأجابهم سعد الى ما طلبوا، فنزلوا الكوفة وحالفوا زُهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وقد عرف هؤلاء الأعاجم باسم (حمراء ديلم)[1]، ويبدو أن عددهم أخذ يتزايد مع الزمن حتى أن زياداً خشي من كثرتهم، فسيّر قسماً منهم الى بلاد الشام، حيث أسكنهم معاوية في انطاكية وكان يسكنها من قبل الجراجمة[2]، ثم أضاف اليهم معاوية في حوالي سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) قوم من زط البصرة والسيابجة[3]، وحوّل زياد قسما آخر من (حمراء ديلم) بالكوفة الى البصرة، فدخلوا في الأساورة الذين بها[4]، ويبدو أن تهجير هؤلاء الأعاجم من الكوفة والبصرة واسكانهم في أنطاكية، كان محاولة من معاوية وزياد لتحقيق نوع من التكتل العنصري غير العربي، خشية غلبة مقومات حياتهم على مقومات الحياة العربية في كل من الكوفة والبصرة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إسكانهم مع الجراجمة على الحدود الرومية جعل منهم قوة متقدمة في وجه الروم الذين كانوا أعداءهم بالأمس. أما الغاية من نقل قسم من (حمراء ديلم) الى البصرة، فيبدو أن زيادا أراد أن يوازن بين أعداد العجم في كل من البصرة والكوفة، فلا يقتصر تواجدهم في أي من المصرين فيؤدى ذلك الى تكتلهم، مما قد يولد أخطارا كبيرة، أعظمها شأناً التأثير في مقومات الحياة العربية، أما تفريقهم في أكثر من موضع فانه حتماً سيؤدي الى اضعافهم، ويحد من عُرى الترابط بينهم.

أما النوع الثاني من أنواع سياسة التهجير التي اتبعها زياد في ولايته، فهو يقوم على تهجير أفراد أو جماعات من القبائل العربية، يروى البلاذرى أن زياداً ولي البصرة سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)، "فولى أمير بن أحمر مرو، وخليد بن عبد الله الحنفي أبر شهر، وقيس بن الهيثم مرو الرّوذ والطالقان والفارياب ونافع بن خالد الطلحي (من الأزد) هراة وبادغيس وبوشنج وقادس من أنواران، فكان أمير أول من أسكن العرب بمرو"[5]، وتخصيص هذا النص لسكن العرب في مرو دليل على أنها دون غيرها كانت أول مكان سكنه العرب من بلاد خراسان التي كانت مقسمة الى أربعة مناطق ادارية كما يوضح النص، غير أن هذا النص الفريد لا يوضح ان كان العرب قد استوطنوا مرو بعيالاتهم أم أنهم

---

(١) البلاذرى، فتوح، ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧-٢١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢١ (أبو حفص الشامي).

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٤ (مسعر بن كدام).

(٥) البلاذرى، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤. (وانظر صالح العلي، استيطان العرب في خراسان، مجلة كلية الآداب والعلوم، العدد (٣)، السنة ١٩٥٨، ص ٣٦ وما بعدها، وسيشار اليه عند وروده هكذا: العلي، استيطان العرب في خراسان.

دخلوها وسكنوا فيها لأول مرة، على أن ما تضمنه السياق من تخصيص يجعلنا نرجح أن هؤلاء المتوطنين أسكنوا مع عيالاتهم، ولما كان استيطان هؤلاء العرب قد تم في سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)، أي في الوقت الذي كان فيه زياد والياً على البصرة دون الكوفة، فان هذا يدعو إلى التأكيد على أن هؤلاء المتوطنين كانوا خليطاً من القبائل العربية في البصرة.

وتشعر المصادر المتوفرة بتوقف تهجير العرب الى خراسان في الفترة التي سبقت ولاية الربيع بن زياد الحارثي سنة (٥١هـ/ ٦٧١م) اذ لم تشر الى حدوث هجرات عربية في هذه الفترة، وللربيع أهمية كبرى في تهجير العرب الى خراسان وتوطينهم فيها، فيروى البلاذرى "ثمّ ولّى زياد بن أبي سفيان الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١هـ خراسان وحوّل معه من أهل المصرين زهاء ألفا بعيالاتهم ... وأسكنهم دون النهر"(١)، ويقول المدائني أن زياداً "ولّى خليداً أشهرا ثم عزله، وولى خراسان ربيع بن زياد الحارثي في أول سنة احدى وخمسين، فنقل الناس عيالاتهم الى خراسان، ووطنوا بها، ثم عزل الربيع"(٢)، ويروى الطبري عن المدائني أيضاً أن زياداً بعث الربيع بن زياد الحارثي الى خراسان في خمسين ألفا، من البصرة خمسة وعشرين ألفا، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفا، على أهل البصرة الربيع، وعلى أهل الكوفة عبد الله بن أبي عقيل، وعلى الجماعة الربيع بن زياد"(٣)، ومما يلاحظ على هذه النصوص الثلاثة، أن نص البلاذري يبين أن أصل العرب المتوطنين في خراسان من المصرين (البصرة والكوفة) ولكنه لم يعين نسبة ما جاء من كل مصر، أما المدائني في نصه الأول فلم يبين أيضا أصل هؤلاء المتوطنين، بينما يصرّح في النص الثاني بأن نصفهم من البصرة والنصف الآخر من الكوفة. ويشك الدكتور صالح العلي أن العدد أخذ من أهل المصرين بالتساوي، ويستدل على ذلك بأن الأخبار المتأخرة عن تنظيم العرب في خراسان تظهر أن أهل الكوفة كانوا يشكلون وحدة مستقلة لا تزيد عن سدس العرب هناك، ويضيف أن هذا التنظيم كان قائماً على أساس الأخماس المتبع في البصرة هذا فضلا عن أن خراسان كانت متصلة بالبصرة(٤)، ومع أن تفسير الدكتور العلي مقبول، الاّ أنه كما يبدو أغفل أعداد العرب الذين تم تهجيرهم لخراسان في ولاية زياد على البصرة دون الكوفة، تلك الأعداد التي رافقت أمير بن أحمر الى مرو، ولم تعينها المصادر(٥)، كما أن الهجرات والنجدات بعد ذلك لم تنقطع بل استمرت، فكان كل عامل يُعين عليها يستقدم معه إليها مجموعة من القادة والمقاتلين النابهين، وكان الخلفاء وأمراء العراق لا يتوانون

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٥. ابن الأثير، الكامل م٣، ص ٤٥٢، ٤٨٩ ابن خلدون، العبر، م٣، ص ١٩.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٦.

(٣) الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٦. النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٢٩.

(٤) صالح العلي، استيطان العرب في خراسان، ص ٣٨.

(٥) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤.

عن توجيه النجدات والبعوث الى عمالهم بخراسان، وذلك لتعويض خسائرهم في المقاتلة[1]، ولا بد أن نضيف الى تلك البعوث الرسمية موجات أخرى من الهجرات الفردية والجماعية، كانت تحدث من وقت لآخر، وإن كان المؤرخون لم يهتموا بهذه الموجات الآ نادرا، ودليل ذلك أنهم لم يشيروا إليها الآ مرة واحدة في ولاية الربيع بن زياد، اذ نصوا على أن الناس نقلوا أسرهم معهم الى خراسان، وسكنوا دون النهر[2]، وبما أن خراسان كانت من فتوح البصرة فان هذا يجعلها متصلة بها أكثر من اتصالها بالكوفة، مما يشعر أن امكانية انتقال العرب من البصرة الى منطقة خراسان كانت أيسر من انتقال عرب الكوفة الى تلك المنطقة، وهذا يجعلنا نرجح أن جماعات عربية كثيرة انتقلت من البصرة الى خراسان بصرف النظر عن الكيفية التي انتقلت بها، ومن هنا يتبين لنا أن كثرة العرب المستوطنين في خراسان من أهل البصرة، وغلبة عددهم على غيرهم من أهل الكوفة، لم يكن مرجعه رجحان عددهم على عدد أهل الكوفة في هجرتهم مع الربيع بن زياد، وانما كان ذلك نتيجة لهجرات متتالية قام بها أهل البصرة للمساهمة في الغزو أو للاقامة والعمل.

ويبدو أن هجرات العرب الى خراسان وغيرها من البلاد الاسلامية، أمر لم يكن متروكاً الى القبائل نفسها، ولم تكن هذه الهجرات عفوية أو فوضوية غير ذات غرض، وإنما عمد إليها زياد عمدا وقصد إلى أغراضها قصدا بيّنا، وكانت جزءا من سياسته الادارية، وما من شك فان هجرة خمسين ألفا بعيالاتهم كان عملا منظما يستر وراءه الكثير من الأهداف البعيدة، ولعل أهم هذه الأهداف : ترسيخ الوجود العربي في الأقاليم المفتوحة وتأمين أسباب الفتح، وذلك بتحويل هذه الأقاليم الى قواعد عسكرية مهيأة لمتابعة التحرك العسكري في تلك المنطقة، ولعل زياد وخلفاءه من ولاة بني أمية وقوادهم قد التفتوا الى مقاومة الفرس العنيفة للفتوح الاسلامية وسلسلة الانتفاضات التي تعثرت فيها، فتبين لهم أن الأمر لن يستقر للمسلمين في هذه البلاد ان لم يرافق الغلبة العسكرية نوع من الاتصال بالأرض والاختلاط بالسكان، وبالتالي توطيد العلائق بينهم، وسد الفجوات التي تفصل بين الطرفين.

والواقع أن هذه السياسة التي بدأها زياد حققت أهدافاً بعيدة، اذ تمكن المهاجرون العرب من استكمال فتح بعض المناطق، لا بل أنهم ساهموا في توسيع نطاق الفتوحات الاسلامية حتى جاوزوها

---

(1) ذكر ابن حبيب البغدادي، أن زياداً مدّ سعيد بن عثمان حين عقد له معاوية عقداً للجهاد بأربعة آلاف رجل من أهل السجون والدعار ومن يصلح للحرب، ومضى سعيد حتى نزل مرو. (انظر ابن حبيب البغدادي، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، كتاب أسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من الشعراء، ضمن كتاب (نوادر المخطوطات)، تحقيق عبد السلام هارون، المجموعة السادسة، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٣م، ص ١٦٦، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن حبيب البغدادي، أسماء المغتالين. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣١١). ولعل هؤلاء المنحرفين قد استقروا في مرو، طالما أن الحياة قد ضاقت بهم في البصرة.

(2) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٦، ٢٨٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٢، ٤٨٩.

حدود المقاطعات الساسانية القديمة، ومن المؤكد أن الهجرات العربية كانت المادة الأولى في تعريب هذه المناطق، وذلك لاختلاط العرب بالسكان الأصليين وامتزاجهم بهم، وكان من الممكن أن يسير التعريب في طريقه هذا حتى يبلغ ما بلغه الاسلام، ولكن الأمر تعثر نتيجة للعداوات السياسية بين العرب والأعاجم.

ولعل زياداً لجأ الى هذه السياسة للحد من مقاومة التكتلات القبلية، والتخفيف من شدة العصبية في البصرة والكوفة، كذلك لتخفيف نسبة الجرائم والمشاكل التي كانت تحدث في البصرة نتيجة لكثرة اللصوص والمشاغبين، فأراد زياد أن يصرف هذه العناصر الخطرة الى خراسان، ويستنفد طاقتها وتوثبها على العمل في جهاد المشركين، فيتخلص بذلك من شرها وعبثها[1].

ويبدو أن زياداً أراد التخلص من بعض العناصر المعارضة للحكم الأموي في العراق كالشيعة والخوارج، لذلك لجأ الى تهجيرها وإبعادها الى مناطق مختلفة، فقد هجّر قوماً من أزد البصرة الى مصر، فنزلوا من الفسطاط بموضع يقال له الظاهر[2]، والمعروف أن الأزد كانوا أصدقاء لزياد منذ أيام علي بن أبي طالب، وذلك لاجارتهم اياه حين دخل ابن الحضرمي البصرة وحاول فتنة أهلها والسيطرة عليها لصالح معاوية[3]، ولذلك فاننا نستغرب هذا الصنيع من زياد، ويبدو أنه نقل بعض العناصر غير المرغوب فيها من الأزد[4]، وربما كانوا من الخوارج، وقد أطلق عليهم المصريون اسم (العراقيين) لقدومهم من العراق[5].

ولعل من بين الغايات التي طمح الى تحقيقها حين عمد الى هذه السياسة، تخفيف الضيق الاقتصادي في البصرة والكوفة، هذين المصرين اللذين جذبا الكثير من القبائل العربية من الحجاز واليمن والبحرين وسائر أنحاء العالم الاسلامي، على أن هجرات العرب من البصرة والكوفة الى البلاد الاسلامية المجاورة قابلها هجرات متتابعة غير منتظمة الى هذين المصرين وخاصة البصرة، اذ كان عدد مقاتلتها زمن علي بن أبي طالب أربعين ألفا، فأصبح أيام زياد ثمانين ألفا، وكانت الذرية ثمانين ألفا، فبلغ بهم عشرين ومائة ألف[6]، وتشعر هذه الزيادة بكثرة الروادف، واقبال الناس على الهجرة لهذا المصر.

---

(١) انظر: ابن حبيب البغدادي، أسماء المغتالين من الأشراف، ضمن كتاب نوادر المخطوطات، المجموعة السادسة، ص ١٦٦. ابن أعثم، فتوح، م٢، ص ٣١١.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٥٧. احسان عباس، ديوان شعر الخوارج، ط ٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٦٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: احسان عباس، ديوان شعر الخوارج.

(٣) انظر ص ٦٥-٦٨ من الفصل الأول.

(٤) العلي، التنظيمات، هامش ص ٤٤.

(٥) انظر عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٢٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: البري، القبائل العربية في مصر.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٨ (العتبي).

سياسة زياد تجاه عمّاله وموظفيه

يواجه الباحث عند دراسة الادارة الاسلامية صعوبات كثيرة، منها أن المعلومات المتوفرة عن الوظائف الادارية عموما غير كاملة، فبعض هذه الوظائف لم تذكر عنها المصادر الاّ اسمها أو معلومات مقتبضة من أزمنة وأمكنة متباعدة، مما يجعل من الصعب تقديم صورة كاملة عنها، وهناك وظائف لا تذكرها المصادر بالرغم من أن مقتضيات الأحوال تستلزم وجودها، وقد أورد بعض المؤرخين المسلمين الأوائل قوائم بأسماء الأمراء والولاة وكبار الموظفين في زمن كل خليفة، وأبرز من جرى على هذا التقليد : خليفة بن خياط، واليعقوبي، والطبرى، على أن هذه القوائم المقصورة على أسماء الموظفين لا تعطي فكرة دقيقة عن كيفية اختيار هؤلاء الموظفين وتحويلهم أو ترقيتهم أو عزلهم أو عن تنظيم كل ديوان، وعدد الموظفين التابعين لهذه الوظيفة أو تلك. كما أن معلوماتنا عن سلطات الولاة والعمال في الأقاليم التابعة لمصرى العراق غير وافية للدرجة التي يمكن أن نكوّن منها فكرة واضحة شاملة قد تفيد في تفهم أوضح لمكانة هؤلاء الولاة والعمال، لهذا فاننا سنكتفي في دراسة هذا الموضوع ببعض الملاحظات العامة التي يمكن استخلاصها من المعلومات الواردة في المؤلفات العربية.

كان زياد في ادارته واليا واعيا لكل جوانب مسؤوليته بكل دقائقها، وقد جعل نفسه مسؤولا عن كافة الأمور العظمى والصغرى في ولايته، وحتى يحقق النظام هدفه فقد زاول زياد حقه في تعيين وعزل عماله وكبار موظفيه، وقد كان موضوعياً وعادلا في اختياره للعمال والموظفين من أصحاب الكفاءات " والجرأة والأمانة دون الهوى والمحاباه "[(١)]، وكان زياد يدرك في قرارة نفسه مدى المسؤوليات التي يحملها هؤلاء العمال، فيوازن بينها وبين قدراتهم، فكان يعين الواحد منهم لمدة سنة ولا يجدد تعيينه الاّ اذا أثبت جدارته واخلاصه، كما كان يعاقب من يظهر خيانة وضعفا ويكافىء من يجده قويا أميناً بأن يزيده في عمله ويرفع له ذكره ويكثر ماله[(٢)].

وقد اعتمد زياد في ملء كثير من المناصب الادارية على عدد من الصحابة والتابعين، فكان ممثله في البصرة سمرة بن جندب الفزاري من الصحابة[(٣)]، وكذلك عمرو بن حريث القرشي المخزومي،

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٩٠ (المدائني). الآبي، نثر الدر، جـ ٤، ص ٢٤٠. ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٤٠ (المدائني).

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٥٥ (عبيد بن عمير). القالي، الآمالي، جـ ٢، ص ٨٢ (أبو عبيدة)، الجريري، الجليس الصالح، جـ ٢، ص ١٣٣-١٣٤ (أبو عبيدة). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٣٠٢-٣٠٣. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٥-٤٩٦ (أبو عبيدة).

(٣) ابن سعد، الطبقات، جـ ٦، ص ٣٤، جـ ٧، ص ٤٩-٥٠. البخاري، التاريخ الكبير، م ٤، ص ١٧٦. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١ ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٨٢. ابن حبان البستي، مشاهير علماء الامصار، ص ٣٨. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٦٥٣-٦٥٤. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٥٤. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ ١٥، ص ٤٥٤.

الذي كان زياد يستخلفه على الكوفة عند خروجه للبصرة[1]، والحكم بن عمرو الغفاري والي خراسان[2]، وعبد الرحمن بن سمرة، وأنس بن مالك[3]، ومن الصحابة الذين استعان بهم زياد في القضاء عمران بن الحصن الخزاعي ولاّه قضاء البصرة، وقد استعفى زياداً فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثي، ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى الحرشي[4]، وأسند قضاء الكوفة الى شريح بن الحارث الكندي، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ممن روى عن عمر بن الخطاب[5]، كما ولىّ الربيع بن زياد الحارثي خراسان، وهو أيضا من الطبقة الأولى من التابعين[6].

وقد أبدى زياد اهتماماً خاصاً بالثقفيين أبناء جلدته، ولم ينسهم عند ملئه للوظائف والمناصب، فقد استعمل جبير بن حية بن مسعود الثقفي على أصبهان[7]، وولى عبد الله بن عثمان بن أبي العاص على أردشير خرة فأقام بها[8]، وقرّب زياد أولاد أخيه أبي بكرة، وشرفهم وأقطعهم وولاهم الولايات والأعمال الجليلة الرفيعة، فعين رواداً على دار الرزق وعبد الرحمن على بيت المال، وعبد الله على فارس[9]، وحين سئل زياد عن سبب استعماله لأولاد أبي بكره وتركه أولاد أخيه نافع بن الحارث، أجاب: "رأيت أولاد أبي بكرة نجباء طوالا"[10]، وقد حظي الثقفيون اضافة الى ذلك

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ٢٣. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤١٨-٤١٩. ابن حجر العسقلاني، الأصابة، جـ٢، ص ٥٣١.

(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٢٨ (الحسن البصري). ابن حبيب، المحبر، ص ٢٩٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٥ (مسلمة). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣١٨. العسكري، الأوائل، ص ٢٦٨ (الحسن). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٢، ص ٤٧٤-٤٧٥.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٤ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣١٦. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٨، ص ٣٠.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢١٧. وكيع، أخبار القضاة، جـ١، ص ٢٩٢ (المدائني) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٤ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ١٣٨ (جابر بن زيد). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٦١ (الشعبي). وكيع، أخبار القضاة، جـ٢، ص ٣٩٧ (الشعبي). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ١٠. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٢٩٤. ابن حجر العسقلاني، الاصابة جـ٢، ص ١٤٦ (ابن المديني).

(٦) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ١٥٩. خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٧. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص ١٢٥. ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ١٦٤.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٣ (المدائني). الأصبهاني، تاريخ أصبهان، ص ٢٥٢. ابن حجر العسقلاني، الأصابة، جـ١، ص ٢٢٥.

(٨) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٥، ص ١٧٤ (المدائني).

(٩) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٤ (أبو هلال). ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٩ (الحسن بن أبي الحسن). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٨-٩ (أبو عثمان النهدي). ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ١٠، ص ٤١٩ (الحسن البصري)

(١٠) ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٨.

بحب زياد وتقربه منهم، فكان عمرو بن أراكة الثقفي ممن يحضرون مجلسه ويجلسون بجانبه على سريره[1].

إن استعمال زياد لهذه النخبة من الصحابة والثقفيين، لم تكن محاولة منه لكسب ود هاتين الطائفتين فقط، ولكنه رأى أن تلك النخبة قادرة على القيام بما يوكل إليها من مسؤوليات ومهام، ولو كان هدف زياد استعمال أقربائه وأصدقائه لكان ابنه عبيد الله من كبار عماله وموظفيه ولكن هذا لم يحدث الاّ بعد وفاة زياد حيث عينه معاوية على خراسان[2]. لقد تجاوز زياد في اختياره للعمال والموظفين كافة اعتبارات الانتماء والعلائق الشخصية، واهتم في اختياره بالأمانة والكفاية وقوة الشخصية بينما رفض المسنين والضعفاء[3]، فقد ولىّ من بني الحارث بن كعب عمالا على أنحاء ولايته منهم: الربيع بن زياد الحارثي على خراسان، وقطن بن عبد الله على أذربيجان، وشريك بن الأعور على فارس وكرمان، وكثير بن شهاب على الري، والسري بن وقاص على أعمال الكوفة، وزياد بن النضر على أصبهان، وعندما سأل معاوية الأحنف بن قيس: "من أعز أهل العراق؟" قال: "بنو الحارث بن كعب" وذكر له أسماء الولاة السابقين[4]، ويبدو أن معاوية شك أن يكون ذلك ميلا من زياد لهؤلاء القوم دون غيرهم بسبب غير مشروع، فأراد أن يعرف العلة، لذلك كتب الى زياد يسأل عن معنى ذلك، فأجابه زياد معبرا عن عمق ايمانه الموضوعي في قياس مقدرات الناس، ومحاولة وضعهم في مواضعهم الصحيحة من غير ميل أو محاباة، قال: "وجدت فيهم خلتين لو كانتا في الزنج لوليتهم معهما الأمانة والكفاية"[5]، هذه الاجابة الشافية المقنعة جعلت ثقة معاوية بواليه تتضاعف وتزداد، حتى أن أحدهم جاء الى معاوية يسأله أن يوليه بعض ما كان بيد زياد فقال له: "زياد أعلم بثغوره" و "زياد أعلم بشرطته"[6]، وهذا يؤكد على أن معاوية لم يكن يتدخل في تعيين عمال وموظفي ولاية زياد بل أطلق يديه في هذا الأمر مثلما أطلقها في تسيير جُلّ الأمور الهامة، وكان زياد عند حسن ظن الخليفة به ذكيا واسع الأفق يعرف جيداً موضع قدمه في كل خطوة يخطوها.

وتسهيلا لادارة الولايات والمقاطعات طلب زياد من عماله استعمال "عمال المعذرة ومن يُزَنّ بصلاح"، وحذرهم من استعمال من يحترس منه[7]، وقد تابع الولاة بعد زياد استعمال عمال العذر

---

(١) ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ٥٢٢ (ابن السكن).

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م١، ص٢٢٩-٢٣٠. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٨٣ (قالوا). الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٥ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٦. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٢١. الآبي، نثر الدر، جـ٣، ص١٦. الصابيء، الهفوات النادرة، ص ٨٤.

(٣) ذكر البلاذري أن زيادا قال لأبي الأسود الدؤلي حين سأله الولاية: "لولا ضعفك وسنك لوليتك". (انظر أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٤. المرزباني، نور القبس ص ١١. الشريف المرتضى، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٢٩٢).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٥٩ (المدائني).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٥٩-١٦٠ (المدائني).

(٦) الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٥٩-٢٦٠ (قالوا).

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠١.

أو المعذرة، فيذكر المدائني أن عمر بن هبيرة أوصى مسلم بن سعيد حين ولاه خراسان أن يستخدم عمال العذر، فسأله مسلم "وما عمال العذر؟" قال: "مُرْ أهل كل بلد أن يختاروا لأنفسهم، فاذا اختاروا رجلا فوله، فان كان خيرا كان لك، وان كان شراً كان لهم دونك، وكنت معذوراً"(١).

وقد أعار زياد منطقة خراسان اهتماماً كبيراً، نظراً لبُعد هذا الاقليم عن القواعد الاسلامية في البصرة والكوفة، وصعوبة ارسال البعوث بشكل منتظم فقد قرر زياد اقامة قواعد ثابتة تقيم فيها القوات الاسلامية بصورة دائمة، فتسيطر على أقاليم المشرق وتتولى مهمة توسيع رقعة الدولة الاسلامية في هذه الجهة، ويروى اليعقوبي أن عبد الله بن عامر أتم فتح خراسان في خلافة عثمان وكان قد صيرها أرباعا، فولى "قيس بن الهيثم السلمي على ربع، وراشد بن عمرو الجديدي على ربع، وعمران بن الفصيل البرجمي على ربع، وعمرو بن مالك الخزاعي على ربع"(٢)، ويظهر من هذا النص أن خراسان كانت مقسمة الى أربعة مناطق ادارية، ولا نعرف ان كان زياد قد تبع في هذا ابن عامر، أم أن كليهما اتبعا نظاماً ادارياً قديماً أوجده الساسانيون من قبل، والجديد في سياسة زياد أنه دعم عمال هذا الأقليم بالجالية العربية(٣)، فكان بذلك أول من نظم أمور خراسان، وجعلها القاعدة الهامة لغزو بلاد ما وراء النهر، كما أن عمله هذا يسر على عماله ادارة هذا الأقليم وفقا للأسس التي وضعها، حتى صار من أهم أقاليم الدولة الاسلامية. وفي سنة (٤٧ هـ/ ٦٦٧م) جمعت خراسان تحت امرة الحكم بن عمرو الغفاري الذي أوعز اليه زياد أن يصطفي لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عملا بكتاب ورد عليه من الخليفة، فكتب الحكم الى زياد "أني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وانه والله لو كانت السموات والأرض رتقا على عبد فأتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا"، ثم قسم الفيء على من معه من الناس(٤)، وبقي الحكم على خراسان الى أن توفيّ فيها سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)(٥) فخلفه الربيع بن زياد الحارثي، وهذا يشعر بما كان للعامل الأمين أيام زياد من الحرية فيما يرتئيه لاصلاح عمله، والادارة في أقليم قد لا تصلح

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٧، ص ٣٥. ابن الأثير، الكامل، م ٥، ص ١٣٠. ويورد ابن عبد ربه نحو ما أورده الطبري، ولكنه لا يستخدم تعبير "عمال العذر" بل "عمال القدر" وعندما سأل مسلم بن سعيد عمر بن هبيرة عن معنى عمال القدر أجابه: "أن تختار من كل كورة رجالا لعملك، فان أصابوا فهو الذي أردت، وان أخطأوا فهم المخطئون، وأنت المصيب". (العقد الفريد، جـ١، ص ٢٢).

(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٦٧.

(٣) انظر البلاذرى، فتوح، ص ٥٧٦، ٥٧٧ (قالوا). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٦، ٢٨٦ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٩.

(٤) ابن سعيد، الطبقات، جـ٧، ص ٢٨-٢٩ (الحسن). الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٩٦-٢٩٧ (الحسن). البسوى، المعرفة والتاريخ، م ٣، ص ٢٥ (الحسن). البلاذري. أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢١-٢٢٢ (الحسن). اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥١-٢٥٢ (عمر بن شبه). ابن عبد ربه، العقد جـ١، ص ٥٨ (الشعبي).

(٥) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٣٦٦، ابن حبيب، المحبر، ص ٢٩٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٢ (المدائني). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٢ (المدائني). ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص ٦٠. العسكري، الأوائل ص ٢٦٩ (الحسن البصري). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٣٥٦.

في أقليم آخر. ولقد اعتنى زياد باختيار العمال الثقات على سائر المقاطعات التابعة لمصري العراق، مثلما اعتنى باختيار ولاة خراسان، والواقع أن عمال زياد الذين اختارهم لم تجمعهم صفات خاصة واحدة يشتركون فيها سوى كونهم جميعا من العرب، أما فيما عدا ذلك فقد كانوا متباينين في أصولهم وخبراتهم وكانوا من قبائل مختلفة[1]، وقد أثبت جلهم كفاءة في الادارة والتوسع العسكري.

وكان من حرص زياد على الاحاطة بأمور رعيته، ونشر العدل فيها أنه كتب الى عماله أن "لا ينظرن في أمر الناس حاقن ولا جائع"[2]، وقال يوما: "ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم"[3]، وكأنه يريد أن يوصي عماله بضرورة التعرف على أفراد الرعية وعلى المشكلات التي قد تواجهها من حين الى حين، وكان زياد يجلس في كل يوم للنظر في أسباب عمله الاّ يوم الجمعة" فيسأل رسل عماله عن بلادهم، وينظر فيما قدموا له، وفي أمر الأموال والنفقات"[4]، ثم يأخذ في كتب العمال فيمليها بنفسه[5]، وهذا يشعر باهتمام زياد البالغ في مراقبة عماله والاطلاع أولا بأول على أعمالهم وتصرفاتهم.

ويتوقع أن الموظفين في البصرة والكوفة كانوا أكثر عرضة من عمال الولايات والأقاليم لاشراف الأمير ورقابة الناس أنفسهم، لذا كانت مجالات الاستغلال أمامهم محدودة نسبياً، والواقع أن جلهم كانوا يتقاضون رواتب جيدة تمكنهم من أن يحيوا حياة كريمة ولائقة، وتغنيهم عن الانحدار الى الاختلاس وغيره من الأساليب غير المشروعة للحصول على الأموال[6]. وقد حرص زياد على دفع الرواتب في أوقاتها[7]، وهو أول من وضع الرواتب المقررة للوظائف الثابتة، فقد قرر لكل عامل من عماله ألف درهم، ولنفسه خمسة وعشرين ألف درهم، ومائة ألف درهم مخصصات اضافية[8].

وكان في البصرة والكوفة عدا المقاتلة، الشرطة الذين يقومون بحفظ الأمن وحماية القانون والنظام في الداخل، وليس لدينا معلومات عن رواتبهم سوى أن صاحب الشرطة أخذ عن عمله مائة ألف

---

(١) انظر الملحق رقم (٢) (عمال زياد على المقاطعات التابعة للعراق).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٠. الاصبهاني، حلية الأولياء، جـ ٤، ص ٣١٨ (الشعبي). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٤٩٦ (الشعبي).

(٣) اليعقوبي، تاريخ جـ ٢، ص ٢٣٥. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ ١، ص ٢٨٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٤ (المدائني). ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧. وانظر الجهشياري، الوزراء، ص ٢٥.

(٥) ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

(٦) انظر العلي، التنظيمات، ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٧) انظر الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٤. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٨ (ابن عياش). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٧ (العتبي).

(٨) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٤. ويُذكر أن زياداً ولى أبا الخير (من الخوارج) جند يسابور وما يليها، وجعل له راتباً شهرياً مقداره أربعة آلاف، مع عمالة سنوية مقدارها مائة ألف درهم. (أنظر المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٦١ ٢٦٢). ويظهر أن زياداً حاول استمالة أبا الخير واصلاحه بالمال والمنصب لأنه كان من الخوارج.

درهم ، وذلك في أوائل عهد الملك بن مروان[(١)]، ولا يعقل أن يكون راتب الأمير خمسة وعشرين ألف وراتب صاحب الشرطة مائة ألف ، ولكن من الجائز أن يكون صاحب الشرطة يتسلم مجموع رواتب دائرته ، ويقوم هو بتوزيعها بعد أن يقبض مرتبه ، أي أن هذا المقدار كان يمثل خزينة الشرطة .

وهناك موظفو الدواوين وأغلبهم من العجم العالمين بأمور الخراج[(٢)]، وكان رؤساء الكتّاب يتقاضون ثلاثمائة درهم شهريا ، أما صغارهم فيأخذون ثلاثين درهما[(٣)]، وقد رفع زياد رواتب رؤساء الكتّاب الى ألف درهم شهريا[(٤)]، وكان يؤكد على أن يكون الكاتب مسنا يتمتع بخمس خصال : "بُعد غور، وحسن مداراة ، وإحكام للعمل ، وألّا يؤخر عمل اليوم للغد ، والنصيحة لصاحبه"[(٥)].

كما كان زياد يحرص على إتقان الكتّاب للغة ، فقد كتب كاتب في ديوانه "ثلاث دنان" فقال : "أخرجوا هذا الكاتب من ديوانكم ، وأصلحوها ثلاثة أدن"[(٦)]. أما راتب صاحب بيت المال فقد جعله زياد ألف درهم شهرياً ، وراتب القاضي خمسمائة درهم شهرياً[(٧)]، وكان زياد يرى أن من بين الشروط الواجب توفرها في القاضي اضافة الى العلم والفقه والورع ، أن يكون مسناً عضّ على ناجذه[(٨)].

وهكذا يمكن القول أن زياداً نجح في الادارة الى حد بعيد ، فكان يتصرف في امارته تصرف الملوك المستقلين ، فيعين العمال على البلاد التي تحت إمرته وسائر عمال حكومته ، ويجبي الأموال وينفق منها على جنده وموظفيه وفيما تقتضيه المصلحة العامة ، وكان لا يسمح بأي تدخل حتى ولو كان من الخليفة نفسه[(٩)]، اذا كان هذا التدخل يؤدي الى ايذاء المصلحة العامة ، وفي هذا صورة واضحة عن اللامركزية .

المقاتلة

اهتم زياد بتنظيم المقاتلة اهتماما بالغا ، وكان التنظيم القبلي الذي قام به في العراق محاولة منه

---

(١) البلاذري ، أنساب ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ (عمر بن شبه) .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٣) انظر العلي ، التنظيمات ، ص ١٦٧ .
(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .
(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .
(٦) البلاذرى ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ . الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٥ .
(٧) انظر البلاذرى ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ (المدائني) . كان شريح يُرزق على القضاء فيما يقال خمسمائة درهم شهرياً . (ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ١٣٨ (ابن أبي ليلى) .
(٨) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .
(٩) ذُكر أن زياداً ولى حريث بن جابر على همدان ، فكتب اليه معاوية : "أما بعد فأعزل حريث بن جابر عن العمل ، فاني لا أذكر مقاماته بصفين ، الّا كانت حزازه في صدري" ، فكتب اليه زياد : "أما بعد فخفّض عليك يا أمير المؤمنين ، فان حُريثا قد سبق شرفا لا يرفعه معه عمل ، ولا يضعه معه عزل" . (ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ٥ ، ص ٢٤١ ، جـ ١٦ ، ص ١٩٧).

لتذويب القبائل المناوئة للأمويين، وتخفيف حدة ا لعصبية القبلية من جهة، ووصولا الى ممارسة الدولة لسلطاتها ومسؤولياتها في تنظيم الجيوش وترتيب القيادات والسيطرة على توزيع العطاء للمقاتلين من جهة أخرى، لذلك نراه يمنح سلطات واسعة للعرفاء، فهم الذين يوزعون العطاء، وهم المكلفون بالدعوة للجهاد لتأمين سرعة استنفار الجند(١).

ويمكن اعتبار ولاية زياد على البصرة سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م) البداية الحقيقية للتشديد في النفير ومعاقبة المتخلفين، لأن سياسته القائمة على الحزم وعدم التهاون مع المخالفين، لم تدع أحدا من الجند يجرؤ على الاخلال بمكانه أو الهرب من بين صفوف المقاتلة، اذ أن ذلك يعرضه لأشد العقوبات، وكان من نتيجة هذه السياسة أن ازداد عدد المقاتلة في العراق خلال مدة ولايته زيادة كبيرة، ذكر المدائني أن عدد مقاتلة البصرة حين قدم زياد كان "أربعين ألفا فبلغ بهم ثمانين ألفا، وكانت الذرية ثمانين ألفا فبلغ بهم عشرين ومائة ألف، ويقال أن ابنه فعل ذلك"(٢). وذكر مسلمة ابن محارب البصري أن زياداً عرض مقاتلة البصرة" وهم يومئذ ثمانون ألفا"(٣). وروى الوليد بن هشام القحذمي عن جده الذي كان على ديوان الجند ليوسف بن عمر قال: "نظرت في جماعة مقاتلة البصرة أيام زياد فوجدتهم ثمانين ألفا، ووجدت عيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل"(٤)، وهذا يدعو الى تحقيق ما ورد في خطبة عبيد الله بن زياد بأهل البصرة، والتي تنسب أكثر نصوصها زيادة عدد المقاتلة والذرية في البصرة الى عبيد الله، فيذكر وهب بن جرير البصري عن شهرك قال: أنه سمع ابن زياد يقول لأهل البصرة: "لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم الاّ أربعين ألفا، ولا في ديوان عيالاتكم الاّ سبعين ألفا، ولقد أحصي اليّ اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون ألفا"(٥). وروى عمر بن شبه باسناده عن شهرك أيضا أنه سمع ابن زياد يقول: "ولقد وليتكم وما أحصي ديوان مقاتلتكم الاّ سبعين ألف مقاتل، ولقد أحصي اليوم ديوان مقاتلتكم ثمانين ألفا، وما أحصي ديوان عمالكم الاّ تسعين ألفا، ولقد أحصي اليوم مائة وأربعين ألفا"(٦)، ويلاحظ أن وهب بن جرير وعمر بن شبه قد اختلفا في بيان الأحصائية التي يذكر شهرك أنه سمعها عن ابن زياد، ولعل هذا الاختلاف يعود الى خطأ من النساخ، أو أحد الرواة الذين سمعوا من شهرك وأخذ عنهم وهب وعمر.

وينفرد الجاحظ بنسب زيادة مقاتلة البصرة الى زياد وليس الى ابنه، حيث يذكر أن عبيد الله بن زياد قال في خطبته: "لقد وليكم أبي وما مقاتلتكم الاّ أربعين ألفا، فبلغ بها ثمانين ألفا وما ذريتكم

---

(١) العلي، التنظيمات، ص ١١٥.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٠. وانظر ابن عبد ربه، العقد، جـ٥، ص ٨ (العتبي).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٢.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٨. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٤.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٤١٨.

(٦) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٥٠٤.

الاّ ثمانين ألفا، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف "[١]، ولعل ما ذكره الجاحظ عن خطبة ابن زياد أكثر دقة مما ذكره غيره، يؤيد ذلك الروايات الموثقة التي أوردناها عن المدائني ومسلمة والوليد بن هشام، ويشعر ما ذكره هؤلاء أن عدد مقاتلة البصرة ظل طوال فترة زياد ثمانين ألفا، وربما بقي هذا العدد ثابتا في ولاية عبيد الله بن زياد، الأمر الذي جعل بعض الرواة ينسبون زيادة عدد المقاتلة والذرية الى عبيد الله وليس لأبيه.

أما الكوفة، فقد بلغ عدد مقاتلتها أيام علي بن أبي طالب أربعين ألفا، يضاف اليهم سبعة عشر ألفا من الأبناء ممن هم في سن الرشد[٢]، وفي زمن زياد ارتفع عدد المقاتلة الى ستين ألفا[٣]، يؤيد ذلك ما ذكره ياقوت من أن زياداً زاد في مسجد الكوفة مقعد عشرين ألف انسان، فصار يتسع لستين ألفا[٤]. ويظهر أن هذا الرقم يشمل من نقلهم زياد من مقاتلتها الى خراسان سنة (٥١هـ/ ٦٧١م)، إذ كان عدد مقاتلتها أيام الحجاج (٧٥-٩٥هـ/ ٦٩٤-٧١٣م) أربعين ألف مقاتل[٥]، ولعل الزيادة التي حصلت أيام زياد كانت بعد اجراء عملية التنظيم في الديوان، وهي قليلة اذا ما قورنت بزيادة مقاتلة البصرة للفترة ذاتها، ولعل توقف فتوح الكوفة وتوسع فتوح البصرة في المناطق الشرقية يفسر ذلك.

ويبدو أن سياسة التهجير التي لجأ إليها زياد، اضافة الى تنظيمه للديوان أمور أتاحت الفرصة أمام الكثيرين للانضمام الى الديوان الى جانب جماعات أخرى من المهاجرين الجدد، فيذكر الشعبي أن زيادا قال للعرب: "ان عشائركم قد وردت علينا، فاختاروا أن نأخذ نصف اعطياتكم وأرزاقكم فنقوتهم بها مع ما لهم عندنا أو تكفينا كل عشيرة من فيها، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله"[٦]، ولا شك أن عملية النقل التي اعتمدها زياد ساعدت على تخفيف ضغط الروادف والأعباء المالية عن البصرة والكوفة، على أن ضغط الروادف دام كما يبدو، وخاصة في البصرة التي استمرت فتوحها في المشرق.

ويظهر أنه كان على أهل الديوان الاقامة في الثغور بالتناوب في جُلّ الأحيان[٧]، وكانت المدة تختلف من فترة لأخرى، وقد نهى الخلفاء والولاة عن التجمير في البعوث، فقال زياد لمعاوية موضحا

---

(١) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ١٣٠.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٧٩. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٢٢.

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ٤٨٨ (الوليد بن هشام). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٨ (العتبي). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٤.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٩١.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ ٦، ص ٢٦٢ (أبو مخنف). ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٩، ص ١٧.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٣٧.

(٧) ابن سعد، الطبقات، جـ ٣، ص ٣٠٦ (الواقدي).

لـه الأسباب التي عن طـريقها ضبط الحكم في العـراق : "لكني ضبطت ملكي بالحكم عنـد انبراء القوي الألـد، مع توددي الى العـامة وأداء حقـوقهم وتعقيب بعوثهم، فسلمت لي الصـدور عفوا، وانقادت الأجنة طوعا" (١)، وفي أيام زياد كان الـرجل يصيبه البعث كل سنتين اذا كان بعيداً، وكل سنة اذا كـان ثغره قريبـا، فيذكر ابن عيـاش أن زياداً قال لأهل الكـوفة عندمـا وليها : "وأي رجل مكتبه (أي ثغـره) بعيد فأجله سنتـان ثم هو أمير نفسه، وأي رجل مكتبـه قريب فأجله سنـة ثم هو أمير نفسه" (٢).

وكان زياد كابن عامر في دعمه لسياسة الفتوح والتوسع، لكنه اختلف عنه في أنه ركّز على جبهة خراسـان، ففي سنة (٤٧هـ/ ٦٦٧م) فتح الحكم بن عمرو الغفـاري جبال الغور وفراونـدة عنوه، وغنم غنائم وسبايا كثيرة، ثم غزا جبل الأشل، وقد لاقى المسلمون صعوبة كبيرة في فتحها كادت أن تهلكهم(٣)، ثم ولّى زياد الربيع بن زياد الحارثي ونقل معه خمسين ألف مقاتل مع عيالاتهم وأسكنهم خراسان(٤)، ولا ريب أن تـواجد هـذا العدد الكبير من المقـاتلة العـرب في خراسـان أدى الى تثبيت الحكم الأموي في تلك المنطقـة، كما أنه خلق منها قـاعدة للتـوسع نحو المشرق، فمنها كـانت تجهز الجيوش، وترسل الى فتح بـلاد ما وراء النهر(٥)، فيذكر أن الربيع بن زيـاد قدم خراسان فغزا بلخ، وكـان أهلها قـد أغلقوهـا بعدمـا صالحهم الأحنف بن قيس، فصـالحوا الـربيع، ثم غزا قهستـان ففتحها عنوة (٦).

ومن المناطق التي قامت بدور بارز في حركة الفتوح والتوسع أيام زياد منطقة ثغر الهند - الأبلة - التي ولّى عليها زياد ابتـداء سنان بن سلمة الهذلي، وهو الذي فتح مكـران عنوة ومصّـرها، وأقام بها وضبط بلادها(٧)، ثم استعمل زياد عليها راشد بن عمرو الجديـدي، فأتى مكران، ثم غزا القيقان فظفر بها، ثم غزا الميـد فقُتل، واستعمل زياد على الثغر بعد ذلك المنـذر بن الجارود العبدي، فغزا

---

(١) ابن عساكر، تهذيب، جـ ٥، ص ٤٢١.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٨.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٩ (بعض أهل السير)، ٢٥١ (المدائني). المقـدسي، البدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٥-٤٥٦.

(٤) البـلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قـالـوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٦ (المدائني). قـدامة بن جعفـر، الخراج، ص ٤٠٥. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٢، ٤٨٩.

(٥) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧.

(٦) خليفة بن خيـاط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٧. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٨٥ (المدائني). العسكري، الأوائل، ص ٢٦٩. المقدسي، البـدء والتاريخ، جـ ٦، ص ٤. ابن الأثير، الكامـل، م ٣، ص ٤٨٩. ابن كثير، البداية والنهايـة، جـ ٨، ص ٥٧. ابن خلدون، م ٣، ص ٣٠. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ١٣٨. وقد كان للربيع بن زياد أيضا دور بارز في حركة الفتـوح، حين كان عاملا لزياد على سجستان. (انظر البلاذري، فتـوح، ص ٥٥٩ (قالوا). قدامة ابن جعفر، الخراج، ص ٣٩٥. الذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ ١، ص ٥٣).

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩ (علي بن محمد بن عبد الله). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٤. ابن حزم، جوامع السيرة، ص ٣٤٩.

البوقان والقيقان وفتح قصدار وسباها وبث السرايا في تلك المنطقة(١).

وهكذا كـان زياد يوجه الجيـوش للفتوح، ويختار قـوادها من ذوي المكانة بين العشـائر والمقدرة العسكـرية، فقـد اختار الحكم بن عمـرو الغفـاري، والربيع بن زيـاد الحارثي، وسنان بن سلمـة الهذلي، وأمير بن أحمر اليشكـري، وراشـد بن عمرو الجديـدي الأزدي وغيرهـم من ذوي الكفـاءات والخبرة العسكرية. وكان زياد يضرب البعوث "على أهل السجون والشطار وكل من يلوذ به من أهل المصر من داعر وما أشبهه"(٢)، وهو في ذلك يدعم البعوث بعناصر فتية قادرة، كما أنه يتخلص من شغب تلك العناصر ومخالفـاتها اليوميـة في المصر، وكان زياد يـوصي قواده فيقـول: "تجنبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء وبطون الأودية"(٣)، لأن المسير في الشتاء يتطلب أحمالا وأثقالا اضافية من الزاد والخيم والأغطية، مما يضيف عبئـاً جديداً على المقاتلة، والقتال في بطـون الأودية مغامرة لا يمكن تقديـر نتائجهـا، وكان زيـاد يقول: "لم يعجبني فتح أتى على غير تقـدير"(٤)، فالتخطيط المسبق اجراء ضروري يتخذه كل قائد ناجح.

ولما كان زيـاد قد حقق نجاحاً كبيراً في تنظيمـه للمقاتلة ورعايتـه لهم، فقد أخذ عددهم يتـزايد وينمو حتى أصبح في البصرة والكوفة وحدهما مائة وأربعـون ألف مقاتل، وكان لابد لهذا الازدياد في العدد والارتفاع في المسـؤولية والاتساع في الفتوحات، من تطـور في تنظيم حياة الجند لتأمين راحتهم ورعاية أسرهـم وصيـانة ما يفتحون ومـا ينشئون من المدن، والواقع أن الأمويين اهتمـوا كثيراً بالتوسع والتطور حتى شمل كل نواحي الحياة في الدولة.

الشرطـة والحـرس

الشرطة فئـة من الرجال يعتمد عليهم الخليفـة أو الأمير في تثبيت سلطته في المصر، وضبط الأمن الداخلي، وحفظ النظام وسيادة القانـون وصيانة حقوق الرعية(٥)، وكان عمـر بن الخطاب أول من

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩-٦١٠ (ابن الكلبي). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٤. قدامـة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥.

(٢) ابن حبيب البغدادي، أسماء المغتالين من الأشراف، ضمن كتاب (نوادر المخطوطات) المجموعة السادسة، ص ١٦٦. ابن أعثم، الفتوح، م٢، ص ٣١١.

(٣) ابن عبد ربـه، العقد، جـ١، ص ١٣٢، جـ٥، ص ٧. النويـري، نهاية الأرب، جـ٦، ص ١٧٠. وانظـر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠١.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠١.

(٥) أنظـر: ليفي، دائرة المعارف الاسلاميـة، مادة (شرطـة)، جـ١٣، ص ١٩٣-١٩٤. حسـن ابراهيم حسن وعلي ابـراهيم حسن، النظم الاسلامية، ط ٣، مكتبة النهضة المصرية، القـاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢١٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا: حسن ابراهيم، النظم الاسلامية.

اتخذ عسس الليل، وهي قوة واجبها حفظ الأمـن والنظام، يرأسها رجل مهمته النظـر في المخالفات والجرائم التي تقع ومعاقبة مرتكبيها، وكان يصدر أحكامه وفقا للعرف[١].

ومعلوماتنا عن النشأة الأولى للشرطة في الأمصار الاسلامية مقتضبة وغامضة، ويظهر أن أول نواة لها في البصرة كانت من السيابجة، الذين وكُـلّ الى أربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الاشعري[٢]، وتطورت الشرطـة بعد ذلك تطـوراً تدريجيـاً، ففي عهد علي بن أبي طـالـب أنشئت قوة شرطة منظمة لحراسة المدينة، وقد لقب رئيسها بصاحب الشرطة[٣].

ويشعـر الوضع الأمني أيـام زيـاد أن الشرطة كـانت منظمـة تنظيما جيدا، وذلك بفضل ادارتـه وتوجيهاته، حيث عهد الى أفرادها بتنفيذ أوامره، ونشر الأمن ومطاردة اللصـوص والمتمردين وقطاع الطرق والمخـالفين، كما تولت الشرطـة حفظ الأمن ضد هجمات الخوارج على البصرة[٤]، وكان من واجباتهم أيضاً مراقبة الأسواق والموازين والمكاييل[٥]، وكانت الشرطة في أول عهـدها تتبع القاضي، وتتولى اقـامة الحدود، ثم انفصلت عن القضاء وأصبح رئيسها مستقـلا ينظر في الجرائم[٦]، وهكذا فان عمل الشرطـة كان محصوراً في المدينـة، ولم يُذكـر أنهم اشتركوا في حملات عسكريـة أو في عملية الفتح الى جانب المقاتلة الذين كان تنظيمهم يختلف عن تنظيم الشرطة، وكان عددهم بالبصرة زمن زيـاد أربعة آلاف رجـل، عليهم عبد الله بن حصن مـن بني عبيد الله بن ثعلبـة صـاحب مقبرة ابن حصن، وجعل زياد جعد بن قيس النميري لمراقبـة نشاط الفساق والمشبوهين في المصر[٧]، ويظهر من أسماء الشرطة الواردة في المصـادر المتوفرة، أن أفرادها كانوا من مختلـف القبائل العربية،[٨] وربما كان بعضهم من الأعـاجم أيضا، وليس لـدينا معلـومات عن رواتبهم زمن زيـاد، ومن المتوقع أنهم

---

(١) انظر: المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٢٣. ليفي، دائرة المعارف الاسلامية، مادة (شرطة) جـ١٣، ص ١٩٤.

(٢) البلاذري، فتـوح، ص ٥٢٣ (قالـوا). ويقال أن عددهم كـان أربعون رجـلا. (انظر الطبري، تـاريخ، جـ٤، ص ٤٦٨ (سيف)).

(٣) انظـر: الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٥٨ (الـزهري). مـولاي. أ. س. حسيني، الادارة العـربيـة، ترجمة ابـراهيم أحمد العدوي وعبـد العزيـز عبد الحق، المطبعـة النموذجية، القـاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٠٤، وسيشـار اليه عنـد وروده هكذا: حسيني، الادارة العربية. حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، ص ٢١٧.

(٤) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٢٢١ (قالوا).

(٥) حسيني، الادارة العربية، ص ١٠٥.

(٦) حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، ص ٢١٧.

(٧) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٧ (قالـوا). الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢-٢٢٣. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٥١. وانظر الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٢٥٦. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٧.

(٨) انظر مثلا البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٣٨٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف).

كانوا يتقاضـون رواتب مقننة ومخصصات منتظمة، مقدارها يزيد نسبيـاً عن عطاء المقاتلة(١)، ولعل أول اشارة ترد في هذا الصدد هي في أوائل عهد عبد الملك بن مروان، حيث يُذكر أن صاحب الشرطة أخذ عن عمله مائة ألف درهم(٢).

ونظراً لأهمية صاحب الشرطة كان زياد يشترط فيمن يختاره لهذا المنصب أن يكون مسنا عضّ على ناجذه "شديـد الصولة قليل الغفلة"(٣)، والواقـع أن اهتمام زياد باختيـار صاحب الشرطـة لحفظ الأمن كان من أهم العوامل لاطمئنان الناس على حياتهم وحقوقهم وما يملكون.

والمعلومات عن شرطة الكوفة أيام زياد أكثـر اقتضابا وغموضا، ولعلها كانت مثل شرطة البصرة في تكـوينهـا وتعدادهـا، أي أنها كـانت تتألف من أربعـة آلاف رجل من مختلـف القبائل العـربيـة بالكـوفة، وترد أول اشـارة الى عدد الشرطة في الكوفـة سنة (٦٠هـ/ ٦٧٩م)، في ولايـة عبيد الله بن زياد عند خروج الحسين بن علي من مكة، ويـذكر أنها كانت تتألف من أربعة آلاف رجل(٤)، ولعل هذا العدد كان موجـوداً أيام زياد ولم يتغيّر في زمن ابنه عبيد الله، وكان صاحب شرطـة زياد بالكوفة شداد بن الهيثم الهلالي(٥)، ويستدل من بعض الروايات، أن شرطـة الكوفة لعبت دورا بارزاً في عدد من القضايا التي واجهت هذا المصر، وخاصـة في قضية حجر بن عدي، وذلك حين أراد زياد القاء القبض عليه، من غير اثارة للشغب أو الفتنة(٦).

وكان زياد يخرج سريـره من قصر الامارة الى مسجد الكوفة، حتى يجتمع النـاس حوله(٧)، وكان مناديه ينادى في طرق الكوفة اذا ما أراد أن يُبلغ أمرا: "الاّ برئت الـذمة من رجل من العرفاء والشرط والحرس لم يحضر المسجد"(٨)، وهذا يدل على أن زيادا كان يبلـغ أوامره الى العرفاء والشرطة والحرس ليبلغوها الناس بعد ذلك. وكان من اعتماد زياد على الشرطة أنه لما عُين والياً على الكوفة، فكّر في أن يكون دخـوله إليهـا تحت حماية ألفين من رجـال الشرطة، ولكنه لم يفعل، وذلك لاعتقـاده بأن أهل الكوفة أهل حق ولا حاجة للشرطة(١)، والواقع أن زياداً أحسن في معاملتـه لأفراد الشرطة وقدمهم

---

(١) العلي، التنظيمات، ص ١٦٦.

(٢) البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ١٧٧ (عمر بن شبه).

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٥. ولمزيد من المعلومات أنظر: صالح درادكة، الحرس والشرطة في صدر الاسلام، مجلة دراسات العلوم الانسانية، تصدرها الجامعة الأردنية، م ١٤، العدد الرابع، نيسان ١٩٨٧م، ص ٩٢-٩٣

(٤) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٤٣.

(٥) خليفة بن الخياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٧ (الوليـد بن هشام). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٨ (أبو مخنف). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف).

(٦) انظـر: البلاذري، أنسـاب (احسان عبـاس)، ق ٤، جــ١، ص٢٤٨ (عن أبي مخنف). الطبري، تاريخ، جــ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٧) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٣.

(٨) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٤٠.

على غيرهم في بعض الأمور، فكانوا يحضرون الغداء والعشاء لدى زياد مع الصحابة والمقاتلة[٢].

وما من شك فقد كان للشرطة أيام زياد دور كبير في اشاعة النظام والأمن في مصري العراق، حتى أن أحداً لم يجرؤ على التقاط أي شيء متروك في الطريق، الى أن يعود صاحبه ويأخذه، وكان باستطاعة النساء النوم بمفردهن في بيوتهن دون أن يغلقن الأبواب، وأعلن زياد أنه يعدُ نفسه مسؤولا عن أي شيء يفقده المواطن عن طريق الاختلاس والسرقة[٣].

أما الحرس، فهم قوة عسكرية مهمتها حراسة الخليفة أو الوالي والسير في موكبه، وحماية دار الخلافة، ويعتبر معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الحرس[٤]، حيث لم يتخذ الرسول (ﷺ) أو أي من الخلفاء الراشدين حرسا خاصا له، ولعل معاوية مهد لظهور هذا الصنف من القوات على أثر محاولة قتله، فكان الحرس يقوم على رأسه اذا سجد[٥]، ولم تكن محاولة القتل التي تعرض لها معاوية قبل توليه الخلافة هي الدافع الوحيد الذي جعله يتخذ الحرس لحمايته، بل أن اتخاذ الحرس هو أحد مظاهر الحكم والأبهة التي تمتع بها الحكام البيزنطيين في بلاد الشام والتي تأثر بها معاوية . [٦]

وذكرت بعض المصادر أن زياداً أول من اتخذ الحرس وكان عددهم خمسمائة رجل، اتخذهم لحراسته وحراسة دار الامارة وللسير بين يديه بالحراب والأعمدة[٧]، والراجح أن زياداً كان أول من اتخذ الحرس من الولاة، وقد قلد معاوية في ذلك كمظهر من مظاهر الأبهة، لذلك قيل أن "أول من أخذ الناس بملك الأعاجم زياد" [٨].

وكان زياد يؤكد على أن يكون صاحب الحرس "مسنا عفيفا مأمونا لا يُطعن عليه" [٩]، وقد أسند

---

(١) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٧-١٩٨ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٢ (قالوا).

(٣) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٦. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٢ (مسلمة). العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠-٤٥١. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٢. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٣٣٠ (المدائني). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٩. ابن الأثير، الكامل، م ٤، ص ١١.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ١٤٩. ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٦.

(٦) حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، ص ٣٦.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٤. العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠. أبو الفدا، جـ ١، ص ١٨٥-١٨٦. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٨. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١، ص ٤٧٣. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧-١٤٨.

(٨) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٦، ص ٥٠٠ (عمرو بن ثابت). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٥٩.

(٩) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٥.

قيادة حرسه الى شيبان بن عبد الله صاحب مقبرة شيبان من بني سعد[1]. ولا نعرف شيئا عن القبائل التي ينتمي إليها أفراد هذا الحرس أو تنظيمهم، وما يتقاضون من رواتب، ولعل عناصر هذه القوة كانت تتألف من بعض رجالات القبائل العربية المؤيدة والمساندة للوالي، وخاصة أولئك الذين لم يكن لهم نصيب في العطاء، ولما كانت وظيفة الحرس تقتصر على حماية الأمير وحراسته، وتنفيذ أوامره والسير في مواكبه، وكذلك حراسة قصر الامارة، فهم اذاً لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق[2].

الدواويــــن

خَطَتْ الادارة العربية في العهد الأموي خطوات سريعة، وذلك بفضل امتداد الدولة الاسلامية، واطلاع المسلمين على معطيات الحضارات القديمة الأخرى ونقل أفكارهم، بالاضافة الى ما اكتسبوه وطوروه، فابتكروا وأبدعوا في هذا المجال، ولقد أدى اتساع الدولة وصعوبة ادارتها بديوان مركزي واحد الى وجود دواوين مستقلة في كل مصر، فكان في مصري والعراق (البصرة والكوفة) ابان ولاية زياد عدد من الدواوين، منها ما كان قديما طوّر فيه زياد، ومنها ما استحدث في عهده.

ويظهر أن خبرة زياد الأولى في عمل الدواوين سارت على خط ينسجم وطموحه فيما بعد، فلما أصبح واليا على البصرة أحسن ادارة الدواوين وتنظيمها، وكانت أهم الدواوين في الأمصار الاسلامية حينئذ : ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان البريد، وديوان الزمام.

أما ديوان الجند، فهو الديوان نفسه الذي أسسه عمر بن الخطاب لتسجيل أسماء الجند وتحديد العطاء لجميع المسلمين وخاصة الجند منهم[3]، وقد أصبح لكل مصر من الأمصار الاسلامية ديوان للجند، ففي العراق كان هناك ديوان للجند في كل من الكوفة والبصرة،[4]، وكان الانضمام الى الديوان اختياريا من حيث المبدأ، فلم تفرض الدولة على الفرد الانضمام الى الديوان الاّ وقت الضرورة، وفي العهد الأموي كان التسجيل في الديوان يلزم المقاتلة بالخروج[5]. وعمل زياد على تنظيم هذا الديوان، فصارت أوصاف الرجل الجسمانية تدوّن كاملة الى جانب اسمه في الديوان[6]، وقد مكّن نقل خمسين ألف من مقاتلة البصرة والكوفة الى خراسان سنة (٥١هـ/ ٦٧١م)[7] واستئناف الفتوحات في هذا الأقليم، مكّن زياداً من اضافة أعداد جديدة وكبيرة الى ديواني الجند في المصرين، يؤكد ذلك زيادة عدد المقاتلة في العراق.

ويعتبر ديوان الخراج من أهم الدواوين جميعاً ويتولى تنظيم الخراج وجبايته والنظر في مشكلاته

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٤.
(٢) انظر العلي، التنظيمات، ص ١١٣.
(٣) البلاذري، فتوح، ص ٦٣٠ (الواقدي). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٥٣. الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٢٠٩ (الواقدي). حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٦-١٦٧.
(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٥٠٤ (عمر بن شبه). الجهشياري، الوزراء، ص ٣٨.
(٥) الدينوري، الأخبار، ص ٢٧٢. الطبري، تاريخ، جـ ٦، ص ٢٣١ (أبو مخنف). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٤، ص ٢٣٧.
(٦) انظر الماوردي، الاحكام، ص ٢٠٣. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١٣، ص ١١٩.
(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٦. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٥.

وهو عماد المالية . وديـوان الخراج في البدء كان من الدواوين المحليـة التي وجدت في بعض الأمصار التي فتحها المسلمون(١)، وتظهر أهميته الأولى من أنه صـار يطلق عليه اسم الديوان(٢)، وهو الذي عرف منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، يذكـر الجهشياري "لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعـربية لأحصاء النـاس وأعطياتهم ، وهـذا الذي كان عمـر بن الخطاب قـد رسمه والآخر لـوجوه الأموال بالفارسية "(٣).

وكان في زمن الأمـويين ديوان مركـزي للخراج في مركـز الخلافة بدمشق ، ثم دواوين متفـرعة عن هذا الديوان في كل أقاليم الدولة الاسـلامية ، وكان ديوان خراج العراق من أهم وأبرز دواوين الخراج في الدولـة لما كان يدره سـواد العراق من أمـوال خراجية اعتمـدت عليها الخلافـة الأموية في تـوطيد نفوذهـا وسلطانها ، وقـد اهتم ولاة العراق بهذا الديـوان اهتماماً كبيرا ، ونظمـوه تنظيماً دقيقاً ، حيث أعدت فيـه ايصالات الصرف والاستـلام التي كانت تحفظ في سجلات خـاصة بها ، ولما كـان ديوان العراق في ولاية زيـاد يكتب باللغة الفارسية ، لـذلك فقد أكد على استخدام كتّاب هـذا الديوان من رؤساء الأعاجم العـالمين بأمور الخراج(٤)، وهـذا يشعر بـاهتمام زياد بخبرة ودرايـة موظفيـه في مجال عملهم ، اذ لم تتوفر بعد خبرات عربية في كل مجالات الدولة ، كما أنه كان من اليسير محاسبة ومعاقبة الأعـاجم اذا ارتشـوا أو أسـاءوا الأستغـلال دون أن يخشى تـدخل عشـائرهم أو حقـدهم على السلطان(٥)، وكان كاتب زياد على الخراج زادان فروخ من الأعاجم(٦).

أما ديوان الخاتم ، فكـان من مهامه تسجيل ما يصدر عن الخليفـة من أوامر أو رسائل ، ثم يختم قبل أن يرسل الى الولايات والامصـار والأقاليم ، وكانت الرسائل قبل انشاء هـذا الديوان تصدر غير مختومة بتـوقيعات الخليفة(٧)، روى الطبرى أن معـاويـة كـان أول من اتخذ ديـوان الخاتم لضبط المعاملات الماليـة وصيانة الوثائق الهامة ، وكـان السبب الذي دعاه الى ايجاد هذا الديـوان ، أنه أحال عمرو بن الـزبير على زياد بمائة ألف درهم ، فمضى عمـرو وقرأ الكتاب ولم يكن مختـوما فجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابـه الى معاوية أنكر هذا العدد ، فاكتشف معاوية عنـد ذلك تزوير عمرو وأمـر بحبسـه ، ولهذا السبب اتخذ معـاويـة ديوان الخاتم وقلـده عبـد الله بن محمـد الحميري وكـان قاضيا(٨)، فصارت الكتب بعد ذلك تصـدر عن الخليفة مختومة لا يدري أحـد ما فيها ، ولا يتمكن

(١) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٤ . الدوري ، النظم الاسلامية ، ص ١٩٥ .
(٢) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣٢ . الدوري ، النظم الاسلامية ، ص ١٩٥ .
(٣) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٣٨ .
(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ . البياسي ، الاعلام بالحروب ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .
(٥) انظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ (عوكل) .
(٦) خليفة بن خياط ، جـ ١ ، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام) . الجهشياري ، الوزراء ، ص ٢٦ .
(٧) انظر ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٠٧ .
(٨) الطبرى ، تـاريخ ، جـ ٥ ، ص ٣٣٠ . الجهشيـاري ، الـوزراء ، ص ٢٤-٢٥ . الصـولي ، محمـد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) أدب الكتّاب ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ ، ص ١٤٣ (القحذمي) ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : الصولي ، أدب الكتّـاب . العسكري ، الأوائل ، ص ٨٠-٨١ (الهيثم بن عدي) . الثعالبي ، لطائف المعارف ، ص ١٦ . ابن الاثير ، الكامل ، م ٤ ، ص ١١ . ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٩٧ .

أحد من تبديلها أو تزويرها[1]، فكان الغرض الاساسي من هذا الديوان الاحتفاظ بأسرار المكاتبات الصادرة عن مقر الخلافة الى الجهات المختلفة وعدم التلاعب في تلك المكاتبات.

ويروى البلاذرى أن زياداً "أول من أحدث ديوان خاتم وديوان زمام"[2]، وربما كانت فكرة تدوين هذا الديوان تعود لزياد ولكنها نسبت الى معاوية لتمام هذا الأمر في خلافته، ومن المؤكد أن زيادا عمل على ايجاد هذا الديوان في العراق ما دام الأمر قد وقع له مع معاوية، ومهما يكن فان إحداث هذا الديوان كان خطوة هامة في تنظيم شؤون الدولة، ليس في العاصمة فحسب بل سائر الأمصار الاسلامية.

ولم يقتصر حفظ النسخ الادارية وختم الأوامر قبل اصدارها على الحكومة المركزية وحدها، وانما اتبع الولاة الطريقة نفسها، واعتاد زياد أن يحفظ نسخا من جميع أوامره، عن المدائني أن زياداً "أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعل"[3]، وعمل ديوان الزمام أنه يخزن فيه نسخ من الوثائق المهمة بعد أن توقع من قبل صاحب التوقيع، ويتم التأكد من صحتها بمقابلتها مع الأصل، ثم تختم وتحفظ في الديوان[4]، وكان صاحب ديوان الزمام يعدُ تذكرة تتضمن ما جُني من الخراج، وما أنفق في وجوه النفقات فيعرضها على الأمير، فتختم التذكرة في حضرة الأمير أو أوثق الناس عنده[5].

وكان ديوان الرسائل أيضا من الدواوين الهامة في العراق، وتعود فكرة هذا الديوان الى زمن الرسول (ﷺ)، حيث كان يستعين في أمور دولته بكتّاب يكتبون له الرسائل والكتب الى الملوك والحكام يدعوهم الى الاسلام[6]، وحذا الخلفاء الراشدون حذو الرسول (ﷺ)، فكانوا يتخذون من بعض الصحابة كتابا لتدوين الكتب والرسائل. واستمر الحال كذلك الى أن اتخذ الأمويون ديواناً خاصا بالرسائل يخدم الادارة المركزية والادارات المحلية، ومهمته تحرير رسائل الخليفة ومراسلاته في الداخل، ومكاتباته مع الولاة والعمال في سائر أقاليم الدولة[7].

وكان في كل ولاية ديوان للرسائل خاص بالوالي، وقد أكد زياد على استخدام الكتّاب ممن يجيدون اللغة العربية حتى تصلح بهم الدواوين ولا تفسد[8]، وكان يكتب لزياد على الرسائل في البصرة عبد

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري، ص ١٠٧.

(٢) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٢ (قالوا). فتوح، ص ٦٥٠ (المدائني). المرزباني، نور القبس، ص ٣٩ (مسلمة).

(٣) البلاذرى، فتوح، ص ٦٤٩-٦٥٠. المرزباني، نور القبس، ص ٣٩ (مسلمة).

(٤) البلاذرى، فتوح، ص ٦٤٩ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٥٥.

(٥) البلاذرى، فتوح، ص ٦٤٩ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٥٥.

(٦) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ١، ص ١٢٥. عبد العزيز الدورى، النظم الاسلامية، ط ١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠م، جـ ١، ص ١٩٥، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الدورى، النظم الاسلامية.

(٧) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ١، ص ١٢٧. الدورى، النظم الاسلامية، جـ ١، ص ١٩٥. حسيني، الادارة العربية، ص ١٦٨.

(٨) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٢. الجهشياري، الوزراء، ص ٢٥.

الله بن أبي بكرة وجبير بن حية ومرداس[1].

هـذه أهم دواوين العراق في عهـد زياد، وهنـاك دواوين أخرى صغيرة أقل أهميـة من تلك التي ذكرناها، وهي بمثابة دوائر أو مؤسسات ادارية ومالية[2]، ويمكن القول أنه كان لزياد الدور الأول في تنظيم دواوين البصرة منذ البـداية، كما كان لـه دور في تنظيم دواوين البصرة والكوفة عنـدما ولي هذين المصرين معـا (٥٠-٥٣هـ/ ٦٧٠-٦٧٣م) أيام معـاوية بن أبي سفيان، وما ذكـره اليعقوبي من أن زيادا "أول من دوّن الـدواوين ووضح النسخ للكتب وأفرد كتّاب الرسـائل من العرب والموالي المتفحصين"[3]، هذا النص يشعر أن زيادا كان أول من دوّن الدواوين، ولكن الثـابت أن عمر بن الخطاب هو أول من دوّن الدواوين[4]، وما قول اليعقوبي هذا الاّ دلالة على أن زيادا أعاد النظر فيها ووضع أسسـا جديـدة لتنظيمها، كما أوجد ديـوانا جـديدا هـو ديوان الخاتم، مقلـدا في ذلك أميره معاوية الذي هو أول من أوجد هذا الديوان.

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٧ (الوليد بن هشام). الجهشياري، الوزراء، ص ٢٦.

(٢) انظر الدورى، النظم الاسلامية، جـ١، ص ١٩٦-١٩٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٤. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ١، ص ١٩٥. البيـاسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٨٩.

(٤) انظر الماوردي، الأحكام، ص ١٩٩.

الفصل الرابع
التنظيمات المالية والاقتصادية والعمرانية

التنظيمات المالية

* العطاء والرزق .
* موارد بيت المال .

التنظيمات الاقتصادية

* سياسة زياد تجاه الأراضي .
* التجارة والأسواق .

التنظيمات العمرانية

* المساجد .
* دور الامارة .

التنظيمــات الماليــة

العطـاء والــرزق

العطاء عبـارة عن مبلغ سنوي معين من المال، كـانت الدولة الاسـلامية تقـوم بصرفه للمسلمين لسد حـاجات معـاشهم، ولما كان العطـاء يعتمد على مـوارد الدولـة، فقد تطور مـن حيث المقدار والتنظيم بازدياد ونمو هذه الموارد، وقد ميّز الخليفة عمر بن الخطاب بين الناس في العطاء حين وضع الديوان على أسس عدة منها : قرب النسب من الرسول (ﷺ)[١]، والسابقة في الاسلام، ثم مقدار حاجـة الفرد. وقد خص عمـر المقاتلة الأولى بأفضليـة في العطاء، كما راعى بقية النـاس فيه بصرف النظر عن أصلهم أو مكانتهم، ولهذا كان عطاء الناس يختلف حسب سابقتهم في الاسلام، فالذين شهدوا بـدرا كان عطاؤهم أكثـر ممن أسلموا بعدهـا، وهؤلاء يأخـذون عطاءا أكثر ممن أسلمـوا بعد الحديبية[٢] وهكـذا، فقد أُعطي لكـل من شـهد بـدراً من الانصـار والمهاجـرين خمسـة آلاف درهـم وللذين لم يشهدوها منهم أربعة آلاف درهم[٣]، وفرض لأزواج النبي (ﷺ)، اثني عشر ألف وعشرة آلاف[٤].

أما في العـراق فقد أتبعت أسـس أخرى في تنظيم العطاء، حيـث فرض عمر لمن ولي الأيـام قبل القادسيـة ثلاثـة آلاف، وفرض لأهل القـادسية وأهل الشام ألفين، وجعل لأهـل البلاء منهم ألفين وخمسمائة، ولمن بعد القـادسية واليرموك ألفـا، ثم فرض للـروادف المثنى خمسمائة، وللروادف الثليث بعدهم ثلثمائة، وفرض للـروادف الربيع مائتين وخمسين، وفرض لمن بعـدهم وهـم أهل هجر والعباد على مـائتين، وجعل نساء أهل القـادسيـة على مائتين، وجعل الصبيـان سواء على مـائة[٥]. وكان العطـاء في عهد عمـر يـدفع في محرم مع بـداية السنـة الهجـرية، حيث كتـب عمر الى سعـد بن أبي وقاص، وعتبـة بن غزوان أن يدفعوا الأعطيـات في محرم من كل سنة[٦]، وفي عهد عثمان بـن عفان يذكر الشعبي أن الخليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة[٧].

---

(١) البلاذري، فتـوح، ص ٦٢٩-٦٣٠، ٦٤١ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٥٣. الطبري، تـاريخ، جـ٣، ص ٦١٣.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٦ (أبو معشر). البلاذري، فتوح، ص ٦٣٢ (الواقدي). الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٦١٤.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٦ (أبو معشر). البلاذري، فتوح، ص ٦٣٢ (الواقدي). الطبري، تاريخ، حـ٣، ص ٦١٤ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٠١.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٨ (الشعبي). أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣٠٧ (سعيد بن المسيب)، وسيشار اليه عند وروده هكذا : أبو عبيد، الأموال. البلاذري، فتوح، ص ٦٣٠ (الشعبي). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٥٣.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ٦١٤-٦١٥.

(٦) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٤٣ (سيف).

(٧) المصدر نفسه، جـ٤، ص ٢٤٥.

ومن المتوقع أن نظام العطاء هذا كان متبعا في كل الولايات الاسلامية ومنها العراق، ولهذا فان القواعد التي ذكرناها آنفا استمرت الى زمن زياد، ويبدو أن طبقة أهل الأيام اختفت أو كادت في عهد زياد، اذ لم ترد معلومات عنهم في هذه الفترة، بينما يشار الى أن معاوية ألغى علاوة أهل البلاء البارع في القادسية، يشعر بذلك ما ذكره السجستاني "كانت أعطيات الناس ألفين وخمسمائة، فكتب معاوية الى زياد أن ينقص الخمسمائة "[1]، ففعل، ولم يستثن من ذلك الاّ لبيد بن ربيعة العامري الشاعر الكوفي، حيث دفع له ألفين وخمسمائة درهم ولمرة واحدة فقط لأنّ لبيدا توفي بعد ذلك بقليل[2]. ولعل معاوية أنقص شرف العطاء، وجعله ألفين درهم لارتفاع سعر الفضة وازدياد قيمة الدرهم بالنسبة للدينار، فقرر تخفيض شرف العطاء في البلاد التي تتعامل بالدرهم حتى يوازي مقداره في البلاد التي تتعامل بالدينار. [3].

والواقع أن واردات العراق تناقصت منذ أن قتل عثمان نتيجة لاضطراب الأحوال وتوقف الفتوحات، وامتناع بعض المقاطعات عن دفع الخراج[4]، مما أدى الى تناقص دخل البصرة خاصة، وقد ضعفت قدرة بيت المال أيضا لكثرة الروادف الوافدة، فأدى هذا الى بروز مجموعتين متميزتين في الرعية: أحداهما تتمتع بالعطاء والأخرى محرومة منه، وكان هذا الوضع ينذر بحدوث تنافس وشقاق بين هاتين المجموعتين، مما قد يهدد وحدة العشيرة والأمن في المصر، وكان على زياد حل هذه المشكلة التي اعترضت سبيله، لذا فقد قام باجراءات عديدة لحلها، وذلك أن عمل على تدقيق سجلات أهل العطاء، وحذف أسماء الموتى[5]، ونقل خمسين ألفا من مقاتلة المصرين الى خراسان ولا بد أنه كان بين هؤلاء المنقولين عدد كبير ممن كانوا يأخذون العطاء، وربما نُقلت بعض العشائر جميعها أو قسم منها، وبذلك أفسحت مجالا ليحل محلها جماعات أخرى لم تكن تأخذ العطاء[6]، وقد كان لهذا تأثير كبير في تنظيم العطاء والتنظيم المالي.

ومن الاجراءات التي اتخذها زياد لحل مشكلة العطاء أيضا، اعادة تنظيم المدينة المالي على نسق تنظيمها الاجتماعي القائم على النظام العشائري، وذلك بأن جعل لكل عشيرة وحدة مالية مستقلة بذاتها، وأقام عليها عريفا مسؤولا عن تسليم العطاء وتوزيعه على أفراد العشيرة[7]. ويبدو أن زياداً حاول حل هذه المشكلة بتوزيع عبء الروادف على عشائرهم، قال الشعبي: "كانت حُطْمَةُ زياد

---

(١) السجستاني، سهل بن محمد (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م)، المعمرون والوصايا، تحقيق عبد المنعم عامر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٦ (قالوا)، وسيشار اليه عند وروده هكذا: السجستاني، المعمرون والوصايا. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص٣٢٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ٣٢٦. وانظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٦٨.

(٣) العلي، التنظيمات، ص١٥٢.

(٤) انظر مثلا: الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص١٣٧.

(٥) العلي، التنظيمات، ص٤٩.

(٦) المرجع نفسه، ص٤٩.

(٧) المرجع نفسه، ص٤٩.

فقال للعرب : ان عشائركم قد وردت علينا ، فاختاروا أن نأخذ نصف أعطياتكم وأرزاقكم فنقوتهم بها مع ما لهم عندنا ، أو تكفينا كل عشيرة من فيها ، فمنهم من ضم عشيرته ، ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله "(١)، يفهم من هذا النص أن المقدار الكلي للعرافة الواحدة (العشيرة) ظل ثابتا رغم زيادة عدد أفرادها ، وان استيعاب أعداد جديدة من أفراد العشيرة لابد وأن يقابله نقصان في مقادير عطاء أفرادها ، على أن زيادا حلّ بهذا الاجراء مشكلة العشائر الوافدة على البصرة ، وتمكن من فرض العطاء لعشرين ألف مقاتل من أهل الكوفة(٢)، وأربعين ألف مقاتل من أهل البصرة .(٣).

ويبدو أن زياداً لم يكن يلحق جميع عيالات المقاتلة في العطاء ، يدل على ذلك أن عدد مقاتلة البصرة أيام زياد كان ثمانين ألفا ، وعيالاتهم مائة وعشرين ألفا ، وعدد مقاتلة الكوفة في الفترة نفسها كان ستين ألفا وعيالاتهم ثمانين ألفا ،(٤) اذ يتوقع أن يكون لهؤلاء المقاتلة ذراري من هذه الأعداد ، وبناء على ذلك فانه يحتمل أن يكون زياد قد فرض لواحد أو اثنين من أبناء المقاتل فقط ، وكان مقدار عطاء الذرية في البصرة أيام زياد ستة عشر ألف درهم في السنة ،(٥) يوزع عليهم في ذي الحجة(٦).

كان صرف العطاء في موعده من أبرز معالم سياسة زياد المعلنة ، فقد وعد أهل البصرة في خطبته البتراء بدفع العطاء في موعد ثابت فقال : "ولا حابساً عطاء ولا رزقا عن أبّانه "(٧). وحين وليّ الكوفة وعد أهلها بمثل ما وعد به أهل البصرة، حيث قال لهم : "لن أحبس لكم عطاء ، ولا أحرمكم رزقا "(٨)، وذكر عبد الملك بن عمير أن زياداً كتب في صدر مجلسه "الأعطية لإبّانها ، والأرزاق لأوقاتها "(٩) ويبدو أن زيادا قد تنبه – بحكم خبرته الطويلة بديوان البصرة – الى مشكلة دفع العطاء التي واجهت المغيرة بن شعبة من قبل(١٠)، فحاول تجاوزها وذلك عن طريق دفع العطاء

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٣٧.

(٢) انظر البلاذري، فتوح، ص ٤٨٨ (القحذمي). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٨ (العتبي). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٤.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٨ (العتبي).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٨ (القحذمي). ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٨ (العتبي). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٤ (القحذمي).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٨–٢١٩ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٨.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ٢١٩ (الحسن البصري).

(٧) الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٤. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن عبد ربه، جـ ٤، ص ١١٢ (أبو بكر الهذلي).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٨ (الحسين بن علي العجلي).

(٩) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ٢، ص ٢١١. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٧ (العتبي). ابن عبد البر، بهجة المجالس، م ١، ق ١، ص ٣٣٤.

(١٠) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٤ (قالوا). الطبرى، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٤–٢٥٥ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣.

على قسطين، فيذكر الحسن البصري أن زيادا "كان اذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فملأوا بيوتهم من كل حلو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، واذا كان ذو الحجة أخرج أعطية الذرية "(١)، وهكذا أوجد زياد نظاما لتوزيع العطاء ولم يتقيد بنظام عمر بن الخطاب، الذي دعا الى توزيعه في المحرم، وذلك أن شهر محرم في ولاية زياد كان يصادف الأشهر (٣، ٢، ١)(٢) أي قبل موسم الجباية في العراق، لذلك غيّر موعد توزيع العطاء ليتلاءم وموسم الجباية، فصار يدفع عطاء المقاتلة الذي يؤلف القسم الأعظم من الأموال التي تصرف في العطاء، في شهر شعبان الذي كان يصادف في ولايته الأشهر (١٠، ٩، ٨، ٧)، أي بعد جباية خراج الحبوب والكروم في العراق، ويدفع عطاء الذرية، وهو أقل مقداراً من عطاء المقاتلة في ذي الحجة(٣)، الذي يصادف الأشهر (٢، ١، ١٢، ١١)(٤)، أي في موعد جباية خراج التمور التي تعتبر من ا لمحاصيل الرئيسة في العراق(٥).

هكذا استطاع زياد تنظيم العطاء في ولايته وتوزيعه في مواعيد ثابتة دون تأخير، وذلك بمراعاة موعد جباية الخراج والجزية، وتبرز أهمية هذا التنظيم في ربط زياد بين دفع العطاء في شهر معلوم وبيع البائعين الى شهر معلوم، قال زياد لمعقل بن يسار معبرا عن ارتياحه تجاه هذه السياسة: "ألست تعلم أن الاسواق قائمة، وأن السبل آمنة، وأن الأعطيات تخرج الى شهر معلوم، ويبيع البائع الى شهر معلوم؟ قال: بلى، قال: فللّه الحمد لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا"(٦)، واذا كان توزيع العطاء في موعده زمن زياد قد ساهم في تنشيط الحركة التجارية، وتحسين الأحوال الاقتصادية فان تأخير العطاء في العهود اللاحقة أدى الى حدوث مشاكل بين التجار وبين المدينين من أصحاب العطاء، وذلك أن دفع العطاء في موعده لم يكن دائماً أمراً ميسوراً(٧).

وكان زياد يدعو أهل العطاء الى التوفيق بين مقدار عطائهم ومتطلبات حياتهم من غير مغالاة في العيش، فكان يقول: "ما بالُ أحدكم يأخذ عطاءه ومؤونته خفيفة ثم يَدّانُ؟ تعهدوا معايشكم وأصلحوا ما تحتاجون اليه من أموركم"(٨). وقد أثنى أهل العراق على زياد لوفائه بوعده في دفع العطاء في موعده المحدد، فيذكر جرير بن حازم البصري أن زياداً قضى على الفساد الذي كان

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص٢١٩.

(٢) زامباور، معجم الأنساب، ص٥٢٣.

(٣) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص٢١٩.

(٤) زامباور، معجم الأنساب، ص٥٢٣.

(٥) لمزيد من المعلومات أنظر هاني حسين أحمد، العطاء في صدر الاسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م، ص ١٥٠-١٥٢. جمال جودة، العرب والارض، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٦) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٩ (الحسن البصري).

(٧) العلي، التنظيمات، ص١٥٨.

(٨) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٩ (مسلمة).

سائداً في البصرة قبيل ولايته " وأدر العطاء "(١)، وأثنى المدائني على زياد بقوله : "وساس الناس سياسة لم يُرَ مثلها ... وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق "(٢)، وقال سبرة بن نخف : "ما بلغ الناس عاشوراء قطّ في أيام زياد الاّ وطائفة يأخذون العطاء، ولا رأينا الهلال الاّ مضينا الى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا "(٣).

وقد بلغ وارد البصرة أيام زياد ستين مليون درهم، يدفع منها ستة وثلاثين مليون عطاءا للمقاتلة، وستة عشر مليون للذرية(٤)، أما الكوفة فقد بلغ واردها في الفترة نفسها أربعين مليون درهم، يُدفع منها ستة وثلاثين مليون درهم في عطاء المقاتلة والذرية .(٥) وقد لاقى زياد احتجاجا من قبل أهل البصرة عندما أراد إرسال الأموال الى بيت المال المركزي قبل دفع عطاء المقاتلة وسد نفقات المصر، مما اضطره الى دفع العطاء وسد النفقات أولا ثم ارسال ما تبقى الى الشام(٦).

وسار زياد على سياسة معاوية في وقف العطاء عن الخارجين عن سلطة الدولة(٧)، والمقاتلة الذين يتقاعسون في القتال وعند قمع الثائرين، فقال لأهل البصرة عندما خرج قريب وزحاف الخارجيان بها : "يا أهل البصرة والله لتكفنّي هؤلاء أو لأبدأن بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما " فثار الناس بهم وقتلوهم(٨).

أما عن طريقة توزيع العطاء، فكان يُدفع الى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعه هؤلاء الى أهله في دورهم(٩)، وتبين رواية سيف الفريدة لدى الطبري أن كل عرافة كان يخصها مائة ألف درهم، وأن عدد العرافات متباين(١٠)، والواقع أنه لا توجد نصوص واضحة عما كان مخصصاً لكل عرافة بعد تنفيذ تنظيمات زياد(١١)، وربما كانت الدولة تلجأ الى انقاص ما يصيب كل عرافة في حالة انخفاض وارداتها وعجزها عن سد تكاليف العطاء كاملة، ويبدو أن الدولة كانت في مثل هذه الحالة تفضل بعض العشائر على غيرها، يستدل على ذلك من نقل زياد لديوان حارثة بن بدر الغداني الى ديوان قريش لكي يحصل على الامتيازات التي تتمتع بها قريش(١٢).

وتشعر الفترة التي أعقبت ولاية زياد على العراق، وما صحبها من زيادة طفيفة في أعداد المقاتلة

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٦.
(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٢. العسكري، الأوائل، ص ٢٤١. ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٥١.
(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٩.
(٤) البلاذري، أنساب (احساب عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٨-٢١٩ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٨.
(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٩ (المدائني).
(٦) الأصفهاني، الأغاني، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي). العلي، التنظيمات، ص ١٧١.
(٧) انظر الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٢٤.
(٨) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣
(٩) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٤٩ (عطية بن الحارث). العلي، التنظيمات، ص ٤٨
(١٠) انظر الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٤٩. المقريزي، خطط، جـ١، ص ٩٣.
(١١) يقدر الدكتور صالح العلي ما خصص لكل عرافة في تنظيمات زياد بنصف مليون درهم. (أنظر التنظيمات، ص ١٦٤)
(١٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٢٩. الاصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٤٧ (أبو اليقظان).

بعدم اقبـال كثير من العرب لـلانضمام الى الديـوان ، ولعل هذا يعـود الى تناقص أهميـة الـديـوان من الناحية الاقتصادية ، حيث لم يعد مقدار العطاء مغريا كما كان في العهد الراشدي ، اضافة الى تحديد الـدولة لعـدد الذراري الـذين يفـرض لهم في الديـوان ، مما جعـل العرب يتجهـون الى مزاولـة المهن التجارية كمورد إقتصادي .

لقد أضـاف الخلفاء الى العطـاء الذي كان يُعطى للمقـاتلة مقـداراً معيناً من المواد العينيـة توزع عليهم في كل شهر، وقـد قرر عمـر بن الخطاب أن يعطي لكل فرد من المقـاتلة جـريبين من الحنطة شهرياً رزقا له[1]، وقد قدّر ذلك على أساس مقدار حاجة الفـرد ، ولم تكن كمية الرزق هـذه ثابتة في كل الأوقات ، بل كانت تتغير تبعاً للأحوال السياسية والظروف الاقتصادية .

وقد عنُي زياد بتنظيم الأرزاق عناية كبيرة ، فأنشأ دار الرزق في البصرة[2]، لحفظ وتخزين الحبوب والمواد العينية حتى يحين موعد توزيعها على الناس ، وكـانت دار الرزق واسعة ، لذلك عرفت أحياناً باسم (مدينة الرزق) أو (قرية الرزق) ، وسعتهـا ضرورية لاستيعاب ما يودع فيها من مواد[3]، وتقع دار الرزق في الطرف الشمالي الشرقي من مـدينة البصرة ، وكان عامل زيـاد عليها عبد الله بن الحارث ابن نوفل ، ثم رواد بن أبي بكرة[4].

كان مقدار ما يأخـذه الفرد من الرزق في ولاية زياد ثابتا كما كان أيام الخلفـاء الراشدين يدل على ذلك أن رزق العيل في أيام زياد كـان جريبين حنطة في الشهر[5]، ويؤيد هذا أيضاً قول عمران بن حطـان الخارجي ، يصف أهل البصرة حين سمـع بعضهم يقـول : مـا لنـا وللخـروج وأرزاقنـا دارة وأعطياتنا جارية :

فلو بعثت بعض اليهود عليهـم ... تؤمهـم أو بعـض مـن قـد تنصـّرا
لقالوا : رضينا إن أقمت عطاءنا ... وأجريت ما قد سُن من بُرّ كسكرا[6]

ووزعت أحيانـاً إضافة للحنطـة مواد أخرى ممـا كان يؤخـذ من أهل الجزية على سبيل التسهيل عليهم في الدفع ، فيذكر سبرة بن نخف البصري أن زياداً كان " يأخذ الجزية ممن عجز عن الدراهم

---

(١) أبو يـوسف ، الخراج ، ص ٤٧ . البلاذرى ، فتوح ، ص ٦٤٥ (حـارثة بن المضرب) . الطبرى ، تـاريخ ، جـ ٣ ، ص ٦١٥ . ابن الأثير، الكـامل ، م ٢ ، ص ٥٠٤ . الجريب يساوي (٣٦٠٠) ذراع مـربع ويقصد بـه ما ينبت في تلك المسـاحة (انظر جرجي زيـدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ٥ جــ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ، وسيشـار اليه عند وروده هكذا : زيدان ، التمدن الاسلامي) .

(٢) البلاذرى ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جــ١ ، ص ٢١٤ (المدائني) . ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩١ . الطبرى ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٢٢ (المدائني) . العسكـري ، الأوائل ص ٢٤١ (المدائني) . ابن الاثير، الكامـل ، م ٣ ، ص ٤٥١ .

(٣) العلي ، خطط البصرة ، ص ٩٦ .

(٤) البلاذرى ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢١٤ (المدائني) .

(٥) البلاذرى ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ (الشعبي) .

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٦١ .

عروضا، فكانت خزائننا مملوءة من ذلك "(١).

وكان الناس يأتون بأنفسهم لأخذ أرزاقهم وأرزاق عيالهم من دار الرزق، قال سبرة : كنا اذا رأينا الهلال أيام زياد "مضينا الى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا "(٢)، وكان بعض المقاتلة يكلفون خدمهم أحياناً باستلام أرزاقهم، ذكر المدائني أن الناس شكوا الى زياد نقصان المكاييل التي يرزقون بها، فبعث زياد من يراقب الخدم الذين يستلمون أرزاق مخدوميهم، فوجدهم يشترون من أرزاقهم بعض الطير أو الجلود واللُّعب لأنفسهم فخطب زياد في الناس وأنبأهم بما يعمل خدمهم، وأمرهم باستلام أرزاقهم بأنفسهم(٣).

وقد أجرى زياد أرزاقاً خاصة على أشراف القبائل والأشخاص المعروفين بولائهم المطلق لبني أمية، فيذكر عمر بن شبه النمري البصري أن زياداً "كتب خمسمائة من مشيخة أهل البصرة في صحابته فرزقهم ما بين الثلثمائة الى الخمسمائة "(٤).

واعتاد زياد أن يجلس كل يوم - عدا يوم الجمعة - فيسأل رسل عماله عن بلادهم وأحوالهم المعاشية، ثم يأتي عماله على دار الرزق والسوق، فيسألهم عما ورد دار الرزق وعن الأسعار، وما يحتاجون اليه من شؤونهم ومصالحهم.(٥)

موارد بيت المال

كان لولاية العراق موارد مالية معينة وثابتة تستطيع بواسطتها دفع عطاء الجند ورواتب الموظفين والقيام بالخدمات العامة، وكانت هذه الموارد تتكون من : الخراج والغنائم والجزية والزكاة والعشور.

أما الخراج فهو أهم موارد الدولة المالية، ويعود الفضل في تنظيمه تنظيماً دقيقاً الى الخليفة عمر بن الخطاب، الذي عين أشخاصاً من ذوي الكفاءة والخبرة لمسح أراضي الأقاليم والولايات الاسلامية، وذلك ليتسنى له فرض الخراج على هذه المناطق بصورة عادلة، وقد أرسل عمر لمسح السواد ولإحصاء أهله وتقدير الخراج والجزية عليهم عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان(٦) ففعلا ذلك، وعندما قدما الى عمر سألهما عن مقدار الخراج الذي وضعاه، فاطمأن على أن ما وضعاه كان عادلا ومناسبا، وقد عبّر عمر عن ارتياحه تجاه ذلك بقوله : "أما لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا يحتجن الى أحد بعدي "(٧)، ويتبين من هذا عدم وجود قواعد ثابتة للخراج، فقد ترك الخليفة عمر

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٩.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٩.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٣.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٤ (المدائني).

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٠-٤١ (الشعبي). البلاذري، فتوح، ص ٣٧٦ (أبو مجلز). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٥٢. وضع على جريب الزرع درهماً وقفيزا وعلى الكرم عشرة دراهم، وعلى الرطبة خمسة دراهم، وعلى الرجل اثني عشر درهما، وأربعة وعشرين درهما وثمانية وأربعين درهما. (انظر أبو يوسف، الخراج، ص ٣٨ (الشعبي)).

(٧) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٠ (عمرو بن ميمون الأودي).

تقدير خراج السواد لعثمان وحذيفة[1].

ويظهر أن تنظيم عمر هذا بقي طيلة الخلافة الراشدة، وصدرا من الخلافة الأموية دون أن يلحق به أى تغيير، على أن الأمويين وان أخذوا بمسوحات عمر إلا انهم عملوا على توسيعها وتطويرها، وابتكروا وحدات قياسية جديدة كان لها أثر كبير في تحديد المساحات الأرضية، ومن ذلك المسح الذي قام به زياد[2].

لقد شهد العراق أيام زياد استصلاحا في الأرض، واستقراراً ملحوظاً في مقدار الخراج، وذلك بفضل سياسته الحكيمة في الجباية، فقد أحسن السيرة في الفلاحين وأهل الخراج، وأمر بعدم التشدد في تحصيل الخراج منهم ومراعاة ظروفهم، وكان يقول: "أحسنوا الى المزارعين فانكم ما تزالون سمانا ما سمنوا"[3]. ويُذكر أن عاملا له جبى السنة في ثلث السنة، فقال له زياد: "لو أردنا هذا لقدرنا عليه فأردد عليهم ثلثي ما جبيت"[4]، وهذا يشعر بشدة زياد في مراقبة عماله ومحاسبتهم في كل عام على ما يصير في أيديهم من الأموال، وفي ولايته استمرت جباية الخراج بيد الدهاقين لخبرتهم ومقدرتهم المالية، فكان زياد يقول: "ينبغي أن يكون كتّاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج"[5]، ويبدو أن زياداً لم يدع العرب يتدخلون في ذلك، خوفاً من تجاوزاتهم وصعوبة محاسبتهم في الأمور المالية، على أن زياداً كان يعين عمالا مستقلين عن الولاة والقواد للقيام بجباية الخراج[6]، وكان هؤلاء العمال أو الموظفين عادة من العرب الذين لديهم الأمانة والكفاءة الخاصة للقيام بهذا العمل، ولعل زياداً زاد في رواتب هؤلاء الموظفين حتى لا يلجأوا الى الاختلاس، وقد ألزم زياد السكان بدفع الوافي من الدراهم وزن المثقال، وكانوا في أيام عمر يدفعون الدراهم عدا، وأخذوا يستبدلون بالوافي الدرهم الذي يزن أربعة دوانق[7].

ولدينا معلومات مفصلة عن مقدار الخراج وحجم المصروفات في مصرى العراق أيام زياد، فيروى البلاذري عن المدائني عن مسلمة، أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف درهم فيدفع منها ستة وثلاثين ألف ألف للمقاتلة، ويعطي الذرية ستة عشر ألف ألف، وينفق على الشؤون والمشاريع العامة ألفي ألف، ويحفظ في بيت المال احتياطا للبوائق والنوائب ألفي ألف،

---

(١) الدورى، النظم الاسلامية، جـ١، ص ١١٤.

(٢) الماوردي، الاحكام، ص ١٥٣. هنتس، المكاييل والأوزان، ص ٨٨.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ١، ص ١٠. وانظر البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٣. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٢٩٥. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ١٩٨.

(٤) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٣.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٤. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٨٩.

(٦) انظر مثلا: الطبرى، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٦ (المدائني). الاصفهاني، الأغاني، م ١٢، ص ٣١١ (محمد بن سلام). الصابىء، الهفوات النادرة، ، ص ٣٩٧ (ابن سلام).

(٧) العسكري، الأوائل، ص ٢٣٨ (عبد الله بن سليمان). وانظر الماوردي، الأحكام، ص ٨٠-٨١.

ويرسل الى بيت المال المركزي في دمشق أربعة آلاف ألف درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف درهم سنويا، ويرسل الى بيت المال بدمشق ثلثي الأربعة آلاف ألف، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة[1]، ويستدل من تفاصيل المصروفات وما كان يدفع لبيت المال المركزي من واردات البصرة، أنه كان يحمل من الكوفة الى دمشق ما مقداره مليونين وثلثي المليون درهم على اعتبار واردات الكوفة أربعين ألف ألف، أي ما نسبته ثلثي واردات البصرة والبالغة ستين ألف ألف.

واذا أخذنا بعين الاعتبار تفوق البصرة على الكوفة فيما يتعلق بتعداد السكان والمقاتلة[2]، فان نسبة الواردات والمصروفات في المصرين تكاد تكون متقاربة، الاّ أن الظروف الاقتصادية في البصرة واتساع فتوحها جعلها أكثر غنى ورفاها من الكوفة، وقد أحسن زياد استعمال الأموال التي كان يرصدها لسد النفقات في المصرين، اذ استثمرها في المشاريع العمرانية والانتاجية كحفر الأنهار والقنوات، واستصلاح الأراضي، وانشاء الطرق والمباني العامة وغيرها من الخدمات الضرورية والتي سيأتي ذكرها.

ومع أن رواية البلاذري لم تذكر نفقات جباية الكوفة، الاّ أن مجموع الجباية في المصرين بلغ مائة وعشرة آلاف ألف درهم، وهذا الرقم قريب لما ذُكر عن جباية العراق زمن معاوية، ذكر اليعقوبي أن خراج السواد استقر أيام معاوية على مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم[3]، وذكر المبرد أن زيادا "جبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف ألف"[4]، وروى الصولي عن القحذمي أن زياداً جبى السواد مائة ألف ألف[5]، وبالنظر فيما أورده اليعقوبي والمبرد والصولي فانه من المرجح أن ما رواه البلاذري، انما هو تفاصيل لواردات ومصروفات مصرى العراق في سنة من سنوات ولاية زياد، ولا ينطبق ذلك على جميع سنوات ولايته، تشعر بذلك هذه الفروق البسيطة بين ما ذكره هؤلاء الرواة، وربما يكون ما نقله كل منهم يخص سنة معينة من سنوات ولاية زياد على العراق.

لقد كانت القاعدة العامة في النظام المالي الاسلامي، أن يخصص لكل مصر ما يجبى من المقاطعات التي فتحها مقاتلة ذلك المصر، وعلى هذا كانت جباية المقاطعات والمناطق التابعة ادارياً للعراق تجمع في بيوت المال الموجودة في المدن الرئيسة، ثم تحمل تلك الأموال مختومة[6] الى المركز الرئيسي في المصر (بالكوفة أو البصرة)، وبعد أن يستخرج من هذه الأموال أعطيات الجند ونفقات الولاية اللازمة يرسل الباقي الى دمشق[7].

وقد اهتم زياد اهتماما كبيراً بالخراج، لما كان يدره سواد العراق من أموال اعتمدت عليها ولاية العراق، وعملا على تطوير وتنمية هذا المورد، كان زياد يضع قسطاً منه لمن يزيد في عمارة

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٨-٢١٩.
(٢) انظر تعداد المقاتلة في البصرة والكوفة زمن زياد، ص ١٥٢ وما بعدها.
(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٣.
(٤) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٦١. الآبي، نثر الدر، جـ٢، ص ١٢٤. الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٤٤٠.
(٥) الصولي، أدب الكتاب، ص ٢٢٠.
(٦) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٢ (المدائني).
(٧) انظر اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٣. الراوي، العراق في العصر الأموي، ص ٧٨-٨٩.

الأرض(١)، وهذا لا يعني أنه كان يضع الخراج عن الأراضي الخراجية كلها أو بعضها، فيذكر أن أرض ميسان ودستميسان كانت خراجية، فاعترض أهلها على سياسة زياد وقالوا: "البصرة من أرضنا، فحط عنا من خراجنا بقدر ما في أيدي العرب" ولكن زياد رفض طلبهم(٢). وكان من اهتمامه بهذا المورد أن "ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤونته"، فبقي حتى أسقطه بنفسه(٣).

لقد استعان معاوية في تدبير أمور دولته ببعض واردات العراق المالية، وكان زياد يرسل اليه الأموال والهدايا النفيسة طيلة ولايته على العراق حتى صار بيت المال المركزي يتمتع بوضع مالي جيد، وقد عبر زياد عن دوره في ذلك حين قال لمعاوية: "أنا والله يا أمير المؤمنين أقمت لك صعر العراق وجبيت لك مالها، وألفظت اليك بحرها"(٤)، وكان أهل العراق يغارون كثيراً على بيوت أموالهم، فاذا ما حاول الولاة تحويل شيء الى العاصمة قبل سد نفقات المصر فانهم يحتجون ويحولون دون ذلك، وهذا ما حدث بالفعل عندما أراد كل من زياد وحمزة بن الزبير إرسال الأموال من البصرة الى بيت المال المركزي قبل دفع عطاء المقاتلة، اذ أجبر أهل البصرة هذين الأميرين على دفع وسد نفقات المصر أولا، ثم ارسال ما قد تبقى(٥).

وكانت الغنائم موردا هاماً من موارد بيت المال، ولا سيّما في عصر الراشدين وبداية العصر الأموي عصر الفتوحات الاسلامية الواسعة، حيث كانت الغنائم في هذه الفترة كبيرة جدا، وكانت الدولة تأخذ الخمس من هذه الغنائم، وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلة(٦)، وذلك عملا بقوله تعالى ﴿واعلموا إنّما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول﴾(٧). وقد اهتم زياد اهتماماً كبيراً بالغنائم لكونها تشكل مورداً مالياً جيدا وان كان غير منتظم كالخراج والجزية، وكان معاوية يوعز الى زياد بأن يهتم بهذا المورد، فلما علم الاخير بخبر انتصارات الحكم بن عمرو الغفاري عامله على خراسان، واحرازه لغنائم كثيرة كتب اليه: "أما بعد فان أمير المؤمنين كتب اليّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهبا ولا فضه"، ولكن الحكم أنكر أن تستصفى الغنائم لبيت مال الخليفة فكتب الى زياد "اني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين وانه والله لو كانت السماوات والأرض رتقا على عبد فأتقى الله لجعل له منها مخرجا"، ثم أمر المنادي فنادى في الناس أن

---

(١) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، جـ١، ص ١٦٨. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣١. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله، ٢جـ، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٧م، جـ١، ص ٣٢٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن الجوزي، المصباح المضيء.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٥ (المدائني).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٤٨٢.

(٤) ابن دريد، المجتنى، ص ٢٤ (العتبي). الجهشياري، الوزراء، ص ٢٧. ابن خلكان، وفيات، م ٦، ص ٣٥٩. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥١. وانظر الآبي، نثر الدر، جـ٣، ص ٣٨-٣٩. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ٢٢، ص ٣٧٢ (العتبي). العلي، التنظيمات، ص ١٧١.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص ١٩. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٦١٨ (سيف).

(٧) سورة الأنفال، آية ٤١.

يغدو على غنائمهم ليقتسموها، فقسمها بينهم بعد أن عزل خمسها[1]، ولم يعمل الحكم بما أمر به الخليفة من أمر يجحف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال، ذلك لأنه رأى في ولايته ما لم يراه الخليفة ولا عامله الأكبر زياد.

ولقد أرجع الأمويون بعض الضرائب الساسانية التي كان عمر بن الخطاب قد ألغاها أو أهملها وهي هدايا النوروز والمهرجان، وهذه الضرائب اعتاد الساسانيون تقديمها الى ملوكهم في عيدي النوروز والمهرجان، ففعلوا، وكان معاوية أول من أعادها حيث " طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا، فبلغ ذلك عشرة آلاف ألف درهم "[2]، وظلت هدايا النوروز تجبى من الناس حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطل هذه الضريبة[3].

---

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ٢٨-٢٩ (الحسن البصري). البلاذري، أنساب (احسان عباس) ق ٤، جـ١، ص ٢٢١-٢٢٢ (الحسن). اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥١-٢٥٢ (عمر بن شبه). ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٥٨ (الشعبي).

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص ٢٤. وانظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٨. الدوري، النظم الاسلامية، جـ١، ص ١٤٢.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٦، ص ٥٦٩ (داود بن سليمان الجعفي).

التنظيمات الاقتصادية

سياسة زياد تجاه الأراضي

تعتبر الزراعة أهم مظاهر الحياة الاقتصادية في العراق، وقد حتمت جغرافية العراق أن تكون الزراعة حرفته الأولى، لخصوبة ترتبه ودوام جريان أنهاره واعتدال مناخه. والواقع أن الزراعة لم تنل العناية اللازمة في العراق حين استوطنها العرب أول أمرهم حيث كانوا جنوداً محاربين مستعدين للقتال في أي وقت، والزراعة كما نعلم تحتاج الى الاستقرار والسكنى قرب المناطق الزراعية، وقد يؤدي هذا الاستقرار الى فقدان الروح العسكرية لدى أفراد القبائل العربية القادمة الى العراق، ولهذا فقد ترك العرب الأراضي الزراعية بيد سكانها الأصليين المعروفين بـ (النبط) وكانوا منتشرين في سواد العراق.

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بُذلت محاولات ومجهودات - منذ عهد مبكر، يرجع الى أيام الخليفة عمر بن الخطاب - لاستصلاح الأراضي واتاحة التسهيلات الواسعة للزراعة، ومن ذلك ارسال عمر لعثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان الى العراق(١)، لمعرفة مقدار الأراضي الزراعية وفرض الخراج عليها، واهتم عمر أيضا بمشاريع الري ونظمها تنظيما يتفق والحاجة اليها، فبعث الى أبي موسى يأمره أن يحفر نهرا لأهل البصرة، وذلك بعد أن توجه اليه الأحنف بن قيس شاكيا له فقر تربة البصرة وملوحة مياهها(٢). وفي عهد الخليفتين عثمان وعلي بُذلت أيضا جهود طيبة في سبيل تعمير الأراضي وتنشيط الحركة الزراعية(٣).

شهد العصر الأموي اهتماماً بالغاً بالأرض، ونشاطا زراعياً واسعا، وكان ذلك وليدة الأسس والقواعد التي وضعت في زمن الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين في مجال الاقطاع والاحياء وطرق الري ووسائله، ولا بد أن الأمويين قد أخذوا ببعض التنظيمات المحلية الساسانية والبيزنطية، وخاصة في مجالي المسح والري، فلا غرو والحال هذه أن يعتبر بعض المؤرخين المحدثين أن النظام الأموي استمراراً أو مكملاً للنظام الراشدي، وممهدا للنظام العباسي(٤).

لقد اهتم معاوية وولاته بزيادة مساحة الأراضي المزروعة في العراق، فقد كانت البطائح هي

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص ٤٠-٤١ (الشعبي). البلاذري، فتوح، ص ٣٧٦ (أبو مجلز). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ١٥٢.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٧٥ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣١٦ (عوانه).

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: عواد مجيد الأعظمي، الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م، ص ٨١-٨٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الأعظمي، الزراعة.

(٤) الدوري، النظم الاسلامية، جـ١، ص ١٤٠-١٤١.

مشكلة العراق الكبرى، اذ كان نهري دجلة والفرات يتفرعان عند مصبيهما في شط العرب الى نهيرات كثيرة ومتشعبة، وكانت هذه النهيرات قليلة العمق فتفيض المياه على الجانبين وتغرق الأراضي الزراعية المجاورة، وفي أواخر الحكم الساساني للعراق شغل الأكاسرة بضعف دولتهم فانبثقت بثوق عظام عجز كسرى عن سدها، فطغى الماء على الأراضي، فتحول بذلك قسم كبير منها الى بطائح واسعة، ولما تولى معاوية أخذ في استصلاح هذه البطيحة، فولى مولاه عبد الله بن دراج خراج العراق، وأمره بمكافحة الفيضانات والاهتمام بأمر البطائح وتجفيفها، فاستخرج له منها أراضٍ كثيرة بلغت غلتها خمسة آلاف ألف درهم(١).

ومن الاجراءات الهامة المتعلقة بالأرض في عهد معاوية، استيلاؤه على أرض الصوافي في العراق حيث فصلها عن بيت المال وجعلها تحت تصرف الخلافة في دمشق، ولم تعد تابعة للفاتحين، وصار يحمل واردها كل سنة الى دمشق(٢) وأقطع معاوية منها أتباعه وخاصته(٣)، ولا شك أن هذا العزل ألحق ببيت المال خسارة كبيرة، فقد كانت ايرادات صوافي السواد وحدها تبلغ سبعة ملايين درهم سنويا(٤).

ولم تتوفر تفصيلات أكيدة عن الطريقة التي تم فيها استغلال هذه الصوافي، ويبدو أنها أعطيت اما بالمزارعة أو القبالة، أو أنها أقطعت للاستغلال فقط، على أن الأمويين اعتبروا ايرادها مدخولا خاصا بهم، وليس لبيت مال المسلمين كما كان في السابق.

لم تقتصر سياسة الأمويين الزراعية على ما أشرنا اليه من استصفاء الصوافي واستصلاح البطائح بل تناولت أيضا اعادة مسح بعض الأراضي واحياء الموات وحفر الأنهار والقنوات، وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان وواليه زياد من السبّاقين في هذا المجال. ذكر الماوردي في معرض حديثه عن الأذرع، أن الذراع الهاشمية الصغرى أصغر من الهاشمية الكبرى بثلاثة أرباع عشر، وانها سميت "زيادية لأن زياد مسح بها أرض السواد"(٥)، ثم يأتي القلقشندي ليزيد الأمر تأكيداً بخصوص الذراع الزيادية هذه، لكن ما أورده أيضا لا يعطي الدليل فيما اذا كان زياد قد قام بمسح السواد

---

(١) البلاذرى، فتوح، ص ٤١١ (جماعة من أهل العلم). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٦٨-١٦٩. الماوردى، الأحكام، ص ١٧٩. م. سترك، دائرة المعارف الاسلامية، مادة (بطيحة). م ٣، ص ٦٨٤.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٨، ٢٣٤. مشاكلة الناس لزمانهم، ص ١٦. الصولي، أدب الكتاب، ص ٢١٩. أرض الصوافي: هي كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب، أو مغيض ماء أو دير بريد أو أوقاف بيوت النار والآجام. (البلاذرى، فتوح، ص ٣٨٠-٣٨١ (عبد الملك بن أبي حرة) وانظر أبو يوسف، الخراج، ص ٦٢ (عبد الله بن أبي حرة)).

(٣) اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٤.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٢ (عبد الله بن أبي حرة). أبو عبيد، الأموال، ص ٣٦٠ (عبد الملك بن أبي حرة). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢١٧.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٥٣.

فعلا، أم أن الأمر اقتصر على رغبته في المسح فأوجد هذه الوحدة القياسية(١)، ونظراً لعدم وجود تفاصيل أخرى حول هذه النقطة وخاصة في المصادر التاريخية المتوفرة، فان ما وصلنا يدعو الى الاعتقاد بأن ذلك المسح لم يكن عاما لكافة أراضي السواد، وربما خصّ بعض المناطق دون غيرها وقد استخدمت الذراع الزيادية لهذا الغرض، يشعر بذلك ما رواه عمر بن شبه "كان زياد يبعث الى سكة المربد فيمسحها، فان زيد فيها بناء أمر به فهدم"(٢)، ولعل اعادة مسح الأراضي بالذراع الزيادية في بعض كور السواد، جعل من هذه الذراع وحدة قياس شائعة في تلك المناطق، يقول الماوردي في معرض كلامه عن الذراع الزيادية "وهي التي يذرع بها أهل الأهواز"(٣).

لقد كان للمسوحات التي تمت في خلافة عمر بن الخطاب واستمرت في أيام زياد أهمية كبرى في بيان أصناف الأرض واقطاعها وانشاء العديد من مشاريع الري، ففي مجال الاقطاع نجد في العصر الأموي اتجاها جديدا، ألا وهو حق منح القطائع الى الولاة الى جانب الخلفاء، فبعد أن كان أمر الاقطاع بيد الخليفة وحده طيلة الخلافة الراشدة، صار الولاة يمنحون القطائع بأنفسهم دون الرجوع الى الخلفاء، ولا شك أن هذا كان منسجماً مع نظام اللامركزية الأموية في ادارة الأمصار.

والواقع أن هذا الاتجاه ساعد في توسع القطائع وازدياد عددها في العراق، وبرز ذلك بصورة واضحة في منطقة البصرة والبطائح، ويعطي البلاذري في معرض حديثه عن تمصير البصرة قائمة طويلة بأسماء تلك القطائع، ومقطعيها والاشخاص الذين منحت لهم هذه القطائع(٤)، ويعد زياد من أبرز ولاة العراق الذين كان لهم دور هام في منح القطائع، وقد سار في هذا الاتجاه بهدف تعمير الأرض وتشجيع الناس على الزراعة، وتوفير أسباب المعاش لهم، وفي الوقت نفسه ايجاد مصادر جديدة لخزينة الدولة، فيروي البلاذري أن زيادا "كان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين فان عمرها والا أخذها منه"(٥).

واذا كانت قطائع زياد للعامة صغيرة نسبياً بحيث لم تتعد الستين جريب مع شرط الأحياء،(٦) فان قطائعه لأقربائه وللاشراف وكبار الشخصيات كانت أكبر من ذلك، ذكر ابن سعد "كان زياد قد قرّب ولد أبي بكرة وشرفهم وأقطعهم وولاهم الولايات، فصاروا الى دنيا عظيمة"(٧)، وكان جدهم أبو بكرة من الرواد الأوائل الذين نزلوا البصرة منذ اختطاطها، ويبدو أنهم من أوائل العرب الذين

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٣ (عن الزجاجي). هنتس، المكاييل والأوزان، ص ٨٨. وروى أبو هلال العسكري، أن زياداً "أول من اتخذ الذراع التي تذرع بها الأرضون". (العسكري، الأوائل، ص ٢٣٩ (قالوا). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ١٩٨).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٣.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٥٣.

(٤) انظر البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤-٥٠٩.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المدائني).

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥.

(٧) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٦. وانظر قطائع زياد لآل أبي بكرة لدى: البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩.

اهتموا بـاحياء الأراضي بـالبصرة يشعر بـذلك قول الأصمعي "كـان أبو بكرة أول مـن غرس النخل بالبصرة، وقال: هذه أرض نخل ثـم غرس الناس بعده"[١]، ويظهر أن آل أبي بكـرة أصبحوا من كبار ملاكي الأراضي بالبصرة زمن معاوية، وأكثر الناس معرفة بأرضها حتى أن معاوية عهد الى عبد الرحمن بن أبي بكرة باستصفاء أرض الصوافي له[٢]، ويستدل من بعض النصوص أن ملكيات آل أبي بكـرة كانت كبيرة وواسعـة، بحيث مكنتهم من أن يقطعـوا قطائع كبيرة من أراضيهم الخاصـة[٣]، وكـان عبد الـرحمن بن أبي بكـرة من الذين درت عليهـم قطائعهم نعما كثيرة، يستـدل على ذلك من قوله: "لي ثـلاثة خبازين فليس منهم خباز الاّ وهو يأتيني بثردة لا تشبـه صاحبتها ... ولم تأت عليّ ليلة الاّ في بطني عسل وفي رأسي بنفسج وفي رجلي زنبق"[٤].

وأقطع زيـاد نـافع بن الحارث الثقفي قطيعـة واسعـة[٥]، وأقطع كل واحـدة مـن بنـاتـه ستين جريبا،[٦] ولم تبين الرواية لنا عدد بنات زياد. وأقطع زيـاد لنفسه الجموم فأحياها وكانت لأبي بكرة ثم صـارت لعبد الرحمن بـن أبي بكرة[٧]، ولزيـاد أيضا بحر لوبـة سابور من دست ميسـان، ردّها الحجاج فيما بعد الى الخراج[٨]، وأقطع زياد مرة بن أبي عثمان مولى عبـد الرحمن بن أبي بكر الصديق مائة جـريب على نهر الأبلة، فحفر فيهـا نهر مرة[٩]، وأقطع عبيـد بن كعب النميري[١٠]، وأقطع معقل بن يسار[١١]، وأقطع حمران مـولى عثمان بن عفـان عبـادان[١٢]. وأقطع حبيب بن شهـاب الشامي التاجر[١٣]، وعمران بن حصين[١٤]، وأنس بن مالك[١٥]، وآل سعيد بن عبـد الرحمن بن عباد بن أسيد[١٦]، كما منح زيـاد قطائع لعـدد من مواليـه، فأقطع فيل ومسمار[١٧]، والقاسم بن سليمان[١٨].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٢. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨ (الواقدي).
(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٨.
(٣) ابن قتيبـة، المعارف، ص ٢٨٩. البلاذري، فتـوح، ص ٥٠٨ (قالـوا). الطبري، تاريخ، جــ٥، ص ١٦٨ (المدائني). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٦.
(٤) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٤٩٣ (عوانه).
(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي).
(٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥.
(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المدائني).
(٨) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٢٤-٢٥.
(٩) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٣.
(١٠) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٣٠٣ (مسلمة). مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٤.
(١١) البلاذري، فتوح، ص ٥١٠ (هشام الكلبي).
(١٢) البلاذري، فتوح، ص ٥١٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٧٤.
(١٣) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (قالوا).
(١٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٠ (الوليد بن هشام).
(١٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٣ (قالوا).
(١٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي).
(١٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٧ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥-٤٣٦.
(١٨) البلاذري، فتوح، ص ٥١٤ (القحذمي).

ويروي البلاذري عن العقوى الدلاّل، أن معاوية أقطع الجزيرة الواقعة بين نهري الأبلة ومعقل[1] لبعض بني أمية، وكانت سبخة فأغرقها زياد بالماء ليقلل من أهميتها، فلما قدم المُقْطَع ليراها زهد بها فباعها لزياد، ويظهر أنها كانت واسعة جداً بدليل أن ثمنها كان مائتي ألف درهم على الرغم مما بدت عليه من عدم صلاحيتها للزراعة[2]، ولعل زيادا أراد بصنيعه هذا إبعاد نفوذ ومصالح الأمويين الكارهين له خارج دائرة حكمه في العراق.

ومن كل هذه النماذج والأمثلة المحددة التي سقناها عن حركة القطائع في عهد زياد، يتبين لنا أنه جمع في سياسته الاقطاعية بين سيادة الملكية الصغيرة من جهة وسيادة الملكيات الكبيرة من جهة أخرى، ولعله وفّق في قطائعه بين أرض الموات والأرض الصالحة للزراعة، والظاهر أن زياداً قد ركّز في منحه للقطائع على أخوته وأقاربه وبعض أنصاره حتى شملت قطائعه عدداً من مواليه، وربما ساعد بعضهم في حفر الترع والأنهار لاروائها، ولا نعلم على وجه التحديد مجموع المساحات التي أقطعها زياد، ومقدار وارداتها بعد الاصلاح، ويتوقع أنها كانت تدر دخلا جيدا على أربابها.

وليس لدينا ما يشير الى أن أهل العراق كانوا قد استاءوا من توزيع زياد للقطائع. ولما كانت الأراضي المقتطعة أصلا من الموات وغير مملوكة لاحد، فيظهر أن ذلك ساعد في عدم اثارة أي شكوى، ويبدو أن زيادا كان ينظر للوضع المالي للمُقْطَع قبل اقطاعه، فان رآه قادراً على الإحياء أقطعه وإلاّ فلا، يؤيد ذلك أنه كان يشترط على من يقطعه أن يصلح الارض خلال سنتين من منحها، وإلاّ استردها منه[3]، وكان يقول: "اني لا أنفذ الاّ ما عمرتهم"[4]، وهو في ذلك ينشد هدفا جليلا، تعود فائدته على المُقْطَع والدولة معا.

ويبدو أن الاهتمام الزائد الذي حظيت به الاراضي وزراعتها أيام زياد، أوجد وعيا ملحوظا لدى أشراف ورؤساء القبائل لأهمية امتلاك الأرض الزراعية والعناية بها وبمحاصيلها حتى عدّوها من أفضل الأموال التي يجب أن يسعى المرء من أجل الحصول عليها، فعندما سأل معاوية صعصعة بن صوحان عن أفضل المال أجابه "أن أفضل المال لبرّة (الحنطة) سمراء في تربة غبراء، أو نعجة صفراء في روضة خضراء، أو عين خرّارة (غزيرة) في أرض خوّارة (سهلة)"[5]، ويظهر أن زيادا قد لمس اهتمام هذه الفئة بالأرض، لذا فقد رأى ضرورة اعادة مسح بعض المناطق في العراق[6]، للتأكد من أصناف الأرض فيها، وأدى التوسع في منح القطائع زمن زياد الى تعيين عبد الرحمن بن تبع الحميري

---

(١) العلي، خطط البصرة، ص ١٥٧.
(٢) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤.
(٣) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٥ (المدائني).
(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٥ (المدائني).
(٥) ابن عبد ربه، العقد، جـ٣، ص ٣٢.
(٦) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٥٣.

عاملا عليها[١].

اضافة الى القطائع اهتم زياد بشؤون الزراعة والري اهتماماً عظيما، فقام بحفر الأنهار والقنوات وانشاء القناطر والجسور، ولما كانت جُلّ أرض البصرة سبخة لا تصلح للزراعة الآ بعد استصلاحها وتفتقر الى المياه العذبة للاستهلاك البشري، لذا فان حفر الأنهار وتطهيرها كان خطوة كبيرة في طريق استصلاح الأراضي، وتأمين السكان بالمياه العذبة.

ويمكن معرفة طبيعة أرض البصرة وفقرها للمياه العذبة من خلال الشكوى التي تقدم بها الأحنف بن قيس الى عمر بن الخطاب، حيث وصف له حال البصرة وما يلقاه أهلها من عناء بسبب الماء فقال في شكواه "نزلنا سبخة نشاشة لا يجف نداها، ولا ينبت مرعاها ... يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين"[٢] وقد استجاب الخليفة عمر لشكوى الأحنف، فأمر أبا موسى الأشعري أن يحفر لأهل البصرة نهراً[٣]، ويظهر أنه كان لهذا النهر أثر كبير في انعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البصرة التي كانت تبعد عن النهر أربعة فراسخ، وبعد حفره أصبحت تقع على ضافه. ويبدو أن الولاة أهملوا هذا النهر مما أدى الى انطامه، فلما ولي عبد الله بن عامر البصرة أشار عليه زياد أن ينفذ نهر الأبلة من حيث انطم حتى يبلغ به البصرة، ولكنه ظل يماطل في حفره، فلما شخص ابن عامر الى خراسان واستخلف زيادا، أقر الأخير حفر أبي موسى على حاله وحفر النهر من حيث انطم حتى بلغ به البصرة، وولي ذلك عبد الرحمن بن أبي بكرة[٤]، وعندما فرغ من اصلاح نهر الأبلة حفر فيض البصرة[٥].

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان نشط زياد في حفر الأنهار في منطقة البصرة، حتى أنه كان يسأل أهلها دائماً عما يحتاجون اليه من حفر نهر أو اصلاح قنطرة، أو تسهيل عقبة[٦]. وقد أورد كل من البلاذري في كتابه (فتوح البلدان)، وياقوت الحموي في (معجم البلدان)، معلومات واسعة بما ذكراه عن كثرة أنهارها التي أقطعت أو حفرت واستصلحت أيام زياد، فذكر المدائني أن المنذر بن الجارود العبدي كلّم معاوية في حفر نهر بالبصرة فكتب الى زياد في ذلك، فحفر له نهر معقل ولما فرغ منه وأراد فتحه بعث زياد معقل بن يسار ففتحه تبركا به، لأنه من أصحاب الرسول (ﷺ)، فقال

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٢، ٥٠٧ (القحذمي). وانظر محمد عبد القادر خريسات، القطائع في العصر الأموي، مجلة دراسات (العلوم الانسانية)، الجامعة الأردنية، م ١٦، ع ٣، ١٩٨٩، ص ٤٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانه). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الطبرى، تاريخ، جـ ٤، ص ٧٥ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (عوانة).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩. الجهشياري، الوزراء، ص ١٩. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣١٦ (عوانة).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٧ (عوانة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩-١٩٠. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٤٢. العلي، خطط البصرة، ص ١٥٩-١٦٠.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٨ (أبو عبيدة).

(٦) ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

الناس نهر معقل[1]. وفي رواية أخرى للبلاذري عن الواقدي أن حفر نهر معقل جرى في خلافة عمر على يد أبي موسى الأشعري[2]، والأرجح أن زيادا هو الذي حفر هذا النهر، وأن اسم معقل غلب عليه لأنه فتحه، يؤيد ذلك ما ذكره القحذمي من أن زيادا أعطى رجلا ألف درهم وقال له : "أبلغ دجله وسل عن صاحب هذا النهر من هو فان قال رجل انه نهر زياد فأعطه الألف"، فذهب الرجل ثم عاد فقال : "ما لقيت أحدا الاّ يقول هو نهر معقل"، فقال زياد : "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[3].

كما تم في عهد زياد حفر أنهار عديدة، ذكرت المصادر منها : نهر دبيس نسب الى رجل يقال له دبيس، ونهر حرب نسب الى حرب بن مسلم بن زياد، وبثق الحميري، نسب الى رجل نبطي من أهل الحيرة، ويقال كان مولى لزياد، ونهر أم حبيب نسبة الى أم حبيب بنت زياد، وكان عليه قصر الأبواب يسمى (الهزاردر)، وقال المدائني سمي هزاردر لأن شيرويه اتخذ من قصره ألف باب[4]. وحفر زياد نهر مسلم نسبة الى مسلم بن زياد[5]. ونهر مرة نسبة الى مرة مولى عبد الرحمن بن أبي بكر، وكانت عائشة (رض) قد كتبت الى زياد توصيه فيه فحفر له نهرا وأقطعه مائة جريب على نهر الأبلة[6]. ونهر البنات نسبة الى بنات زياد[7]، ونهر حبيب نسبة الى حبيب بن شهاب الشامي التاجر في قطيعة من زياد، ونهر أبي بكرة نسبة الى أبي بكرة بن زياد[8]، ونهر الراء أقطعه الى رواد بن أبي بكرة[9]، ونهر أبي شداد نسبة الى أبي شداد مولى زياد، وبثق سيّار لفيل مولى زياد[10]، ونهر شيطان نسبة الى شيطان مولى زياد[11] أيضا.

واستحدث زياد حفر نهر شيلي، منسوب الى شيلي بن فرّخ زادان المروزي، وكان هذا النهر قديما ويظهر أنه قد انطم، فعمل زياد على تطهيره فعرف بنهر زياد لأنه استحدث حفره[12]، واضافة الى

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩. المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. البكري، معجم ما استعجم، جـ٢، ص ١٢٤٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٤. وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٧. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩. ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٤.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٩-٥٠٠. المرزباني، نور القبس، ص ١٧٢. ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٤.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٠. وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣١٧، ٣١٩-٣٢٠.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٥٠١ (قالوا). ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢١.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٢-٥٠٣ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٣ (أبو اليقظان). وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ١٧٨، ٥٦٣.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٦ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥.

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (القحذمي). وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢٠.

(٩) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٤ (العقوى الدلاّل). سمي نهر الراء بهذا الاسم لأنه صيدت فيه سمكة تسمى الراء. (انظر المصدر نفسه، ص ٥٠٤).

(١٠) البلاذري، فتوح، ص ٥٠٩ (قالوا).

(١١) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢١. ابن عبد الحق، مراصد الأطلاع، جـ٣، ص ١٤٠٣. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(١٢) ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٢١. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، جـ٣، ص ١٤٠٣.

هذه الأنهار قام زياد بحفر الصهاريج لتوفير المياه العـذبة للناس، يروى البلاذري : "وكانت الولاة والأشراف بـالبصرة يستعذبـون الماء من دجلـة ويحتفرون الصهـاريج، وكـان للحجاج بها صهـريج معروف يجتمع فيه ماء المطر، وكان لابن عامر وزياد وابن زياد صهاريج يبيحونها للناس"[1].

ولا ريب أن زياداً استعـان ببيت المال عند حفره للأنهار الكبيرة بـالبصرة. أما الأنهار التي يجريها النـاس الى أرضهم ومـزارعهم وبسـاتينهم "فكـريها عليهـم خـاصـة وليس على بيت المال من ذلك شيء"[2]، ويستدل من أسماء هذه الانهار أن جُلها يعود الى أشخاص بارزين ومعروفين في البصرة، وربما كان بعضها يجري في قطائع منحت لهؤلاء الأشخاص.

يتبين ممـا سبق أن منطقـة البصرة كـانت في عهـد زيـاد عبـارة عن شبكـة من الأنهار والقنـوات والجداول، وقد ظلت مشهورة بكثرة أنهارها حتى قدر بعض الرواة عددها أيام بلال بن أبي بردة بأكثر من مائة وعشرين ألف نهر[3]، وهو رقم مبالغ فيـه ولكنه يعبر عن كثرة الأنهار والأراضي المستصلحة في البصرة، والأرجح أن يكون هذا الرقم قد شمل كل الترع والقنوات الصغيرة. أما فوائد هذه الأنهار فقد أدت الى إنعاش الحيـاة الزراعية في العراق عـامة، وفي البصرة خاصة حيث كـانت جُلّ أراضيها مواتا، حتى وصلت وارداتها مع كورهـا في ولاية زياد الى ستين ألف ألف درهم[4]، اضافة الى ذلك فقـد استخدم السكـان هذه الأنهار في النقل، وكـذلك الأنهار الصغيرة كانـوا يستفيدون منهـا لأنها كانت متصلة بأنهار أخرى كبيرة.

وفي الكوفة قام زياد بانشاء جسر ضخم لمنع طغيان المياه على المدينة، وظل هذا الجسر قائما طوال العهد الأموي، وقام باصلاحه وتجديـده كل من ابن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري ويزيد بن عمر ابن هبيرة[5]، ويبدو أن هذا الجسر كان مهما، الأمر الذي جعل الولاة بعد زياد يحرصون على ترميمه وتجديده.

والملاحظ أن زيادا تـرك بصمات واضحة فيما يتعلق بـالقطائع ومشـاريع الري في البصرة، بينما لم نجد لـه مثل ذلك الأثر في الكوفـة، ولعل هذا يعـود الى أمرين رئيسين : أولهما أن جُلّ أرض البصرة عشريـة، أي أنها تدفع الصـدقة وليس الخراج، لكـونها موات أحيـاها المسلمـون فتملكوهـا، بينما اعتبرت الكوفة من الاراضي الخراجية، لأنها أرض عـامرة فتحها المسلمون عنوة[6]، وهذه الأرض لا

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٥١٥-٥١٦ (قالوا). العلي، خطط البصرة، ١٣٩.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١١٩.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٧. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢١٢. الادريسي، نزهة المشتاق، جـ ٤، ص ٣٨٣. زكي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٦٧، وسيشار اليه عند وروده هكذا : لسترنج، بلدان الخلافة.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٨ (مسلمة بن محارب).

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٠٣.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٤. الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٨. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢١٥.

يجوز بيعها في نظر الفقهاء، وانما هي فيء للمسلمين[1]، وكانت الارض المحيطة بالبصرة مواتا تتطلب الأحياء، فكان بامكان أي شخص أن يطلب اقطاعه منها[2]، وذلك لأن احياءها يتطلب أموالا كثيرة، بينما كانت الصوافي في الكوفة عامرة ومزروعة، لذا أقطع زياد من أرض البصرة دون أية معارضة.

أما الأمر الثاني فيبدو أنه يعود لقصر الفترة التي تولى فيها زياد لولاية الكوفة، حيث لم تتجاوز الثلاث سنوات (٥٠-٥٣هـ/ ٦٧٠-٦٧٣م)، وهي فترة قصيرة نسبياً اذا ما قورنت مع مدة ولايته على البصرة، والتي بلغت حوالي تسع سنين (٤٥-٥٣هـ/ ٦٦٥-٦٧٣م)، ولا شك أن طول ولاية زياد على البصرة مكنته من انجاز مشروعاته واصلاحاته، لا سيّما وأن حكمه في هذه الفترة اقتصر على هذه الولاية دون غيرها.

ولعل ملوحة مياه البصرة كان من العوامل التي دفعت زياد الى الاستكثار من حفر الأنهار في البصرة لتوفير المياه العذبة للسكان، بينما كانت المياه في الكوفة عذبة صالحة للاستهلاك البشري[3] وكان زياد يقول: "مثل الكوفة كمثل اللهّاة، يأتيها الماء ببرْدِه وعذوبته ومثل البصرة كالمثانة يأتيها الماء وقد تغيرّ وفسد"[4].

ان ما تقدم ذكره من اصلاحات وتنظيمات في مجالي القطائع وحفر الأنهار، ليدل دلالة واضحة على اهتمام زياد بالأرض ومحاولة استثمارها للمصلحة العامة، وقد عُرف زياد بتشجيعه للزراعة، فيذكر الجاحظ أنه قال لأهل البصرة: "لو أن في يدي فسيلة، ثم قيل لي أن القيامة تقوم الساعة لبادرتها فغرستها"[5]، ويذكر أنه خرج يوما الى السوس فرأى عمارة حسنة، فخاف أهلها أن يزيد في خراجها، فقال لهم مشجعا ايّاهم على عمارة الارض: "بارك الله عليكم، فقد وضعت عنكم مائة ألف لما رأيت من عمارة بلدكم"[6]، وكان زياد يحاسب كل من يقوم بإلحاق أي ضرر أو أذى بالمزروعات، فيذكر المدائني أن رجلا عقر نخلا، فأغرمه عن كل واحدة ألف درهم[7]. ولأجل تنشيط الحياة الزراعية والحصول على المزيد من المال، فقد أحسن زياد السيرة في الفلاحين وأمر بمراعاة ظروفهم والعناية بهم، وعدم التشدد في تحصيل الخراج منهم[8].

---

(١) يحيى بن آدم، الخراج، ص ٥١، ٥٢. البلاذري، فتوح، ص ٦٢٩ (عن أبي حنيفة، والثوري ومالك وغيرهم).
(٢) انظر الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٧٥ (سيف). ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٤٤.
(٣) انظر الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٣.
(٤) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٦٧. اللهّاة: اللحمة المشرفة على الحلق. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ١٥، ص ٢٦٢).
(٥) الجاحظ، البخلاء، ص ١٤٥-١٤٦.
(٦) الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء، جـ ١، ص ١٦٨. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣١. ابن الجوزي، المصباح المضيء، جـ ١، ص ٣٢٢.
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢١٤. البيهقي، المحاسن والمساوىء، ص ٥٠٥.
(٨) انظر ابن قتيبة، عيون الاخبار، م ١، ص ١٠. وانظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٢٣. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٢٩٥.

وهكذا يمكن القول أن زيادا ساهم في تحويل الكثيرين من العرب الى مزارعين، ولم يكن ذلك على حساب ميزاتهم العسكرية، كما أن هؤلاء العرب لم يتغيروا من يوم لآخر من فاتحين الى خبراء زراعة، بل أن ذلك تأتى على شكل تطور مستمر، دلّ على مرونة الانسان العربي وسهولة تكيفه مع الأوضاع الجديدة. ولا شك أن هذه التطورات والتغيرّات قد ساهمت بمجملها في انعاش الملكية الفردية للأرض، وذلك على حساب ملكية الدولة، نعني أرض الخراج، وقد أدى نمو الملكية الفردية خلال العهد الأموي الى انتشار القبائل العربية في السواد على شكل أفراد أو جماعات لهم قرى وضياع.

أما عن أهم مزروعات بلاد العراق أيام زياد، فان المعلومات الواردة عنها نادرة بحيث لا تمكّن من رسم صورة واضحة ومتكاملة، ويظهر أن منطقة البصرة وضواحيها قد اشتهرت بزراعة النخيل وهو أول نبات زرعه العرب في أرض البصرة عند انشائها[١]، وقد كان أهل البصرة من أعلم الناس بالنخيل وأحذقهم بغراستها وتربيتها واصلاحها، وأعرفهم بأحوالها من حين غرسها الى أن تكتمل وتنضج، وهم من أبصر الناس بالتمر وتمييزه وخزنه[٢]، ولم تقتصر زراعة النخيل على مدينة البصرة ومنطقتها فحسب، بل انتشرت أشجاره في جميع أنحاء العراق، وكان أهل العراق يفتخرون بذلك على أهل الشام[٣]، ومما يشعر بازدهار زراعة النخيل في عهد زياد قول أبي اسحاق السبيعي: "ما زال شراب أهل الكوفة الزبيب، حتى كان زياد فشربوا التمر"[٤].

واشتهرت مدن العراق بزراعة أنواع مختلفة من الفاكهة، حتى أن المغيرة بن شعبة لاحظ أن انتاج العراق من الفاكهة زاد على انتاج الحنطة والشعير[٥]، وليس لدينا معلومات عن هذه المزروعات في زمن زياد، ولكن يتوقع أن يكون ناتجها قد ازداد في عهده نتيجة للاهتمام الزائد بشؤون الزراعة والري.

وكان أهل المصرين الكوفة والبصرة يكثرون من غرس البساتين، وخاصة على ضفاف الأنهار، فيذكر الاصطخري أن الأراضي الواقعة ما بين بغداد في الشمال والكوفة في الجنوب، ودجلة في الشرق، والفرات في الغرب كانت كثيفة الزرع لدرجة يصعب معها التمييز بين المزارع المختلفة[٦].

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨ (الواقدي). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٢.

(٢) الحميري، الروض المعطاء، ص ١٠٧.

(٣) البلاذري، أنساب، جـ ٥، ص ٤٠ (أبو مخنف).

(٤) البلاذري، أنساب، جـ ٥، ص ٢٧١.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٣٧٦ (محمد بن عبد الله الثقفي).

(٦) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٩-٦٠.

التجـــارة والأســـواق

لقد حـرص العرب المسلمون على انشـاء الأسواق عند تخطيطهـم للمدن الجديـدة، وكـانت هذه الأسواق واحدة من ثلاثة مراكز كبيرة استنـدت إليها المدن الاسلامية الى جانب المسجد الجامع ودار الامارة[١]، مما يشير الى أهمية الناحية التجارية في حياة العرب.

نشطت الحركة التجـارية في بلاد العـراق طوال عصر الخلفـاء الراشدين والأمـويين، وعرف أهل العراق أنواع التجارات المختلفة ومستلزماتها من أسواق وطرق للمواصلات ومصارف وعقود[٢]، ولا ريب أن هذه الأمـور متى تيسرت الى جانب تـوفر الأمن، فـان ذلك سيؤدي حتماً الى نهضـة التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء.

في عهد زياد ازدهـرت التجارة وتطورت تطوراً ملحـوظاً في العراق، وهذا التطـور يعود الى عوامل عديدة منها: الموقع الجغرافي الذي تتميز به بلاد العراق، حيث تشكل نقطة إلتقاء وتبادل بين فارس والهند وأواسط آسيـا والصين شرقا والشـام ومصر وشمال أفريقيـا غربـا، هذا الموقع الجغـرافي الممتاز جعل مدن العراق تتمتع بشهرة واسعة في عالم التجارة منذ وقت مبكر، وقد مكّن ذلك سكان العراق من أن يصبحوا وسطاء ناجحين في التجارة العالمية.

ومن العوامل التي شجعت التجارة في عهد زياد انتشار الأمن والنظام ليس داخل مصري العراق فحسب، بل في سـائر المناطق والأقاليم التـابعة لها، ممـا يسرّ في عملية تنقل التّجـار بتجاراتهم دون خوف من اللصوص وقطّـاع الطرق، ويستدل على الأمن الذي تمتعت به ولاية العـراق من قول زياد للناس: "أفتحـوا منازلكم وحـوانيتكم فمن ذهب له شيء فـزياد لـه ضامن"[٣]، فكانوا يغطون أمتعتهم ويذهبون[٤].

وقام زياد بعدد من المشاريع التي سهلت عمليـة التجارة الداخلية، فحفر الأنهار وشق القنوات والترع، وكـان نهر معقل بالبصرة طـريق المواصـلات الـرئيس في المدينة، لـذا فقـد اتخذ عليه جبـاة العشـور مقرهـم، ومـدوا عليـه سلسلـة تسمى (الحبل) لحصر السفن القـادمة الى البصرة وتفتيشهـا وتحصيل العشور منها[٥]، وقد استعمل زياد على هذه السلسلة مسروق بن الأجدع الهمداني[٦]، ولم تذكر لنا المصـادر المتوفرة مقدار ما كانت تجبيه البصرة من هذا المصـدر ومن المؤكد أن مقدار ما يجبى

---

(١) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صـدر الاسلام، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠م ص ٨١، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام.

(٢) انظر الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٣٦١.

(٣) ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٨.

(٤) العسكري، الأوائل، ص ٢٤١ (عمر بن شبه).

(٥) البلاذري، فتـوح، ص ٥٠٠ (قالوا). ابن قيم الجوزيـة، أحكام أهل الـذمة، ق ١، ص ١٥٢ (الأعمش). العلي، خطط البصرة، ص ١٥١.

(٦) أبو عبيد، الأمـوال، ص ٦٣٦ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٩ (المدائني). ابن حبان البستي، الثقات، جـ ٥، ص ٤٥٦. أبو حيان التـوحيدي، البصائر والذخائر، م ٤، ص ٣٠١. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق ١، ص ١٥٢ (الأعمش).

من عشور التجارات كان يتوقف على الأحوال التجارية في المصر ويتغير تبعا لنشاط الحياة الاقتصادية .

وقد عُرف زياد بتشجيعه للتجارة وأسبابها ، يدل على ذلك اهتمامه الواضح بالأسواق التي كان لها دور كبير في حياة أهل العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فكما كانت السوق مركزا للبيع والشراء كانت كذلك مركزا من مراكز الحياة السياسية ، فيها يتلاقى الناس بحجة البيع والشراء بعيدا عن عيون رقباء الولاة فيدبرون المؤامرات والفتن[١]. وكانت الأسواق في بادىء الأمر أرضا فضاء ليس فيها أبنية ، وكان التجار والباعة يضعون بضائعهم وسلعهم في الأماكن التي يختارونها ، ولم يكن هناك موضع محدد لكل بائع ، حيث قال عمر بن الخطاب : "الأسواق على سنة المساجد ، من سبق الى مقعد فهو له ، حتى يقوم منه الى بيته أو يفرغ من بيعه "[٢]، وقد أكد زياد مقولة عمر هذه بقوله : " من قعد في مكان فهو أحق به ما دام فيه "[٣]، وهذا يشعر أن الأسواق بقيت الى زمن زياد من غير بناء ، الاّ أن ابن سعد يذكر أن عبد الله بن عامر قام بشراء عدد من الدور بالبصرة ، فهدمها ثم بنى سوقا بدلا منها[٤].

أما الكوفة فليس لدينا معلومات تشير الى بناء أسواقها قبل ولاية زياد ، ويذكر عبد الرحمن بن عبيد أن المغيرة بن شعبة قال للتجار والباعة في الكوفة : "من قعد في مكان فهو أحق به الى الليل "[٥]، الاّ أن القعود في الأسواق لا يعني عدم وجود الحوانيت فيها ، فلا يعقل أن تكون أسواق الكوفة قد بقيت من غير بناء حتى زمن زياد .

يتضح مما تقدم أن بعض ولاة البصرة الأوائل التفتوا الى مسألة الاسواق ، فعملوا على تنظيمها واقامة الأبنية لها ، أما أسواق الكوفة فلم تحظ كثيراً باهتمام الولاة ، ويستدل من بعض الروايات أن زياداً بنى أسواق الكوفة من القصب والعمد ، فيذكر أبو مخنف أنه حين أراد زياد أن يقبض على حجر بن عدي وأصحابه أمر أمير شرطته ومن معه أن ينتزعوا عُمد السوق ويشدوا بها على أصحاب حجر حتى يأتوا بهم[٦]، وهذا يشعر أن أسواق الكوفة كانت معقودة بالعمد والقصب ، وربما أنها لم تسقف الاّ في فترة متأخرة من عهد زياد ، يؤيد ذلك ما رواه البلاذري ، من أن زيادا كان " أول من سقف حوانيت السوق "[٧]، وذلك لمنع دخول الحيوانات – وخاصة الكلاب – الى الحوانيت

---

(١) الجاحظ ، البيان ، جـ ٢ ، ص ٦٩ .

(٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٤ ، ص ٤٥-٤٦ (سيف) . ابن الأثير ، الكامل ، م ٢ ، ص٥٢٩ .

(٣) أبو عبيدة ، الأموال ، ص ١١١ (عبد الرحمن بن عبيد) . البلاذري ، فتوح ، ص ٤٢١ (عبد الرحمن بن عبيد) .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٤٧ (قالوا) .

(٥) أبو عبيد ، الأموال ، ص ١١١ . البلاذري ، فتوح ، ص ٤٢١ .

(٦) الطبرى ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٥٨ .

(٧) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ . المرزباني ، نور القبس ، ص ٢٦٦ . العسكري ، الأوائل ، ص ٢٤٠ (المدائني وغيره) . السكتواري ، محاضرة الأوائل ، ص ٩٨ .

والعبث بالأمتعة والسلع[1]، وكذلك لحماية الباعة من حرارة الصيف وأمطار الشتاء، وقد بقيت الأسواق في العراق على حالها الى ولاية خالد القسري (١٠٥-١٢٠هـ/ ٧٢٣-٧٣٧م) في العهد الأموي، فكان أول من بنى الأسواق بناء محكما وجعل لها سقوفا معقودة بالآجر والجص[2].

واهتم زياد بمراقبة المكاييل والموازين في الأسواق، وذلك ليحول دون استغلال التجار، وكانت السوق في عهده خاضعة لرقابة موظف خاص يدعى (عامل السوق)، ولعل أول ذكر له في البصرة يرجع الى زمن زياد، حيث كان عامله على السوق الجعد بن قيس النميري[3]، وكان تعيين عامل السوق يتم عن طريق الأمير، وهو يتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية، ويزود ببعض الأعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته[4]، والراجح أنه كان من واجباته مراقبة الأوزان والمكاييل والتحكيم في الخلافات التي تنشأ بين التجار وأصحاب المهن[5]، وكان زياد يجلس في كل يوم جمعة فيأتيه فيمن يأتيه عمال السوق فيسألهم عن الاسعار والأخبار وما يحتاجون اليه من مصالحهم[6]. وقد عني زياد بمراقبة الأسعار وضمان عدم استغلال التجار لحاجة الناس الى تجارتهم، وذهب في عقاب التجار الجشعين الى حد التعذيب والتمثيل بهم[7]، وقد أدى هذا الى اعتدال مستوى الأسعار ورخصها في البصرة، وكان زياد يلجأ الى دعم السلع الغالية بهدف اغراق السوق بها وبالتالي انخفاض أسعارها، ذكر المدائني "غلا الطعام في عهد زياد فدفع الى التجار مالا، فابتاعوا به طعاماً وقال: زيدوا ربعا ربعا، فلما رخص الطعام وشَغَر برِجلْه ارتجع ماله"[8]، وكان زياد لا يسمح بأي تدخل من شأنه إرباك الاسعار في الأسواق، يذكر البلاذري أن مولى لفاخته بنت قرظة سأل معاوية أن يكتب له كتاباً منشوراً بأن يخلي له سوق الطعام بالبصرة، فلا يبيع فيها أحد سواه حتى يخرج ما في يده، فكتب له بذلك وقال له: "ويحك إني أحذرك زيادا"، ولما شحّ بيع الطعام للناس غلا السعر، فجاء زياد للسوق ووجد مولى فاخته يناول الدنانير والرقاع بالقصب، فأمر به، فقال: "ان معي كتاب أمير المؤمنين" فقال زياد: "اقطعوا يده" فقطعوها[9]، وهكذا كان زياد يعاقب كل من تسوّل له نفسه باحتكار السلع والتجارة في الأسواق.

---

(١) انظر العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠-٢٤١ (المدائني وغيره). السكتواري، محاضرة الأوائل، ص ٩٨. مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٤٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٠٢ (أبو مسعود). اليعقوبي، البلدان، ص ٧١.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٤ (المدائني). العلي، خطط البصرة، ص ١٢٧.

(٤) العلي، التنظيمات، ص ٢٦٧.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، م ٨، ص ٢٧٦-٢٧٧. وانظر الماوردي، الأحكام، ص ٤٦٥.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٤ (المدائني). وانظر ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٠٧.

(٧) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٣، ٢٢٥ (المدائني).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٧.

(٩) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٩.

والواقع أن البصرة تعتبر بلدا رخيص الاسعار نسبيا[1]، ولعل هذا يعود الى عوامل عديدة منها : خصوبة التربة وسهولة الإرواء بالمد والجزر، ثم وقوعها قرب البحر على ممر الطرق التجارية من الهند والشرق الأقصى وبلاد العرب، وقد ساعد هذا الموقع الجغرافي في بقاء البصرة مركزا تجاريا مزدهرا حتى بعد انشاء بغداد عاصمة العباسيين.

وكان بمقدور الأمراء والولاة في الولايات الاسلامية الاشتغال بالتجارة والحصول على أموال طائلة منها، ولا شك أن مناصبهم ونفوذهم قد ساعدهم في تسهيل أمورهم التجارية، كما أنه كان بأمكانهم اقتراض الأموال من بيت المال لتوظيفها في تجاراتهم الخاصة، فقد اشتغل بها زياد في البصرة[2]، ولعله أراد بذلك الحصول على بعض الأرباح المادية من ناحية، ودعم وتشجيع التجارة في ولايته من ناحية أخرى، فكان يقول : " طوبى لمن له دويرة تؤويه وتجارة تكفيه "[3].

وهكذا اهتم زياد بانشاء كل ما يؤدي الى نهضة التجارة من أسواق وأنهار وطرق، فقد كان يعلم أن النهضة التجارية تزيد في ايرادات بيت المال، فيصبح بذلك موضع رضى الخليفة معاوية وقد استقبلت بلاد العراق آلافا من المقاتلة المسلمين الذين أقاموا فيها، أو كانوا يمرون بها خلال فتوحاتهم في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية، ولا شك أن فتح هذه المناطق كان له أثر كبير في نقل الكثير من تجارتها الى بلاد العراق. ويمكن القول أن فترة ولاية زياد على العراق بما شهدته من أمن واستقرار واصلاحات شاملة لشتى نواحي الحياة ساهمت في خلق قاعدة متينة للحركة التجارية التي ازدهرت ونشطت نشاطاً ملحوظاً في زمن الحجاج، وقد أدى هذا النشاط الى أن هجر الفلاحون أرضهم وقراهم وأقبلوا على مدن العراق للاشتغال بالتجارة، مما هدد الثروة الزراعية، وهي عماد من الأعمدة التي تقوم عليها الثروة التجارية، فعمد الحجاج الى ارجاعهم بالقوة الى قراهم[4].

التنظيمات العمرانية

لقد سارت مراحل البناء في مصرى العراق (البصرة والكوفة) بخطوات عديدة ارتبطت بالغرض العسكري ووضع القبائل معا. ففي البصرة يظهر أن المسلمين نزلوها ابتداء في خيام وفساطيط فقط، يروى البلاذري أنه عندما نزل عتبة بن غزوان والمقاتلة البصرة " ضربوا بها الخيام والقباب والفساطيط، ولم يكن لهم بناء "[5]، ولعل هذا يبدو أمرا واقعياً أمام عدم اختطاط القبائل في خطط خاصة بها أيام عتبة، هذا الى جانب كون جُلّ مقاتلة البصرة - وقتذاك - من الأعراب فكان نزولهم بالخيام أمر يتفق وطبيعة حياتهم التي كانوا يعيشونها.

---

(١) انظر الجاحظ، البلدان، ص ٥٠٤. ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٢٢١.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ١٧٥ (أبو اليقظان).

(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، جـ ٤، ص ٢٣٦.

(٤) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٣، ص ٤١٦.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٧٦ (قالوا). وانظر ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ٦. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٧. ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٢. ماسينيون، خطط الكوفة، ص ٣٧.

ويبدو أن أول بناء بالكوفة والبصرة كان بالقصب، وذلك سنة (١٧هـ/ ٦٣٨م) عندما وزعت الخطط للقبائل في المصرين، يتضح ذلك من رواية سيف "لمّا نزل أهل الكوفة الكوفة، واستقرت بأهل البصرة الدار، عرف القوم أنفسهم، وثاب اليهم ما كانوا فقدوا، ثم أن أهل الكوفة استأذنوا في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل البصرة"[١]، ولعل ظروف القتال هي التي اضطرت مقاتلة العراق الى الاكتفاء بالقصب في بناء دورهم، والقصب اضافة الى توفره في البطيحة وعلى ضفاف الأنهار فهو سهل الاستعمال ينسجم والظروف العسكرية، يوضح ذلك قول أبو عبيدة: أن المسلمين كانوا "اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فاذا رجعوا أعادوا بناءه"[٢].

ظلّ البناء في الكوفة والبصرة بالقصب حتى ولاية المغيرة بن شعبة (٢٢-٢٤هـ/ ٦٤٣-٦٤٥م)، حيث طلب المقاتلة الإذن من عمر بالسماح لهم البناء باللبن، ذلك أن القصب والأخصاص كانت عرضة للحريق، فسمح لهم عمر بذلك[٣]، وهكذا تدرج البناء وتطور بعد أن استقر الناس وازدهرت الحياة الاقتصادية فأصبح باللبن والطين، وليست لدينا تفاصيل عن وصف المساكن والأبنية في هذه المرحلة، ولكن من المرجح أنها كانت رخيصة بسيطة الكلفة نظراً لدفء المناخ في المصرين، فلا يستلزم الأمر أبنية محكمة قوية، بل يكفي أن تشاد من الطين واللبن، وهي مواد وافرة ورخيصة.

ويبدو أن سكان الكوفة والبصرة استمروا في بناء دورهم من الطين واللبن حتى زمن زياد حيث شهد هذان المصران تطوراً عمرانياً كبيرا، ليس في بناء الدور والمساكن فحسب بل في بناء المساجد ودور الامارة والأسواق وسائر المرافق العامة.

المساجد

المسجدالجامع هو البناء العام الرئيس لأهل المصر، فهو مركز يقيم فيه الناس صلواتهم ويجتمع فيه الوالي بالناس لتبليغ ما يقتضي تبليغه، وفي الجامع أيضا يجتمع الناس ويتحدثون في الأمور الخاصة والعامة، فهو بذلك مركز للحياة الدينية والادارية والاجتماعية والفكرية.

ولأهمية المسجد الجامع في حياة المسلمين، فقد كان موضعه في وسط المدينة بين خطط القبائل. ففي البصرة تعود أول اقامته الى زمن ولاية عتبة بن غزوان، يروى البلاذري "وكان محجر بن الأدرع اختط مسجد البصرة، ولم يبنه فكان يصلىّ فيه غير مبني"[٤]، أي أن التخطيط الأول كان مجرد

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٣. وانظر البلاذري، فتوح، ص ٤٨٣ (أبو عبيدة). ابن قتيبة، عيون الأخبار، م ١، ص ٣١٢. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨. ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٩١ (ابن عباس).

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٢ (عوانة).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٤، ص ٤٣-٤٤. ابن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٨-٥٢٩. النويري. نهاية الأرب، جـ ١٩، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٩ (الواقدي).

تحديد الموقع، وهذا ينسجم وظروف المقاتلة آنذاك، وقيامهم بحركات عسكرية مستمرة، ثم أن عتبة وضع له حائطاً من قصب[1]، وهي المادة التي بنيت منها المدينة كما وضحنا، ويبدو أن هذا الحائط كان يوضع لتحديد موقع المسجد الى حين خروج المقاتلة للغزو، فاذا رجعوا أعادوا بناءه.

وحينما تولى أبو موسى الأشعري امارة البصرة ثبّت بناء المسجد، فيروي البلاذري "ثم أن الناس اختطوا وبنوا المنازل وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الامارة بلبن وطين وسقفها بالعشب وزاد في المسجد"[2]، يتضح من هذا النص أن أبا موسى لم يبدل موقع المسجد، ولكنه وسعه عما كان عليه من قبل وثبّت بناءه باللبن والطين، والواقع أننا لا نعرف شيئا عن مساحته ومعالمه في هذه الفترة، إذ أن التوسعات والتجديدات الكثيرة اللاحقة قد أذهبت معالمه الأولى تلك، كما أن المصادر لم تذكر شيئاً عن سعة وشكل بناء أبي موسى، ولكن يتوقع أنه لم يكن واسعا، وأنه كان يسد حاجة السكان حينذاك ولم يكن عددهم كبيرا.

بقي مسجد البصرة على وضعه هذا طيلة خلافة عثمان وعلي الى أن ولي زياد البصرة لمعاوية فرأى أن هذا البناء البسيط لا يتفق وعظمة الدولة التي أخذت بالاتساع والارتقاء، لذلك فقد أعاد بناءه و "زاد في المسجد زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج"[3]، وجعل لصفته المقدّمة خمس سوار، وبنى منارته بالحجارة، وقد أتى بسواريه من جبل الأهواز[4]، وولىّ زياد بناءه الحجاج بن عتيك الثقفي، فجنى من ذلك ثروة كبيرة، وفيه قيل "حبذا الامارة ولو على حجارة"، فذهبت مثلا[5]، ولما فرغ الحجاج من بنائه جعل زياد يطوف فيه وينظر اليه ومعه وجوه أهل البصرة، فيقول لهم: "أترون خللا، فيقولون: ما نعلم بناء أحكم منه، فقال: بلى هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين"[6]، وذكر يونس بن حبيب النحوي أنه "لم يُؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب"[7]، وقال حارثة بن بدر، ويقال بل قال ذلك البعيث المجاشعي، معبرا عن عظمة بناء المسجد الجامع في البصرة:

بنى زياد لذكر الله مصنعة   من الحجارة لم تعمل من الطين

(1) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٩ (الواقدي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. وانظر ابن سعد، الطبقات، جـ ٧، ص ٥ (الواقدي). خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ٩٨. ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٦٣. اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ١٤٣.

(2) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣. وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨.

(3) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣. وانظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٦٣.

(4) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥ (القحذمي وأبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣.

(5) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٠، ٤٨٥-٤٨٦ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣. وانظر الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص ٤٠.

(6) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤-٤٨٥ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣.

(7) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥. وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٣.

لولا تعاون أيدي الأنس ترفعها   إذاً لقلنا من أعمال الشياطين(١)

وعلى الرغم من التصحيفات التي أصابت البيتين المذكورين، فانهما معاصران لبناء المسجد، واذا صحت روايتهما فهما يدلان على استعمال الحجر الذي لم يرد له ذكر الآ في بناء المنارة(٢).

وقد أدخل زياد تحسينات أخرى على المسجد، فأمر بوضع المنبر في صدر المسجد، ثم حوّل دار الامارة من الدهناء الى جهة الجامع القبلية وفتح في حائط الجامع بابا يتصل بدار الامارة، يدخل منه الأمير الى المسجد دون أن يتخطى رقاب الناس كما كان من قبل(٣)، ولا شك أن هذا الاجراء يعبر عن رغبة زياد في التجديد والتطوير بما يتفق والمصلحة العامة، حيث قال: "لا ينبغي للامام أن يتخطى الناس"(٤).

لم تذكر المصادر المتوفرة شيئا عن سعة جامع البصرة زمن زياد، كما أنها لم تذكر سوى الأساطين الستة لصفته المقدمة، والعقود الأربعة التي على الأساطين، ولا بد أن بعض الأساطين لم تكن عليها عقود(٥)، ويظهر أن شكل المسجد أيام زياد لم يكن منتظما، فقد كان جانبه الشمالي منزوياً لوجود دار نافع بن الحارث في تلك الجهة، فأبى ولده بيعها، وبقي هذا الوضع طيلة عهد زياد، فلما ولي ابنه عبيد الله البصرة، قرّر أن يهدم الدار في غياب صاحبها، فعندما خرج عبيد الله بن نافع الى قصره بالبطيحة أمر أن يهدم منها ما يسوى "به تربيع المسجد" فلما عاد ابن نافع أرضاه عبيد الله بن زياد بأن "أعطاه بكل ذراع خمسة أذرع، وفتح له في الحائط خوخة الى المسجد"(٦)، وبذلك انتظم شكل المسجد، وتشعر الرواية أعلاه أن شكل المسجد كان مربعا أو مستطيلا، وأنه لم يكن له حائط يحدده آنذاك، بحيث أن الأبنية والمنازل كانت في أروقته ومقاصيره.

ويظهر أن أرضية المسجد كانت حتى عهد زياد تربة خالية من البلاط، فكان المصلون اذا انتهوا من الصلاة نفضوا أيديهم من التراب، فلاحظ زياد ذلك فقال: "لا آمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض الأيدي في الصلاة سنة"، فأمر بجمع الحصى وإلقائه في صحن المسجد(٧). ويذكر البلاذري أن زياداً أول من اتخذ المقصورة بالمسجد(٨)، والأرجح أنه تشبه بمعاوية في ذلك(٩)، وكان "لا يدع أحدا يبني بقرب مسجد الجماعة مسجدا، فكان مسجد عدي أقربها منه"(١٠).

ونظراً لزيادة سكان البصرة وتوسعها في عهد زياد، فقد بنى زياد سبعة مساجد أخرى منها:

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.
(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥ (القحذمي).
(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.
(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.
(٥) العلي، خطط البصرة، ص ٦٦.
(٦) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٦ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٤.
(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٦ (أبو عبيدة). الماوردي، الاحكام، ص ٢٤٤. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٤.
(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٠. المرزباني، نور القبس، ص ٢٦٦.
(٩) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٤٩ (اسماعيل بن راشد).
(١٠) البلاذرى، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٢ (قالوا).

مسجد بني عدي ومسجد الأسـاورة ومسجد حدّان ومسجد بني مجاشع[١]، "وكل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فانه من بناء زياد" وربما نسب الى غيره[٢].

وفي الكوفة اختط المسلمون مسجدها الجامع في ولاية سعد بن أبي وقاص، ذكر البلاذري "فلما انتهى الى موضع مسجدها أمر رجلا فعـلا بسهم قِبَل مهب القبلة فأعلم على موقعه، ثم علا بسهم آخر قِبَل مهب الشمال وأعلم على مـوقعه، ثم علا بسهم قِبَل مهب الجنوب وأعلم على مـوقعه، ثم علا بسهم قِبَل مهب الصبا فأعلم على مـوقعه، ثم وضع مسجدها"[٣]، وذكر سيف أن سعدا بنى ظُلة في مقدمة المسجد "ليست لها مجنبات ولا مواخير، والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا... وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخـام كانت للأكاسرة"، وتم حفر خندق حـول صحن المسجد لئلا يقتحمه أحد بالبنيان[٤]، ويستدل من هذا أن المسجد في أول الأمر لم يكن له سور يحيط به ويحميه، حتى أن الجالس فيه كان يرى من يمر من حوله[٥].

أما المساحة التي كان يشغلها مسجد الكـوفة عند تخطيطه، فان المؤرخين الأولين أمثال البلاذري والطبري لم يذكـروا شيئاً عنها، غير أن يـاقوت حاول أن يعطينا صـورة واضحة عن هذه المسـاحة، فذكـر أن عمر بن الخطـاب كتب "الى سعد أن اختط مـوضع المسجد الجامع على عـدة مقاتلتكم، فخطّ على أربعين ألف انسـان"[٦]، وروى ياقـوت أيضا أن مساحـة "مسجد الكـوفة ستة أجـربة وأقفزة"[٧].

بقي مسجد الكـوفة على وضعه هذا الى أن وسعـه المغيرة بن شعبة[٨]، ولم توضح المصادر ماهية هذا الاجراء الذي قام به المغيرة، ويبدو أنه لم يكن ذا شأن، فقد ذكر سيف عن عطاء أبي محمد مولى اسحاق بن طلحة قال: "كنت أجلس في المسجد الأعظم قبل أن يبنيه زياد، وليست له مجنّبات ولا مواخير، فأرى منـه دير هنـد وباب الجسر"[٩]. وظل مسجـد الكوفة على هـذه الحالة بسيـط البناء والتكوين الى أن تـولى زياد ولاية الكوفة سنـة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، فبناه بالآجـر ووسعه بحيث أصبح يتسع لستين ألف شخص[١٠]، ذكر سيف أنه لما أراد زياد بناء مسجد الكـوفة دعا ببنائين من بنائي

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٢ (قالوا). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١
(٢) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.
(٣) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٨ (أبـو عبيدة). الطبري، تـاريخ، جـ٤، ص ٤٤ (سيف) ابن الأثير، الكـامل، م ٢، ص ٥٢٩. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١١٢. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٦٣ (قالوا).
(٤) الطبري، تـاريخ، جـ٤، ص ٤٤-٤٥. ابـن الأثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٩. النـويـري، نهاية الأرب، جـ١٩، ص ٣٤١.
(٥) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٤٧ (سيف).
(٦) ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٩١.
(٧) ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٩٢ (الشعبي).
(٨) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة والمدائني).
(٩) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٤٧.
(١٠) ياقـوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٩١. ذكر ابن قتيبـة أن زياداً "هو بـاني مسجد الكـوفة". (انظر المعارف، ص ٥٦٥).

الجاهلية الذين لديهم خبرة في البناء، فوصف لهم موضع المسجد وقدره، وقال لهم أنه يرغب في اقامة بناء لا مثيل له، فقال له بنّاء ممن كان في خدمة كسرى: "لا يجيء هذا الاّ بأساطين من جبال أهواز، تُنقر ثم تثقب، ثم تحشى بالرصاص وبسفافيد(١) الحديد، فترفعه ثلاثين ذراعا في السماء ثم تسقفه، وتجعل له مجنبات ومواخير فيكون أثبت لـه". فقال زياد: "هذه الصفة التي كانت نفسي تنازعني اليها ولم تعبرها"(٢).

ويبدو أن زيادا لم يزل يذكر تلك الأنواع من الأبنية التي رآها في القصور الكسروية في فارس عندما كان أميراً عليها لعلي بن أبي طالب(٣)، وأعجب بشموخها وفنها العمراني، فلم يرَ بأسا في اقتباس بعض الأسس الحضارية المادية والمظاهر العمرانية الساسانية، دون أن يمس ذلك مقومات الفكر الحضاري الذي جاء به الاسلام، وهذا يدل على عمق تفكير زياد وسعة أفقه وتطلعه المستمر الى التطور والتقدم، بما يعكس عظمة وشموخ السمات المعنوية والمادية للدولة الاسلامية التي امتد سلطانها على أرجاء واسعة حتى شملت أمماً متمدنة ذات تراث عريق.

هذا ولم تذكر المصادر تفاصيل دقيقة عن النفقات التي صرفها زياد في بناء وتوسيع المسجد، وكل ما تذكره أنه أنفق على كل أسطوانة من أساطين المسجد ثماني عشرة مائة(٤). وقد اتخذ في المسجد مقصورة لنفسه، ويبدو أنه اتخذها حين حصبه أهل الكوفة(٥)، ثم جدد هذه المقصورة فيما بعد خالد ابن عبد الله القسري حين ولي العراق سنة (١٠٥هـ/ ٧٣٢م)(٦)، وقام زياد أيضا بفرش صحن المسجد بالحصى مثلما فعل في مسجد البصرة(٧).

تلك هي أهم التجديدات التي لحقت بمسجد الكوفة في عهد زياد كما تحددها نصوص التاريخ، ويبدو أن هذه التجديدات بقيت دون أن يطرأ عليها تغييرات جذرية ذات شأن، فابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، الذي شاهد مسجد الكوفة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وصفه بقوله: "جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة أبلطه وفي سائر الجوانب بلاطان، وهذه البلاطان على أعمدة من السواري الموضوعة في صُمّ الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص ... وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما أرى في الارض مسجدا أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفا"(٨)، يشعر هذا النص أن أساطين وعمدُ

---

(١) السفافيد: جمع سفود، حديدة معقفة ذات شعب. (انظر ابن منظور، لسان العرب، جـ٣، ص ٢١٨).

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص٤٦-٤٧.

(٣) المصدر نفسه، جـ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٣٨١-٣٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ٧، ص ٣٣٣.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٩٣ (عبد الملك بن عمير).

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص٢٣٦. النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٣٢٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٠.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٣٩٠ (أبو عبيدة).

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٨٩-٣٩٠ (المدائني). الماوردي، الأحكام، ص ٢٤٤.

(٨) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٩م، ص ١٨٧-١٨٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا: ابن جبير، رحلة.

مسجد الكـوفة التي وضعت في القرن الأول الهجري بقيت على حـالها حتى زمن رحلة ابن جبير، الاّ أنها لم تحظ – مع مـرور الزمن – بـالعنـاية الكـافية، فسقطـت جميعها وظلت مطمـورة حتى كشف البحث الأثري آخر الأمر عن أسطوانة من تلك الأساطين التي ربما تعود الى عهد زياد، وقد وضعت هذه الأسطوانة في وسط المسجد أمام محراب النبي (ﷺ)(١).

هكذا لفتت أهمية المسجد انتباه زياد منذ توليـه لولاية البصرة، وفيما بعد عندما عُين على الكوفة، ويبدو أن تجربته كـرجل دولة ومعايشته القريبـة للقلاقل والاضطرابات التي شهدهـا العراق جعلته يـدرك قيمـة المراقبـة لهذه المراكـز (المساجـد)، التي تمثل جـانبـاً مهما من جـوانب الحيـاة الفكـريـة والاجتماعية والسياسيـة الى جانب كونها مراكز دينيـة، لذلك سعى زياد الى توسيع مساحـة مساجد الجماعـة كي تطغـى على مسـاجـد القبـائل الصغيرة المنتشرة في خطط المدينـة، حيث يُعقـد فيهـا اجتماعات خـاصة، غـالباً مـا تكون ضـد السلطة، ومن الصعـب القيام بمـراقبتها، وتحسبـا لقيام الاضطرابـات أو الفتن من مركـز المدينة (المسجـد الجامع)، فقد اتخذ زيـاد بالبصرة "رابطـة عدتهم خمسمائة وولى أمرهم شيبان صاحب مقبرة شيبان من بني سعد، فكانوا لا يبرحون المسجد"(٢).

ومهما يكن من أمر فان اهتمام زيـاد ببناء واصلاح المساجد في ولايته لهو دليل آخـر على استقامته ورغبته في اجراء المزيد من الاصلاحات التي ترقى بها ولايتـه خاصة والدولة عامة. ولم يقتصر اهتمام زياد على بناء المساجد بل تعداه الى دور الامارة والقصور وغيرها من المعالم العمرانية.

دور الامـــارة

دار الامارة من أهـم الأبنية في المصر، وهي المكان الذي يقيم فيـه الأمير، وما يتصل به بالاضافة الى الدواوين(٣).

في البصرة بُنيت دار الامارة منذ زمن عتبة بن غزوان، حيث بناها دون المسجد في رحبة بني هاشم التي كـانت تسمى (الـدهنـاء)، وكانـت المادة التي بنيت منها الـدار هي القصب، وهي المادة التي بنيت منها مدينة البصرة في ولاية عتبة، ويبـدو أن دار الامارة أقيمت على مقربة من المسجد ولم تكن ملاصقة له، حيث كانت تضم السجن والديوان(٤).

وفي ولاية أبي مـوسـى الأشعري أعـاد بناء دار الامـارة باللبن والطين وسقفهـا بالعشب(٥)، وبهذا

---

(١) كاظم الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، ط ١، مطـابع دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م، ص ١٢٢، وسيشار اليه عند وروده هكذا: الجنابي، تخطيط الكوفة.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢١ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٤.

(٣) العلي، خطط، البصرة، ص ٧٦.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٣-٤٨٤ (أبو عبيدة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٢.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (أبو عبيدة). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٨. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.

البناء البسيط تثبت مكان دار الامارة ولم يكن ملاصقا للمسجد، كما أنه لم يكن في جهة القبلة يوضح ذلك ما رواه البلاذري "وكان الامام اذا جاء للصلاة بالناس تخطّاهم الى القبلة "(١).

في خلافة معاوية حوّل زياد دار الامارة من الدهناء وجعلها في قبلة المسجد وبناها باللبن والطين(٢)، وفتح بابا في جدار القبلة ليدخل الوالي من دار الامارة الى مصلى المسجد، فكان الامام يخرج من الدار عبر الباب الذي في حائط القبلة من غير أن يتخطى صفوف المصلين(٣)، ولا شك أن لهذا الاجراء أهميته حيث ربط دار الامارة مركز الحياة الادارية والسياسية بالمسجد الجامع الذي يعتبر مركزاً للحياة الدينية والاجتماعية والفكرية.

ونقل البلاذري عن أبي عبيدة قوله : "لما قدم الحجاج بن يوسف العراق أخبر أن زياداً ابتنى دار الامارة بالبصرة، فأراد أن يزيل اسمه عنها، فهمّ ببنائها بجص وآجر، فقيل له انما تزيد اسمه فيها ثباتاً وتوكّداً، فهدمها وتركها فبنيت عامة الدور حولها من طينها ولبنها وأبوابها"، وبقيت البصرة من غير دار للأمراء حتى عهد سليمان بن عبد الملك، وكان صالح بن عبد الرحمن عامله على خراج العراق، فأخبر صالح الخليفة سليمان أنه ليس في البصرة دار امارة، وأعلمه بما فعل الحجاج، فأمره سليمان باعادة بنائها، فبناها بالآجر والجص(٤).

أما دار الامارة في الكوفة فقد بنيت حذاء المسجد الجامع الى الجهة الجنوبية (القبلية)، وقد تعهد ببناء المسجد ودار الامارة زمن سعد دهقان من أهل همدان اسمه روزبة بن بزرجمهر فخطّ القصر، وكان الناس يسمون دار الامارة بقصر سعد، وبناه من نقض آجر قصر كان للأكاسرة في منطقة الحيرة، ووضع المسجد حيال بيت المال الى منتهى القصر على القبلة ثم حدا به عن يمين ذلك الى منقطع الرحبة التي سميت فيما بعد (رحبة علي بن أبي طالب)، فكانت قبلة المسجد الى الرحبة وميمنة القصر(٥).

بقي هذا البناء على حاله الى أن وليّ زياد الكوفة سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، حيث يذكر البلاذري أن زياداً بنى مسجدها "وبنى دار الامارة"(٦)، ولم تذكر المصادر معلومات أخرى عن كيفية بناء زياد لدار الامارة والنفقات التي أنفقها في البناء، والأرجح أن زيادا لم يستحدث بناء دار الامارة بالكوفة، وربما أجرى على بناء سعد بعض التجديدات أو الزيادات، يؤيد ذلك ما ذكره ابن بطوطة الطنجي الذي زار الكوفة سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، حيث وصف أنقاض دار الامارة فيها بقوله :

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٤ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٥ (القحذمي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.

(٣) البلاذري، فتوح ص ٤٨٤ (الأصمعي). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٣.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٧. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٤.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٤٦ (سيف). ابن الاثير، الكامل، م ٢، ص ٥٢٩. الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة، ص ١٣٥.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٩ (أبو عبيدة).

"أما قصر الامارة الذي بناه سعد بن أبي وقاص (رض)، فلم يبق منه الاّ أساسه"[١].

واضافة الى بناء وعمارة المساجد ودور الامارة أيام زياد، فقد أقيم في البصرة عددا من القصور الفخمة المبنية من الآجر والجص، أهمها : قصر أوس نسبة الى أوس بن ثعلبة أحد بني تيم اللهبن ثعلبة وهو من وجوه العرب بخراسان، وقصر أنس نسبة الى أنس بن مالك الانصاري، والقصر الأحمر لعمرو بن عتبة بن أبي سفيان، وقصر المسيرين لعبد الرحمن بن زياد، وقصر عبيد الله بن زياد والى جانبه جوسق[٢]، وقصر زياد سمّاه الشطّار قصر النواهق[٣]، وبنى زياد قصر ابن عمار ودار البيضاء والحمراء "فلم يضافا اليه"[٤].

ويبقى عدد هذه الدور والقصور التي ذكرتها المصادر قليلا جدا، ولا بد أن هناك دوراً أخرى لم تذكرها ولكنها بنيت زمن زياد في كل من البصرة والكوفة نتيجة استقرار الناس فيهما، ونظراً لتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وربما نسبت بعض الأبنية التي أنشئت في عهد زياد الى من تلاه من الولاة لسكناهم تلك الأبنية أو لادخالهم بعض التجديدات والتحسينات فيها، مما أدى الى ضياع أخبار نشأة بعض تلك الأبنية، وقد أشار الجاحظ الى ما حدث في البصرة حيث قال : "من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون"، كما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر[٥]، ولعل العلاقة السلبية بين زياد وابن عامر تفسرّ لنا صنيع زياد هذا، وقد لقي زياد مثل ما لقيه ابن عامر اذ يذكر ابن الفقيه "وبنى زياد بالبصرة دار الرزق وحفر نهر الأبلة ونهر معقل، وبنى داره وبنى البيضاء والحمراء فلم يضافا اليه، وبنى سكة فأسكنها أربعة آلاف من البخارية، فقيل سكة البخارية فأضيفت اليهم، وبنى سبعة مساجد فلم يضف اليه شيء منها : مسجد الأساورة، ومسجد بني عدي، ومسجد بني مجاشع، ومسجد حُدّان"، وأضاف ابن الفقيه "وكلما بنى فيها (في البصرة) أو صنع فأنه نسب الى غيره مثل مسناة مصعب ونهر عدّي ونهر بلبل وباب الأصفهاني وحفيرة مطيع وقصر ابن عمار وحمّام سياه وحمام فيل وحمام منجاب وقصر أوس وباب عثمان ومقبرة حصن ومقبرة بني شيبان ونهر مرّة ونهر بشّار"[٦]. وقد أراد الحجاج أن يطمس ذكر زياد بهدمه لدار الامارة في البصرة، ولكنه أخفق في ذلك فتركها مهدومة[٧].

ان القائمة الواسعة التي أوردها ابن الفقيه تظهر لنا الاعمار الكبير الذي حدث في البصرة زمن زياد، ولا ريب أن بعض تلك الأبنية كان من بنائه، وأنه أنفق عليها من بيت المال[٨]، غير

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢جـ، ط ١، المطبعة الأزهرية بمصر، ١٩٢٨، جـ١، ص ١٣٨، وسيشار اليه عند وروده هكذا : ابن بطوطة، تحفة النظّار.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٥ (هشام الكلبي). وانظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٣٥٦. الجوسق : الحصن، وقيل : هو شبيه بالحصن. (أنظر ابن منظور، لسان العرب، جـ١٠، ص ٣٥).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٥ (القحذمي).

(٤) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٥) الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص ٧٣.

(٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١. العلي، خطط البصرة، ص ٥٥-٥٦.

(٧) البلاذري، فتوح، ص ٤٨٧ (أبو عبيدة). ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٤.

(٨) ابن أعثم، فتوح، م ٢، ص ٣٠٨.

ان الراجح أن الدور والقصور والمقابر والحمامات بنيت بنفقات أصحابها[1] لكونها مصالح خاصة، وهي من غير شك ثمار الرخاء الاقتصادي الذي نعمت به البصرة في عهد زياد.

لقد دفعت هذه النهضة العمرانية في مصري العراق الى احتذاء السكان بواليهم في بناء وتعمير بيوتهم بالآجر والجص، هذه المواد التي يُعد زياد أول من بنى بها في البصرة[2]. ولم يكن في البصرة والكوفة أية عوارض جغرافية تحد حدودهما أو تعطل امتدادهما وتوسعهما، ولم يرد ذكر قيود وضعتها الدولة لتعطيل توسعهما الاّ ما ذكر عن منع زياد بناء المساجد حول المسجد الجامع[3]، وكذلك ما ذكره المدائني من أن الحمامات لم تكن تبنى في زمن الامويين الاّ باذن من الولاة[4]، ولا نعلم ان كان ما ذكره المدائني محصوراً بالبصرة أم عاما في بقية أمصار الدولة، كما أننا لا نعلم ان كان ذلك يرجع لأسباب اقتصادية أو صحية، أو نتيجة متابعة لتقاليد كان معمولا بها.

ولا شك في أن بناء الحمامات له تأثيره على الصحة العامة، لما تفرزه من مياه قذرة، مما قد يؤثر في الأوضاع الصحية للمنطقة، وذكر البلاذري "كان زياد يمنع الحمامات الاّ في المواضع التي لا تضر بأحد"[5]، وقد أقيمت بالبصرة في زمن زياد حمامات عديدة منها: حمام مسلم بن أبي بكرة، روى البلاذري " واتخذ مسلم بن أبي بكرة حماما ولم يكن بالبصرة غيره، فكان يستغله في كل جمعة ألف درهم وكريّ[6] حنطة"[7]، ثم تتابع بناء الحمامات، فبني فيل مولى زياد حمام فيل[8]، وبنى المنجاب بن راشد الضبي حمام المنجاب، وبنى سياه الاسواري حماماً بأسمه، وبنت ريطة زوجة زياد حماما باسمها[9]، وبنى بلج بن نشبة السعدي حمام بلج[10].

ويبدو أن الحمامات كانت تدرُ دخلا طيباً على أربابها أول الأمر، ذكر المدائني أن أبا بكرة سأل ابنه مسلم عن سبب غناه ولم يلِ عملا أو منصبا، فأجابه "اني أغتلّ من حمامي هذا في كل يوم ألف

---

(١) العلي، خطط البصرة، ص ٥٦.

(٢) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٧. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ١، ص ٤٨٦.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٢ (قالوا).

(٤) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣ (المدائني).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٢٣.

(٦) الكُرّ: مكيال لأهل العراق، وهو يساوي عندهم ستون قفيزا. والقفيز ثمانية مكاكيك والمكوك صاع ونصف. (أنظر ابن منظور، لسان العرب، جـ٥، ص ١٣٧).

(٧) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٥٠٢ (قالوا). وروى البلاذري عن القحذمي أن الحمام الثالث الذي بني في البصرة هو "حمام مسلم بن أبي بكرة في بلالاباذ، وهو الذي صار لعمرو بن مسلم الباهلي". (انظر الفتوح، ص ٤٩٣. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩).

(٨) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣ (القحذمي). ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٨٩ (هشام بن الكلبي). ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٩٨. وانظر الجاحظ، الحيوان، جـ٧، ص ٨٣-٨٤ (أبو عبيدة).

(٩) البلاذري، أنساب (محمد حميد الله)، جـ١، ص ٥٠٢ (قالوا). وانظر ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١. العلي، خطط البصرة، ص ١٣٢.

(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٥ (عوانه). أيضا فتوح، ص ٤٩٥ (قالوا).

درهم وطعاما كثيراً "(١)، ويظهر أن هذا الدخل المرتفع دفع الكثيرين الى استئذان الأمير في بناء الحمامات، فاستأذن كل من عبيد الله بن أبي بكرة، والحكم بن أبي العاص، والحصين بن أبي الحر العنبري، فأذن زياد لهم جميعاً(٢). هذا وتدل كثرة الحمامات التي أنشئت في عهد زياد على اهتمام الناس بالنظافة وتطور حياتهم الاجتماعية والاقتصادية.

ويبدو أن كثرة السكان في مصري العراق - وخاصة في البصرة - وازدحامهم في بعض الخطط جعل الاعتماد على الأفراد في نظافة طرق وسكك المدينة أمراً صعباً، وقد حاول زياد إلزام الناس بتنظيف أفنية بيوتهم وخاصة بعد سقوط المطر، الاّ أن ذلك لم يؤد الى الغاية المنشودة، فذكر المدائني "كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر اذا أصْحَت برفع ما بين يدي فنائه من الطين فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقي في حجلته، ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من ا لقذر والكناسات ثم أنه اشترى عبيدا ووكلهم به فكانوا يُنحّونه "(٣)، هذا النص يوضح اهتمام زياد البالغ بنظافة المدن، حيث رأى في نهاية المطاف أن الأمر يتطلب توظيف أشخاص معينين مهمتهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات، ولا نعلم ان كان هذا الاجراء قد طبقه ولاة المسلمين في الأمصار الاسلامية الأخرى، أم أن زيادا كان أول من شرع به فتابعه في ذلك ولاة آخرين.

هكذا اهتم زياد بالبناء والعمران في ولايته، فسارت الحركة العمرانية بخطوات سريعة أدارت عجلتها الظروف الاقتصادية الجيدة، والاتجاه نحو الاستقرار النهائي. والملاحظ أن البصرة أخذت في البناء باللبن والآجر والجص قبل الكوفة بزمن(٤)، حتى فاقتها بكثرة المباني وفخامتها ولعل هذا يعود الى ارادة عدد من ولاة البصرة في تعميرها وتنظيمها، فقيل: "أن البصرة صنائع ثلاثة رجال: عبد الله بن عامر، وزياد، والحجاج"(٥)، كما أن مواد البناء في البصرة كانت أكثر وفرة ورخصا من الكوفة وغيرها من مدن العراق، وفي ذلك يقول الجاحظ "ولو أن رجلا ابتنى دارا يتممها ويكملها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع فبلغت نفقتها مائة ألف درهم، فان البصري اذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفا، لأن الدار انما يتم بناؤها بالطين والآجر والأجذاع والساج والخشب والحديد والصناع، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها"(٦)، وعلى الرغم من هذه الايجابيات التي تميزت بها البصرة على الكوفة الاّ أنه يمكن القول أن المدينتين اتخذتا شكلهما التقريبي المستقر في زمن زياد، وبدت في كل منهما صبغة تمدنية ثابتة، حيث أصبحت مواقع القبائل واضحة وتميزت المساحات الخالية.

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٩٣. ياقوت، معجم البلدان، جـ١، ص ٤٣٥.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٣٧.

(٤) ما سينيون، خطط الكوفة، ص ٤١. وانظر شارل بلا، الجاحظ في البصرة، ص ٣٥٢.

(٥) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٥، ص ٢٥٩ (يقال).

(٦) الجاحظ، البلدان، ص ٥٠٣.

الفصل الخامس
سياسة زياد تجاه قوى المعارضة في العراق

* الخوارج .
* الشيعة .
  - حركة حجر بن عدي .
* موقف زياد من بيعة يزيد .

الخـــوارج

لم تكن مبايعة أهل العراق لمعاوية تعني أن جميعهم قـد سلّموا أمرهم للأمويين عن قناعة ورضى فقد كان الكثير منهم قد سكتوا على مضض لأن الموقف يستوجب السكوت، ولا سيّما بعد أن تنحى قادتهم عن أدوارهم، ولعل بعضهم ملّ القتال والحرب فوجد في مبايعة معاوية موئلا لحياة الاستقرار والهدوء التي فُقـدت أو كـادت أيام النـزاع بين علي ومعـاويـة . ومهما تكن مشـاعر العـراقيين نحـو الأمويين، فقد أدركـوا أن خلافة معاويـة أصبحت أمرا محتوما، فهـو خليفة المسلمين بإجماع الأمة، وبخاصة أن الحسن والحسين أبناء علي بايعا له[1].

أمـا الخوارج فأنهم لم يـرضـوا عن الصلح الـذي تم بين معاويـة والحسن، اذ وجـدوا فيـه تحطيما لآمالهم وطمـوحاتهم التي ترمي الى أبعاد الحكم عـن كلا الفريقين، وكان معـاوية أبغض اليهم من علي وأبنائه، إذ اعتبروه ملكا بينما اعتبروا علي خليفة، ووصمـوا بني أمية بالفسق والظلم واغتصاب الحكم[2]، وقد صـوّر الخوارج أنفسهم بأنهم حماة الدين، فرفضـوا الاستكانة في ظل العهـد الجديد، وحملوا سيـوفهم على عواتقهم معلنين سخطهم على حكم معاويـة، وما كان على الـولاة الأمويين في العـراق، الاّ أن يواجهـوا عسف وتمرد الخوارج ويسلكوا معهـم سبيل الشدة والقمع ليأمنـوا شرهـم، ويحولوا دون ما يلقونه من بذور التفرقة التي كادت تؤدي بالأمة الاسلامية.

وتذكر المصـادر المتوفرة عدداً من فتن الخوارج التـي شبت في الكوفة والبصرة ابان سنـوات خلافة معاويـة، ولكن هذه الفتن سرعان مـا أخمدت ولم يكن لها من ثمرة الاّ مضاعفـة عدد القتلى، والحد من نمو وازدهار الحياة الاقتصادية.

ففي سنـة (٤١هـ/ ٦٦١م) استعـدت جماعة الخوارج الـذين اعتـزلوا عليـا بشهرزور وعـددهـم خمسمائة، بزعامة فروة بن نوفل الأشجعي[3]، وساروا الى معاوية حتى دخلوا الكوفة، فأرسل اليهم معاوية جنـدا من أهل الشام لم يتمكنوا من تفريقهـم، فاستعان بأهل الكوفـة لمقاومتهم وقال لهم: "لا أمان لكم والله عنـدي حتى تكفّوا بوائقكم"، عنـدئذ توجـه أهل الكوفة لقتـال الخوارج الذين تعجبوا من موقف أهل الكوفة وقالوا لهم: "ويلكم! مـا تبغون منا! أليس معاوية عدونا وعدوكم! دعونا حتى نقاتله، وان أصبناه كنا قد كفينـاكم عدوكم وان أصابنا كنتم قد كفيتمونا"، ولكن أهل الكوفة لم يستجيبـوا لنداء الخوارج، وقاتلوهم قتـالا شديداً حتى قتل فروة، فأفـرخ روع معاوية[4].

ويبدو أن أهل الكوفة كانوا أشد بغضا وعداء للخوارج من معاوية، لأنهم قتلوا عليا واتبعوا أساليب شنيعة في قتل الأبرياء، مما جعل الناس يستاؤوا منهم ويقاومونهم بعنف.

---

(١) ابن العربي، العواصم، ص ١٩٩.

(٢) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٦٤ (أبو مخنف). القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١٣، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٥-١٦٦ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٠٩.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٦ (عوانة). ابن الأثير، الكـامل، م٣، ص ٤٠٩. وانظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٧. فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص ٤٣.

وعندما استعمل معاوية المغيرة بن شعبة على الكوفة ، لم يفتش الوالي الجديد عن أصحاب الأهواء تجنباً لاثـارتهم وطمعا في تأليفهم . في هـذا الجو الملائم تنفس الخوارج الصعداء ، فأخـذوا يجتمعون وينظمون صفوفهم من جديد ، ومنذ بداية ولاية المغيرة أخذوا بالخروج والثورة ، الآّ أن هذه الثورات لم تشكل خطرا كبيرا ، لأنها اقتصرت على مجمـوعات صغيرة لم تكلفه جهدا كبيراً في القضـاء عليها[1]، وعلى الـرغم من قضـاء المغيرة على ثورات الخوارج الـواحـدة تلـو الأخرى ، الآّ أنـه لم يكن عنيفـا في مقـاومتـه لهم ، ويصف النضر بن صـالح سيرة المغيرة في أهل العراق فيقـول : " فأحب العـافيـة ، وأحسن في الناس السيرة ، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهـوائهم ، وكان يؤتى فيقال له : ان فـلانا يرى رأي الشيعـة ، وان فلانـا يرى رأي الخوارج " ، وكـان يـرد عليهم : " قضى الله ألاّ تزالـون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانـوا فيه يختلفون "[2]. هكذا تـرك المغيرة الخوارج أحراراً يلقى بعضهم بعضا ، يجتمعون ويتذاكرون أمرهـم ، وأبى أن يعرض لهـم الاّ أن يحدثوا شرا أو يبادوه بعداوة .

ويتبين للباحث في سياسة المغيرة مع رعيته من أهل الكوفة ، أنها كانت تمثل نظرة الخليفة معاوية للحكم ، فللحلم مـوضع وللسيف موضع آخـر ، فقد تمكن من اشغـال أهل الكوفـة عن معارضـة الأمويين معـارضة فعّـالة ، وعمل بمنتهى الدهـاء والذكـاء حين جعل خصوم بني أميـة من الشيعة يقاومون ويحاربون الخوارج[3] ، ويبدو أن كبر سـن المغيرة وحبه للعـافية جعله أقـل عنفاً وأكثـر لينا وتسامحا ، وهـذا ما صرّح به لمعاويـة حين أراده الخليفة أكثر حـزما وشدة ، فكتب اليه يقـول : " أما بعـد ، فقـد كبرت سني ورقّ عظمي ، واقترب أجلي "[4]، ومهما قيل بشأن سيـاسـة المغيرة في الكوفة[5] ، فقد نجح نجـاحاً كبيراً في ادارة ولايته التي دأبت على معارضـة الحكم الأموي ، كما نجح في اسكات الخوارج وتقليل خطرهـم طوال مدة ولايته .

وفي البصرة وجد الخوارج مجالا خصبا لخروجهم وممـارسة نشاطهم في أوائل خلافـة معاوية حيث كان هذا المصر يعج بـالفوضى والفساد[6]، فما أن تم الصلح بين معـاويـة والحسن في عام الجماعـة حتى غلب حمران بن أبان على البصرة ثم أن معـاوية أرسل للبصرة بسر بن أبي أرطأة ، فأمسك بـزمام

---

(١) أنظر ثـورات الخوارج في ولاية المغيرة لـدى : اليعقوبي، تـاريخ ، جـ٢ ، ص ٢٢٠-٢٢١ . الطبري ، تـاريخ ، جـ٥ ، ص ١٧٣-١٧٥ . البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ص ٤٩ ، وسيشار اليه عند وروده هكذا : البغدادي، الفرق بين الفرق.

(٢) الطبري، تاريخ ، جـ٥ ، ص ١٧٤ . ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢١ .

(٣) انظر المبرد، الكامل، م ٣، ص ٢٤٠ . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٨٤-١٨٥ (أبو مخنف) . ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٢٩ .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد، جـ١ ، ص ٩٧ .

(٥) عن الآراء التي قيلت في سيرة المغيرة في أهل الكوفة ، انظر الفصل الثاني، ص ١٠٠-١٠١ .

(٦) انظـر الطبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص ٢١٢ . ابن عساكـر، تاريخ / خط، م ٩، ص ٤٦٦ (اسحـاق بن علي) . ابن الأثير، الكامل م ٣، ص ٤٤٠ .

الأمور فيها، وأعاد الأمن الى نصابه[١]، ويبدو أن الوالي الجديد لم يحسن السيرة في أهل البصرة وخاصة الشيعة منهم[٢]، فعزله معاوية وولى مكانة عبد الله بن عامر، وذلك سنة (٤١هـ/ ٦٦١م)[٣]. كان على ابن عامر - منذ بداية عهده - القضاء على الفساد الذي استشرى في ولايته، كما كان عليه مواجهة الخوارج الذين ازداد نشاطهم في هذه المنطقة، فقد خرج عليه سهم بن غالب الهجيمي في سنة (٤١هـ/ ٦٦١م)، في سبعين رجلا منهم يزيد بن مالك المعروف بالخطيم الباهلي، فمضوا في خروجهم حتى أصبحوا عند الجسر وكانوا يستعرضون الناس، فقتلوا رجلا وابنه وابن أخيه، فخرج اليهم ابن عامر وقاتلهم فقتل منهم عدة، وانحاز بقيتهم وفيهم سهم والخطيم، فعرض عليهم ابن عامر الأمان فقبلوه فأمنهم، ولما علم معاوية بالأمر كتب الى واليه بقتلهم فلم يستجب ابن عامر لأمر الخليفة، ورد عليه: "قد جعلت لهم ذمتك"[٤].

وهكذا كانت سياسة ابن عامر أقرب الى اللين والتسامح من الشدة والحزم، وقد وصفه الطبري بأنه "رجلا لينا كريما لا يأخذ على أيدي السفهاء" ففسدت البصرة بسبب ذلك أيام ولايته[٥]، وحين أدرك معاوية عجز سياسة ابن عامر عزله عن ولاية البصرة تمهيداً لتولية زياد فكان ذلك في سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)[٦]. وإذا أردنا المقارنة بين سياسة ابن عامر وسياسة المغيرة تجاه الخوارج، فاننا نلاحظ أن ابن عامر كان ألين جانبا وأكثر تساهلا مما كان عليه المغيرة في الكوفة وربما يعود ذلك الى حرص ابن عامر على مركزه وصلاح نفسه، فقد شكى سوء حال أهل البصرة الى زياد، فقال له زياد "جرّد فيهم السيف" فقال: "اني أكره أن اصلحهم بفساد نفسي"[٧].

كانت البصرة عندما قدم إليها زياد تموج بالخوارج في داخل المدينة وفي خارجها، وكانت غاراتهم الى ذلك العهد أشبه بحرب العصابات، يتحركون بغتة دون أن يتوقعهم أحد فيكتسحون البلاد ويفاجئون المدن، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من ملاحقة جند الدولة لهم، وكان من أبرز المناطق التي يتجمع فيها الخوارج منطقة البطائح حول البصرة،[٨]، ولم يكن هذا الأمر خافيا على زياد، فكان يعرف جيدا قوة الخوارج وقدرتهم على القتال، وما يتمتعون به من روح معنوية وخشي أن تركهم

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٧ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٤١٤. ابن خلدون، العبر، م٣، ص ٨.

(٢) انظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٦٩ (المدائني).

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٨٩. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٥ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢١٧. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٠ (المدائني).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٢-١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤١٧. النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٢٧٧.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٢. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٩، ص ٤٦٦ (اسحاق بن علي). ابن الاثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٠. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٢٩.

(٦) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٢. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٧ (المدائني). المسعودي، مروج، م٣، ص ٣٣. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٤٧.

(٧) الطبري، تاريخ، م٥، ص ٢١٢.

(٨) ليفي دلافيدا، دائرة المعارف الاسلامية، مادة "الخوارج"، جـ٨، ص ٤٧٢.

وشأنهم أن يؤلبوا الناس عليه وعلى أميره معاوية، ويروّجوا لكرههما ويدعوا المسلمين لمناهضة السياسة الأموية، فلا يكون اليوم الذي يمكن فيه وقفهم عند حدهم وقطع دابرهم، ولعل أهم ما يدل على تخوف زياد من أمر الخوارج، قوله لمرداس بن أدية – أحد زعماء الخوارج – حين اعترض على ما جاء في خطبته البتراء قال: "إنّا لا نبلغ ما تريد وأصحابك حتى نخوض اليه الدماء"(١).

لقد سلك زياد سلوكاً فيه كثير من الحكمة ورجاحة العقل في معاملته للخوارج، حيث مزج بين الشدة والاغراء "فكان يقتل المعلن ويستصلح المُسر، ولا يجرّد السيف حتى تزول التهمة"(٢)، ومن جهة أخرى فقد عمل على تشتيت من يرون رأي الخوارج، حيث حاول جلب بعض الأقوياء والزعماء منهم الى حظيرة الدولة، بأن أسند اليهم بعض الوظائف والأعمال، وأكثر لهم العطاء والرزق، فقد ولىّ أبا الخير – أحد الخوارج الذين كان يُخشى أمرهم كما يبدو – جندي سابور، ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر، فكان هذا الخارجي يقول: "ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة"(٣). وعلى الرغم من هذه السياسة الحكيمة التي انتهجها زياد، الاّ أننا نجده يتعجب من الخوارج ويتحير في أمرهم، فكان يقول: "العجب من الخوارج أنك تجدهم من أهل البيوتات والشرف وذوي الغناء وحملة القرآن وأهل الزهد، وما أشكل عليّ أمر نظرت فيه غير أمرهم، فمن كف عني يده ولسانه كففت عنه"(٤)، وبالمقابل فانه لم يكن يغفر لمن تظهر منه ريبة، فيصل به الأمر أحياناً الى أهلاكه قتلا أو سجنا(٥).

لقد عمد زياد الى عدد من الاجراءات الحازمة، استطاع بواسطتها الحد من نشاط الخوارج وتحركاتهم، ولعل أهم هذه الاجراءات وأكثرها نفعا أنه ألزم كل قبيلة بمن يخرج منها من الخوارج "فكانت القبائل اذا أحست بخارجية فيهم شدتهم وأتت بهم زيادا، فكان هذا أحد ما يذكر من صحة تدبيره"(٦).

ولم تقتصر شدة زياد على رجال الخوارج فحسب، بل شملت أيضا نساءهم اللواتي كنّ يخرجن مع رجالهن، فيتلقين ويلات القتال والحرب الى جانبهم في الميدان، بصورة قلما نجدها فيما سبق من فتوح اسلامية وغزوات(٧)، ويبدو أن زيادا أدرك أن تواجد النساء في معسكر الخوارج من شأنه اذكاء حماسهم وشحذ عزائمهم وزيادة استبسالهم، لذلك أراد أن يضع حداً لهذه الظاهرة، فحدث أن

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٩ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢١. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٠. وانظر الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٥. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٤، ص ١١٣ (المدائني). القالي، ذيل الأمالي، ص ١٨٩.

(٢) المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٦٠.

(٣) المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٦١-٢٦٢.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٠٢.

(٥) انظر المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٦٢. ابن عبد ربه، العقد، جـ ٤، ص ٢٦.

(٦) المبرد، الكامل، جـ ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، جـ ١، ص ٢٢١. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٨.

(٧) انظر سهير القلماوي، أدب الخوارج في العصر الأموي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤٩، وسيشار اليه عند وروده هكذا: القلماوي، أدب الخوارج.

خرجت مع الخوارج امرأة فظفر بها زياد فقتلها ثم عرّاها، وقال: "أيّتما امرأة خرجت فعلتُ بها مثل هذه"(١)، فلم تخرج النساء بعدُ على زياد "وكنّ اذا دعين الى الخروج قلن: لولا التعرية لسارعنا"(٢)، وبعد ولاية زياد عُدن الى الخروج وشاركن الرجال في القتال والمبارزة(٣)، وكان بعض الخوارج أنفسهم لا يبيحون خروج النساء منهم أبو بلال مرداس بن أدية(٤).

وعلى الرغم من قيام زياد بهذه الاجراءات الصارمة لمكافحة خطر الخوارج، فقد تعرضت ولايته الى عدد من ثوراتهم، ففي السنة التالية لقدوم زياد البصرة خرج عليه الخطيم الباهلي وسهم بن غالب الهجيمي، اللذين كانا قد أمنهما ابن عامر بعد خروجهما عليه، وقد خرج سهم الى الأهواز ودعا الناس لدعوته، ثم أخذ ومن استجاب لدعوته يستعرضون الناس، فقتل سهم مسلما أعلن ايمانه بينما خلى سبيل يهود صرحوا بيهوديتهم، ثم أقبل يريد البصرة طالباً الأمان من زياد، فلم يؤمنه، بل ظل يطلبه حتى ألقى القبض عليه فقتله وصلبه على باب داره(٥)، فقال رجل من الخوارج:

فإن تكن الأحزاب باؤوا بصلبه   فلا يبعدن الله سهم بن غالب(٦).

أما الخطيم فقد سيرّه زياد الى البحرين، ثم رجع الى البصرة، ففرض عليه زياد الاقامة الجبرية في بيته، وطلب من مسلم بن عمرو أبا قتيبة أن يتفقده، فلما أخلّ الخطيم بما أمره به زياد، جيء به اليه فقتله وألقى به في عشيرته (باهلة)(٧)، وأخذ زياد امرأتين أرادتا الخروج مع الخطيم يقال لهما أراكة وأم سريع فقتلهما(٨).

ويظهر أن نشاط الخوارج قد توقف بعد مقتل سهم والخطيم حتى سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، حيث بدأت اضطراباتهم من جديد في البصرة، وكان زياد حينئذ في الكوفة وسمرة بن جندب خليفته على البصرة، ففي هذه السنة خرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف بن زحر الطائي - وهما ابنا خالة - في سبعين رجلا(٩)، منتهزين فرصة غياب زياد عن البصرة، فنزلوا في مقبرة بني يشكر ثم

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٧ (بعض الرواه).

(٢) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٤٦. ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٢٢١-٢٢٢. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٨-٤٣٩. وانظر الجاحظ، الحيوان، جـ٥، ص ٥٨٨-٥٨٩ (ابان بن عثمان)، الزمخشري، ربيع الأبرار، جـ٤، ص ١٩٠.

(٣) ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٣٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٨٠ (قالوا).

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٨ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٨، ٤٥٤. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٧٨. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٢.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٣ (قالوا). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٨.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٣ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٢٨ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٤. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٤.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٣ (قالوا).

(٩) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢٠٧ (جرير بن زيد). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٥ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٧ (وهب بن جرير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣.

أخذوا يستعرضون الناس فلا يمرون بقبيلة الاّ قتلوا من اعترض طريقهم منها[١]. ويذكر اليعقوبي أن قريبا وزحافا ومن معهما من الخوارج، استعرضوا الشرط فقتلوا كثيراً منهم وساروا الى المسجد الجامع فقتلوا خلقا من الناس، ثم مالوا الى القبائل فأعملوا القتل والنهب، ولما عجز عامل زياد عن ردعهم استنجدبزياد من الكوفة، فحين قدم زياد البصرة جعل يؤنب أهلها ويتوعدهم ويشرك قبائلهم في تحمل مسؤولية خروج الخوارج فقال: "يا أهل البصرة، ما هذا الذي قد اشتملتم عليه؟ اني أعطي الله عهدا لا يخرج عليّ خارجيّ بعدها فأدع من حيّه وقبيلته أحدا، فأكفوني بوائقكم"، فقام خطباء البصرة فتكلموا واعتذروا له[٢]، وقد خصّ زياد الأزد بتهديده ووعيده حيث قال لهم: "يا معشر الأزد لولا أنكم أطفأتم هذه النار لقلت: أنكم أرثتموها"[٣]، ويبدو أن هذه القبائل أخذت قول زياد بجدية لا يشوبها هزل، فصاروا اذا علموا بخارجي بينهم قبضوا عليه وجاءوا به الى الامير[٤]، وكان من أمر قريب وزحاف وأصحابهما أن خرج اليهم بعض رجال القبائل فقتلوهم عن آخرهم[٥]، وقد استنكر أبو بلال مرداس بن أدية خروج قريب وزحاف واستعراضهما الناس وقتلهما للأبرياء، كما أنه أبدى رضاه عن صنيع زياد حين قال: "قريب لا قربه الله من الخير وزحاف لا عفا عنه ركباها عشواء مظلمة"[٦] يعني الاستعراض.

اشتد زياد في أمر الخوارج بعد قريب وزحاف، ولم يتوان في قتلهم واهلاكهم، وقد أمر سمرة بن جندب - نائبه على البصرة - بقتلهم متى ظفر بهم، فقتل منهم عدداً كبيرا[٧]. ولما كان الخوارج يقتلون المسلمين الذين يخالفونهم في مبادئهم وآرائهم حتى الأطفال والنساء، لذا فقد كانوا منبوذين ومكروهين لدى كثير من الناس، وقد استغل زياد هذا الشعور فأخذ يحرض أهل البصرة على ملاحقتهم وقتلهم، وكان يهددهم بحرمانهم من العطاء ان تهاونوا في قتال الخوارج، قال: "أي خارجة خرجت من قبيلة فلم تقاتلها كما فعلت بنو راسب حرمتهم العطاء وأجليتهم"[٨].

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢٠٨-٢٠٩ (سعيد بن يزيد). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٥-١٧٦ (قالوا). المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٣٤٤-٣٤٥. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٧ ٢٣٨ (وهب بن جرير). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ١٣٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٢.

(٣) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٢٢١.

(٤) المبرد الكامل، جـ٣، ص ٢٤٥.

(٥) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٤٥. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ١٣٥. ابن الغملاس، ولاة البصرة، ص ٨٧.

(٦) المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٤٥. ابن عبد ربه، العقد، جـ١، ص ٢٢١. وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢١٠ (سعيد بن يزيد). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٨ (وهب بن جرير).

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ٢١٠ (وهب بن جرير). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٨ (وهب بن جرير). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٦٥٣. ابن الأثير، الكامل م ٢، ص ٣٥٤. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ٤، ص ٢٠٧.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٦ (قالوا). وانظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٨ (أبو عبيدة). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٦٣.

ويتبين لنا من تحريض زياد لأهل البصرة على قتال الخوارج أن عددهم كان كبيرا في المصر، وأنهم كانوا ينتشرون في الأحياء، وبين مختلف العشائر ويختفون في البيوت، مما يشعر بتدني سلوك بعضهم من الالتزام بمبادئهم والجهاد جهارا من أجلهـا الى سلوك أشبه بأفعال اللصوص والمجرمين، بحيث يصعب على السلطة دون مساعدة أهل المصر مراقبتهم والقبض عليهم.

وقد استعمل زيـاد لحراسة المسجد الجامع وبـاب عثمان شيبان بن عبد الله السعـدي، صاحب مقبرة شيبان، فجدّ في طلب الخوارج وأخافهم، فلم يزل كذلك حتى أتاه ليلة بعض الخوارج، وهو متكىء على باب داره فقتلوه وقتلوا بعض ولده[1]، وكان رئيسهم عباد بن حضين، فخرج اليهم بشر ابن عتبـة التميمي في الشرطـة فقاتلهم حتى قضـى عليهم، وكان زيـاد بعـدها إذا أخـذ رجـلا من الخوارج قال: "اقتلوه متكئاً كما قتل شيبان متكئاً"[2].

وفي سنة (٥٢هـ/ ٦٧٢م)، خرج على زياد في الكـوفة زياد بن خـراش العجلي في ثلاثمائة من أصحابه فنزلـوا الأخنونية من أرض مسكن، فأرسل اليهم زياد خيلا عليها أحـد قادته فقتلوهم[3]. وفي السنة ذاتها خـرج على زياد أيضا معـاذ الطائي في ثلاثين رجـلا من أصحابـه، فبعث اليهم قوة تمكنت من القضاء عليهم جميعا، ويقال لهم أصحاب نهر عبد الرحمن بن أم الحكم[4].

ان أعمال الخوارج هـذه لتبـدو وكأنها ضرب من ضروب المغـامـرة، غير أنها لم تكن غـريبـة على سلـوكهم، فهم لا يتحـرجـون مـن القيـام بهذه الأعمال وأمثـالها، وهي أعمال ربما دلت على تمسك بعضهم بالمبادىء، تلك المبادىء التي اعتقـدوا فيها أنهم وحدهم على حق وأن غيرهم من المسلمين على باطل، ممـا جعلهم يلجأون الى الشدة مع أعـدائهم، ولم يكن زياد يبغـي الشدة مع الخوارج الاّ لردهم عن غيّهـم، فقد جيء له بعـروة بن أدية الخارجي، فأمـر بقتله حين أصر على اعتقـاده وسبه وسبّ أميره معاويـة سبا قبيحا[5]، ثم نجـده يبعث الى الرجـل الذي يستسلم من الخوارج فيعطيـه ويكسوه ويقول له: "ما أراه منعك من اتيـاننا الاّ الخلّة والرّجلة"[6]. وهكذا فقد استطاع زياد - بدهـائه حينا وبقسوتـه حيناً آخر - أن ينشر الأمن والاستقـرار في سائر منـاطق ولايته، كما تمكن من

---

(١) البلاذري، أنسـاب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٤ (قالـوا). المبرد، الكامل، جـ٣، ص ٢٦٣. ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٥٣. ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٥٤.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٤ (قـالوا). المبرد، الكـامل، جـ٣، ص ١٦٣. وانظـر ابن حمدون، التذكرة، م ١، ص ٤٥٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٥، ص ١٠٠.

(٣) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٧ (قالوا). ابن الأثير، الكـامل، م٣، ص ٤٩١. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٢٨٣. وانظر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٩.

(٤) البـلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٧-١٧٨ (قـالوا). ابن الأثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٩١. النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٢٨٣.

(٥) المبرد، الكـامل، م ٣، ص ١٨٠-١٨١. ابن أبي الحديـد، نهج البلاغـة، جـ٢، ص ٨٠، ص ٢٧٤، بينما يذكـر ابن الأثير أن عبيد الله بن زياد هو الذي قتل عروة بن أدية. (الكامل، م ٣، ص ٥١٨).

(٦) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٧٤ (قالوا). وانظـر المبرد، الكامل م٣، ص ٢٦١. التنوخي، الفرج بعد الشدة، جـ١، ص ٧٦ (المدايني).

اخماد نشاط الخوارج الذين رضخوا لقوته وأجبروا على طلب الأمان واعتزال السياسة في عهده استجابة لكلمته في الخطبة البتراء "كفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي "(١).

يتضح مما تقدم أن الخوارج قاموا بثورات عديدة في ولاية زياد وكانت جُلّ هذه الثورات قد قامت في البصرة ومنطقتها، بينما نجد خوارج الكوفة - في الفترة نفسها - أكثر سكينة وأقل نشاطا، ولعل هذا يعود الى كثرة عددهم في البصرة، وقلتهم في الكوفة مركز الشيعة هؤلاء الذين كانوا على طرفي نقيض من الخوارج، ولقد أثرت ثورات الخوارج تأثيراً واضحا على الدولة الأموية وعلى العراقيين على حد سواء، فقد اضطر زياد وغيره من ولاة بني أمية أن يكونوا مستعدين دوماً لمواجهة هذه الثورات ومقاومتها والقضاء عليها، فتحملت الدولة نتيجة لذلك أموالاً طائلة وأرواحاً كثيرة، ولا ريب أن الناحية الاقتصادية قد تأثرت في هذا المجال وبخاصة التجارة، وذلك لما كان يحدثه هؤلاء الخوارج من قطع طرق المواصلات بين المدن والمناطق المختلفة، كما سيطر على الناس في العراق جو من الفزع والخوف لعلمهم أن الخوارج لا يتورعون عن احراق القرى وقتل كل من يخالفهم في العقيدة حتى وان كان طفلا أو امرأة(٢).

لقد تناول بعض المستشرقين علاقة زياد بالخوارج، فذكر فلهاوزن أن الخوارج كانوا مختلفين فمنهم الورع الملتزم بالمبادىء، ومنهم المتطرف قليل المبالاة بالمبادىء، فلم يتعرض زياد الى أهل الورع منهم، بل ضرب على أيدي المجرمين الذين قام الدليل على إجرامهم " وهو لم يلجأ الى المذابح الرادعة ... أما ما يروى عن أفعال زياد خلافاً لذلك فيجب أن يعتبر تشنيعا مغرضا "(٣). وفي موضع آخر قال فلهاوزن أنه لا محل " للكلام عن قسوة زياد على الخوارج وانما فعل ما يقضي به منصبه وما فرض عليه القرآن "(٤). أما خودا بخش "Khuda Bakhsh" فيعتقد أن شدة زياد مع الخوارج جعلتهم يترددون في القيام بالثورة، فما أن أدركوا قلة فرص الثورة في عهد زياد حتى آثروا الهجرة من العراق، وسموا أنفسهم "مهاجرين"، وسموا كل مكان قصدوه "دار هجرة"، متشبهين بمن هاجروا من مكة الى المدينة(٥). واذا كان زياد قد تشدد كثيراً في أمر الخوارج، فانه إنما كان يمتثل لأمر وارادة أميره معاوية، وذلك بعد أن أخفقت سياسة اللين والمداراة التي اتبعها أسلافه مع الخوارج، فنجح زياد حيث أخفق سواه.

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٠ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٩. وانظر الجاحظ، البيان، جـ ٢، ص ٦٣.

(٢) الراوي، العراق في العصر الأموي، ص ٢٤٢-٢٤٣. Hiskett, The story of the Arabs, P. 69. Spuler, Bertold, The Muslim world, Translated from the German F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960, Vol. I, P. 37.

(٣) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ١٢٢.

(٤) فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص ٦٢.

(٥) Khuda Bakhsh, Contributions to the History of Islamic Civilization, 2Vols, Calacuta, 1930, II. P. 176-177.

ومما يلاحظ أن ثورات الخوارج التي قامت في ولاية زياد أخفقت مبكرا، وتم القضاء عليها قبل أن يتسع نطاقها، فلم تحقق شيئاً من أهدافها التي كانت تسعى اليها، والمرجح أن أسباب ذلك الاخفاق تنحصر فيما يلي :

١ - السياسة الحكيمة التي انتهجها زياد مع الخوارج، وقد أوضحنا معالم هذه السياسة فيما سبق.

٢ - كان الخوارج يخرجون فرقا متعددة في أعداد قليلة نسبيا، وفي أوقات متباعدة مما أدى الى تفتيت وحدتهم وأضعاف قوتهم، فسهل على زياد مقاومتهم والقضاء عليهم دون أن يكلفه ذلك جهد كبير.

٣ - الأفعال الوحشية التي كانوا يحدثونها من قتل الأطفال والنساء، وقتل كل من يخالفهم في مبادئهم، وقطع طرق التجارة وكسر الخراج، مما أدى الى كرههم لدى العراقيين عامة فأخذوا يساعدون الولاة في القضاء عليهم.

٤ - غلبة مذهب التشيع على أهل الكوفة، ومناقضة ذلك المذهب لمبادىء الخوارج، وكره الشيعة خاصة وأهل الكوفة عامة للخوارج، لخروجهم على علي بن أبي طالب وتكفيرهم اياه، مما جعل هؤلاء لا يترددون في الوقوف الى جانب الولاة في مقاومة الخوارج.

الشيعـــة

لم يقم الشيعة بأية حركة سياسية أو عسكرية منذ تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ومغادرته الكوفة الى المدينة، بيد أنهم لم يكونوا راضين عن الحكم الأموي، فقد خيبت خلافة معاوية آمالهم في اقامة خلافة علوية، ولم يكن هذا رأي الشيعة وحدهم، بل اتفق معهم في هذا الرأي جُلّ أهل الكوفة، فكانوا يعتبرون عليا الشخصية السياسية التي حققت الاستقلال للعراق[(١)].

ان السنة التي استنها معاوية في سب علي بن أبي طالب على المنابر[(٢)]، جعلت الشيعة يتحمسون لقضيتهم، وان كان المعروف عن العراقيين بعامة وأهل الكوفة خاصة أنهم يكثرون من الحماسة، لكن هذه الحماسة لم تتعد العاطفة الى العمل الايجابي الاّ قليلا، انهم غالبا ما يرفضون الحاكم ويثورون عليه، وخاصة اذا لمسوا فيه لينا أو ضعفا، لكنهم سرعان ما يخضعون له خشية من شدته وبطشه ويهالئونه متى لمسوا فيه قوة وحزما[(٣)]. وقد عرف أميرهم المغيرة هذا الأمر منهم، فسار فيهم سيرة معتدلة أيسر من سيرته مع الخوارج، فلم يعرض لهم بشر أو أذى، وربما بادؤوه بالكلام القاسي الغليظ، فرد عليهم برفق ناصحا لهم ومحببا إليهم العافية ومذكرا إياهم بطش السلطان وسطوته[(٤)]، ثم لم يؤذهم بعد ذلك في أنفسهم أو أموالهم.

---

(١) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ٦٣.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٣ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٢.

(٣) العش، الدولة الأموية، ص ١٣٣.

(٤) انظر : البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٣-٢٤٤ الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف).

لقد انتفع الشيعة من سياسة المغيرة اللينة، فنظموا أمورهم، وعارضوا السياسة الأموية معارضة حرة كان معاوية يخشاها، ولكنه لم يجد على أصحابها سبيلا، وقد ظل المغيرة والياً على الكوفة مدة تجاوزت التسعة أعوام بأشهر قليلة[1]، لم ينكر الشيعة خلالها منه شيئا ذا خطر الّا عيبه لعلي وشيعته، وتأخيره العطاء أحيانا[2]، وقد كان مضطرا الى ذلك بحكم السياسة الجديدة وكانت الشيعة تلقى ذلك منه بالنكران مرة، والاغضاء مرة أخرى.

بعد وفاة المغيرة سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) ضم معاوية ولاية الكوفة لزياد،[3] ولا نستطيع أن نصف نظرة أهل الكوفة للوالي الجديد، الذي كان بالأمس واحدا من شيعة علي وعاملا له على فارس[4]، وهو اليوم يعمل في خدمة معاوية، هذا الى جانب كونه أخ الخليفة بالاستلحاق، ويبدو أن نظرة أهل الكوفة الى زياد تبلورت بعد أن ألقى عليهم خطبته الأولى، وفيها بيّن الخطوط العامة التي يريد السير عليها في سياسته لهم، ولم يتوعدهم ويتهددهم مثلما فعل مع أهل البصرة من قبل[5]، وكأنهم ظنوا أن واليهم الجديد لا يخلو من اللين أو الضعف، فما أن فرغ زياد من خطبته تلك حتى حصبوه، وربما اعتقدوا أنه مثل المغيرة سيغفر لهم هذا الصنيع، ولكن زياد أراد أن يؤكد لهم حزمة وشدته منذ البداية، فأخذ تلك الفئة التي اجترأت عليه وعاقبها عقابا شديدا[6]. هكذا اختلفت سياسة زياد مع الشيعة عن سياسة سلفه "المغيرة" الذي كان يتساهل أمام الأقوال، فرأى زياد أن يلجم الأفواه فلا يدع سبيلا لترجمة الأقوال الى أفعال.

والواقع أن شيعة علي في الكوفة كانوا - في هذه الفترة - قوة كبيرة جعلت الكوفة تتسم بأنها المركز الأول للمعارضة الشيعية، وقد فجر الشيعة في هذا المصر أكثر من حركة إحتجاج على الحكم الأموي كان أولها حركة حجر بن عدي الكندي وأصحابه.

* حركة حجر بن عدي

توجد تفصيلات دقيقة وواضحة عن هذه الحركة لدى كل من الطبري والبلاذري، وقد نقل الطبري معظم رواياته عن أبي مخنف وعوانة بن الحكم، أما البلاذري فيزودنا بتفاصيل أوسع وأدق

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤ (أبو مخنف). لاحظ كيف أن مدة ولايته "سبع سنين وأشهر" على ما يبدو تصحيف "لتسع سنين" ولاحظ كيف اختلفت رواية عوانة التي تجعل وفاة المغيرة سنة (٥١هـ/ ٦٦١م)، ص ٢٥٥، والأرجح أن المغيرة بقي على الكوفة حتى توفي.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، ص٢٤٣-٢٤٤. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤ (أبو مخنف).

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٠ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٤ (المدائني). العسكري، الأوائل، ص ٢٤٠ (المدائني). ابن الأثير، الكامل م٣، ص ٤٦١.

(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٧٤. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٣٧ (عمر بن شبه). المسعودي، مروج، م ٣، ص ١٥ (أبو عبيدة). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٨٩ (أبو المهاجر القاضي).

(٥) أنظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٧ -١٩٨ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٤-٢٣٥ (مسلمة).

(٦) انظر ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣١٠-٣١١ (الشعبي). البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٣٥ (مسلمة). ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٤٦١-٤٦٢.

للأحـداث من وجهة النظر العـراقية وغير العراقيـة ، فهو يأخذ عن أبي مخنف وعـوانة وابن الكلبي ، والهيثم بن عدي ، وابن سيرين هذا اضافة الى عدد من الروايات الجمعية .

وحجر بن عدي المعروف بـ " ابن الأدبر" و " حجر الخير" [١] من أبرز رجال كنـدة ، وأحد قراء الكوفة[٢] ، وفـد على النبي (ﷺ) هـو وأخـوه هـانىء بن عـدي ، وكـان في ألفين وخمسمائة من أهل العطاء ، وقد شارك حجر في حركة الفتوح ابتداء فشهد القادسية . [٣] وكان على ميمنة جيش هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص في جلولاء[٤] ، وهو الذي فتح مرج عذراء في بلاد الشام[٥] .

أقام حجـر بالكوفة كـواحد من أبرز الشخصيـات التي تجتمع عليها الكلمة ، وتنقاد إليهـا أزمة الزعامة والرئاسة في الوسط الشيعي ، فقد عـرف عنه اخلاصه لعلي بن أبي طالب ، حيث شارك معه في موقعتي الجمل وصفين[٦] وكان على ميمنته في النهروان[٧] ، ويذكر الدينوري ان عليا أراد أن يوليه رئاسة قبيلتـه " كندة " ، على أن يعزل الأشعث بن قيس فأبى حجر أن يلي هـذا الأمر والأشعث على قيد الحياة[٨] ، وظل مخلصـا لعلي طوال خلافتـه ، ثم للحسن من بعـده . ويصف الدينوري مـوقف حجر من تنازل الحسن لمعـاوية بقوله : وكان حجر أول من لقي الحسن ونـدّمه على ما صنع ، ودعا الى رد الحرب ، وقال للحسن : " يا ابن رسول الله لوددت أني مت قبل ما رأيت ، أخرجتنا من العدل الى الجور ، فتركنا الحق الذي كنا عليه ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه " [٩] .

ويبدو أن معاوية قد لمس روح التشيع الزائد لـدى حجر وبعض أصحابه ، لذلك نجده يطلب من المغيرة – عـامله على الكـوفـة – أن يأخذ حجـراً وسليمان بن صرد وشبث بن ربعي وابن الكـواء وعمرو بن الحمق بالصلاة في الجماعة " فكانوا يحضرون معه في الصلاة " [١٠] ، وهؤلاء كانوا من أعوان

---

(١) ابن سعـد ، الطبقـات ، جـ٦ ، ص ٢١٧ . البـلاذري ، أنسـاب (احسـان عباس) ، ق ٤ ، جـ١ ، ص ٢٦٨ (هشـام بن محمد) . ابن عسـاكر ، تاريخ / خط ، م ٤ ، ص ٢٦٣ . ابن الأثير ، أسـد الغابة ، م ١ ، ص ٣٨٥ . ابن كثير ، البداية ، جـ ٨ ، ص ٥١ .

(٢) البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٧١ (وهب بن جرير) . الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٦٥ (أبو مخنف) .

(٣) ابن سعد ، الطبقـات ، جـ ٦ ، ص ٢١٧ . البلاذري ، أنساب (احسان عبـاس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي) . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٤ ، ص ٤٦٣ . ابن الأثير ، أسد الغابة ، م ١ ، ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٤) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٦٩ (قالوا) .

(٥) البـلاذري ، أنسـاب (احسان عبـاس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي) . ابن دريـد ، الاشتقـاق ص ٣٦٤ . ابن عساكر ، تاريخ / خط ، م ٤ ، ص ٢٦٣ .

(٦) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٢١٧-٢١٨ . ابن قتيبة ، المعـارف ، ص ٣٣٤ . البلاذري ، أنساب ، (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ (ابن الكلبي) . وانظر نصر بن مزاحم ، صفين ، ص ١١٧ ، ٥٠٧ .

(٧) الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٨٥ (أبو مخنف) . وانظر ابن قتيبة ، الامـامة والسياسة ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، م ١ ، ص ٣٨٥ .

(٨) الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢٤ .

(٩) الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢٠ (قالوا) . وانظر البلاذري ، أنساب (محمد باقر) ، جـ ٣ ، ص ١٥١ (قالوا) .

(١٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٧٩ (المدائني) .

علي وأشد الناس حبا له فاهتمام معاوية بأمرهم دليل على رغبته في أن يأخذ أهل الكوفة بالشدة والحزم ليظهروا طاعتهم للأمراء، وأن يعلمهم أن طاعة الأمراء أمر لا ينبغي التردد فيه والالتواء به، وأن من لم يعط الطاعة لا أمان له.

كان أول احتجاج شيعي على المغيرة بسبب سبه لعلي بن أبي طالب، وقد تزعم حجر بن عدي هذا الاحتجاج في المسجد الجامع(1)، فقد ألب الناس على الأمير واتهمه بتأخير العطاء: "حرمت الناس أرزاقهم وأخرت عنهم عطاءهم"(2)، وقد وجد احتجاج حجر مساندة بين أصحابه مما يشعر بتزايد بعض القبائل بحيث أن العطاء لم يعد يكفيها، ولا نعرف بالتحديد عدد الذين آزروا حجرا في احتجاجه، فيذكر أبو مخنف أنهم ثلث الناس في المسجد(3)، ويقدرهم البلاذري في رواية أخرى بأنهم أكثر من ثلاثين رجلا(4)، ويفهم من هذا أن الاحتجاج كان عفوياً ولم يسبقه أي تخطيط أو تنظيم، ويبدو أن المغيرة لم يحفل بهذا التحدي العلني الذي أظهره حجر، بل اكتفى بتحذيره من غضب السلطان.(5) وفي خبر ينفرد به الدينوري أنه استرضاه بخمسة آلاف درهم(6)، وقد غضبت ثقيف على المغيرة لموقفه المتسامح، فقال له قومه يلومونه: "علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجتريء عليك في سلطانك هذه الجرأة فأجابهم المغيرة: أني قد قتلته، انه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيها بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة"، ثم أضاف معللا سياسة اللين والتسامح التي اتبعها مع حجر وغيره من أهل الكوفة: "ولا أحب أن ابتديء أهل المصر بقتل خيارهم"(7)، ولم تذكر المصادر المتوفرة أن المغيرة اتخذ أي اجراء ضد حجر وأصحابه حتى توفي سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م)، فتولى إمرة الكوفة من بعده زياد.

وتشعر الروايات أن زيادا كان صديقا لحجر أيام علي عندما كانا رفاق منطلق واحد(8)، ولكن

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس) ق ٤، جـ١، ص ٢٤٣ (أبو مخنف). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٤، ص ٥٨.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٤ (أبو مخنف). وانظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤-٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣.

وذكر يونس بن عبيد أن معاوية استمد من ولاية الكوفة أيام المغيرة فمنع حجر العير من الذهاب الى دمشق مؤكدا أن هذا فيء أهل الكوفة. (ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٥٢).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٥. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥ (أبو معشر). ويذكر النويري أنه قام مع حجر أكثر من ثلثي الناس. (نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٣٠).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ويروى الذهبي أن حجرا عسكر في ثلاثة آلاف بالسلاح وخرج عن الكوفة. (سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤٦٣).

(٥) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٢.

(٦) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣ (قالوا).

(٧) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٥ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩-٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٣.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٥ (أبو مخنف). وانظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ١٧٩ (المدائني).

زيـاداً أصبح نصيراً مخلصاً لمعـاوية ومنـاضلا لترسيخ دعـائم دولته، بينما بقي حجـر على اخلاصـه لعلي، فكان التناقض واضحا في مسلك الشخصيتين، وتُظهـر الروايات أن زياداً أراد - ابتداء - أن يأخذ حجـرا باللين والرفق لعلـه يستطيع اقناعه بتأييـد الوضع الراهن، ففي روايـة أموية أنـه حاول استمالة حجر لكنه لم يستجب له(١)، وفي رواية أخرى لوهب بن جريـر تبدو نبرة أموية أيضا، فيبين أن زياداً كشف لحجر عما في نفسه، وبينّ له أن كل مـا كان يضمره من حب وتأييد لعلي قد تحول الى معاوية، ثم طلب منه أن يصحبه الى البصرة لئلا يحدث حدثا، ولكن حجراً رفض طلب زياد بحجة أنه مـريض ولا يستطيع السفر(٢). وفي روايـة نقلهـا البلاذري بصيغـة إسنـاد جمعي عن أبي مخنف وغيره، أنه لما قدم زياد الى الكوفة بعث الى حجر فقـال له : "قد بلغني ما كنت تصنع بالمغيرة، وما كان يحتمل منك، واني والله غير محتملك، والـرائد لا يكذب أهله، وأنت الأثير عنـدي ما لم تبسط لسانا ولا يدا بشيء مما أكرهه"(٣)، هذا النص يتضمن تحذيراً شديد اللهجة من زياد لحجر، حتى لا يطمع الأخير في تغاضي زياد عن سلوكه ويستغل صداقتهما السابقة في إثارة الفتن.

ويبدو أن زياداً قد تحرّج في أمر حجر وأصحابـه، حتى أنه أشعر معاوية بنشاطهم، فكتب اليه يخبره بأن حجرا وأصحابه "يردون أحكامي وقضاياي"(٤)، وكان الذي حمل زياد على قول ذلك أن حجرا وأصحـابه حـاولوا التدخل في قضـاء زياد بشأن رجل من بني أسـد قتل نبطيا أسلم حـديثا، فكان رد معاوية يحمل زياد على التريث في أمرهم حتى تقوم عليهم الحجة(٥).

ونقلت المصادر روايـات متباينة عن خروج حجـر وأصحابه، فيـذكر عوانة أن أصحـاب حجر تجرأوا على خليفة زياد في الكـوفة (عمرو بن حريث)، وحصبـوه وهو يخطب، لأنه لعن علي بن أبي طالب، فلما علم زياد بالخبر قدم الى الكوفة، وتوجه حـال وصوله الى المسجد، فوجد حجرا جالساً في المسجد وحولـه "أصحابه أكثر مـا كانوا"(٦)، ولا يشير عـوانة الى اعتقـالـه، بينما يبين وهب بن جريـر أن حجراً اختفى عندمـا علم بمجيء زياد، وأن زيـادا جعل يطلبه فلا يقـدر عليه(٧). وفي رواية أخرى يعطي ابن سيرين تصوراً آخر لخروج حجر، حيث يذكر أن زياداً خطب يوماً في الجمعة وأطال الخطبـة، فاحتج حجـر على تأخير زياد للصـلاة، وضرب بيده الى كفّ من الحصـى وثار الى

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٢ (عوانة). وأنظر ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ٢١٨.

(٢) البـلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جــ١، ص ٢٧٠-٢٧١. ابن عسـاكر، تـاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٦. وانظر اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٣٠.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٥. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٠.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٦) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٦. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٠. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٣-٤٧٤. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٥٢-٥٣.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧١.

الصلاة فثار الناس معه[1]، وتتفق رواية الهيثم بن عـدي مع رواية عوانة المذكـورة أعلاه في أن حجراً وأصحابه حصبوا عمرو بن حريث، وأن زيادا كان في البصرة حينئذ[2]. ولا نعرف على وجه التحديد كم كان عدد أصحاب حجر، ويبدو أنه تزعم مجموعة كبيرة من شيعة المصر، فقد قال زياد لأشراف الكوفة : "أنتم معي وأخوانكم وعشائركم مع حجر"[3].

يعرض أبـو مخنف في رواياتـه المتسلسلة كيفية طلب حجـر واعتقالـه، ويوضح مـواقف القبائل المختلفة، وردود فعل الكـوفيين، كما يبين علاقة أشراف القبـائل ورؤسائها بـالسلطة[4]، وقد اتبع زياد أساليب ادارية حكيمة في القبض على حجر وهـو بين أهله وأنصاره في الكوفة، إذ استعان أول الأمر بالشرطة الذين لم يوفقوا في اعتقال حجر، حيث منعهم أصحاب حجر من بلوغ صاحبهم[5]، ويستأنف أبو مخنف - في نقل الطبري - روايته فيقول أن زياداً عمـد بعد ذلك الى تهديد أهل الكوفة بأنه سيأتي بأقـوام يؤدبهم بهم فقال : "يـا أهل الكوفة أتشجـون بيد وتأسون بأخـرى! أبدانكم معي وأهواؤكم مع حجـر! ... أنتم معي واخوانكم وأبنـاؤكم وعشائركم مع حجـر! هذا والله من دحسكم وغشكم! والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم"[6]، ويظهر أن موقف زياد كان صعباً، بحيث أنه لجأ الى التهديد والـوعيد لمنع أهل الكوفة من الالتفاف حول حجر، فلما تأكد له ولاء زعماء أهل الكوفـة وعدم جديتهم في تأييد حجر، أمر كل واحد منهم أن يـدعو أقرباءه ومن يطيعـه من عشيرته الى عـدم مسانـدة حجر والكف عن تأييـده[7]، ويبـدو أن زيـاداً نجح في استخدام الأشراف والزعماء لتخذيل أبناء عشائرهم عن حجـر حتى أنه لم يثبت معه سوى قرابته من بني جبلة من كندة[8] رغم تهديدات زياد لهم.

ولما رأى زياد تفرق أصحاب حجر حتى لم يبق معه الاّ طـائفة قليلة، أرسل اليه صاحب شرطته شداد بن الهيثم الهلالي مع "الحمراء"[9]، وأمرهم أن يقاتلوا بعمد السـوق ويأتوه بحجر، ويبين أبو

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٦. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥.

(٢) البلاذري، أنساب، (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٤٧. وانظر الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣ (قالـوا). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥ (أبو معشر).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٨ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٤) أنظر الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٥) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٧ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٦) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٣٢.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٦ (أبـو مخنف). الطبري، تـاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٨ (أبـو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٠ (الهيثم بن عدي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦١ (أبو مخنف). ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٣.

(٩) انظر معنى الحمراء عند ابن منظور، يفهم منه أنهم "الذين لا سلاح معهم". (لسان العرب، م ٤، ص ٢١٠).

مخنف أن مناوشات دارت بين الشرطة وأصحاب حجر وعلى رأسهم عمرو بن الحمق الخزاعي وأبو العمرطة عمير بن يزيد الكندي من بني هند، وعبد الله بن خليفة الطائي، لكن هذه المحاولة لم تؤد الى اعتقال حجر، الذي استطاع أن يختفي ويتنقل من محلة الى محلة ومن بيت الى آخر[(١)]، وقد ساعده في ذلك العطف العام الذي كان الى جانبه، فوجد ملجأ له حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلجأ اليهم، فكان يترك مكانه كلما اقترب منه رجال الشرطة، ويبدو من تتبُّع الروايات لأماكن تنقل حجر أثناء اختفائه بالكوفة التزام أصحاب هذه الدور بالمشاعر الشيعية[(٢)]، وقد أتاح هذا الموقف لأصحاب حجر أن يختفوا ليال متتاليات دون أن تتمكن شرطة زياد من القاء القبض عليهم.

وكانت آخر وسيلة لجأ إليها زياد في القبض على حجر بعد أن أعياه اعتقاله، بسبب اختفائه في سكك ودور المصر، أن استعاون بالقبائل وندبها لهذه المهمة، وكان من الممكن أن يكون للعصبية القبلية شأن غير محمود في هذه الأحداث، لولا أن زيادا تمكن بدهائه وذكائه من تسخير هذه القوة الكامنة لمصلحة السلطة. فيذكر أبو مخنف أن زيادا أرسل همدان وتميم وهوازن وأبناء أعصر ومذحج وأسد وغطفان الى جبانة كندة ليأتوه بحجر، ثم أنه كره أن يسيّر طائفة من مضر مع طائفة من أهل اليمن فيقع بينهم اختلاف، فتشتعل نار العصبية القبلية بينهم في هذه المناسبة الحرجة، لذلك أمر زياد أن تقيم تميم وهمدان وأبناء أعصر وأسد وغطفان، وندب القبائل اليمانية لتأتيه بحجر، فأمر مذحج وهمدان أن يمضوا الى جبانة كندة، بينما أرسل الأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وخزاعة وقضاعة الى جبانة الصائديين، ولم تخرج حضرموت مع أهل اليمن لمكانهم من كندة[(٣)].

ويبين كل من الكلبي وأبي مخنف أن زياداً أعقب خطته في توزيع القبائل الكوفية ومحاصرة حجر، بأن عمد الى تهديد رؤسائها والضغط عليهم، وفيهم محمد بن الأشعث الكندي، الذي هدده زياد بقوله "لتأتيني بحجر أو لا أدع لك نخلة الاّ قطعتها، ولا دارا الاّ هدمتها، ثم لا تسلم مني، أقطعك إربا إربا"[(٤)]، ويبدو أن حجرا قد سمع بهذا التهديد فخشي أن يظل على موقفه فيعرض قومه للأذى، لذلك قرر أن يسلم نفسه، فأرسل الى محمد بن الأشعث يطلب منه أن يذهب ونفر من

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٤٨-٢٤٩. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٨-٢٥٩. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٢-٨٣. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٤-٤٧٥. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٣٣.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٠ (أبو مخنف والكلبي)، ص ٢٧١ (وهب بن جرير). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٥٨، ٢٦٤ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٥ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٥-٤٧٦.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٠-٢٦١. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٥. وانظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٠ (قالوا).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٠ (الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٣ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٦ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٦. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٣٣.

قومه الى زياد ليأخذوا منه أمانا حتى يبعث به الى معاوية فأجابهم زياد الى ما طلبوه فأرسلوا الى حجر فجيء بـه، وما أغنى عنـه قـومه ولا من كـان يظن أنـه سينصره، فأودع السجن[١] عشر ليال[٢]، استطاع زياد خلال هذه الفترة إلقاء القبض على معظم أصحاب حجر، وقد بلغ مجموع رؤوس هذه الحركة الذين قبض عليهم أربعة عشر رجلا من الشيعة[٣]، أخذ منهم اثني عشر رجلا أثناء سجن حجر، وقبض على اثنين آخرين بعد إرسال حجر وأصحابه الى الشام[٤]، وكانوا : حجر بن عدي، والأرقم بن عبد الله الكندي، وشريك بن شـداد الحضرمي، وصيفي بن فسيل الشيباني، وقبيصة بن ضبيعة العبسي، وكريم بن عفيف الخثعمي، وعـاصم بن عوف البجلي، وورقاء بن سمي البجلي، وكدام بن حيان العنزي، وأخوه عبد الرحمن بن حيان من بني هُمَيم، ومحرز بن شهـاب المنقري، وعبد الله بن حويـة الأعرجي، وعتبـة بن الأخنس من بني سعد بن بكـر، وسعيد بن نمـران الناعطي من همدان[٥]. ويذكـر أبو مخنف أن التهمة التي وجهت الى حجـر وأصحابه أنه : " جمع اليـه الجموع، وأظهـر شتـم الخليفـة ودعـا الى حـرب أمير المؤمنين، وزعم أن هـذا الأمـر لا يصلح الاّ في آل أبي طالب "[٦].

ويورد ابن الكلبي، أنـه عندما خـرج حجر وأصحابـه من سجن زياد متوجهين الى الشـام، قام عبيد الله بن الحر الجعفي بحث النـاس على مساعـدته لتخليص حجر وأصحـابه من رجـال زياد، ولكنه لم يجد من يؤازره[٧]، واذا استثنينا هذه البادرة، فإننا لا نجد أية بادرة أخرى قام بها أهل الكوفة لانقاذ حجر وأصحابه بشكل جاد.

ويبين أبو مخنف والمدائني أن زياداً أشهـد أهل الكوفة على حجر وأصحابـه بتهمة خروجهم على الجماعة، ويظهر أنه أشهد أولا رؤوس الأرباع وكانوا يومئذ عمرو بن حريث على ربع المدينة، وخالد ابن عرفطة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد بن عبد شمس المخزومي على ربع كندة وربيعة،

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٠-٢٥١ (الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٤ (أبو مخنف). الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣ (قالوا). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٧ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٦.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٥ (أبو مخنف). الأصفهـاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٧ (أبو مخنف). البيـاسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٣٢٨. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٥٣.

(٣) هكذا وصفهم البلاذري بأنهم شيعة، أنظر : أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٣ (قالوا).

(٤) البـلاذري، أنسـاب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٩ (المدائني). الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٧٢ (أبـو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٤.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٣-٢٥٤ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧١-٢٧٢. الأصفهاني، الأغـاني، م ١٧، ص ٩٠-٩١ (أبو مخنف). ابن عساكر، تـاريخ / خط، م ٢، ص ٦٦٨ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٥٣-٥٤.

(٦) الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٦٨. ابن الاثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٨٣. ابن كثير، البـدايـة، جـ٨، ص ٥٣. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٢٦.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٦. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧١ (أبو مخنف).

وأبو بـردة بن أبي موسى الأشعـري على ربع مذحـج وأسد(١)، ويبـدو أن أهل المصر اعتبروا ذلك تواطـؤا من رؤوس الأرباع عليهم، فأخذوا يتعـرضون لهم(٢)، مما اضطـر زياد الى تـوسيع الشهادة، ويذكر أبو مخنف أنه قرأ شهادة رؤوس الأرباع، وطلب من الناس أن يشهدوا على مثل شهادتهم(٣)، فشهد من أهل الكوفة سبعون رجلا، ثم قلصهم زياد الى أربعين، هذا ولم تورد المصادر المتوفرة قائمة بأسماء جميع الشهود، ويظهر من بعض الأسماء التي ذكرت أن الشهـادة كانت لوجوه وأشراف المصر وبعض من عـرفوا بحسبهم وصـلاح دينهم، وأكثـرهم من ربيعة وأقلهم من اليمانيـة(٤)، ويبدو أن زيادا خشي من رد الفعل القبلي في الكوفة، لذلك فقد عمل على توزيع الشهادة على مختلف القبائل في المصر ولم يخص بها قبيلة دون سائر القبائل، كما أنه لم يخص بها ربيعة دون اليمانية. ويذكر المدائني أن بعض الوجـوه زاغوا عن الشهادة ومنهم المختـار بن أبي عبيد الثقفي(٥)، ويبدو أن المدائني أراد اظهار التـزام المختار بعلي، فحاول أن يصـور موقفه من هـذه الحركة بما يتفق والدور الـذي لعبه فيما بعد، والمدائني في الرواية ذاتها يحاول أن يعطي الصفة الحزبيـة للشهادة على حجر وأصحابه، حيث يشير الى دور العثمانية فيها(٦). وأما مـا تورده رواية ابن الكلبي من أن زيـاداً كتب شهادة شريح بن الحارث الكندي القـاضي وكان غـائباً، فلما علم بذلك كتب الى معـاوية يتنصل من شهـادته المزورة ضد حجر، ويشهد له بالعفـة والورع والالتزام بفرائض الاسلام(٧)، فروايـة ضعيفة، اذ لا يعقل أن يقـوم زياد – وهـو المعروف بـدهـائه وسعة أفقـه – بإدخـال شهادة زائفـة، قد تثير الشك في سـائر الشهـادات، كما أنـه كان في غنى عن شهـادة شريح، فقد بلغ عدد الشهـود في هذه القضيـة ابتداء سبعين رجلا، فقلصهم زياد الى أربعين، وتوضح الروايـات للمرة الأولى تمسك بعض الشيعة بالولاء لعلي بن أبي طـالـب، فيـذكـر أبـو مخنف أن صيفي بن فسيل الشيبـاني أصر على رأيـه في علي بن أبي طالب، حتى بعد أن عذبه زياد وألقى به في السجن(٨).

يروي ابن الكلبي أن زيـاداً سيّر حجر وأصحابـه الى الشام بأمـر من معاوية مكبلين بـالسلاسل

---

(١) البـلاذري، أنسـاب (احسـان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٦٨ (أبـو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٧٩ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٢) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٨ (أبو مخنف).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٩. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٩.

(٤) انظر البلاذري، أنسـاب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٤ (قالـوا)، ص ٢٥٥ (المدائني). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٦٩-٢٧٠ (أبـو مخنف). الأصفهاني، الأغـاني، م ١٧، ص ٨٩-٩٠ (أبو مخنف). ابن الأثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٨٣.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥ الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٠ (أبو مخنف).

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٥-٢٥٦. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٢ (أبو مخنف). الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩١ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٦٩ (أبو مخنف).

(٨) البـلاذري، أنسـاب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥١-٢٥٢. الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٦٦-٢٦٧. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ١٨٨ (أبو مخنف). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٧.

ووجه معهم شبث بن ربعي الرياحي، ووائل بن حجر الحضرمي، وابن مصقلة بن هبيرة الشيباني وكثير بن شهاب الحارثي[1]، وهذا مناقض لما أورده الدينوري، حيث يذكر أن زياداً أرسل حجر وجماعته الى معاوية مع مائة جندي، وبعث معهم ثلاثة أفراد ليشهدوا عليهم عند معاوية وهم: أبو بردة بن أبي موسى، وشريح بن هاني الحارثي، وأبو هنيدة القيني، وقد شهد هؤلاء عند معاوية على حجر وأصحابه فأمر بقتلهم[2].

ويبدو أن حجراً لم يلق معاوية بل سار مع أصحابه الى مرج عذراء[3]، حيث أمر معاوية بحبسهم هناك[4]، أما ما ذكرته رواية ابن سيرين من أن حجراً أدخل على معاوية فسلم عليه، ولم يردّ عليه معاوية السلام وأمر بقتله[5] فرواية ضعيفة، وقد أبدى البلاذري شكه في هذه المقابلة[6]، وهي تنسجم مع الخط الذي انتهجه ابن سيرين في رواياته التي تعطي تصورا شعبياً لحجر وتبالغ في أخباره وتحاول اظهار تدينه وتمسكه بالفرائض مع التلميح الى أنه قتل مظلوماً[7].

وعندما وصلت شهادة الشهود الى معاوية أخذ يقرأها على أصحابه من وجوه أهل الشام، ويستشيرهم في أمر حجر وأصحابه، فأشار عليه بعضهم بالحبس، وأشار البعض الآخر بالنفي، وأقام معاوية وقتا لا يقطع في أمرهم برأي حتى كتب اليه زياد يعجب من تردده وعدم جديته، ويقول له: "ان كانت لك في المصر حاجة فلا تردّن حجرا وأصحابه"[8]، هنالك استبان الرأي لمعاوية، فأمر بقتل حجر وستة من أصحابه، بينما عفا عن الباقين بشفاعة بعض أصحابه من قومهم، وتتفق الروايات على اظهار أسلوب معاوية في استجابته للاعتبارات القبلية[9]، حيث قبل شفاعة أهل الشام في بعض أصحاب حجر ورفضها في آخرين، وكان الناجون من أصحاب حجر:

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٦. ويذكر أبو مخنف أن زيادا دفع شهادة الشهود الى وائل بن حجر الحضرمي، وكثير بن شهاب، وأمرهما أن يخرجا بحجر وأصحابه. (الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٠. ابن عساكر، تاريخ، جزء تراجم حرف العين المتلّوة بالألف، ص ٨٠ (الحسن بن عثمان). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٣).

(٢) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٣-٢٢٤ (قالوا).

(٣) عذراء: قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان واليها ينسب مرج عذراء. (ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤، ص ٩١).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٦ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٢ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ/ خط، م ٤، ص ٢٧٠.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٠-٢٦١. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٣٣٠. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٦٥. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٥٤.

(٦) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦١.

(٧) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٢-٢٧٣. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩٢ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٦٩ (أبو مخنف).

(٩) انظر البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٤. ابن عساكر، تاريخ، جزء تراجم حرف العين المتلوة بالألف، ص ٨١ (الحسن بن عثمان). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٤. أبو الفدا، المختصر، جـ١، ص ١٨٦.

كـريم بن عفيف الخثعمي، وعبـد الله بن حويـة التميمي، وعـاصم بن عوف البجلي، وورقـاء بن سمي البجلي، والأرقم بن عبـد الله الكندي، وعتبة بن الأخنـس من بني سعد بن بكـر، وسعيد بن نمران الهمداني[1]، وقد رفض معـاوية قبـول شفاعة مـالك بن هبيرة السكوني في حجـر بن عدي، وقـال : " هذا رأس القـوم، وهو أنغل المصر وأفسـده، ولئن وهبتـه لك اليوم لتحتـاجنّ أن تقاتلـه غدا "[2]. وتنقل لنـا الروايـات تفصيـلا مأساويـا لمقتل أصحاب حجـر الـذي تم سنة (٥١هـ / ٦٧١م)، وتتفق على أن المقتولين منهم هم : حجر بن عـدي وشريك بن شداد الحضرمي، وصيفي ابن فسيل الشيبـاني، وقبيصـة بن ضبيعـة العبسي، ومحرز بن شهـاب المنقـري، وكـدام بن حيـان العنزي[3].

لم توضح الـروايات موقف معاويـة من ولاء أصحاب حجر لعلي بن أبي طـالب، حيث لا تعطه الأهمية التي أخذتها عند زياد، ولا يرد سـوى رواية واحدة لأبي مخنف تبين أن معاوية طلب من عبد الرحمن بن حيـان العنزي أن يسبّ عليا عنـده فرفض، فما كان منـه الاّ أن بعثه الى زياد في الكـوفة، فدفنه زياد حياً[4].

تبينّ لنا الـروايات اتجاهـات عديدة لـرد الفعل على مقتل حجر وأصحابـه، ففي الكوفـة كان رد الفعل قبلياً واقليمياً، يذكر أبو مخنف أن النـاس كانت تقول أن أول ذل دخل الكوفة مقتل حجر بن عدي[5]. وقـد ترك لنـا الشعر شـواهد حيـة على ردود ا لفعل الكـوفية، تعبر بصـدق عن مشاعـر العصبية القبليـة من جهة ومشاعر العصبيـة للمصر من جهة أخرى، وتتحدث عن الحزن الشـديد لمقتل حجر وأصحابه من الشيعة[6]، هذا الحزن الذي أورث مبغضة جديدة لدولة بني أمية من تلك المبغضات التي كمنت وطـالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعهـا. أما في غير الكوفـة فقد بينت روايات أخـرى تعاطفـا كبيراً مع حجر وأصحابـه عن كثير من الشيعة وغير الشيعـة، ومنهم السيدة عائشة أم المؤمنين (رض) التي حـاولت أن تنقذ حجراً وأصحابه من هـذه النهاية المؤلمة، ولكن سبق

---

(١) البلاذري، أنساب (احسـان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٢ (قـالـوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٧-٢٧٨. الأصفهاني، الأغاني، م ١٧، ص ٩٤-٩٥ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٧١ (أبو مخنف)

(٢) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). وانظر الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٧٨ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٧١ (أبو مخنف) ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٤.

(٣) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٢ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٧. الأصفهاني، الأغاني، م١٧، ص ٩٤ (أبو مخنف). وانظر خليفة بن خياط، تاريخ، جـ١، ص ١٩٩.

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٢ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٧٧. الأصفهاني، الأغاني، م١٧، ص ٩٤ (أبـو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٢، ص ٦٧١ (أبـو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٦.

(٥) الطبري، تـاريخ، جـ٥، ص ٢٧٩. الأصفهـاني، الأغـاني، م ١٧، ص ٩٥. ابن الأثير، الكـامل، م ٣، ص ٤٨٧. ويروى الدينوري أن أهل الكوفة استفظعوا مقتل حجر وأصحابه استفظاعا شديدا، (الأخبار الطوال، ص ٢٢٤).

(٦) انظر البلاذري، أنساب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٦٩-٢٧٠. الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢٨٠-٢٨٥. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٧٥-٢٧٦ (أبـو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص٤٧٨-٤٨٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤٦٥-٤٦٦.

سيف معاوية العذل، فوصل رسولها بعد مقتلهم، وقد لامت عائشة (رض) معاوية على قتله حجر فقالت له : "يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟" قال : "اني لم أقتلهم، انما قتلهم الذين شهدوا عليهم"(١). ويروى البلاذري أنه لما نعى حجر الى عبد الله بن عمر - وكان في السوق- أطلق صوته، وقام وقد غلب عليه النحيب(٢). وقد سخط الربيع بن زياد الحارثي والي زياد على خراسان لمقتل حجر، فقال معبرا عن سخطه : "لا تزال العرب تقتل صبرا بعده، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبرا، ولكنها أقرت فذلت"(٣). كما استنكر الحسن البصري مقتل حجر ووصفه بأنه كان خصلة من عدة خصال كن في معاوية "لو لم يكن فيه منهن الاّ واحدة لكانت موبقة"(٤)، ويرى طه حسين أن مقتل حجر كان من الاحداث الكبار في الدولة الأموية وأنه كان صدعا في الاسلام(٥).

ويعتبر بعض المؤرخين زياداً المسؤول الأول عن قتل حجر وأصحابه، فيروى الدينوري أن مالك ابن هبيرة دخل على معاوية وقال له : "يا أمير المؤمنين أسأت في قتلك هؤلاء النفر ولم يكونوا أحدثوا ما استوجبوا به القتل"، فقال معاوية : "قد كنت هممت بالعفو عنهم الاّ أن كتاب زياد ورد عليّ يعلمني أنهم رؤساء الفتنة، وإني متى قتلتهم اجتثثت الفتنة من أصلها"(٦)، ولكن زياد لم يدْعُ معاوية الى قتل حجر وأصحابه، بل أشار عليه أن لا يعيدهم الى الكوفة، حيث قال : "فان كانت لك في المصر حاجة فلا تردن حجر وأصحابه"(٧)، ولو كان زياد حريصا على قتل أصحاب حجر جميعا لما سكت حين قبل معاوية شفاعة أهل الشام في بعضهم، وهكذا كان قتلهم بإرادة معاوية وليس بتحريض من زياد، حتى أن من استنكر هذا الأمر لام معاوية ولم يلم زيادا.

وهناك من يدافع عن زياد ومعاوية معا في هذه القضية، فيرى ابن العربي انه لو كان قتل حجر ظلما محضا "لما بقي بيت الاّ لُعن فيه معاوية ... ولكن حجرا - فيما يقال - رأى من زياد أموراً منكرة فحصبه وخلعه، وأراد أن يُقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فسادا"(٨). أما

---

(١) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٦٥ (الكلبي وقتادة)، ص ٢٦٨ (عوانة). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٩ (أبو مخنف). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ١، ص ٣٣١ (أبو سعيد المقبري). ويذكر ابن لهيعة أن معاوية رد على عائشة بقوله : "يا أم المؤمنين أني رأيت قتلهم اصلاحا للأمة وأن بقاءهم فساد". (البسوي، المعرفة والتاريخ، م ٣، ص ٣٢٠-٣٢١. ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٤، ص ٢٧٣. ابن كثير، البداية، جـ ٦، ص ٢٣١).

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٦٢ (عمرو الناقد)، ص ٢٦٦ (ابن عون). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ٣٣٠ (المدائني).

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٥. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٣٠.

(٤) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ١٦، ص ١٩٣. أبو الفداء، المختصر، جـ ١، ص ١٨٦.

(٥) طه حسين، الفتنة الكبرى، ص ٢٤٥.

(٦) الدينوري، الأخبار، ص ٢٢٤. وانظر الخربوطلي، تاريخ العراق، ص ٩٨-٩٩. ويقول العسقلاني أن زيادا "هو الذي سعى في قتل حجر بن عدي ومن معه". لسان الميزان، جـ ٢، ص ٤٩٤.

(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٥٧ (ابن الكلبي). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٣.

(٨) ابن العربي، العواصم، ص ٢١٣.

جولد تسهير فيرى أن الأمـويين ومنهم معاوية وزياد كـانوا يرون أن الشيعة وان ثـاروا لأسباب دينية فهم عصاة ثائرون، وهـم أعداء الاسلام لأنهم يحاولون تهديـد وحدة الدولة، وأن الأمويين يرون أنه لا يجوز الفصل بين صالح الـدولة والاسلام(١). ويقف لامنس موقفـا وسطا بين المدافعين والمتهمين، فيرى أن ضعف سياسة المغيرة من جهة، وشدة زياد من جهة أخرى كانا السبب في ثورة الشيعة التي أدت الى مقتل حجر وأصحابه(٢).

ويتضح لنا ممـا تقدم أن حـركة حجـر لم تكن ثورة مسلحـة ولكن معاويـة اهتم بها اهتماماً بـالغا خوف من الفتنة، وتجنبا للخطأ الذي وقع به الخليفة عثمان بن عفّان، فرأى أن يأخذ حجرا وأصحابه بأقصى العقوبة قبل أن يستطير شرهم ويكون في ذلك من البلاء على المسلمين ما هو أعظم من قتل حجر وأصحابه(٣)، ولا سيّما في مثل الكوفـة التي أخرجت العـدد الأكبر من أهل الفتنة الـذين بغوا على عثمان بسبب اللين والتسامح.

ومهما يكن من أمـر فان هذه الحركـة الكوفيـة تعد أول تعبير شيعي منظم واجـه السلطة الأمـوية وأثبت صدق ولاء أصحابها لعلي بن أبي طالب وآل البيت، ومع أن حجرا وأصحابه كانوا قليلي العدد وانتهت محاولتهم بالقتل، الاّ أن تعاطف أهل الكوفة عامـة ومساندة الشيعة خاصة لهم، عمل على ترسيخ هذه المحاولة لدى الشيعة منتظرين فرص أخرى.

ورغم استنكار الكثيرين لمقتل حجر وأصحابه، الاّ أن زياداً جدّ في مطاردة وتصفية أنصار حجر في الكوفة، فأخذ مـن قدر عليه منهم، وهرب بعضهم خوفا من قسوة الـوالي، ومن هؤلاء عمرو بن الحمق الخزاعي(٤) ورفاعـة بن شداد البجلي، يروى البـلاذري أنهما مضيا الى أرض الموصل وأقـاما في جبل من جبـالها، الى أن عُلم بسرهما، فانهزم رفاعـة وقبض على عمرو، فأرسـل به الى والي الموصل – وكان يومئذ عبد الرحمن بن أم الحكم – فقتله وبعث برأسه الى دمشق(٥)، وتبين الروايات أنه أول رأس حمل في الاسلام(٦). وادّعى رشيد الهجـري لأصحابه أنـه رأى علي بن أبي طالب بعـد مقتله مسجى

---

(١) جولد تسهير، العقيدة والشريعة، ص ٨٢-٨٣.

(٢) Lammens, Ziad Ibn Abihi, P. 223-224

(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٧٨. ابن الاثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٧.

(٤) عمرو بن الحمق الخزاعي: صحب النبي (ﷺ) ونزل الكوفة، وشهد مع علي بن أبي طـالب مشاهده كلها، وكان فيمن سار الى عثمان وأعـان على قتلـه. (أنظـر ابن سعـد، الطبقـات، م ٦، ص ٢٥. ابن حبيـب، المحبر، ص ٢٩٢. ابن قتيبـة، المعارف، ص ٢٩١-٢٩٢. ابـن عبد البر، الاستيعاب، ق ٣، ص ١١٧٣-١١٧٤. ابـن الأثير، أسد الغـابة، م ٤، ص ١٠٠).

(٥) البلاذري، أنساب (احسـان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٧٢ (قالوا)، ص ٢٧٣ (الهيثم بن عـدي). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣١-٢٣٢. الطبري، تـاريخ، جـ ٥، ص ٢٦٥ (أبـو مخنف والمجالـد بن سعيد) الأصفهـاني، الأغاني، م ١٧، ص ٨٧-٨٨ (أبو مخنف). ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٣، ص ٤٣٥-٤٣٦) (أبو مخنف). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٧٧. أما رفـاعة بن شداد، فقـد بقي الى أن قتله المختـار سنة ست وستين. (خليفة بن خيـاط، الطبقات، ص ١٥٢).

(٦) العباس بن بكار الضبي، أخبار الوافدات من النساء على معاوية، ص ٥٢ (أبو بكر الهذلي). البخاري، التاريخ الصغير، م ١، ص ١٣١ (جواد الضبي). ابن قتيبـة، المعارف، ص ٢٩٢، ٥٥٤. البـلاذري، أنساب (احسان عبـاس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٧٣ (أبـو اسحاق). الشـابشتي، الـديـارات، ص ١٧٩. العسكـري، الأوائل، ص ٢٣٤ (قالـوا). الطبراني، الأوائل، ص ١٠٧ (هنيدة بن خالد الخزاعي). ابن عساكر، تاريخ، جزء تراجم النساء، ص ٤٣.

يفهم الكـلام " ويرد السـلام ويتنفس تنفس الحي " ، فبلغ ذلك زيـاداً فقتلـه وصلبه على بـاب دار عمرو بن حـريث[١] . ويـذكـر ابن حبيب أن زيـاداً صلب مسلم بـن زيمـر وعبـد الله بن نُجي الحضرميين على أبوابهما أياماً بالكوفة وكانا شيعيين ، وذلك بأمر من معاوية[٢] .

ويظهر أن شـدة زياد هذه حالت دون قيـام أية معارضة علنيـة - فردية كانت أم جماعيـة - ضد الوالي في الكوفـة ، على أن مقتل حجر وأصحابه كان لـه تأثير شديد على أهل الكوفة عـامة والشيعة خاصة ، ويبدو أنه كان سبباً مهماً لاتحاد المعـارضة القبلية مع المعارضة الدينية[٣] ، كما دفعهم ذلك الى التنظيم السري ضـد الحكم الأمـوي ، وان كـان زيـاد في ولايته قـد حـذرهم من الاجتماعـات السرية ، وسمح لهم بتـداول الحديث في المسجد[٤] ، وقد ظهـرت نتائج هذا التنظيم فيما بعد عنـدما حاول أهل الكوفة الاتصال بالحسين بن علي بعد مـوت أخيه الحسن ، يرغبونه بالمجيء الى مصرهم ، ولكنه خيّب آمالهم وردّ عليهم بضرورة السكينة ما دام معاوية حيا[٥] . واذا كانت الكوفة قد نعمت بالاستقرار والهدوء أيام زياد نتيجة لحزمه وشدته فقد حرمت منهما بعده ، ولم يتمكن خلفاؤه - أمثال الضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن أم الحكم - من ضبط الأمن والنظام .

أما عن علاقة زياد بالشيعة في البصرة ، فالظاهر أنها لم تكن سلبية ، وأعتقد جازما أن ذلك يعود الى عدة أسباب منها : أن الشيعة كـانوا قلة في البصرة ، وقد عُرف ذلك عن البصرة حتى في الفترات التي تلت ولاية زياد[٦] ، ثم أن زيادا كان يعرف الشيعة جيدا في هذا المصر ، فكان من أصحاب علي ابن أبي طالب ، وهو شخصيـة معروفة في البصرة منذ زمن عمر بن الخطاب ، الأمـر الذي جعله من المطلعين على آراء كثير من الناس وأهوائهم السياسية ، وبطبيعة الحال كـانت معرفته بالشيعة - وهم أصحابه السابقين - أكثـر من معرفته بالفرق والجماعات الأخرى ، ممـا جعل زعماء الشيعة يركنون الى الهدوء والسكينة في عهـده ، يقول فلهاوزن في هـذا الصدد : " وفي البصرة لم يكن للشيعـة في الجملة كبير شأن ، وهـم لم يخلقـوا المتـاعب ، وكـان لرئيسهم شريـك بن الاعور الحارثـي مكان كـريم عنـد زياد "[٧] ، واذا كان زيـاد قد ألقى القبض على عبد الله بن هـاشم بن عتبة بن أبي وقـاص ، وأرسله مقيـدا الى الشـام حسـب طلب الخليفـة[٨] ، فـان هـذا لا يـدل على تمرد عبـد الله على السلطـة

---

(١) ابن حبـان ، المجروحين ، جـ ١ ، ص ٢٩٣-٢٩٤ (الشعبي) . ابن عسـاكر ، تـاريخ / خط ، م ٦ ، ص ٥٠٣ (المدائني) . الذهبي ، ميزان الاعتدال ، م ٢ ، ص ٥٢ (الشعبي) . العسقلاني ، لسان الميزان ، جـ ٢ ، ص ٤٦١ (الشعبي) .

(٢) ابن حبيب ، المحبر ، ص ٤٧٩ . وانظر البلاذري ، أنساب (احسان عباس) ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٢١ (قالوا) .

(٣) فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ١٥٩ .

(٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٣٦ (المدائني) . ابن الاثير ، الكامل ، م ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٥) الدينوري ، الأخبار ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٦) راجع أقوال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة العباسية لدى ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

(٧) فلهاوزن ، الدولة العربية ، ص ١٢٢ .

(٨) المسعودي ، مروج ، جـ ٣ ، ص ١٧ . ابن أبي الحديد ، نهج البلاغة ، جـ ٨ ، ص ٣٢ (المرزباني) .

الأموية، وربما حصل ذلك نتيجة للبغضاء القديمة التي ترجع الى زمن علي بن أبي طالب، وموقف هاشم العدائي من معاوية[1].

واذا أردنا تحليل سياسة زياد تجاه الشيعة في العراق، لـوجب علينا القول بأنه كان مضطرا لاتباع سياسة حازمة وقاسية معهم لأنهم بادؤوه بالعداء، فهم الذين حصبوه في أول يوم قدم فيه الى الكوفة، والواقع أنه لم يُسرف في قتلهم كما يصور البعض[2]، بل راقب حركاتهم وحاول أن يحدّ من نشاطهم، تؤازره على ذلك قبائل الكوفة التي عرف كيف يستميلها بدهائه ولباقته، فجعل رؤساء العشائر مسؤولين عما يليهم، وعمن يقدم على الاخلال بالأمن والنظام، دونما حاجة الى استخدام الشرطة الاّ في الأحوال الاضطرارية، وهكذا حتى صار الناس يكتمون تشيعهم لعلي، وركدت حركة التشيع العلوية الى حين.

موقف زياد من بيعة يزيد

لم تكن فكرة الوراثة في الملك مألوفة لدى العرب، مما جعل اعتماد هذا المبدأ أمراً ليس من السهل تنفيذه، فقد جهد معاوية بضع سنوات حتى تمكن من التمهيد لها، ولقد أشار معاوية عقب وفاة الحسن بن علي على المغيرة بن شعبة وزياد أن يبعثا اليه في دمشق بوفدين من ذوي الميل الى وراثة الملك وأخذ البيعة ليزيد، فكان المغيرة عند حسن ظن الخليفة به، حيث أرسل وفدا من أهل الكوفة ليؤكدوا لمعاوية أن مصرهم يقبل البيعة ليزيد[3]. أما زياد فيذكر المدائني أنه استشار في هذا الأمر عبيد بن كعب النميري فقال له: "انّ أمير المؤمنين كتب اليّ يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نظرة الناس... ويزيد صاحب رسله وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد"، ثم طلب زياد من عبيد أن يلقى معاوية ويخبره بأحوال يزيد ويوصيه بالأناة في الأمر، فان ذلك أجدر أن يحقق لمعاوية ما يريد، فقال له عبيد: "لا تفسد على معاوية رأيه ولا تمقت اليه ابنه"، واقترح عبيد أن يلقى يزيد سراً وينصحه بالابتعاد عما ينقمه عليه الناس، وقد قبل زياد هذا الاقتراح وعمل به، فبعث عبيد بن كعب الى دمشق ليلقى يزيد، وكتب هو الى معاوية يدعوه الى التأني وعدم استعجال الأمر فقبل معاوية نصيحة زياد، وحاول يزيد في الوقت نفسه أن يكف عن كثير مما كان يصنع[4].

---

(1) المسعودي، مروج، جـ٣، ص ١٧.

(2) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٢، ٢٧٦ (الحسن البصري). ابن أعثم، فتوح، م ٢، ص ٣٢٠. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ١، ص ١٩٧. المظفر، تاريخ الشيعة، ص ٣٠.

(3) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٣٠٢ (المدائني). ويذكر ابن الأثير أن المغيرة أوفد لمعاوية أكثر من عشرة أفراد من أهل الكوفة وأعطاهم بعض الاموال، وجعل عليهم ابنه موسى، وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها. (الكامل، م ٣، ص ٥٠٤).

(4) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٣٠٢-٣٠٣. ابن الأثير، م٣، ص ٥٠٥-٥٠٦. النويري، نهاية الأرب، جـ٢٠، ص ٣٥٠-٣٥١. ابن كثير، البداية، جـ٨، ص ٨٢-٨٣. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٣-١٥٤.

ويذكر اليعقوبي أن زيادا بعث الى معاوية رسالة يصف فيها حال يزيد حيث أنه صبي " يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبّغ ويدمن الشراب ويمشي على الدفوف"، ويذكره بوجود من هم أولى بهذا الأمر مثل الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، وأشار عليه أن يحاول تقويم يزيد وإلزامه بالأخلاق الحميدة، لعله يصبح في مستوى هؤلاء ويكون جديرا بالبيعة، وحين قرأ معاوية رسالة زياد غضب وقال: "ويلي على ابن عبيد، لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الامير بعدي زياد والله لأردنه الى أمه سميّة والى أبيه عبيد"(١)، ويتعذر قبول هذه الرواية التي يبدو عليها الضعف والشك مثل كثير من الروايات المتعلقة بزياد، والتي أوردها بعض المؤرخين المغرضين بهدف التشهير به والانقاص من شأنه وقدره، فكيف بمعاوية الذي جهد كل الجهد في اثبات نسب زياد الى أبيه (أبي سفيان) متحديا كل المعارضين واللائمين يرجع بهذه السهولة عن فكرته ويصرح بأن زيادا ابن عبيد؟! ، كما أنه لا يُعقل أن يكون زياد قد ردّ مقالة معاوية بهذه الصورة، حيث مقت اليه ابنه وأفسد عليه رأيه، ان ما ذكره المدائني أعلاه أرجح مما رواه اليعقوبي، وان كانت وجهة نظر زياد في الروايتين تؤكد على عدم صلاحية يزيد لولاية العهد، ما لم يلتزم بالسلوك السوي، ولا ريب أن جواب زياد لمعاوية يدل دلالة واضحة على عقل راجح وواقعية سياسية لا تعرف المجاملات في مثل تلك الأمور الخطيرة.

وربما كان زياد يتمنى أن تعقد له البيعة بعد معاوية، ولكن الأخير أظهر رفضه لهذه الفكرة فيروى المدائني عن مسلمة أن زياداً وفد على معاوية مرة، فحدا به الحادي:

قد عَلِمَتْهُ الضُمّرُ الجياد　　　ان الأمير بعده زياد

فبلغ ذلك معاوية فغضب، فقال له زياد: "راجز رجز بشيء لم يكن عن أمري ولقد زجرته ونهرته"، فقبل ذلك معاوية(٢)، ويبدو من رواية المدائني أن زياداً أراد أن يعرض هذه الفكرة على معاوية دون أن يصرح بها أمامه، فلما تبين له رفض الخليفة أعرض عما كان يتمنى، لا سيّما وأنه يعرف جيداً مكانته غير المرموقة لدى الأمويين منذ أن داخلهم النسب، وربما ارتاب بعضهم لأعتراض زياد على ترشيح يزيد لولاية العهد، ولكن الروايات لم تصرح أو تشعر بذلك.

ومهما يكن من أمر فان معاوية لم يعبأ كثيرا بملاحظات زياد، وبدأ في أخذ البيعة لابنه يزيد، وما أن تحقق من أن الظروف قد أصبحت مواتية حتى أخرج هذه الفكرة الى حيز التنفيذ، وذلك في سنة (٥٦هـ / ٦٧٥م)(٣). وهناك أسباب دفعته الى ذلك اختلف في ذكرها المؤرخون، فالمدائني يرجع

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص ٢٢٠. البياسي، الاعلام بالحروب، جـ١، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٧-٢٨. الصابيء، الهفوات النادرة، ص ٧٥. ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٥٠١.

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٣٠١. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٥٠٣.

البيعة لوفاة زياد[١]، وخالفه ابن قتيبة فقال : "ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله الاّ يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام وكتب بيتعه الى الآفاق"[٢]، والأرجح أن معاوية اندفع الى تنفيذ فكرته بعد وفاة الحسن حيث أصبح في حلّ من العهد الذي قطعه على نفسه ولكنه لم يستكمل مهمته الاّ بعد وفاة زياد، ويبدو أنه كان لاستنكاف الأخير عن مجاراة هذا المشروع بحماسة المغيرة دورا في الحد من نشاط معاوية في هذا الصدد، فآثر معاوية الالتزام بنصيحة زياد أو التظاهر بذلك طاوياً مشروعه بعض الوقت حتى اذا توفي الحسن وزياد عاد الى إحيائه وانتهى الى اتخاذ قرار بتنفيذه معتمدا على حلفائه الشاميين.

(١) الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٣٠٣. ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ٣٦٨. ابن الأثير، الكامل، م٣، ص ٥٠٦

(٢) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، جـ١، ص ١٨٢. ابن أبي الدم، التاريخ الاسلامي، جـ١، ص ١٩٠-١٩١.

خلاصـــة البحـــث

تبينّ لي من خلال هـذه الدراسة أن زيـاداً بن أبيه كان من الشخصيـات العربية الاسـلامية التي لعبت دوراً خطيراً في النواحـي السياسية والاجتماعيـة والاقتصاديـة والادارية والعسكـرية طيلـة مدة تنوف على الثلاثين عاما، ابتداء من خلافة عمر بن الخطاب وحتى سنة (٥٣هـ / ٦٧٣م).

لقد نـاقشت الروايـات التي تناولت نسب زياد وفنـدتها، وبينت أن نسب هذا الـرجل من أكثر القضايا غموضاً في حياته، ومع ذلك فقد جسـد في شخصه كل أنواع الذكاء والمرونة والحزم المنسوبة للثقفيين، حتى يبدو وكأنه تلقى بينهم تربية عالية المستوى، فهناك من التفاصيل مالا يتلاءم وأصله الوضيع. ان معـرفته للكتابـة والحساب توضح ذلك بجلاء هـذه المعرفة جعلتـه في مصاف الموظفين الكبار، كاتب وأمين على الأموال لدى العديد من الولاة كالمغيرة بن شعبة وأبي موسى الأشعري وا بن عامر. ولقد كان لظروف البصرة – وهي المدينة التي استقر بها زياد – أثر كبير في بروز شخصيته على مسرح الأحـداث السياسيـة والادارية، حيـث أسهم في ادارة البصرة، فأثبت كفاءة اداريـة جعلت الأنظار تتجه اليه، بحيث اختاره الخليفة علي بن أبي طالـب ليكـون عاملا له على بلاد فارس وكرمان التي كانت تعاني من الاضطرابات والفوضى، وقـد تمكن زياد من فرض النظام فيها، وإعادة أهلها الى ما كانوا عليه من الطاعة والتسليم.

كان زيـاد آخر من والى معاوية من بين ولاة علي، على الـرغم من تهديدات معاوية المتكـررة له، ومع ذلك فانه لم يستسلم لمعاوية ابتداء، متوهما بمدى قدرة علي وأبنائه، ويبدو أنه انتظر من جانبهم تصرفا حازما، وخاصة بعد وفاة علي، الاّ أن تقـاعس الحسن وعدم جديته في مواجهة معاوية جعل زياداً يدرك الى أي مدى سيضحي من أجل مطلب ضائع، بـاعتبار أن أصحاب الحق قد تخلوا عن حقهم، هذا في الوقت الذي كانت فيه إمكانيات زياد متواضعة أمام قوة معاوية، فما كان منه الاّ أن قبل الصلح مع معـاويـة. والـواقع أن خـدمـة زياد لمعـاويـة أثبتت أن انضمامـه الى البيت الأمـوي وإخلاصه في خدمته كانا صادرين عن ايمان صحيح، ولهذا لم تبدر منه بادرة واحدة تشكك في هذا الاخلاص.

كانت الخطوة التالية التي خطاها معاوية بعد الصلح، هي أن ألحق زيادا بأبيه أبي سفيان وذلك ليربطه بنفسه وبأسرته ربطا تاما، وقد استنكر حكم معاوية في هذه القضية عدد من رجالات عصره وبعض المتأخرين، حيث اتهمـوه بمخالفة أحكـام الشريعة الاسلاميـة علانية. أما الأمـويون وعلى رأسهم يزيد بن معاوية نفسه، فإنهم لم يرضـوا عن ذلك، وظلوا فترة طويلة متباعدين عن هذا الابن غير الشرعي لأبي سفيان.

كان معاوية بما لديه من خبرة واسعة في عالم السياسة يعرف جيدا أحوال كل بلد والأسلوب الذي يناسبـه، وكانت حنكته وراء نجـاحه في اقرار الأمـور في سائر الأقـاليم، أما العراق فقـد بقي خارج هـذا الاطار وأخفقت سيـاسـة اللين التي سـار عليها في بـدايـة حكمـه في اكتساب ولاء العـراقيين

وثقتهم، فرأى أن يأخذهم بالشدة والحزم دون اسراف، ولهذا كان اجتهاده في استمالة زياد المعروف بشخصيته القوية خطوة حاسمة لجلب الاستقرار الى هذه الولاية واخاضعها ومنع عناصر الثورة فيها من التحرك.

ان الناظر للطريقة التي حكم بها زياد العراق في مطلع ولايته، يجدها بمنزلة اعلان حكم عرفي غير جار على القانون الشرعي الذي يقصر المسؤولية على المجرم، وهو شيء يلجأ اليه الحكام لتخفيف الجرائم وتحذير الناس حتى يأمن الصالحون شر المجرمين، وكذلك كل القوانين التي سنها زياد ابتداء كانت عرفية شديدة، وقد أفادت في اصلاح أهل العراق فساد الأمن وقل حدوث الجرائم في زمانه، ولم يحتج زياد لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات الا قليلا، لعلم أهل ولايته بصدقه في الايعاد، فأخذوا يقفون عند الحد المشروع لهم.

لقد أدرك زياد الأزمة التي تعيشها ولايته، فحاول ايجاد حل جذري لمشاكلها وكان الواجب الأول الذي لا بد من القيام به في البصرة والكوفة هو تثبيت سلطان الدولة. وفي البصرة كان لابد من كسر شوكة القبائل والعشائر التي كان المبدأ الأعلى عندها هو الوقوف الى جانب أفرادها وان كانوا مجرمين، وحمايتهم من القبائل الأخرى بل من سلطان الدولة، فقد طغت روح العصبية القبلية في هذا المصر أكثر من طغيانها في أي مصر آخر.

ان الخطوات التي اتخذها زياد في دمج القبائل العربية في البصرة والكوفة بعيدة عن النسب أو الحلف، كان لها الأثر في نفوس القبائل العربية، حيث أخذت تهيئها نفسيا لتدرك أن حياة المدينة شيء آخر غير حياة البادية التي تعوّد عليها العرب في حياتهم الأولى في الجزيرة العربية، فكانت بلا شك بداية موفقة جديدة اللون في الحياة المدنية، تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضرية الجديدة.

أما الكوفة فقد كانت معارضتها للحكومة مصطبغة بصبغة دينية أكثر مما كانت عليه هذه الصبغة في الأمصار الأخرى، ولم تكن هذه المعارضة موجهة لسلطان الدولة في ذاته، بل كانت موجهة الى حق الأمويين في الحكم، ولم يكن زياد ليفرق بين فكرة الدولة وبين من يقوم على تسيير شؤون الدولة، فهو بعد أن صالح الأسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل، لذا كان يطلب من الجميع أن يخلدوا الى الطاعة، وأن يتركوا التناحر القبلي في سبيل مصلحة الجماعة المتمثلة بالدولة، والواقع أن موقف زياد من مشكلة الحكم في عصره هو الذي باعد بينه وبين معاصريه، حيث أنكروا عليه تأييده المطلق لبني أمية واصراره على المحافظة على الخلافة في بيتهم، وقد عرف الأمويون في زياد هذا الاخلاص فاعتمدوا عليه اعتماداً مطلقاً وأطلقوا يده في تسيير شؤون العراق دون أية معارضة.

لقد عمل زياد على اعادة تنظيم المقاتلة والشرطة والحرس في البصرة والكوفة، وكان أول والٍ لجأ الى سياسة التهجير للتخفيف من تركيز السكان في مصرى العراق، والناجم عن الهجرات المستمرة لهذين المصرين، ثم لاستمرارية الفتوحات في الأقاليم الشرقية، وللحد من التوتر السياسي والعصبية

القبلية في البصرة والكـوفة، هـذا وقد أحدث زيـاد تجديدات وتطويـرات عديـدة شملت : العطاء والخراج وبعض الدواوين التـي كان معمولا بها في ولايتـه، وقد ساعـدت هذه الأمـور بمجملها في تسهيل ادارة الولاية وتوفير حياة كريمة لأهلها.

واهتم زياد بـالشؤون الاقتصـادية اهتمامـه بالسلطـة لأنها كانت دعامتـه الأولى، فلم يجعل همه استغلال الولايات التي عُهد اليه بادارتها استغلالا خاصا، فقد قام باصلاحات اقتصادية كثيرة نالت اعجاب من خلفه، ومن هذه الاصـلاحات : حفر الأنهار والترع واستصلاح الأراضي وقصر امتلاك القطائع على مستصلحيهـا، كما اهتم بالأسواق والتجارة وبمـراقبة الأسعار، وقـد أدى ذلك كله الى ازدهار الحياة الاقتصادية في ولاية العراق، وزيادة خراجها في عهد زياد.

لقد قـام الخوارج بعده ثـورات في ولاية زيـاد، وكانت معظم هـذه الثورات قـد قامت في البصرة ومنطقتها، بينما كان خوارج الكوفة - في الفترة نفسها - أكثر سكينة وأقل نشاطا، وهذا يعود الى كثرة عددهم في البصرة وقلتهم في الكوفة مركز الشيعـة، وكان زياد يرى أن الخوارج سفهاء خارجون على القانون وأعداء لأهل السنة والجماعة، ومن ثم فلا بد من مقاومتهم، وقد اعتمد زياد في القضاء على حركات الخوارج في البصرة على القبائل والعشائر البصريـة، وكان لهذه السياسة أثر كبير في الحد من نشاط هذه القوة المعارضة في ولاية البصرة.

واتبع زياد سياسة حازمة وقاسية مع الشيعـة، لأنهم كانوا قد بادؤوه العداء، فهم الذين حصبوه في أول يوم دخل فيه الكوفة، ومع ذلك فـانه لم يسرف في قتلهم كما يرى البعض، بل راقب حركاتهم وحاول بمساعدة رؤساء القبائل أن يحد من نشـاطهم وتحركاتهم، فسار الناس يكتمون تشيعهم لعلي الاّ قليلا منهم.

ان رجلا كزياد وضع لنفسه مبدأ يسير عليه، لا يمكن أن يفرق بين حجر بن عدي الكندي وأي رجل آخر مخالف للدولة أو حانث ببيعته للخليفة، فكل المخالفين في نظره سواء أيا كانوا، والعقاب الذي ينزله بهم واحد، واذا أنكرنا تصرف زياد مع حجر، فلماذا لا ننكر تصرف حجر ومحاولته لأثارة الفتنة في الكوفـة؟ لقد كان من رأي زياد أنه مـا كان يجوز لحجر أن يشعل نار الفتنة في الكـوفة المركز الأول للشيعة، فأما وقد فعل فان مسؤولية محاولته تقع عليه وعلى من ناصره. وأنا هنا أعرض الحقيقة كما رآها زياد دون أن أوافقه على رأيـه أو اختلف معه، وأظن أنه ليس من حق أي باحـث أن ينصّب نفسه قاضيا يدين ويبرىء، لأن القاضي هو القارىء، أما المؤرخ فمهمته تنتهي عند كشف الحقائق وعرضها.

وهكذا فـان دراسة سيرة زياد ودوره في التاريخ وفق المنهـج الذي اتبعته، يجعلنا ننظـر الى تاريخ الدولة الاسلامية وكأنـه كلّ لا يتجزأ، ويجعلنا نربط تاريخ الأفراد بالأحـداث، وبالتيارات السياسية والعقائد من جهـة، وبالدوافع الـذاتية والمطامح الفرديـة من جهة أخرى، ومع أن زيـاداً لم يهتد الى الطريق الأمثل في كل حـالة، ووقع في أخطـاء اشتد نقد أهل عصره لها، فـان الرجل لم يعبأ بشيء لا باعتراض الناس ولا بالنكسات بل سار في طريقه بخطى ثابتة وثقة عظيمة في نفسه، ومضى لوجهه

من غير خوف أو جزع . وفيه يقول المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي : "اذا عُدّ رجال الدولة العربية من أهل السياسة ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك علما من أعلامهم وقطبا من أقطابهم ، بل لعل زيادا الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت تلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عُدّ رجال الادارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الادارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار"(١).

---

(١) عبد الحميد العبادي ، صور من التاريخ الاسلامي ، مكتبة الآداب ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ ، ص ١٢٧ .

المصـــادر والمراجـــع

أولا : المصـــــادر

(أ) المخطوطـــات
(ب) المطبوعـــات

ثانيـا : المراجـــع

ثالثـا : المقـــالات

رابعـــا : المراجـــع باللغـة الانجليزيـــة

أولا : المصـــــادر

(أ) المخطوطـــــات :

- السيوطـــي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
* **مناهل الصفا بتواريخ الأئمة الخلفا**، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية.

- ابن عساكر ، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م).
* **تاريخ مدينة دمشق**، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وكمّل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستانبول، ١٩ مجلد، دار البشير، عمان.

(ب) المطبوعـــات :

- الآبـي ، منصور بن الحسين (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)
* **نثر الدر**، تحقيق محمد علي قرنه، مراجعة علي محمد البجاوي، ٥ جـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.

- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م).
* **المستطرف في كل فن مستظرف**، تحقيق مفيد محمد قميحة، ٢ جـ، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

- ابن الأثير ، علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).
* **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ٥ م، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٧هـ.
* **الكامل في التاريخ**، ١٣م، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م.

- ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٦١م).
* **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، ٥ جـ، ط ١، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٣م.

- الإدريسي ، محمد بن عبد الله الحسني (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).
* **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق شيرولي وآخرون، ٧ جـ، نابولي بروستات، أبودي، ١٩٧٠م.
- الأزدي ، يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م).
* **تاريخ الموصل**، تحقيق علي حبيبة، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ابن الأزرق ، محمد بن علي بن محمد (ت ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م).
* **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق علي سامي النشار، ٢ جـ، منشورات وزارة الأعلام - الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م.
- الأزرقي ، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت حوالي ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م).
* **أخبار مكة**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ٢ جـ، ط ٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩م.
- الأصبهاني ، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م).
* **تاريخ أصبهان**، تحقيق سفن ديدرنج، ليدن، بريل، ١٩٣١م.
* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ جـ، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- الاصطخري ، ابراهيم بن محمد الفارسي (عاش في القرن الرابع الهجري).
* **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م.
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م).
* **الأغاني**، أشرف على مراجعته وطبعه عبد الله العلالي وآخرون، ٢٣م، ط ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥-١٩٦١م.
* **مقاتل الطالبيين**، تحقيق أحمد صقر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٦م.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م).
* **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن أعثم ، أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/ ٩٢٦م).
* **الفتوح**، ٤ م، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).

* **التاريخ الصغير**، تحقيق محمد ابراهيم زايد، ٢ م، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦م.
* **التاريخ الكبير**، ٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
* **صحيح البخاري**، تقديم أحمد محمد شاكر، ٩ جـ، دار الجيل، بيروت (د. ت).

- ابن بسام، علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م).
* **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق احسان عباس، ٤ ق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

- البسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م).
* **المعرفة والتاريخ**، رواية عبد الله بن جعفر بن دستورية النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٣ م، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م).
* **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، جـ ٢، ط ١، المطبعة الأزهرية بمصر، ١٩٢٨م.

- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ/ ١٦٨٢م).
* **خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٣ جـ، ط ٢، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٨١م.

- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م).
* **الفرق بين الفرق**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، القاهرة، (د. ت).

- ابن بكار، الزبير بن بكار بن عبد الله الأسدي (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).
* **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٣م.

- البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).
* **سمط اللآلىء**، تحقيق عبد العزيز الميمني، ٢ جـ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦م.
* **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، ٢ جـ، عالم الكتب، بيروت (د. ت).

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
* **أنساب الأشراف**، جـ ١، تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات

بجامعة الدول العربية، ودار المعارف، مصر، ١٩٥٩م. جـ٢، تحقيق محمد باقر المحمودي، ط ١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤م. جـ٣، تحقيق محمد باقر المحمودي، ط ١، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧م. جـ ٥، مكتبة المثنى ببغداد، (د. ت). ق ٢، جـ ٤، تحرير ماكس سلوسينجر، القدس، مطبعة الجامعة العبرية، ١٩٣٨م. ق ٤، جـ ١، تحقيق احسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٩م.

* **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧م.

-البياسي، يوسف بن محمد بن ابراهيم الأنصاري (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م).

* **الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام**، تحقيق شفيق جاسر أحمد محمود، ٢ جـ، ط ١، عمان، ١٩٨٧م.

- البيهقي، ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م).

* **المحاسن والمساويء**، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).

* **السنن الكبرى**، ١٠ جـ، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، ١٣٥٢هـ.

-الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م).

* **سنن الترمذي**، تحقيق كمال يوسف الحوت، ٥ جـ، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

- ابن تغري بردى، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).

* **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٢ جـ، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩-١٩٥٦م.

- التنوخي، المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م).

* **الفرج بعد الشدة**، ٢ جـ، يطلب من زكي مجاهد وعبد القادر علام، القاهرة، ١٩٣٨م.

* **المستجاد من فعلات الأجواد**، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة التراقي، دمشق، ١٩٧٠م.

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م).

* **تحفة الوزراء**، المنسوب للثعالبي، تحقيق حبيب على الراوي وابتسام

مرهون الصغار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
* **التمثيل والمحاضرة،** تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.
* **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،** تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
* **لطائف المعارف،** تحقيق ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٠م.

- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).
* **البخلاء،** تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
* **البلدان،** نشر صالح أحمد العلي، مطبعة الحكومة، بغداد "مستل من مجلة كلية الآداب" ١٩٧٠م.
* **البيان والتبيين،** تحقيق عبد السلام هارون، ٤ جـ، ط ٥، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٥م.
* **التاج في أخلاق الملوك،** المنسوب للجاحظ، تحقيق أحمد زكي باشا، ط ١، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤م.
* **الحيوان،** تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٧ جـ، ط ٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م.
* **رأي أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في معاوية والأمويين،** تحقيق السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٦م.
* **رسائل الجاحظ،** تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٢ جـ، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.
* **المحاسن والاضداد،** قدّم له وراجعه عاصم عتياني، ط ١، دار احياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦م.

- ابن جبير محمد بن أحمد الكناني (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).
* **رحلة ابن جبير،** دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٩م.

- الجريري، معافى بن زكريا النهرواني (ت ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م).
* **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي،** تحقيق محمد مرسلي الخولي، ٢ جـ، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م.

- ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي (ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م).
* **طبقات الأطباء والحكماء،** تحقيق فؤاد سيّد، مطبعة المعهد العلمي

الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

- الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م).
* الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).
* صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ط ٤، ط ٣، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٥م.
* المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله ابراهيم، ٢ جـ، مطبعة الأوقاف، بغداد، ١٩٧٦م.

- ابن حبّان البستي، محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م).
* الثقات، ٩ جـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد، ١٩٧٣-١٩٨٣م.
* المجروحين، صححه عزيز بيك القادري والنقشبندي، جـ ١، ط ١، المطبعة العزيزية حيدر أباد، ١٩٧٠م.
* مشاهير علماء الأمصار، صححه م. فلا يشهمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

- ابن حبيب، محمد بن حبيب بن أمية (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م).
* أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام وأسماء من قتل من الشعراء، مطبوع ضمن كتاب نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، من المجموعة (٥ الى ٨) ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٧٣م.
* المحبر، صححته ايلزة ليحتن شتيتر، مطبعة جميعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٢م.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).
* الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ جـ، نشر مطبعة السعادة بالقاهرة، ودار صادر ببيروت، ١٣٢٨هـ، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.
* تهذيب التهذيب، ١٤ م، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤-١٩٨٥م.
* لسان الميزان، ٧ جـ، ط ٢، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١م.

- **ابن الحداد ،** محمد بن منصور بن حبيش .
*** الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ،** تحقيق رضوان السيد، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- **ابن أبي الحديد ،** عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) .
*** شرح نهج البلاغة ،** تحقيق محمد أبو الفضل اراهيم، ١٧ جـ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٩٥٩-١٩٦٣م .

- **ابن حزم،** علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) .
*** جمهرة أنساب العرب ،** تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٢م .
*** جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى،** تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف ، مصر (د . ت) .
*** الفصل في الملل والأهواء والنحل ،** تحقيق محمد ابراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ، ٥ جـ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- **الحصري القيرواني** ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) .
*** زَهرُ الآداب وثمر الألباب ،** تحقيق علي محمد البجاوي، ٢ جـ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٩٥٣م .

- **الحلبي ،** علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) .
*** أنساب العيون في سيرة الأمين المامون، المعروف بالسيرة الحلبية ،** ٣ جـ، ط ٣، المطبعة الأزهرية ، القاهرة، ١٩٣٢-١٩٣٥م .

- **ابن حمدون ،** محمد بن الحسن بن محمد (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) .
*** التذكرة الحمدونية ،** تحقيق احسان عباس ، المجلد الأول، ط ١ ، معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- **الحميري ،** محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م) .
*** الروض المعطار في خبر الأقطار،** تحقيق احسان عباس ، ط ٢ ، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٨٤م .

- **ابن حنبل ،** أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) .
*** المسند،** شرحه أحمد محمد شاكر، ٢٠ جـ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٨م .

- **ابن حوقل ،** محمد بن علي (ت حوالي ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) .
*** صورة الأرض،** دار مكتبة الحياة ، بيروت (د . ت) .

- **أبو حيان التوحيدي ،** علي بن محمد العباس (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) .

* **الامتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، ٣ جـ، دار
الحياة، بيروت (د. ت).
* **البصائر والذخائر**، تحقيق ابراهيم الكيلاني، المجلدين ا
والرابع، مكتبة أطلس ومطبعة الانشاء، دمشق (د. ت).
- **الخطيب البغدادي**، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).
* **تاريخ بغداد**، ١٤م، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).
- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).
* **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ٧م، دار الكتاب اللبناني، بير
١٩٥٦-١٩٦٧م.
- **ابن خلكان**، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
* **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس، ٧م
صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٧٨م.
- **خليفة بن خياط العصفري**، (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م).
* **تاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، ٢ جـ، ط ١، مطبعة الآدا
النجف الاشرف، ١٩٦٧م.
* **الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ١، مطبعة العاني، ب
١٩٦٧م.
- **الدار قطني**، علي بن عمر (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)،
* **سنن الدارقطني**، تحقيق السيد عبدالله هاشم يماني المدني، ٤
دار المحاسن للطباعة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- **الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).
* **سنن الدارمي**، ٢ جـ، دار احياء السنة النبوية، بيروت (د. ت
- **أبو داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
* **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ جـ،
العصرية، بيروت، (د. ت).
- **ابن دريد**، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م).
* **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، منشورات ا
المثنى، بغداد، ١٩٧٩م.
* **المجتنى**، ط ٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحدر
١٩٨٠م.
- **ابن أبي الدم**، شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم الحموي (ت ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤

* **التاريخ الاسلامي "المعروف باسم التاريخ المظفري"** ، تحقيق حامد زيان غانم زيان ، دار التوفيق النموذجية ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

- **الدولابي** ، محمد بن أحمد بن حماد (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) .

* **الكنى والأسماء** ، ٢ جـ ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- **الديار بكري** ، حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م) .

* **تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس** ، ٢ جـ ، مطبعة عثمان عبد الرزاق ، القاهرة ، ١٨٨٤م .

- **الدينوري** ، أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) .

* **الأخبار الطوال** ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة جمال الدين الشيال ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

- **الذهبي** ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) .

* **تذكرة الحفاظ** ، ٥ جـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د . ت) .

* **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ٢٣ جـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١م .

* **العبر في خبر من غبر** ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد ، ٥ جـ ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠م-١٩٦٦م .

* **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ٤ م ، دار المعرفة ، بيروت ، (د . ت) .

- **الراغب الأصبهاني** ، حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م) .

* **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** ، ٤جـ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (د . ت) .

- **ابن رسته** ، أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) .

* **الأعلاق النفيسة** ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١م ، أوفست مكتبة المثنى ، بغداد .

- **الرقيق القيرواني** ، ابي اسحق ابراهيم (ت ٤١٧هـ/ ١٠٢٦) .

* **قطب السرور في أوصاف الخمور** ، تحقيق أحمد الجندي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦٩م .

- **الزبيدي** ، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) .

* **طبقات النحويين** ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

- ابن الزبير ، أحمد بن الرشيد (عاش في القرن الخامس الهجري) .
* **الذخائر والتحف**، تحقيق محمد حميد الله ، جـ ١ ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٥٩م .
- الزبيري ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) .
* **نسب قريش**، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م .
- ابن زكريا ، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) .
* **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، ٦ جـ، ط ١ ، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧١هـ .
- الزمخشري ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) .
* **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق سليم النعيمي، ٤ جـ، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٦-١٩٨٠م .
- السجستاني ، سهل بن محمد بن عثمان (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) .
* **المعمرون والوصايا**، تحقيق عبد المنعم عامر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م .
- السدوسي ، مؤرج بن عمرو (ت ١٩٥هـ/ ٨١٠م) .
* **كتاب حذف من نسب قريش**، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط ٢ ، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٦م .
- ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) .
* **الطبقات الكبرى**، ٨ جـ، دار صادر، بيروت (د . ت) .
- السكتواري ، علاء الدين علي دده (فرغ من تأليف كتابه سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٨٦م) .
* **محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر**، ط ٢ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٨م .
- ابن سلام ، محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م) .
* **طبقات فحول الشعراء**، شرحه محمود محمد شاكر، ٢ جـ، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م .
- السيرافي ، الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) .
* **أخبار النحويين البصريين**، تحقيق محمد ابراهيم البنّا، ط ١ ، دار الاعتصام، ١٩٨٥م .
- السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) .
* **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة

التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٢م.
الشابشتي ، علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م).
* **الديارات**، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، مطبعة المعارف، نشر مكتبة المثني، بغداد، ١٩٦٦م.
- الشريف المرتضى ، علي بن حسين (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م).
غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بـ " أمالي المرتضى " ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢ ق، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م.
- الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ/ ١١٥٤م).
* **الملل والنحل**، تحقيق محمد سيد كيلاني، ٢ جـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٩٦١م.
- الصابيء ، محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م).
* **الهفوات النادرة**، تحقيق صالح الأشتر، ط ١، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٧م.
- ابن صاعد ، صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م).
* **طبقات الأمم**، نشره وذيله الأب لويس اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م.
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).
* **الوافي بالوفيات**، ط ٢، تحقيق نخبة من المستشرقين والمؤرخين العرب، فرانز شتايز بفيسبادن، ١٩٦٢-١٩٧٩م.
- الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م).
* **المصنف**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ١١ جـ، ط ١، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠-١٩٧٢م.
- الصولي ، محمد بن يحيى (ت ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م).
* **أدب الكتّاب**، تحقيق محمد بهجة الاثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- الطبراني ، سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م).
* **الأوائل**، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير، ط ١، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣م.
- الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م).
* **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار

سويدان، بيروت، ١٩٧٠م.

- الطرطوشي، محمد بن محمد بن الوليد (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م).
* **سراج الملوك**، ط ١، المكتبة العربية، القاهرة، ١٩٣٥م.

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م).
* **الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية**، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٠م.

- العباس بن بكار الضبي، (ت ٢٢٢هـ/ ٨٣٦م).
* **أخبار الوافدات من النساء على معاوية بن أبي سفيان**، تحقيق سكينة الشهابي، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).
* **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق محمد علي البجاوي، ٤ ق، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د. ت).
* **بهجة المجالس وأنس المُجالس**، ٢ ق، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

- ابن عبد الحق، عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م).
* **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق محمد علي البجاوي، ٣ جـ، ط ١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م - ١٩٥٥م.

- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م).
* **سيرة عمر بن عبد العزيز**، تحقيق أحمد عُبيد، ط ١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٢٧م.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م).
* **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، ٦ جـ، ط ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠-١٩٤٩م.

- أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م).
* **الأموال**، تحقيق محمد خليل هراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

- أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي (ت ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م).
* **النقائض (جرير والفرزدق)**، تحقيق أنتوني أشلي بيفان، ٣ م، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥-١٩١٢م، أوفست مكتبة المثنى، بغداد.

- ابن العربي، محمد بن عبد الله (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م).

* **العواصم من القواصم**، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ.

- **ابن عساكر**، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م).
* **تاريخ مدينة دمشق**.
جزء تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي، ط ١، دمشق، ١٩٨٢م.
وجزء تراجم العين المتلوه بالألف، تحقيق شكري فيصل، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (د.ت).
* **تهذيب تاريخ دمشق الكبير**، تهذيب وترتيب عبد القادر بدران، ٧ جـ، ط ٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

- **العسكري**، الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م).
* **الأوائل**، تحقيق محمد السيد الوكيل، نشر أسعد طرابزوني، المدينة المنورة، ١٩٦٦م.
* **جمهرة الأمثال**، مطبوع بهامش كتاب مجمع الأمثال للميداني، ٢جـ، المطبعة الخيرية، ١٣١٠هـ.

- **العلوي**، محمد بن عقيل (ت ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).
* **النصائح الكافية لمن يتولى معاوية**، دار الزهراء، بيروت (د.ت).

- **ابن الغملاس**،
* **ولاة البصرة ومتسلموها "١٤هـ - ١٣٣٣هـ"**، دار منشورات البصري، بغداد، ١٩٦٢م.

- **أبو الفدا**، اسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).
* **المختصر في أخبار البشر**، ٤ جـ، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة (د.ت).

- **ابن الفقيه**، أحمد بن محمد الهمداني (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م).
* **مختصر كتاب البلدان**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢هـ، أوفست مكتبة المثنى ببغداد.

- **الفيروز آبادي**، محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م).
* **القاموس المحيط**، ٤ جـ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٢م.

- **القالي**، اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م).
* **الأمالي**، ٢جـ، ط ١، المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر، ١٣٢٤هـ، الكتاب مذيل بـ "كتاب ذيل الأمالي والنوادر".

- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).
* **الأمامة والسياسة**، المنسوب لابن قتيبة، تحقيق سعيد صالح موسى خليل، ٢ جـ، رسالة ماجستير، اشراف د. عبد العزيز الدوري، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٨م.
* **الشعر والشعراء**، تحقيق مفيد قميحة، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
* **عيون الأخبار**، ٤ م، ط ١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨-١٩٣٠.
* **المعارف**، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠م.
- قدامة بن جعفر ، (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م).
* **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١م.
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).
* **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.
- القفطي ، علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م).
* **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٦هـ.
* **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ٣ جـ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠-١٩٥٥م.
- القلقشندي ، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
* **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ١٤ جـ، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
* **مآثر الانافة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ٣ جـ، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٤م.
- ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م).
* **أحكام أهل الذمة**، تحقيق صبحي الصالح، ٢ ق، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن الكازروني ، علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م).
* **مختصر التاريخ من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق مصطفى جواد، أشرف على طبعه سالم الألوسي، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠م.

- الكتبي ، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).
* **فوات الوفيات**، تحقيق احسان عباس ، ٥ جـ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.

- ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
* **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، ١٤ جـ، ط ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

- ابن ماجة ، محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).
* **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ٢ جـ، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).

- الماوردي ، علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
* **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، ط ١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ١٩٦٠م.
* **نصيحة الملوك**، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
* **الوزارة "أدب الوزير"**، تحقيق محمد سليمان داود وفؤاد عبد المنعم أحمد، ط ١، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، ١٩٧٦م.

- المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م).
* **التعازي والمراثي**، تحقيق محمد الديباجي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م.
* **الكامل في الأدب**، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته، ٤ جـ، مطبعة نهضة مصر، القاهرة،١٩٥٦م.

- المرزباني ، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م).
* **نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء**، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد اليغموري، (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، تحقيق رودلف زلهايم، دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن، ١٩٦٤م.

- المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
* **التنبيه والاشراف**، تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، القاهرة، ١٩٣٨م.
* **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ٤ م، ط ٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.

- ابن مسكويه ، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).
* **تجارب الأمم** ، الأجزاء(١ ، ٥ ، ٦)، لوزاك، لندن، ١٩٠٩م.
- مسلم بن حجاج ، (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م).
* **صحيح مسلم بشرح النووي**، ١٨جـ، ط ٣، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٤م.
- ابن معين ، يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م).
* **التاريخ**، تحقيق أحمد محمد نور سيف، ٤ جـ، ط ١، مطابع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- المقدسي ، محمد بن أحمد (ألف كتابه سنة ٣٧٥هـ).
* **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦، أوفست مكتبة الخياط، بيروت.
- المقدسي، مُطهّر بن طاهر (ت القرن الرابع).
* **البدء والتاريخ**، ٦ جـ، مؤسسة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٨٩٩-١٩١٩م.
- المقريزي ، أحمد بن عبد الله (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
* **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، ٢ جـ، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٤هـ. أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠م.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م).
* **لسان العرب**، ١٥ م، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٦م.
* **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق روحية النحاس، ورياض عبد الحميد مراد وآخرون، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤-١٩٨٨م.
- ابن منقذ ، أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).
* **لباب الآداب**، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة، ١٩٣٥م.
- المنقري ، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م).
* **وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٢هـ.
- ابن النديم ، محمد بن أبي يعقوب اسحاق (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

* **الفهرست**، تحقيق رضا - تجدد، مطبعة دانشكاه، طهران، ١٩٧١م.

- **النسائي**، أحمد بن علي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م).

* **سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، وحاشية الامام السندي**، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).

- **النووي**، يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).

* **تهذيب الأسماء واللغات**، ٢ جـ، ادارة الطباعة المنيرية، القاهرة، (د.ت).

- **النويري**، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

* **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الأجزاء (١-١٨) نشر دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، جـ ١٩، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م. جـ ٢٠، تحقيق محمد رفعت فتح الله وابراهيم مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.

- **الهمداني**، الحسن بن أحمد (ت ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م).

* **الأكليل**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، جـ ٢، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٦م.

- **ابن الوردي**، عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

* **تاريخ ابن الوردي**، ٢٠ جـ، جمعية المعارف، القاهرة، ١٨٦٨م.

- **الوطواط**، برهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م).

* **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة**، دار صعب، بيروت (د.ت).

- **وكيع**، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ/ ٩١٨م).

* **أخبار القضاة**، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، ٣جـ، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٧م.

- **ياقوت بن عبد الله الحموي** (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

* **معجم الأدباء**، ٢٠جـ، الطبعة الأخيرة، دار احياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

* **معجم البلدان**، ٥جـ، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.

- **يحيى بن آدم القرشي** (ت ٢٠٣هـ/ ٨١٨م).

* **الخراج**، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢ ، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.

- **اليعقوبي** ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).

* **البلدان**، ط ٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م.

* **تاريخ اليعقوبي**، ٢م، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠م.

* **مشاكلة الناس لزمانهم**، تحقيق وليم ملورد، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٠م.

- **أبو يوسف** ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م).

* **الخراج**، المطبعة السلفية، ط ٤ ، القاهرة، ١٣٩٢هـ.

- **مؤلف مجهول** ، (عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي).

* **أخبار الدولة العباسية**، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، مطابع دار صادر، بيروت، ١٩٧١م.

- **مؤلف مجهول** ، (من القرن الحادي عشر الميلادي).

* **تاريخ الخلفاء**، نشر بطرس غريازينويج، دار النشر "العلم" موسكو، ١٩٦٧م.

ثانيـــا : المراجـــــع

- احسان عباس .

  * ديوان شعر الخوارج، ط ٤ ، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م .

- أحمد أمين .

  * فجر الاسلام، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م .

- الأعظمي، عواد مجيد .

  * الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٨م .

- بروكلمان، كارل .

  * تـاريخ الأدب العـربي، تـرجمة عبـد الحليم النجـار، ٣ جــ، دار المعـارف، القـاهـرة، ١٩٦٠-١٩٦٢م .

  * تاريخ الشعـوب الاسلامية، تــرجمة نبيـه أمين فــارس ومنير البعلبكي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م .

- البري ، عبد الله خورشيد .

  * القبائل العربية في مصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م .

- بــلا ، شارل .

  * الجاحظ في البصرة وبغداد وسـامراء، ترجمة ابـراهيم الكيلاني، ط ١ ، دار الفكـر، دمشق ١٩٨٥م .

- جرجــي زيــدان .

  * تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ جـ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت) .

- جـــال محمـد جــودة .

  * العــرب والأرض في العـراق في صــدر الاسـلام، طبع في الشركـة العربيـة للطباعـة والنشر، ١٩٧٩م .

- الجنابــــي ، كاظـــــم .

  * تخطيط مدينة الكوفة، ط ١ ، مطابع دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م .

- جـــواد علـــــي .

  * المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠م، ط ٢ ، دار العلم للملايين، ١٩٧٦م .

- جولـــــدتسهيـــــر .

  * العقيدة والشريعـة في الاسلام، تـرجمة محمـد يوسف مـوسى وآخـرون، ط ٢ ، دار الكتب

الحديثة، مصر، (د. ت).
- حســـــن ، ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن .
* **النظم الاسلامية**، ط ٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م .
- الخربوطلي ، علي حسني .
* **تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي**، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م .
- الخضري بك، محمـــــد .
* **محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية**، ٢ جـ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٦٩م.
- الخيــــرو ، رمزية عبد الوهاب .
* **ادارة العراق في صدر الاسلام**، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م .
- الـــــدوري، عبد العزيز.
* **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣م .
* **مقدمة في تاريخ صدر الاسلام**، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠م .
* **النظم الاسلامية**، جـ١، ط ١، مطبعة نجيب، بغداد، ١٩٥٠ .
- الـــــراوي ، ثابت اسماعيل .
* **العراق في العصر الأموي**، ط ٢، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠م .
- الريس ، محمد ضياء الدين .
* **الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية**، ط ٤، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م .
- زامبـــــاور.
* **معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي**، ٢ جـ، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١-١٩٥٢م .
- الزركلـــي ، خير الدين .
* **الأعــلام**، ٨ جـ، ط ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م .
- زكـــي، أحمد كمال .
* **الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني للهجرة**، دمشق، ١٩٦١م .
- سزكيــــن ، فــــؤاد .
* **تاريخ التراث العربي**، ترجمة محمود فهمي حجازي وآخرون، ٢م، نشر ادارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣م .
- سلــــوم، داود .
* **شعــر ابن الحميري**، جمع وتقـديم داود سلوم، نشر وتـوزيع مكتبـة الأندلس، بغـداد، ١٩٦٨م .
- الشيخلي، محمد رزق .

* **تاريخ البصرة القديم وضواحيها**، البصرة، ١٩٧٢م.
- طـــه حسيـــــن.
* **الفتنة الكبرى**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م.
- **العبـــادي**، عبد الحميد.
* **صور من التاريخ الاسلامي**، مكتبة الآداب، الاسكندرية، ١٩٤٧م.
- **العـــش**، يوســـف.
* **الدولة الأموية**، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.
- **العلـــي**، صالح أحمد.
* **التنظيمات الاجتماعيـة والاقتصـــاديـة في البصرة (في القـــرن الأول الهجـري)**، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م.
* **خطط البصرة ومنطقتها**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٦م.
- **فلهـــاوزن**، يوليـــوس.
* **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاسلام "الخوارج والشيعة"**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
* **تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده وحسين مؤنس، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م.
- **القلعـــاوي**، سهيــر.
* **أدب الخوارج في العصر الأموي**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥م.
- لسترنـــج، كـــي.
* **بلدان الخلافـة الشرقية**، ترجمة بشير فـرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مـؤسسة الرسـالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- **ماسينيون**، المسيولويس.
* **خطط الكوفة**، تـرجمة تقي محمد المصعبي، تحقيق كـامل سلمان الجبوري، ط ١، مطبعـة الفري الحديثة - النجف الأشرف، ١٩٧٩م.
- **محمد كرد علي**.
* **الادارة الاسلامية في عز العرب**، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٤م.
- **المظفــر**، محمد حسين.
* **تاريخ الشيعة**، ط ٢، دار الزهراء، بيروت، ١٩٧٩م.
- **معروف**، نايــف محمــود.
* **الخوارج في العصر الأموي**، ط ٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م.
- مـــولاي س. أ. ق. حسينـــي.

* **الادارة العربية**، ترجمة ابراهيم أحمد العـدوي وعبد العزيز عبد الحق، المطبعـة النموذجية، القاهرة، ١٩٥٨م.
-نبيـه عاقـل .
* **خلافة بني أمية**، دمشق، ١٩٧٢م.
- النـص، احسان
* **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٣م.
- هانـي حسيـن أحمـد أسعـد.
* **العطاء في صدر الاسلام**، رسالة ماجستير، اشراف د. عبد العـزيز الـدوري، الجامعة الأردنية، ١٩٨٥م.
- هنتـس، فالتـر.
* **المكاييل والأوزان الاسلامية**، تـرجمة كامل العسلي، منشـورات الجامعة الأردنيـة، عمان، ١٩٧٠م.

ثالثاً : المقالات

- خريسات ، محمد عبد القادر.

* **القطائع في العصر الأموي**، مجلة دراسات (العلوم الانسانية) الجامعة الأردنية ، المجلد السادس عشر، العدد الثالث ، آذار ١٩٨٩م (من ص ٣٠-٦٢).

- درادكة ، صالح .

* **الحرس والشرطة في صدر الاسلام**، مجلة دراسات (العلوم الانسانية)، الجامعة الأردنية ، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع ، نيسان ١٩٨٧م، (من ص ٦٩-٩٥).

- الغزاوي ، صالح مهدي .

* **الحارث بن كلدة الثقفي**، مجلة المورد، العدد الرابع ، المجلد السادس (من ص ٢١٧-٢٢١).

- العلي، صالح أحمد .

* **ادارة الحجاز في العهود الاسلامية الأولى**، مجلة الأبحاث ، الجزء الأول، السنة ٢١ ، آذار ١٩٦٨م، (من ص ٣ - ٥٧) .

* **إستيطان العرب في خراسان**، مجلة كلية الآداب والعلوم، العدد ٣، السنة ١٩٥٨م، (ص ٣٦-٨٣).

- **مقالات في دائرة المعارف الاسلامية**، ط ٢ ، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م .

* دلافيدا G. Levi Dellavida مادة "خوارج" ، م٨، ص ٤٦٩-٤٧٧ .

* سترك M. Strech مادة "بطيحة" ، م٣، ص ٦٨٢-٦٩٢ .

* لامنس H. Lammens "زياد بن أبيه" ، م ١٠ ، ص ٤٦٧-٤٦٩ .

- Lammens.

*** Ziad Ibn Abihi, Vice-roi de 1 Iraq 1ieutenant de Mo'awia .** Rivista degli studi orientali Roma. Presso La Ragia University, 1912. P. 1-45, 199-250 and 653-693.

المراجع باللغة الانجليزية

- **Bakhsh , Khuda.**
  * Contributions to the History of Islamic Civilization, 2Vols, Calcuta, 1930.
- **Hiskett. M and Awad. M.**
  * The Story of the Arabs, First Published, Peninsula Press LTD, Hong Kong, 1957.
- **Muir, William.**
  * The Caliphate : Its Rise Decline and Fall, Kharats, Beirut, 1963.
- **Spuler, Bertold.**
  * The Muslim World, Part 1, Translated from German By F. R. C. Bagley, Leiden, E. J. Brill, 1960.

ملاحـــق البحـــث

الملحق رقم (١)
خطبة زياد البتراء

ترد هذه الخطبة الشهيرة في كثير من المصادر الأدبية والتاريخية(١)، مع اختلاف في بعض ألفاظ الرواية من مصدر الى آخر. ولعل أوسع نص لها النص الذي أورده الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، وهذه محاولة منا لتحقيق نص الخطبة، الذي حقق في جُلّ المصادر، معتمدين نص الجاحظ باعتباره أقدم النصوص وأوسعها.

(أما بعد فان الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيّ الموفى(٢) بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم(٣) ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبُت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير(٤)، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرّمد(٥) الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينه(٦) الدّنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تُسبقوا اليه(٧)، من تركِكم(٨) الضعيف يُقهر ويؤخذ ماله، وهذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبصر، والعددُ غير قليل. ألم تكن منهم نُهاة تمنع الغُواة عن دلج(٩) الليل وغارة النهار؟! قرّبتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على

---

(١) أنظر نص الخطبة لدى: الجاحظ، البيان، جـ٢، ص ٦٢-٦٥. ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص ٣٠٤-٣٠٦ (المدائني). ابن قتيبة، عيون الاخبار، م ٢، ص ٢٤١-٢٤٢ (الهيثم بن عدي). البلاذري، انساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢٠٦-٢٠٨ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ٥، ص ٢١٨-٢٢١ (المدائني). ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣٠٥-٣٠٧. ابن عبد ربه، العقد، جـ٤، ص ١١٠-١١٢ (أبو بكر الهذلي). الجريري، الجليس الصالح، جـ٢، ص ٣٦٢-٣٦٤ (عبد الملك بن عمير). ابن عساكر، تاريخ / خط، م٦، ص ٤٩١-٤٩٢ (عبد الملك بن عمير). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٤٧-٤٥٠. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ١٦، ص ٢٠١-٢٠٣. النويري، نهاية الارب، جـ٢٠، ص ٣١٠-٣١٣. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٦٠-٢٦١.

(٢) في الأخبار الموفقيات، وشرح نهج البلاغة: (الغي الموفد لأهله). وفي تاريخ الطبري ' الفجر الموفد لأهله).

(٣) في تاريخ الطبري: (ما يأتي سفهاؤكم).

(٤) في تاريخ الطبري، وفتوح ابن أعثم، والعقد الفريد: (ولا يتحاشى). وينحاش: ينفر ويترك.

(٥) في العقد الفريد: (السرمدي).

(٦) طرفت عينه الدنيا: طمحت بأبصاره إليها والى زخرفها وزينتها. (ابن منظور، لسان العرب، م ٩، ص ٢١٥).

(٧) في تاريخ الطبري: (تسبقوا به).

(٨) في تاريخ الطبري والعقد الفريد: (من ترككم هذه المواخير المنصوبة).

(٩) الدلج: السير في الليل. (انظر ابن منظور، لسان العرب، م ٢، ص ٢٧٢-٢٧٣).

المختلس(١). أليس كلّ امرىء منكم يـذُبّ عن سفيهـه صُنْع(٢) من لا يخاف عـاقبة(٣) ولا يرجو معادا. مـا أنتم بالحلماء، ولقـد اتبعتم السفهاء، فلم يـزَلْ بكم(٤) ما تـرون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُـرَم الاسلام، ثـم أطـرقوا وراءكم(٥) كنوسـا في مكانس(٦) الرّيـب. حرام(٧) عليّ الطعـام والشراب حتى أسويها بـالأرض هدمـا وإحراقا، اني رأيت آخـر هذا الأمـر لا يصلح الاّ بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف(٨). وأني(٩) أقسم بالله لأخذن الوليّ بالمولى(١٠) والمقيم بالظاعن، والمقبـل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكـم في نفسه بالسقيم(١١)، حتى يلقى الرجل منكم أخـاه فيقول: أنجُ سعد فقـد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. ان كـذبة المنبر(١٢) بلقاء(١٣) مشهـورة، فـاذا تعلقتـم عليّ بكـذبـة فقـد حلّت لكم معصيتي، واذا سمعتمـوهـا مني فاغتمزوها فيّ، وأعلموا أن عندي أمثالها. من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه(١٤). فإياي ودلج الليل، فاني لا أوتى بمدلج الاّ سفكت دمـه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار(١٥) ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم، وإياي(١٦) ودعوة الجاهلية(١٧)، فاني لا آخذ داعيا بها(١٨) الاّ قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرّق قوما غرّقناه، ومن أحرق(١٩) قوما أحرقناه، ومن نقب بيتـا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه(٢٠) فيه حيا. فكفّـوا عني أيديكم وألسنتكم، أكفف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر(٢١) على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم

(١) في تاريخ الطبري: (وتغطون على المختلس). وفي الكامل لابن الأثير: (وتعطفون على المختلس).
(٢) في الأخبار الموفقيات، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الاثير: (صنيع).
(٣) في تاريخ الطبري: (عقابا).
(٤) في تاريخ الطبري، والكامل لابن الاثير: (بهم).
(٥) أطرقوا وراءكم: أي اقتدوا بكم. (أنظر ابن منظور، لسان العرب، م ١٠، ص ٢١٩).
(٦) المكانس: جمع مكنس من الكناس، والمعني "استتروا في موضع الريب". (ابن منظور، لسان العرب، م ٦، ص ١٩٨).
(٧) في الأخبار الموفقيات: (محرّم). وفي أنساب الأشراف، وتاريخ الطبري: (حرّم).
(٨) في تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (وشدة في غير جبرية وعنف).
(٩) في شرح نهج البلاغة: (وأنا).
(١٠) في العقد الفريد: (الولي بالمولى).
(١١) في الأخبار الموفقيات: (والصحيح بالسقيم). وفي أنساب الأشراف: (والصحيح في نفسه بالسقيم النطف).
(١٢) في فتوح ابن أعثم، والعقد الفريد: (الأمير).
(١٣) في الأخبار الموفقيات: (تُلقى). وفي تاريخ الطبري: (تبقى). وفي شرح نهج البلاغة: (تُلفى).
(١٤) في تاريخ الطبري وفتوح ابن أعثم والكامل لابن الأثير: (له).
(١٥) في تاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير: (بقدر).
(١٦) في الأخبار الموفقيات: (فأياكم).
(١٧) في أنساب الاشراف وتاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير: (دعوى الجاهلية).
(١٨) في الأخبار الموفقيات: (لا أظفر بأحد دعاها). وفي أنسـاب الأشراف: (لا أجد أحدا دعا دعـوتها واعتزى عزوتها). وفي تاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير وشرح نهج البلاغة: (لا أجد أحدا دعا بها).
(١٩) في الأخبار الموفقيات، وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير: (ومن حرّق على قوم).
(٢٠) في أنساب الأشراف وتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير: (دفنته).
(٢١) في الأخبار الموفقيات: (يظهر من). وفي أنساب الأشراف: (يُظهر أحد). وفي العقد الفريد: (ولا يظهرن من).

الاّ ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحن فجعلتُ ذلك دبر أذني[١] وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن اساءته . اني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السّلّ[٢] من بُغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا ، حتى يبدي لي[٣] صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره[٤] . فاستأنفوا أموركم ، وأرعوا[٥] على أنفسكم ، فرب مسوء[٦] بقدومنا سنسرّه[٧] ، ومسرور بقدومنا سنسوؤه[٨] .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم سادة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، وأعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لستُ محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقاً عن إبانه ، ولا مجمّرا[٩] لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدّبون ، وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدّ لذلك غيظكم ويطول له[١٠] حزنكم ، ولا تُدركوا به حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم . أسأل الله أن يُعين كُلاًّ على كلّ . واذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله[١١] وأيم الله انّ لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كلّ امرىء منكم أن يكون من صرعاي) .

---

(١) في أنساب الأشراف (جعلتها دبر أذني) . وفي الجليس الصالح : (جعلت ذلك خلف ظهري) . وفي شرح نهج البلاغة : (جعلت ذلك وراء أذني) .

(٢) في شرح نهج البلاغة : (السّلال) .

(٣) في الأخبار الموفقيات وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري والعقد الفريد : (لي) .

(٤) في العقد الفريد : (أنظره) .

(٥) في الأخبار الموفقيات وأنساب الأشراف وتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير : (وأعينوا) . وفي العقد الفريد : (واستعينوا) .

(٦) في تاريخ الطبري والعقد الفريد والكامل لابن الأثير وشرح نهج البلاغة : (مبتئس) .

(٧) في تاريخ الطبري والعقد الفريد : (سيسر) .

(٨) في تاريخ الطبري والعقد الفريد : (سيبتئس) .

(٩) تجمير الجند : حبسهم في الثغور، ومنعهم من العودة الى أهليهم . (أنظر ابن منظور، لسان العرب ، م ٤ ، ص ١٤٦) .

(١٠) في شرح نهج البلاغة : (يطول لذلك) .

(١١) على أذلاله : أي على وجوهه وطرقه . (ابن منظور، لسان العرب ، م ١١ ، ص ٢٥٨-٢٥٩) .

الملحـــق رقـــم (٢)
عمّـال زياد على المقاطعـــات التابعـــة للعـــراق

* البصـــــرة	سمرة بن جندب الفزاري[١] (وكان يخلف زياد عندما يتحول الى الكوفة) .
* الكوفـــة	عمرو بن حريث المخزومي[٢] (وكان يخلف زياد عندما يتحول الى البصرة) .
* كور دجلـــة	
– الأبلـــة	كلاب بن أمية بن الأسكر[٣] .
	أمية بن عبد الله بن خالد[٤] .
– دستميسان	ابن أبي الحر[٥] .
* الأهـــواز	
– سُـــرّق	حارثة بن بدر الغداني[٦] .
– الأهـــواز	عمرو بن معاوية العقيلي[٧] .
– السوس	أمية بن عبد الله بن خالد[٨] .
– جنديسابور	أبو الخير[٩] .

(١) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ٣٤. جـ٧، ص ٤٩-٥٠. البخاري، التاريخ الكبير، م ٤، ص ١٧٦. ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٥. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٨٢.

(٢) ابن سعد، الطبقات، جـ٦، ص ٢٣. البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ٢١٠ (عباس بن هشام الكلبي). الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ٣، ص ٤١٨-٤١٩. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ٥٣١.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٨، ص ١٥٦. البغدادي، خزانة الأدب، جـ٦، ص ٢١ (المدائني).

(٤) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٩ (مسلمة) أيضا ص ٤٥٩.

(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٥ (قالوا).

(٦) الجاحظ، الحيوان، جـ٥، ص ٢٥٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٣٤ (قالوا). الأصفهاني، الأغاني، م ٢٣، ص ٤٦٢ (الحرمازي). ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ٦، ص ١٦٦. وذكر ابن عبد ربه، ان حارثة ولي سُرّق في أيام عبيد الله بن زياد. (أنظر العقد الفريد، جـ٣، ص ٦٠. الشريف المرتضي، أمالي المرتضي، ق ١، ص ٣٨٤).

(٧) ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ١١٧ (ابن الكلبي).

(٨) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ١، ص ١٩٩ (ابن عياش)، أيضا ص ٤٥٩، ٤٦١.

(٩) المبرد، الكامل، م ٣، ص ٢٦١-٢٦٢.

* فـــارس — عبد الله بن خالد بن أسيد[1].
عبد الله بن أبي بكرة[2].
- أردشيرخره — عبد الله بن خالد بن أسيد[3].
عبيد الله بن عثمان بن أبي العاص[4].
- سابـــور — أمير بن أحمـــر[5].

* كرمـــــان — شريك بن الأعـــور[6].
* سجستـــــان — عبد الرحمن بن سمرة[7].
الربيع بن زياد الحارثي[8].
عبيد الله بن أبي بكرة[9].
* ثغـــر الهنـــد — راشد بن عمرو الجديدي[10].
سنان بن سلمة الهذلي[11].
المنذر بن الجارود العبدي[12].

---

(١) الزبيري، نسب قـريش، ص ١٨٨ . ابن الأثير، أسد الغابـة، م ٣، ص ١٤٩ . ابن حجر العسقلاني، الاصابـة، جـ ٢، ص ٢٠٣ .
(٢) البلاذري، أنساب (محمـد حميد الله)، جـ ١، ص ٤٩٤ (أبو هلال) . ابن عبد ربـه، العقد، جـ ٥، ص ٩ (الحسن بن أبي الحسن) . ابن عساكر، تاريخ / خط، م ١٧، ص ٦٣٩ (أبو عثمان النهدي) . ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، م ١٠، ص ٤١٩ (الحسن) .
(٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ٢٨٠ (المدائني)، ٤٥٨ .
(٤) ابن عساكر، تاريخ / خط، م ٥، ص ١٧٤ (المدائني) .
(٥) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٩ (المدائني) .
(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٩ (المدائني) .
(٧) عبد الـرحمن بن سمرة عيّنة معـاوية علي سجستـان، فلم يزل بها حتى قدم زيـاد، فأقره أشهـرا ثم عزله . (أنظـر البلاذري، فتـوح، ص ٥٥٨ (قـالوا) . اليعقـوبي، البلـدان، ص ٤٥، ٥٨ . قـدامة بن جعفـر، الخراج، ص ٣٩٥ . ابن عبـد البر، الاستيعاب، ق ٢، ص ٤٨٨) .
(٨) البلاذري، فتوح، ص ٥٥٨ (قـالوا) . اليعقوبي، البلدان، ص ٤٥ . قدامـة بن جعفر، الخراج، ص ٣٩٥ . ابن عبد البر، الاستيعـاب، ق ٢، ص ٤٨٨ . ابن الأثير، أسـد الغابـة، م ٢، ص ١٦٤ . الـذهبي، العبر في خبر من غبر، جـ ١، ص ٥٣ .
(٩) ابن سعد، الطبقات، جـ٧، ص ١٩٠ (قالوا) . خليفة بـن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٥ . البلاذري، أنساب (محمد حميد الله) جـ ١، ص ٤٩٨ (المدائني) . اليعقوبي، البلدان، ص ٤٥ .
(١٠) البـلاذري، فتـوح، ص ٦٠٩ (ابن الكلبي) . اليعقـوبي، تاريـخ، جـ ٢، ص ٢٣٤ . قـدامـة بن جعفـر، الخراج، ص ٤١٤-٤١٥) .
(١١) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٣ (أبو اليقظان)، ١٩٨ . ابن قتيبة . عيون الأخبار، م ١، ص ٢٢٧ (العتبي) . البلاذري، فتوح، ص ٦٠٩ (علي بن محمد بن عبد الله) . اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٣٤ . قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥ . ابن حزم، جوامع السيرة، ص ٣٤٩ .
(١٢) البلاذري، فتوح، ص ٦١٠ (ابن الكلبي) . قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤١٥ .

*خراســـــان
أمير بن أحمر اليشكري (على مرو)، خليد بن عبدالله الحنفي (على أبرشهر)، قيس بن الهيثم (على مرو الروذ والطالقان وفارياب)، نافع بن خالد الطاحي (على هراة وبادغيس وبوشنج)[١].
الحكم بين عمرو الغفاري[٢].
غالب بن فضالة الليثي[٣].
الربيع بن زياد الحارثي[٤].
عبد الله بن الربيع[٥].
خليد بن عبد الله الحنفي[٦] (للمرة الثانية).

*الجبــــل
- الـــــري: كثير بن شهاب الحارثي[٧].
- همـــــدان: حريث بن جابر[٨].

*أصبهـــــان: جبير بن حية الثقفي[٩].
زياد بن النضر[١٠].
*ميســـــان: حصن بن مالك بن الخشخاش بن خلف[١١].
*أذربيجـــــان: قطن بن عبد الله[١٢].

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٤ (المدائني). قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠٤. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥١. ابن خلدون، العبر م ٣، ص ١٨.
(٢) ابن حبيب البغدادي، المحبر، ص ٢٩٥. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٦ (قالوا). اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢، ص ٢٢٢. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٢٥ (مسلمة). العسكري، الأوائل، ص ٢٦٨ (الحسن). ابن الأثير، أسد الغابة، م ٢، ص ٣٦.
(٣) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٣١. ابن أعثم، الفتوح، م ٢، ص ٣١٩. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٥٧. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣١٩. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ١٣٧.
(٤) خليفة بن خياط، تاريخ، جـ ١، ص ١٩٧. البلاذري، فتوح، ص ٥٧٧ (قالوا). الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن الاثير، أسد الغابة، م ٢، ص ١٦٤.
(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٥٨. الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٩٥.
(٦) الطبري، تاريخ، جـ ٥، ص ٢٩١ (المدائني). ابن عبد البر، الاستيعاب، ق ٤، ص ١٦٠٥. ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤٨٩. النويري، نهاية الأرب، جـ ٢٠، ص ٣٢٩. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ١٩.
(٧) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٥٩ (المدائني)، فتوح، ص ٤٣٢ (عوانه). ابن الأثير، الكامل، م ٣، ص ٤١٤. ابن خلدون، العبر، م ٣، ص ٨.
(٨) ابن أبي الحديد، نهج البلاغة، جـ ٥، ص ٢٤١.
(٩) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٩٣ (المدائني). الأصبهاني، تاريخ أصبهان، ص ٢٥٢. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، م ١، ص ٢٢٥.
(١٠) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٥٩ (المدائني).
(١١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٣٧.
(١٢) البلاذري، أنساب (احسان عباس)، ق ٤، جـ ١، ص ١٥٩ (المدائني).

ABSTRACT

"Ziad bin Abieh", Viceroy of the Iraq. All the referances call him sometimes son of Sumaiya, or son of Obaid or sometimes son of Abu Sufyan, most frequently, however Ibn Abihi : a interpretation which can only be desribed as one of despair but it is the most non committal of all was regarded as historical truth. The young Ziad intelligence and personal. Alertness and the strength of mind attributed to h is kihnsmen.

The Thakaf is Settling in Basra with his very near relatives, the Abu Bakra, Ziad early found himself attached as secretary to the service of the first governors of the Iraq. Ali, beceoming caliph, decided to make use of his talents and employed it on very delicate missions. After the death of Ali he attracted the attentiion of Mu'awiya. The great Omaiyad was anxious to gain an use of this ability. His first advances were rejected and Mu' awiya then resorled to a plan, which showed what his ruler was capable of dynastic interests were at stake. This was the (Istilhak), the official recognition of ziad as a son of Abu Sufyan.

The Khalif, oppointed his brother (Ziad) as governor of Basra. He delivered at Basra Mosque his famous speech (Al-Batra Speech), the incomplete Speech, because the speeker started his speech incompletly. He showed and explained his method of governing and announced the rigorous measures to which he would have recourse if necessary. Events that followed prover that he meant what he said. He was able to spread low and order in the Basra Province which was a big area. The Khalif rewarded him by anmexing (Kufa), he succeeded there as well. Thus the Omaiyad' s regaind their authority over this revolting city.

Ziad , as a governor of Iraq and related Provinces, also area and states in Arabia and Asia, could prove that he was worth the absolute trust : that Mu'awiy gare him. He was considered to be one of the four shrewd that existed in his time, the other three were : Mu'awiya, Amr bin Al Ass, Al Mugeerah bin Shu'abah, whilst in kufa, Ziad had to watch carfuly the meetings of (Ala'weyeen) he had disagreements in this town with Hudjr bin Adi he captured him and sent him to the Khalif were he was sentance to death.

Ziad also transfer people from their homes and relocated them in other areas to reduse tribal and Political tensions. He thus moved 50,000 people of Basra and Kufa to khurasan. Ziad died of plague in Kufa in "53" H.

The University of Jordan
Faculty of Graduate Studies
Dep. of Social Sciences and Humanities

The Role of Ziyad Ibn Abeeh in the Public life of the early Islamic period

BY
Saleh Mohammad Al-Rawadieh

"Submitted in Partial fulfillment of the requirements for the Master of Arts Degree in History at the Faculty of Graduate Studies. 1990"

الطبعة الأولى

كانون الثاني ١٩٩٤

